الخيط الحق

قصة كفاح معلم

تأليف : چيس ستيوارت
ترجمة : فاطمة محجوب
مراجعة وتقديم : أحمد زكى محمد

To Dr. Abdel Muneim Abou Bakr
Dean of the Faculty of Arts
University of Cairo, with
greetings and all good
wishes from a friend
to Egypt -
Jesse Stuart
Oct. 9th 1962

الخيطُ الحقُ

«قصّة كفاح معلّم»

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مـــع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة ـ نيويورك

ابريل سنة ١٩٦٢

الخيط الحق

«قصة كفاح معلم»

تأليف

جيس ستيوارت

ترجمة

فاطمة محجوب

مفتشة اللغة الانجليزية بالتعليم الثانوى

مراجعة وتقديم

أحمد زكى محمد

الوكيل المساعد لوزارة التعليم العالى

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى - القاهرة

هذه الترجمة مرخص بها ، وقد قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق .

This is an authorized translation of THE THREAD THAT RUNS SO TRUE by Jesse Stuart. Copyright 1949 Jesse Stuart. Preface © 1958 Jesse Stuart. Published by Charles Scribner's Sons, New York, New York.

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلف : جيس ستيوارت

من خيرة وأشهر الكتاب والشعراء ورجال التعليم الامريكيين · ولد سنة ١٩٠٧ لأبوين فقيرين بالقرب من جرين آب ، بولاية كنتكى · كان أبوه فلاحـــا بالأجرة ، يعمل بالمناجم والسكك الحديدية · وقد ساعد والده فى الفلاحة ، ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره التحق بمدرسة جرين آب الثانوية· وبعد أن انتهى من دراسته بها التحق بوظيفة فى سيرك ، ثم تركه وعمل بمصنع صلب · ثم التحق بجامعة لينكولن التذكارية ، وتخرج فيها وعمل مدرسا فى مدرسة جرين آب الثانوية ، حيث رقى فى نهاية العام الدراسى وأصبح ناظرا لها · وتدرج فى مناصب التعليم ، وكان بجانب عمله يؤلف الشعر والروايات ونشرت كتبه وقصصه وأشعاره فى بلدان كثيرة ·

وقد نال جوائز عدة ، آخرها كانت جائزة اكاديمية الشعراء الامريكيين (٥٠٠٠ دولار) وقد أعلن فوزه بها أثناء وجوده بالقاهرة حيث كان أستاذا زائرا بالجامعة الأمريكية بالقاهرة لعام ٦٠ ـ ٦١ · وقد كان يدرس فن الكتابة بها ، كمـــا أنشأ مجلة أدبية تضم الانتاج الأدبى لطلبة الجامعة الامريكية بالقاهرة ·

المترجمة : السيدة فاطمة محجوب

تخرجت فى معهد التربية قسم اللغة الانجليزية سنة ١٩٣٩ ، ثم حصلت على دبلوم الدراسات الانجليزية من جامعة كمبردج ، كما درست طرق تدريس اللغة الانجليزية بجامعتى درهام وليفربول · ظلت تعمل مدرسة أولى للغة الانجليزية بالمدارس الثانوية · عينت مفتشة للغة الانجليزية بالتعليم الاعدادى سنة ١٩٥٥ ثم مفتشة للغة الانجليزية بالتعليم الثانوى ·

سافرت فى بعثة الى أمريكا حيث حصلت على امتياز فى تدريس اللغة الانجليزية وعلم النطق من جامعة ميتشجان سنة ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ · تكتب لبرامج الاذاعة المدرسية باللغة الانجليزية، وتترجم تمثيليات للبرنامج الثانى· ترجمت عدة كتب ، من بينها « انجليزى يتحدث عن مصر » و «دائرة معارف الناشئين » و « هواية جمع طوابع البريد » و « عالمنا الذى نعيش فيه » و كيف نعيش اليوم » كما ترجمت كتاب « لم قدر على هذا ؟ » الذى نشرته المؤسسة ·

مصمم الغلاف : محمد سليمان التهامى

بكالوريوس كليـــة الفنون الجميلة « قسم الزخرفة » · يعمل مصمم ديكور ـ صمم عدة أغلفة لكتب المؤسسة ·

محتويات الكتاب

مقدّمة

بقــلم

الاستاذ أحمد زكى محمد

الوكيل المساعد لوزارة التعليم العالى

ترددت أكثر من مرة قبل أن أراجع هذا الكتاب ، لما لمسته فى أوله من التعرض لخصائص قد لا تتفق مع تقاليدنا العربية ، حيث نأمل أن يوزع هذا الكتاب · ولكنى كلما توغلت فيه ، وجدت أنه يعرض حقائق الحياة ، ثم يسرد انعكاسها على العمل المدرسى ·

وأخيرا وجدته يتعرض لمشكلات كثيرة طالما قابلها المدرس المبتدىء فى حياته التعليمية ، واحتار كيف يواجهها وينتصر عليها ، ثم يخلق من تلاميذه رجال المجتمع الملمين بشئونه ، العارفين بخصائصه ، أولئك الذين يحترمون القرية ويرفعون من شأنها ، دون أن يتبرموا بها أو يسأموا المعيشة فيها · فالأطفال عندنا تستهويهم المدن ، وتتكدس الملايين فى المدن ، ويهجر القرى أهلوها ، فتظل راكدة فى شأنها الوضيع ، متخلفة فى جميع ميادين الاصلاح ، مما نعانى منه الكثير فى بلادنا ، ونحاول بشتى الطرق أن نقضى عليه ، ونبنى خطتنا فى التنمية على الصناعة والزراعة ومرافق التعليم والشئون القروية ··· الخ ·

وقد سرد المؤلف حياته فى قصة طريفة كلها مرتبطة بالتعليم ، حيث تولى كثيرا من المناصب الدراسية كمدرس بمدرسة ريفية ، وناظر لمدارس ثانوية ، ومدير لمدارس المقاطعة · وهو وان يكن أمريكيا فى عرضه ، الا أن كثيرا من المشكلات لها أشباه ونظائر فى قطاعنا التعليمى ، تنتظر الحل والتوجيه · والمدقق الباحث بين طيات القصة يلمس كيف يدعو المؤلف الى تطبيق مواد الدراسة تطبيقا عمليا فى المجتمع المحلى ، وكيف يجعل مشاكل المجتمع عماد الدراسة فى كل فروعها ، ولا يألو جهدا فى أن يجعل الأحداث التى تجرى فى المجتمع أساس ما يتعلمه الطفل فى المدرسة · وعندما يجد الآباء والأمهات أن أطفالهم يشتركون فى حل مشاكل المجتمع ، يدركون أن

المدرسة تسهم اسهاما فعالا فى أمور قريتهم ، تيسر عسيرها ، وتحل عقدها ٠

ويتبع المؤلف فى طريقة أدائه لعمله الشدة مع الخارجين على النظام ٠ ولا شك أن بعض العنف كفيل باصلاح المعوج ، وتربية الثائرين المتمردين ٠ ولا ريب أن هذا نظام متبع فى المدارس البريطانية ، التى تعتبر قدوة فى ميادين التربية والتعليم ٠

والمؤلف يعتبر اشتراك المدرس فى نشاط تلاميذه خطوة أساسية فى نجاحه فى عمله ، فالتلاميذ يتعلمون بالتقليد والمحاكاة ، وهم اذ يتبارون مع تلاميذهم ، يشعرونهم بحب المنافسة الشريفة ، والتقدم السريع ، فيحل الاتقان محل التواكل ، ويخرج منهم أفذاذ بارزون فى جميع شئون المجتمع ، الذى هو عماد الحياة ٠

ولا يستثنى مبنى المدرسة وتجميله من اشراك التلاميذ فى رعايته ، فهو السبيل الى معرفة حق الجماعة ، والشعور بأن هناك أملاكا شركة بين الجميع ، وأن على الجميع أن يحافظوا على هذه الممتلكات العامة ، ويحرصوا على بهائها وجمالها ، ويدفعوا عنها الأذى ٠

ومما يعجبنى ايمان المؤلف بمهنته ، وحبه العميق للتدريس ، وزهوه بها بين المهن المختلفة ، واحترامه لأهدافها ، مهما تجشم فى سبيل ذلك من مشقة ، ولاقى من عنت ٠

ولذلك يهتم المؤلف بتلاميذه اهتماما حقيقيا ، ويتعرف مشكلاتهم ، ويعرف أهليهم ، ويدفعهم بكل الوسائل الى النجاح ٠ هذا هو المربى العظيم ، الذى يدفعه الفشل الى النجاح ، والمشكل الى الفلاح ٠

ولقد أصاب هدفا تربويا سليما اذ جعل اللعب وسيلة للتعليم وأساسا للتربية ٠ ففى الملعب ينساق التلاميذ على سجيتهم ويظهر بينهم الغث والسمين ، وتبرز المواهب ، فيمكن تنميتها ورعايتها ، وتتحقق الفائدة من الفروق الفردية بين التلاميذ ٠

ولم يقتصر المؤلف على مدرسته ، بل خلق اتصالا بين المدارس المختلفة فى أنحاء البلاد ، حتى يتم تبادل المعلومات والخبرات ، ولا يحس المدرس أو الناظر أنه ليس فى الامكان أبدع مما كان ، بل يتعلم من زميله ، يهتدى

بهديه ، وينسج على منواله ، فينتفع التلاميذ بما يفيد به غيرهم ، ويكون قاب قوسين أو أدنى من توحيد التعليم فى البلاد ٠

وقد تخلق تلك مشاكل لا نهاية لها ، ولكن المعلم الكفء يقف لهـا بالمرصاد ، فينمى معلوماته مثل تلاميذه سواء بسواء ، فلا يقف جامدا فى علمه ، راكدا فى مادته ، بل يضيف اليها ما يصقله ويعلى من شأنه ٠ وهو اذ يتعرض لمشكلة المعلم الواحد الذى عليه أن يدرس لتلاميذ ينتمون الى مراحل مختلفة من التعليم ، ويجتمعون كلهم فى حجرة واحدة ، يحل لنا مشكلة يواجهها المدرسون فى مدارس القرى من الجمهورية ، ويحل مصاعبها ، ويقضى على متاعبها أحيانا ، وان كان يبرز صعوباتها فى كثير من الأحيان ٠

وطريقته فى ذلك أن حجرة الدراسة هى الطريق الى حل جميع مشكلات البشر ، وهى السبيل الى اصلاح الفساد المستشرى ٠

ولم يفته أن مجلس الآباء والأمهات هو المجتمع الذى يبسط فيـه المشكلات ، فيتناول الأهلون حلها بما لا يخرج عن طوقهم ، ويتناسب مع بيئتهم ، وبذلك يتم تعاون المجتمع المحلى مع المدرسة ٠

وقد تعرض الى الفصول العلاجية ، وبين طريقة التدريس المجدية لاصلاح هذا التأخر الدراسى ، وان خرج فى ذلك على نظام المدرسة ، وتعرض للهجوم٠

وبالجملة فقد أشار المؤلف المدرس فى كتابه الى كثير منمتاعب التدريس، ولكنه مع كل هذا مؤمن بمهنته ، شديد الثقة فى مكانتها ، وان كان راتبها هزيلا ، فهى فى نظره أسمى وأشرف مهنة فى الوجود ٠

وكنت مرة أخرى سعيد الحظ اذ أقوم بمراجعة هذا الكتاب للمترجمة الفذة السيدة فاطمة محجوب ، التى أدته فى أبدع عبارة ، وصاغت كلماته فى قالب مرغوب محبب الى النفس ٠

فالى المدرسين جميعا أهدى هذا الكتاب ، والى الشاكين من مهنة التدريس أقدم المتاعب التى مارسها المؤلف فتعرض لحلها ، أو أشار الى طريقة التغلب عليهـا ٠

فبالعلم تحيا البلاد ، وبالمدرسين تبنى الأمم ٠

تصدير

فى هذا العصر ، الذى يقوم فيه الانسان باستكشاف الفضاء ، وتقسيم النواة ، لا يمكن للعقل أن يصدق ، أن الغالبية العظمى من الجنس البشرى ، لا تزال فى جوهرها غير متعلمة ٠ وما من شك فى أننا ، من الناحيـــة التعليمية ، قد سرنا شوطا بعيدا منذ بدء الخليقة ، بيد أنه لا يزال أمامنا فضاء شاسع يتعين علينا أن نجتازه ٠ وفى كل قارة ، وفى كل أمة ، وفى كل مجتمع ، كان الصراع من أجل نشر التعليم صراعا تاريخيا خالدا ، وفى كثير من البلاد ، لا يزال هذا الصراع قائما ، من أجل الفوز فى معركة التعليم ٠ وكتاب « الخيط الحق » هو قصة الصراع من أجل التعليم ، فى أمريكا ٠

ولقد أصبح كتاب « الخيط الحق » مرجعا مأثورا فى التربية والتعليم فى أمريكا ، وهو أكبر كثيرا من أن يكون قصة رجل ، أو قصة مدرس أو قصة مدرسة ٠ انه ــ يقينا ــ قصة المدارس جميعا ، والمدرسين جميعا ، فى كل زمان ، وفى كل مكان ٠

وقد عرفت جيس ستيوارت فى عالم الأدب منذ عشرين عاما خلت ، حين ظهرت قصته الطويلة « دق الطبول للجندى تاسى » ، واجتاحت هذه القصة أمريكا اجتياح العاصفة ، وأصبحت فى ذلك الحين أحد المعجبين بجيس ستيوارت ، وبقيت كذلك حتى يومنا هذا ٠ ومنذ بضع سنين خلت ، انتقلت الى مكان قريب من بيته فى كنتكى ، بيد أننى لم أجد سببا وجيها يبرر تطفلى على وقته وجهده ، بالذهاب الى بيته ولقائه ٠ وبدلا من ذلك ، ظللت ــ على مر السنين ــ أقرأ كتبه ، وان ما كتب لكثير ٠ ومن أعاجيب القدر ، والحياة حافلة بهذه الأعاجيب ، أننى التقيت ، أول ما التقيت ، بجيس ستيوارت ، حين جاء الى الجامعة الأمريكية بالقاهرة فى عام ١٩٦٠ ، ليقوم بتدريس فن الكتابة الابداعية ، والتربية ٠

وعرفت جيس ستيوارت معرفة وثيقة ، فى خلال هذا العام الذى خلا ، وأدركت أنه مع كل ما يمتاز به من براعة فى كتابة ترجمة حياته ، لم يصف نفسه أبدا الوصف الذى يوفيه حقه ٠ انه بغير شك ، رجل عظيم ، ومدرس مبدع ، وهو يمتاز بطبيعة سمحة نبيلة حقا ، ويهتم اهتماما خالصا بكل تلميذ من تلاميذه ، مهما كانت مشاكله ، ومهما كانت بيئته ، ومهما كانت

تصدير

احتياجاته . ولم ألتق فى حياتى برجل يعطى من نفسه بكل هذا السخاء ، كما يعطى جيس ستيوارت من نفسه ، ولا غرو أن يحبه تلاميذه . لقد ألهم الكثيرين منهم أعمالا لم يكونوا يحلمون بها . انه يتابع كل موهبة يجدها فى تلاميذه ، وكل حلم ، وكل شرارة من عبقرية ، ويدفعها ، ويتملقها ، ويلهمها ، ويشجعها ، ويستحثها ، وهم ينتجون معه أكثر مما ينتجون مع سائر المدرسين ، ولسوف يذكرونه أمدا طويلا .

ان « الخيط الحق » قصة عظيمة عن التعليم فى أمريكا ، وانها لقصة رجل عظيم . ان جيس ستيوارت ، حيثما كان ، هو ذلك الخيط ــ خيط التعليم الملهم ــ الذى سيظل دائما ، الخيط الحق .

ان هذا العمل المأثور الضخم ، يظهر الآن فى ترجمته العربية ، عن طريق مؤسسة فرانكلين ، وانى لأعلم أن كل قارىء سوف يجد فى الرسالة التى يدعو اليها رسالته ، ولسوف يجدها رسالة عميقة سامية .

١٩ من مايو ١٩٦١

كارل لايتو

رئيس قسم العلوم السياسية .

الجامعة الأمريكية بالقاهرة

تمهيد

منذ أحد عشر عاما ، حين شرعت فى كتابة « الخيط الحق » ، قلت ان مهنة التدريس هى أعظم مهنة فى الوجود . وكثيرون من الناس لم يوافقونى على قولى حينذاك . بيد أنه حين مرت السنون ، أخذ الكثيرون يغيرون رأيهم ، حتى أصبحوا يؤيدون قولى ذاك ، كل التأييد .

وفى أول عهدى بالتدريس ، لم تكن حجرة الدراسة مكانا يبعث على كثير من التشويق ، وكان الكثيرون ينظرون الى هذه المهنة العظيمة على أنها شىء ذو أهمية ثانوية . أما اليوم ، فان اهتمام الدولة بأسرها قد وجه الى المدارس ، والى الدور الخطير الذى تلعبه فى بقائنا كشعب .

وما من أحد يستطيع أن يقول لى ، ان التعليم اذا وجه الوجهة الصحيحة، دون دعاية ، غير قادر على أن يغير الفرد والمجتمع والدولة والعالم الى حالة أفضل . بل انه لقادر على ذلك . ولابد من وجود الصحة ، والعلوم ، والفنون ، والصناعات ، ولابد من المحافظة على كل تراث ثمين من شأنه معاونة البشرية فى جميع بقاع الأرض . ولابد ، فوق هذا كله ، من التربية الخلقية .

وحين عملت مدرسا فى مدرسة ذات حجرة واحدة ، كنت أدرس فيها لجميع صفوف المرحلة الأولى الثمانية ، ثم مدرسا بالمدارس الثانوية ، ثم ناظرا بالمدارس الثانوية الريفية ، والمدارس الثانوية العامة ، ثم مديرا لمدارس المدن والمقاطعات ، عرفت بالتجربة ، أن التدريس أعظم مهنة فى الوجود ، وأننا نستطيع أن نجعل من حجرة الدراسة بقعة من بقاع الأرض الزاخرة الحافلة بالتشويق ، يمكن فيها للشباب ، ولمن هم فى أوسط العمر ، ولمن تقدمت بهم السنون ، أن يصلحوا من أنفسهم ، من أجل حياة أكثر نفعا، وأعظم قيمة .

وتركت التدريس ، تلك المهنة التى أحبها ، لأنى كنت أرى أن ما أحصل عليه منها لا يكفينى لكى أعيش . واشتغلت بتربية الأغنام ، ثم بالقاء المحاضرات ، ثم بكتابة القصص ، فتجمع المال لدى ، بيد أن قلبى ظل دائما فى حجرة الدراسة .

والكتب العشرة التى ألفتها قبل كتاب « الخيط الحق » قـــد نفدت طبعاتها ، بيد أن هذا الكتاب ظل باقيا ، لأنه قد خلق من تلك الأشياء الخالدة فى مصير الجنس البشرى ، وكل عام يزداد ما يباع منه ، وقد حدثنى عنه الآباء والأمهات من مختلف الطبقات ، كما حدثنى عنه الشباب ، وزملائى من المدرسين ، وفى خلال العام الدراسى كنت أتلقى من طلبة المدارس الثانوية وطلبة الكليات عشر رسائل فى المتوسط كل يوم ٠

واننى لشاكر لهذه الاستجابة الرائعة ، وان هذه الرسائل لتؤكد ايمانى بأن الغالبية الساحقة من الناس هم فى جوهرهم سواء ، وأن أكثر ما نحتاج اليه هو أن نصلح من أنفسنا عن طريق التعلم ، وعن طريق الكتب ، وعن طريق صلاتنا بالآخرين ، وأننا نجاهد ونكد فى شبابنا ، وخلال عمرنا كله ، من أجل ترقية أنفسنا بصورة متصلة لا تنقطع ٠

وثمة شىء آخر تعلمته عن طريق صلاتى بالشباب وبالكبار ، وهو أنى حين أكون متحمسا فى تدريسى ، يكونون هم متحمسين ، وحين أبدو ضيق النفس فاتر الهمة ، يبدون هم أيضا كذلك ٠ ان مشاعرهم تصعد مع مشاعرى، وتهبط معها حين تهبط ٠ ومن أجل هذا ، كنت أحاول أن أكون متحمسا عند تدريسى أية مادة كانت ، ما استطعت الى ذلك سبيلا ٠

وتعلمت أيضا أن أكون أمينا صادقا معهم ، وألا أحاول أبدا أن أبدو أقرب الى الكمال مما أنا فى الواقع ٠ واذا حدث أن أخطأت فصححنى أحد تلاميذى ، شكرته ، وأنا أعلم أنه سيكون من الآن فصاعدا متيقظا أبدا لكى يضبطنى أقع فى خطأ آخر ، فهو يعرف أنى لست منزها عن الخطأ ، وأننا نعمل معا بمثابة فريق ، فى معيشتنا وفى تعلمنا ٠ وأنا أحترمه ، وأحترم حقوقه كطالب ، وهو يحترمنى ، ويحترم حقوقى كمدرس ، ولا أتعجل ادانته حين يفشل ، وأمتدح ما يجيد أداءه اذا هو حاول الاجادة ، وحين يحاولها ٠

وانى لعلى يقين ، كيقينى من أنى أحيا وأتنفس ، من الدليل الايجابى على ما يمكن أن يفعله التعليم للانسان ٠ وأنا نفسى هو ذاك الدليل ٠ فما الذى كان يحدث لى لو لم أتلق ما تلقيت من تعليم ؟ لو أننى لم أتلق تعليما ما كان لى أن أكتب هذا الكتاب ٠ لقد كان فى استطاعة أبى وأمى ، بعقلهما الراجح الذى لم يتثقف ، وخلقهما النقى الطاهر ، أن يؤتيا أعمالا أجل شأنا ، لو أنهما تلقيا فقط تعليما حتى نهاية الصف الثامن ٠ ترى ماذا كان يمكن أن

يفعلا لو أن كلا منهما تلقى التعليم الثانوى ؟ أجل ، بله التعليم العالى ؟ بيد أنهما كانا يقدران قيمة التعليم ، لأنهما لم يتلقيا تعليما ، ولذلك كانا من حسن الادراك بحيث أصرا على ارسال أطفالهما الى المدرسة ٠

أجل ٠ ان نضال الشاب لكى يرقى الى مكانة مرموقة ، لهو أسمى غاية يمكن أن يسعى اليها فى الحياة ٠ لقد كان والداى ومدرسى ملهمين لى ، وقد غيروا جميعا مجرى حياتى ، فشعرت أنه يمكننى أن أرد صنيعهم ، بأن أكون ملهما لسائر الشباب ٠ وان هذا ، بالنسبة الى ، لأعظم من كل مال الدنيا ٠

وانى لفخور بأنى كنت مدرسا ، وأنى اليوم كذلك ٠ والتدريس هو شيء أرفع وأبعد مدى من اعطاء دروس وحقائق من بطون الكتب ٠ انه هذا، وأكثر منه أيضا ٠ انه معاونة الفتى على أن يشق لنفسه طريقا ، يخترق به ، فى نهاية الأمر ، ميادين يواجه فيها الخيبة والشعور بالفشل ، كما يواجه شراك الهلاك التى ينصبها العصر الحديث ، الى أن يجد نفسه ٠

وانه للصدق كل الصدق ، أننا لا نعيش اليوم بالخبز وحده ، ففى كل فتى جاءنى بالمدرسة ، كنت أرى شيئا طيبا فى جوهره ، ذلك هو قوة كامنة تحتاج الى اظهارها وتنميتها ٠ وانه لواجب المدرس أن ينمى هذه القوة الكامنة الطيبة ، فى كل فرد من تلاميذه الصغار ٠ وان المدرسين ليفعلون ذلك ، فلا يخالجنك شك فى هذا ، غير أنه من سوء الحظ أن ليست هناك طريقة نقيس بها كل ذلك الخير الذى عمل مدرسونا على تنميته فى الشباب ٠

لقد تحدث ذات مرة ناظر شاب من نظار المدارس الثانوية ، الى جمع من المدرسين والمديرين ، فكانت أول كلمات قالها هى : « ما كان لى أن أقف أمامكم هنا ، لولا فضل رجل يجلس بين ظهرانيكم ، ولست أدرى ماذا كان — لولاه — أن يصبح مصيرى » ٠

وكان من العسير على أن أكبح جماح الشعور الذى اجتاحنى ٠ وطافت بذهنى صورة بيته المحطم ، وما من أحد يمد له يد المعونة ، وتذكرت كيف صحبته الى الكلية ، وأعطيته خمسة دولارات ، هى كـــل ما كان يمكننى الاستغناء عنه ، وتركته فى قاعة الطعام ٠ لقد كان واحدا من كثيرين ٠ فأى جزاء مادى يمكن أن يعادل مثل هذا الاطراء ؟

وانى لأومن ايمانا راسخا ، بأن المدرس يظل حيا خالدا عن طريق تلاميذه ، وأنا سأحيا وأخلد اذا كان تدريسى ملهما ، صالحا ، يمثل القيم الفاضلة ، والتهذيب الخلقى ، تمثيلا يقوم على أساس ثابت وطيد · ألا خبرونى: كيف يمكن أن يموت التدريس الصالح ؟ ان التدريس الصالح باق لا يزول ، والمدرس قد كتب له الخلود ·

جيس ستيوارت

سبتمبر ١٩٥٨

« اننا اذا نقشنا على الرخام فان النقش سوف يزول ، واذا نقشنا على النحاس ، فان الزمن سوف يمحو النقش ويطمسه ، واذا شيدنا المعابد ، فانها سوف تتداعى ، وتنهار ، وتصبح هباء منثورا • بيد أننا حين نثقف العقول الخالدة الباقية ، وحين نبث فيها المبادىء ، وخشية الله حق خشيته ، وحب اخواننا من بنى الانسان ، فانما ننقش على هذه الألواح شيئا سوف يضىء الأبدية بأسرها » •

دانيال وبستر

الجزء الأول

عين الإبرة التى تعطى وتمنح

حين اتخذت طريقى الى المدرسة صباح يوم الاثنين ، كان معى « دون كونوييى » ، وهو تلميذ يبلغ من العمر عشرين عاما ، ولم يكن فى حسبانه على الاطلاق ان يدخل المدرسة مرة أخرى · وكنت أنا المدرس الجديد هنا ، فى لونسم فالى ، ولم أكن أعلم شيئا عن مدى فهمه وادراكه ، اذ أنه كان قد ترك المدرسة حين كان فى الصف الرابع · بيد أنى كنت أعلم يقينا أن له قبضتين قويتين ، وأنه سوف يقف الى جانبى · وكنت طوال يوم الأحد ، وأنا أقـــوم بالعمل فى المدرسة ، أحاول الاهتـــداء الى خطة تمكننى من البقاء فى مدرسة لونسم فالى · فقد كنت موقنا بأننى يجب أن أبقى ، وكنت موقنا من أنه اذا كان هناك شخص يتعين عليه ترك المدرسة ، فذلك الشخص انما هو « جاى هوكنز » · اننى قد أحتاج فيما أنوى عمله الى استخدام عقلى قليلا ، ولكن من أجل هذا كان لى عقل ·

وكنت قد بذلت كثيرا من طرق الاقناع والاغراء لحمل « دون كونوييى » على الرجوع الى المدرسة ، فقد كان يعتزم الزواج بعد أن يتم بيع محصول التبغ. بيد أنى شرحت له قيمة التعليم بالنسبة اليه ، بالدولار والسنت ، فقلت له : انى سأعلمه كيف يقيس الحقل ، وكيف يحسب عدد الأفدنة ، وكيف يحسب عدد البوشلات (*) التى تحتويها عربة نقل الحبوب أو الشونة ، وكيف يعرف عدد الياردات المكعبة من الأتربة التى يتعين على الشخص ازالتها لكى يحفر مكانا يختزن فيه المؤن أو يحفر بئرا · وأبدى «دون كونوييى» اهتماما بهذا النوع من المعرفة · وقلت له انه لا يصح لرجل أن يتزوج ويقيم فى مزرعة الا اذا كان ملما بهذه الأمور البسيطة ، والا فانه يكون عرضة للنصب والاحتيال ما بقى له من عمر · لقد كان يهمنى أن يلم بهذه المعلومات ما فى ذلك شك ، بيد أنه كان هناك أمر آخر يثير اهتمامى ·

وذهبت الى المدرسة بصحبة «دون» وأخويه الصغيرين ، وأخته «فيدا» ، وهنأت « جون كونوييى » لأنه بعث بأولاده جميعا ـ ما عدا واحدا ـ الى المدرسة ، وقلت له انه يجب أن يكون القدوة لغيره من المزارعين ممن يعيشون

(*) البوشل كيل للحبوب سعته ٢٥ أقة (قاموس مظهر)

على ضفاف الغدير ، ولو لم تتطوع « فلوصى » ابنته ، التى تكبر فيدا سنا ، بمساعدته ، لأصبح أمرا شاقا عليه أن يقوم بتنقية فدادين التبغ العشرة من الديدان ، واقتلاع جذيرات النبات منها ، ثم العناية أيضا بمحصولاته الأخرى، كما أن زوجته « بيرتا » أكدت له أنها سوف توزع وقتها بين العمل فى المنزل ، والعمل فى الحقل ٠

وكانت « فلوصى » ، التى تبلغ من العمر ثمانية عشر عاما ، قد تركت المدرسة منذ ستة أعوام خلت ، ولو أننى ألححت عليها فى العودة الى المدرسة ، لفعلت ذلك عن طيب خاطر ، بيد أننى كنت أعلم أنه لا بد من وجود أحد فى المنزل لكى يساعد جون وبرتا ٠ لقد ألححت على « دون » ، بل كدت أتوسل اليه أن يعود الى المدرسة ، حين كنا نحن الاثنين نجلس فى الشرفة فى ساعة متأخرة من مساء يوم الأحد ، ومر بنا « أوفا سلييرز » و « جاى هوكنز » ، وكانا يمتطيان صهوة جواديهما ٠ واتجها ببصرهما نحو الشرفة ، لكى يلقيا النظرة الأولى على المدرس الجديد ٠ ولم يفوها بكلمة ، بل اتجها بجواديهما فى صمت صوب الطريق ٠

ونظر « دون كونوييى » الى « جاى هوكنز » و « أوفا سلييرز » ، ثم نظر الى ٠ ولم يسألنى كم عمرى ، ولم أقل له انى سوف أبلغ السابعة عشرة، بعد ثمانية عشر يوما ٠ ولم يكن لأحد أن يقوم بالتدريس فى المدارس قبل أن يبلغ الثامنة عشرة ٠ وكان دون كونوييى يعلم المصير الذى لاقته أختى حين عينت مدرسة بمدرسة لونسم فالى ٠ كان يعلم أن « جاى هوكنز » قد أحاط عينيها بالسواد بقبضتيه ، وأنه ضربها على مرأى من تلاميذ مدرسة لونسم فالى ٠ لقد كانت فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها حين جاءت الى لونسم فالى ، شقراء الشعر ، ذات عينين زرقاوين جميلتين ٠ ورجعت الى البيت محطمة الأعصاب ، قبل أن ينتهى اليوم المدرسى بوقت طويل ٠ وبعد أن رأيت ما أصاب أختى من الضرب ، طلبت أن أذهب الى لونسم فالى ٠ ولكن والدى رفضا ، فقد كانا يريان أننى اذا ذهبت جريا وراء المتاعب ، فسوف أنال منها أكثر من نصيبى ٠

ولكن حدث وأنا طالب بمدرسة لانزبيرج الثانوية ، أن دخلت احدى الحجرات خطأ ، فقد نسيت أن مدرسى المدارس الريفية من مقاطعة جرينوود كانوا يؤدون « امتحان المدرسين » فى هذه الحجرة ، وهى حجرتنا التى ندرس فيها مادة الأدب الانجليزى ٠ ولم يكن هارلى ستاجرز مدير مدارس المقاطعة

يعرف كل مدرسيه ، ولذلك حسبنى واحدا من مدرسى المدارس الريفية ، وحينذاك خطرت لى فكرة • اذا أنا نجحت فى هذا الامتحان ، فانى أعرف المدرسة التى أريدها • ودخلت الامتحان ، وحصلت على شهادة ، ثم طلبت من « جون هامبتون » ، وهو مدرس بالمدارس الريفية ، وصديق لى ، أن يتصل بجون كونواى لكى يحتفظ بالمدرسة لى • ولم يكن ستاجرز مدير مدارس المقاطعة يريدنى أن أذهب الى لونسم فالى ، ولكنه لم يكن ليستطيع أن يفعل شيئا بعد أن زكانى جون كونوييى ، وهو الأمين على مدارس اقليم لونسم فالى • وهكذا جئت الى مدرسة لونسم فالى •

وحين وصلت أنا و « دون » الى مبنى المدرسة ، كان ينتظر خارجها خمسة وثلاثون تلميذا على أقل تقدير • وكان « جاى هوكنز » و « أوفا سليبرز » يقفان معا بالقرب من مخزن الفحم ، يحملان كتب الصف الأول ، وهى مهلهلة ممزقة • وكانا يبدوان وسط سائر التلاميذ كالشىء النشاز • لقد كانا أضخم منى ومن « دون » جسما ، كما كانا أيضا أكبر سنا • وتطلعا الى وأنا أقول لهما « صباح الخير » ، وأشاح كثير من التلاميذ بوجوههم خجلا ، ولم يقولوا شيئا • لقد كانوا ينتظرون حتى يفتح باب المدرسة ، لكى يهرعوا الى الداخل فينتقوا مقاعدهم ، وكان كل واحد منهم يمسك فى يده سلة أو دلوا به طعام غذائه ، وكان معظمهم يحمل كتبا حفافها ممزقة ، ولا أغلفة لها •

وكنت أحسب أنى وصلت الى المدرسة مبكرا كل التبكير ، فلم تكن الساعة قد بلغت الثامنة ، ولم تكن الدراسة تبدأ قبل الثامنة والنصف ، ولم تكن شمس يولية قد جففت بعد قطرات الندى من بعض أجزاء الوادى • لقد كان الندى يتساقط من حقول التبغ والقصب والقمح ، فى سحب بيضاء لا شكل لها • بيد أن أهل لونسم فالى كانوا يأوون الى الفراش مبكرين ، ويستيقظون مبكرين • وكان كل تلاميذ لونسم فالى من أبناء المزارعين •

وكانت الفتيات يضفرن شعورهن فى جدائل مسترخية على ظهورهن ، قد زينت بشرائط من كل لون • وكن يلبسن أردية نظيفة من قماش مطبوع ، وكن حافيات الأقدام • ولم يكن هناك تلميذ واحد فى مدرستى ، كبيرا كان أم صغيرا ، صبيا كان أم صبية ، يلبس حذاء فى قدميه • ولم أشهد فى حياتى كل هذا العدد من الحفاة ، من الصغار ومتوسطى الأعمار والكبار ، كما

شهدته فى لونسم فالى • فبالنسبة اليهم ، كان لبس أحذية فى أقدامهم ، كلبس قفازات فى أيديهم فى فصل الصيف ، أمرا لا يفعلونه •

وقلت أقطع السكون الذى خيم على التلاميذ : « حسن ، سأفتح الباب » • وحين فتحت الباب اندفعوا يتضاحكون ويتصايحون ، ويتسابقون نحو مبنى المدرسة • لقد ذهب الآن عنهم الخجل • وأخذوا يتدافعون فى جنون لكى يدخلوا ويتخذوا مقاعد لهم • ودار نقاش بينهم عن أيهم يجلس الى جانب هذا أو ذاك ، وكانت كل فتاة قد اختارت رفيقتها التى تجلس بجوارها • وحدث جدل وخصام بين القليلين ، كما أن بعضا منهم أوذى فى مشاعره ، ففى كثير من الحالات كان اثنان من التلاميذ يتنازعان الجلوس الى جانب تلميذ بعينه • بيد أن « جاى » و « أوفا » لم يجدا فى الأمر عناء ، فقد دخلا الى الفصل كارهين ، وجلسا فى مقعد فى الجانب الذى يجلس فيه الصبيان ، وهو أكثر المقاعد بعدا عن قمطرى •

وبعد أن اتجهت صوب قمطرى قلت : « ان لدى نبأ أريد أن أذيعه عليكم قبل بدء الدراسة • لن يكون هناك بعد الآن جانب مخصص للصبيان ، وآخر للبنات • اجلسوا حيث شئتم » •

فنظر بعضهم الى بعض يتعجبون • ولم يجرؤ صبى واحد أن ينتقل الى صف البنات ، ولم تجرؤ فتاة واحدة أن تنتقل الى صف البنين ، ففى لونسم فالى كان من العسير أن تحطم تقليدا مدرسيا عمره أكثر من قرن من الزمان • ولكننى لم أجد ما يمنع تحقيق ذلك فى لونسم فالى ، بعد أن تعلمت فى مدارس ثانوية لم تعرف فى فصولها شيئا اسمه صف البنات وصف البنين • ولم يكن يدور بخلدى أن ما قلته هنا سوف يحدث ضجة فى لونسم فالى ، وأنه سيكون مثار حديث القوم جميعا ، وأن الكثيرين سوف ينددون بى ، ويطلقون على مدرستى اسم « مدرسة الغرام » • أيجلس الصبيان والبنات معا ؟ ! من سمع فى حياته أحدا يقول قولا كهذا ؟ !

ولم تكن الجداول توضع للمدرسين فى مكتب مدير مدارس المقاطعة ، ولم يسمع أحد بمثل هذا النظام ، فكان على كل مدرس أن يضع جدول الحصص بنفسه ، وهذا هو ما فعلته قبل أن أذهب الى لونسم فالى بوقت طويل ، لقد كنت أعرف ما يراد منى تدريسه ، وتسلمت العمل ، فوضعت الجدول ، وقسمت وقتى وفقا للساعات الست المخصصة للعمل ، تقسيما راعيت فيه الدقة قدر المستطاع • وكان على أن أدرس أربعا وخمسين حصة فى

هذه الساعات الست ، اذ كانت المراحل التى ينتمى اليها تلاميذى تبدأ من مرحلة المبتدئين حتى مرحلة الصف الثامن ٠

وحين جذبت حبل الجرس ، انسابت نغماته الحنون عبر حقول التبغ والقمح والقصب ، والوادى الأخضر النضير ٠ ومع رنين هذا الجرس ، بدأت الدراسة فى مدرستى ٠ وكنت أعرف أن عدد التلاميذ الموجودين بالمدرسة لا يبلغ نصف العدد المذكور فى الاحصاء المدرسى ٠ فقد جاء فى الاحصاء أن عدد التلاميذ البالغين سن القبول بالمدارس مائة وأربعة ، دفعت الدولة لكل منهم مصروفات تعليمه ٠ وكان مالدى من التلاميذ خمسة وثلاثين ٠ وخيل الى أن هذه النغمات الحنون التى تنبعث من الجرس ، فتنساب من خلال الضباب الصاعد ، وتسرى عبر الحقول النامية الدافئة ، حيث يحتال الآباء ، بشتى الطرق ، للحصول على ما يقيم أودهم ، خيل الى أن هذه النغمات قد تعيد الى الأذهان ذكريات دافئة لأيام الدراسة السعيدة ، اذ أننى تذكرت الأنغام التى كانت تنبعث من جرس مدرسة « بلم جروف » ، وتذكرت حنينى الى العودة الى المدرسة ، بعد أن تركتها وأنا فى التاسعة من عمرى ، لأعمل بأجر قدره خمسة وعشرون سنتا فى اليوم ، لكى أساعد أسرتى على العيش ٠ ولو كان الأمر بيدى لعدت الى المدرسة حين سمعت رنين جرس « بلم جروف » ٠ ومن ثم قرعت الجرس ، مؤذنا تلاميذ لونسم فالى بالعودة الى المدرسة ، والعودة الى الكتب ، والى اللعب ٠ وذلك لأن الذهاب الى المدرسة لم يكن أبدا عملا بالنسبة الى ، وانما كان رياضة وترويحا عن النفس ، ورجوت أن يكون كذلك بالنسبة لتلاميذى فى مدرسة لونسم فالى ٠

وفى اليوم الأول ، كان كل ما فعلته أن قيدت أسماء تلاميذى حسب مراحل تعليمهم ، ثم استدعيتهم الى مقعد التسميع فى صدر الحجرة ، حيث أعطيتهم واجبات من الكتب المدرسية القليلة التى كانت بأيديهم ٠ وفى ذلك الحين ، لم تكن الكتب المدرسية تصرف عن طريق الدولة ، فكان على كل تلميذ أن يشترى هذه الكتب لنفسه ٠ أما التلاميذ الذين يعجز آباؤهم عن شراء الكتب فكان يشتريها لهم المجلس التعليمى لمقاطعة جرينوود ، من مبلغ ضئيل قد خصص لهذا الغرض ٠ وكنت أعلم أن الكثيرين سوف يشترون الكتب بعد بيع محصول التبغ ، أو بعد تحويل القصب الى سرغون (*) ، ثم بيعه ، اذ أن هذين المحصولين هما اللذان يأتيان بالمال الى لونسم فالى ٠

(*) Sorghum ويصنع منه العسل

وبينما كنت أقيد أسماء التلاميذ ، أجريت بعض التغييرات فى نظام جلوسهم ، فكثيرا ما كنت أضع أحد التلاميذ ممن ليس لديهم كتب ، الى جوار آخر عنده هذه الكتب ، اذا كانا من فرقة واحدة · وقد حاولت ، وأنا أقيد أسماء التلاميذ ، أن أتذكر كل اسم منها ، كما حاولت التعرف الى تلاميذى · وقد وجدت أنهم شديدو الخجل ، وكنت أنا غريبا بينهم ، على الرغم من أنى نشأت فى ظروف مشابهة ، ومنحت فرصا متكافئة،فقد كان يفصل بين لونسم فالى موطنهم ، وبين « و · هولو » موطنى ما يقرب من ثلاثين ميلا · ومع ذلك فقد كنت غريبا هنا ·

وحين أنهيت الحصة لكى ينصرف التلاميذ الى الفسحة الأولى ، وهى فترة طولها خمس عشرة دقيقة ، وتقع بين بداية اليوم المدرسى وبين فترة الظهيرة ، أذهلنى أن وجدتهم جميعا يقفزون من فوق مقاعدهم فى وقت واحد ، ويحاول كل منهم أن يكون أول من يخرج من الفصل ، وأخذ ضخام الأجسام منهم يدفعون الصغار ويتزاحمون بالمناكب ، وحدث هرج ومرج ، واختلط الحابل بالنابل · وقررت أنهم لن يغادروا الفصل على هذه الصورة مرة أخرى · وساءلت نفسى : لم يجرون هكذا ؟ وكان لدى عمل يستغرق بضع دقائق ، لا بد أن أفرغ منه قبل أن ألحق بالتلاميذ فى الفناء · وقبل أن أفرغ من ذلك العمل ، سمعتهم يغنون بأصواتهم الخشنة العميقة هذه الكلمات المألوفة :

عـــين الابرة ، التى تعطى وتمنـــح ،
الخيط الحق الذى يدور فيها
كـــم من عاشـــق تخليت عنـــــه
لأنـــى كنت أريـــدك أنت
وكـــم من ليـــلة ليـــلاء عاصفـــــة
اذ أعـــود برفقتك الى البيت
عثرت اصبـــع قدمى ، فوقعت أرضــــا
لأنـــى كنت أريـــدك أنت

وسرت حتى البـــاب ، وأخذت أرقبهم · كانوا يسيرون فى دائرة ، ويغنون ، وقد تماسكت منهم الأيدى ، وأخذوا يدورون ويدورون،وهمينشدون

هذه الكلمات ، ووقف اثنان من التلاميذ ، وقد رفعا أيديهما المتماسكة عاليا ، لكى تمر الدائرة من تحتها • وفجأة ، أسقط هذان الاثنان ذراعيهما ، وقد وقف أحدهما داخل الدائرة ، والآخر خارجها ، لكى يأخذا تلميذا من الصف • ثم استمرت الدائرة فى المسير والغناء ، فى حين انتحى الاثنان بالتلميذ جانبا وسألاه : ما اذا كان يفضل أن يكون ، قطارا أم سيارة ؟ فاذا أجاب بأنه يفضل أن يكون سيارة ، فانه يقف الى جانب أحد التلميذين الذى يمثل السيارة ، واذا أجاب بأنه يفضل أن يكون قطارا فانه يقف الى جانب التلميذ الآخر الذى يمثل القطار • وحين انتهى الاثنان من أخذ كل تلميذ من الدائرة ، اتجهت كل مجموعة بوجهها تجاه الأخرى ، وقد وقف أفرادها فى صف وراء قائدهم ، ولف كل تلميذ ذراعه حول وسط التلميذ الذى يقف أمامه ، ثم قبض باحدى يديه على يده الأخرى • والفريق الذى يخسر اللعبة هو الذى يفك قبضته أولا ، أو يندفع الى ناحية الفريق الآخر •

وكانت الخمس عشرة دقيقة أقصر من أن تكفيهم لكى يلعبوا « عـــين الابرة » ، فجعلت الفسحة تمتد خمس دقائق أخرى ، حتى يتمكنوا من اتمام اللعبة الثانية • لقد طال بى الأمد منذ لعبت هذه اللعبة فى « بلم جروف » • ان كلمات الأغنية أعادت الى ذكريات سارة هنيئة ، وفتنتنى وخلبت لبى• وكان تلاميذ لونسم فالى يؤدون هذه اللعبة بكل ما لديهم من حيوية وحماسة • كانوا مندمجين فيها بروحهم ـ كل تلميذ من تلاميذ المدرسة • لم يكن فيهم واحد يقف متفرجا • كانوا يستمتعون بتلك اللحظات كل الاستمتاع ، ولذلك اضطررت كارها أن أدق الجرس ايذانا بالعودة الى « الكتب » ، ثم جعلتهم ينتظمون صفوفا الصغار منهم فى المقدمة ، والكبار فى المؤخرة ، وسرت بهم عائدا الى حجرة الدراسة •

وكان « جاى هوكنز » و « أوفا سليبرز » يسيران فى مؤخرة الصف • وحين دخلا من الباب ، طلب « جاى » اذنا بالذهاب مع « أوفا » لاحضار دلو من الماء • ولم يكن لدينا بالمدرسة بئر أو صهريج ماء • وكان علينا احضار الماء من أحد بيوت الحى • فأذنت لهما بالذهاب ، ولكنى نبهتهما ألا يذهبا بعيدا ، اذ أن التلاميذ قد أصابهم الظمأ بعد الجرى واللعب • وكانت شمس شهر يولية تلهب بلظاها سقف المبنى المصنوع من معدن مطلى بالزنك ، مما جعل ألواح الخشب من الداخل تبلغ من السخونة حدا يجعل الراتنج ينشع منها • وقد فتحنا النوافذ جميعها ، بيد أن المكان ظل شديد الحرارة ، كالحجرة

التى كنت أنام فيها فى بيت « كونوييى » • كانت حجرة صغيرة تقع فى الطابق العلوى ، ولها نافذة عالية بلا ستائر ، وليس بها سوى لوح واحد من الزجاج، ولم تكن تخف الحرارة فيها الا عند منتصف الليل تقريبا ، وعند ذاك كان يمكننى أن أنام •

وعرفت السبب الذى من أجله تبدأ المدارس الريفية كلها الدراسة فى يولية ، رغم معارضة آباء التلاميذ ، وهذا السبب هو أنهم كانوا فى حاجة الى بقاء أولادهم معهم لكى يساعدوا على العمل فى الحقول • لقد كانت المدارس الريفية تبدأ الدراسة فى وقت مبكر ، لأن شراء الفحم كان يتطلب نفقات اضافية فى شهور الشتاء • ولم يكن لمدارس المقاطعات فى جميع أنحاء الولاية من المال الا النزر اليسير ، الذى لا يكاد يقيم الأود ، فاذا كان من المستطاع جعل المدارس تعمل فى شهور الصيف الحار ، فان ذلك يرفع عن كاهل ميزانيتها عبئا ثقيلا • بيد أن هذا كان أمرا شاقا على التلاميذ وعلى المدرسين •

وأول دلو من الماء جاء به « جاى » و « أوفا » لم يلبث خمس دقائق ، وكان معظم التلاميذ لا يزالون ظمآى ، فأرسلت « جاى » و « أوفا » على عجل ، لكى يجيئا بمزيد من الماء ، ويحضرا دلوا آخر • وكانت هناك مشكلة المغرفة ، وكان على أن أفعل شيئا بشأنها • لقد كنا فى « بلم جروف » أيضا نشرب جميعا من مغرفة واحدة ، ولكنى حين ذهبت الى مدرسة لانزبيرج الثانوية ، تعلمت شيئا آخر غير ذلك •

ولذلك أذعت « نبأ هاما » على تلاميذى ، فقلت لهم ان على كل واحد منهم أن يحضر فى الغد اناء يشرب منه ، وليكن هذا الاناء كوبا ، أو فنجان شاى ، أو طاسة ، أو مغرفة ، حتى يكون شيئا خاصا به وحده ، لا يشرب منه سواه • ونظر التلاميذ بعضهم الى بعض وضحكوا ، كما لو أن ما قلته شىء يبعث على الضحك • ولكنى كنت قد رأيت العرق يتصبب من وجوههم فيتساقط فى المغرفة ، فيأتى من عليه الدور فى الشرب منهم فيضع فاه فى الموضع الذى تساقط فيه العرق ، أو حيث وضع شفتيه من شرب قبله ، كما لاحظت أيضا أن كثيرين من التلاميذ كانوا حين يشربون يضعون فمهم على حافة المغرفة القريبة من مقبضها ، وعرفت من هذا أنهم كانوا يكرهون أن يشربوا من الموضع الذى شرب منه غيرهم •

وفى يوم الثلاثاء ، أحضر التلاميذ معهم مغارف وفناجين من الصفيح وأكوابا من الزجاج ، ولم ينس منهم الا القليل ، فتوقفت عن التدريس ، رغم ازدحام جدولى بالحصص ، لكى أعلمهم كيف يصنعون أكوابا من الورق يشربون منها ، وأريتهم الطريقة التى يطوون بها صحيفة نظيفة من الورق بحيث تمسك الماء كأنها كوب ، ثم القيت عليهم درسا عن مياه الشرب ، فقلت لهم انهم لا ينبغى أن يشربوا من الجداول أبدا ، وحكيت لهم كيف أنى مرضت بحمى التيفود مرتين ، مرة لأنى شربت ماء باردا من جدول صغير ، ومرة لأنى شربت من أحد الأنهار • وجعلت تلاميذى يستخدمون المغرفة فى غرف الماء من الدلو ، ثم تفريغها فى أكوابهم ، وقد فعلوا ذلك راضين • كذلك استعرت دلوا آخر من « برتا كونوييى » وجئت به الى المدرسة ، اذ أن الدلو الوحيد المرخص لى به لكى يشرب منه خمسة وثلاثون تلميذا لم يكن بكاف ، وخاصة أن هذا العدد من التلاميذ كان يزداد بمجرد انتهاء الفلاحين من حراثة الأرض الصيفية ، واقتلاع الديدان وجذور النباتات من حقول التبغ ، وتقشير أعواد القصب ، وغلى عصارته لعمل شراب حلو منها • لقد كان التلاميذ حين يلعبون فى الفسحة وفى الظهيرة ، يلعبون بكل قواهم ، حتى اذا جاء « وقت الكتب » جلسوا فى حجرة الدراسة ، تنبعث الحرارة من أجسامهم كأنهم أفران المواقد •

وفى يوم الثلاثاء ، حين وقفت الى جوار « جاى هوكنز » لأريه كيف يمسك بكتابه ، ضج التلاميذ بالضحك ، وظلوا يضحكون حتى اضطررت لاسكاتهم • لقد كنت أحاول أن أعلم « جاى » القراءة وهو يتعثر فى نطق الكلمات البسيطة التى جاءت فى الجزء الأول من كتاب المطالعة ، فضحك تلاميذى لأنه كان أضخم منى جسما ، وأطول قامة بمقدار بوصتين • لقد كان له عنق كعنق الثور ، يكاد يماثل فى ضخامته ضخامة رأسه ، وفك بارز ، ولحية بلغت من الكثافة حدا يضطره الى حلاقتها كل يوم •

وساءلت نفسى : لم لا يأخذه المدرب ولسن ؟ انه يصلح أن يكون أعظم لاعب بيسبول شهدته مدرسة لانزبيرج الثانوية فى حياتها •

وكانت يداه كبيرتين ، فكانت يده اليمنى تغطى ظهر كتاب المطالعة • كذلك كان له ساعدان قويان،فكانت عضلاته تتموج من ثنايا قميصه النظيف ، ذى اللون الأزرق الحائل • وأخذت أعاينه وأنا واقف بجانبه ، وعرفت أنه لوقدر على أن أقاتله ، فسوف يكون قتالا ما بعده قتال ، كما عرفت أننى

لن أقاتله الا اذا اضطرنى قسرا الى قتاله • لقد كان من الناحية الجسمانية أشد منى قوة ، وقد تتوقف نتيجة القتال بيننا على أينا ينجح قبل الآخر فى ضرب فكه ضربة قاضية •

ثم تطلعت الى « أوفا سليبرز » الذى يجلس فوق مقعد « التسميع » الى جوارى • وقلت فى نفسى : هذا لاعب بيسبول آخر للمدرب ولسن • ان هذا الزوج لهو حلم كـــل مدرب • واأسفاه أن ليس هنـــاك مدرب يأخذهما بدلا منى •

ولولم يكن عندى هذان الشابان ، ما لقيت عنـــاء فى حفظ النظام بمدرستى • لقد كان سائر التلاميذ جميعا يلعبون بكل قواهم ، وكانوا مثال الطاعة ، ولو أنهم كانوا قد أعدوا الاعداد الصحيح لأحسنوا أداء العمل المدرسى داخل الفصل • لقـــد كان عندى تلاميذ فى العاشرة من عمرهم ، يدخلون المدرسة لأول مرة ، وكان تلاميذ الصف الأول فى التاسعة عشرة من عمرهم ، وتلاميذ الصف الثانى فى الرابعة عشرة ، وكان لدى فتاة واحدة فى الصف الثامن ، وعمرها اثنا عشر عاما • ولم ينتقل هؤلاء التلاميذ الى فرقة أعـــلى لأنهم لم يتموا أبدا الفترة المدرسية الى نهايتها ، فظلوا يلتحقون بالفرقة نفسها المرة بعد المرة ، حتى أصبحوا يحفظون بعضا من دروس الكتاب الأولى عن ظهر قلب ، فيقفون يتلونها من الذاكرة •

وسألت « جاى » قائلا : كم مضى عليك فى الصف الأول ؟

فأجاب وهو يضحك : نحو ثمانى سنوات

فقلت له : لن تبقى فيها بعد الآن

فسأل قائلا : لماذا ؟

فقلت : لأننى سأنقلك الى فرقة أعلى • غدا تبدأ دراستك فى الصف الثـــانى •

ثم طلبت من « أوفا سليبرز » أن يقرأ • انه هو الآخر قد مكث بالفرقة الأولى ثمانى سنوات ، فنقلته الى الصف الثانى •

وحين عاد هذان الشابان الى مقعديهما ، رأيتهما ينظران بعضهما الى بعض ويضحكان ، كأنما كانا يريان فى نقلى لهما الى الصف الثانى شيئا

مضحكا . لقد كنت أعلم أنهما ينظران الى المدرسة على أنها مزاح وتسلية ، ومكان يذهبان اليه ويلتقيان بالناس ، مكان يجتمعان فيه بأطفال يصغرونهم سنا ، ويلعبون معهم لعبة « عين الابرة » . وكنت أعلم أنه لا فائدة كبيرة ترتجى من الجدال مع أى منهما . بيد أنه كان يخالجني شعور بأن الوقت سوف يحين . ولم أكن أومن أنهما يأتيان الى المدرسة ليحققا نفعا . وشعرت أن « جاى » كان يتربص بى ، ويتحين الفرص ، بيد أنى أخذت حذرى ، وقررت أن أجعله يشعر أنى أفترض فيه البراءة والنية الحسنة .

ولقد كان ينتابنى الشك فى أن تؤهلنى للتدريس شهادة الابتدائية ، والسنوات الثلاث التى قضيتها فى المدرسة الثانوية . غير أننى حين أخذت أقيس معلوماتى بمعلومات التلاميذ ، أيقنت بما لا يدع مجالا للشك ، أننى رجل متعلم . فلم أكن أتصور مطلقا أن تكون معلومات التلاميذ فى المدارس على هذا القدر من الضعف الذى كان عليه تلاميذى بمدرسة لونسم فالى . وقد صممت ـ ما لم أخرج من المدرسة مطاردا ، كما حدث لأختى ـ أن أعطى تلاميذى أفضل ما لدى من علم ومعرفة .

(٢)

وكان يقع تجاه جدول لونسم حانوت صغير ، لا يزيد عن مخزن الفحم فى مدرستنا الا بمقدار النصف ، ولم يكن كل ما فيه من بضائع ليملأ عربة من عربات النقل ، اذ كان طوله حوالى عشر أقدام ، ولم يكن يتجاوز عرضه ست أقدام ، وكانت نانسى كوشران هى التى تديره . وهى فتاة رقيقة هيفاء ، زرقاء العينين ، شقراء المحيا ، ذات شعر أسود فاحم ، وكانت تبيع لتلاميذ مدرسة لونسم فالى الأقلام الرصاص والورق والحبر ، والريش ، وأسنان الريش ، وكسارات البندق والكعك والحلوى . وكنت فى خلال الحصص ، أستطيع وأنا جالس أمام مكتبى ، أن أنظر من النافذة التى تقع على يسارى ، فأراها جالسة فى شرفة الحانوت الصغيرة ، تعزف على الجيتار وتغنى أغنيات جميلة . وحين كانت تعزف بعضها وتغنيها ، كنت أكاد أتوقف عن التدريس ، اذ كنت دائما أضطر الى منع التلاميذ من الدق على الأرض بأقدامهم . لقد كانوا يفعلون ذلك دون وعى ، ولم يكونوا يدقون بأقدامهم اذا سمعوا أية نغمة أخرى ، بيد أنها حين كانت تعزف أغنية « عين الابرة » ،

كانت أقدامهم الحافية القذرة تدق فى جميـــع أنحاء الحجرة ، مع نغمات الموسيقى ٠

وكنت أحب الاستماع الى الموسيقى ، وبخاصة موسيقى الجيتار ، شأنى فى ذلك شأن أى تلميذ من تلاميذى ، ولكنى لم أكن أحب ذلك وأنا أقوم بالتدريس ٠ وقد كان غناء نانسى كلمات هذه الأغانى القديمة ، يشتت أفكارى ٠ وفى كل مرة أنظر فيها من النافذة نحوها ، أراها متجهة بناظرها نحو مدرستى ، تعزف وتغنى ، وكأنما توجه لى العزف والغناء ٠ وقلما رأيت أحدا يرتاد حانوتها سوى تلاميذى ٠ ولم أشأ أن أحدثها فى ذلك الشأن ، ولكنى أيقنت أنى سوف أضطر الى ذلك ، اذا كان لى أن أستمر فى العمل بمدرسة لونسم فالى ٠ وظلت نانسى تعزف فى أثناء ساعات الدراسة من يوم الاثنين الى يوم الجمعة ، دون انقطاع ٠

ولذلك ، ذهبت الى الحانوت ، عصر يوم الجمعة ، بعد انتهاء الدراسة ، لأرى نانسى كوشران ٠ لقد كانت تجلس على كرسى مريح ذى سنادتين ، والجيتار ملقى فوق حجرها ٠ وحين دخلت نهضت واقفة ، ووضعت الجيتار فوق الصندوق الصغير الذى تعرض فيه الحلوى ، وسألتنى فى أدب جم عما اذا كنت أريد شيئا ٠ وكان حديثها ناعما ، وكانت جميلة ٠ وشعرت لتوى بالأسف على أنى كنت أحدجها من النافذة بنظرات قاسية ، وساءلت نفسى عما اذا كانت قد رأتنى وأنا أعبس وأتجهم لها ، وتمنيت ألا تكون قد فعلت ٠

وقلت لها : أريد زجاجة حبر ٠

واشتريت زجاجة الحبر ، وورقا ، وقلما من الرصاص ٠ ورأيت أن أمين المدارس يستطيع أن يمد لى يد المساعدة فى هذه السبيل ، فلم يكن من واجبى أن أقول لها انها تسبب الازعاج لمدرستى ٠ لسوف أخبر « كونوييى » بهذا ، ويستطيع هو أن يلفت نظرها الى ذلك بطريقة لا تضيرها ، ذلك لأنى كنت أعلم أنها تكن لى ودا عظيما ، وكانت هى الأخرى فى نحو الثامنة عشرة من عمرها ، فى عمر « فلوصى » تقريبا ٠ ان « جون كونوييى » هو الرجل الذى يستطيع أن يقوم بهذه المهمة ، وحينذاك لن يكون هناك مجال للأقاويل ٠

(٣)

وفى يوم الاثنين التالى ، بقيت فى المدرسة ، لكى أقوم بعمل بعض السجلات ، وكان « دون كونوييى » قد ذهب الى البيت ومعه أخته واخوته . وكانت هذه أول مرة أبقى فيها فى المدرسة ، بعد انصراف جميع تلاميذى . وكان يسود الحجرة سكون عميق . واذ أنا مستغرق فى العمل ، طرق سمعى وقع أقدام رفيقة حول مبنى المدرسة . وتطلعت من النافذة التى تقع على يسارى ، فرأيت رأس « جاى هوكنز » ، وقد عبثت ريح لونسم فالى بشعره المشعث المتهدل .

وتساءلت فى نفسى عما حدا به الى الرجوع ، وعما اذا كان قد نسى شيئا ؟ ثم أدركت أن هذه هى أول مرة يجدنى فيها بمفردى . وتذكرت أيضا بضع حوادث أخرى وقعت فى المدارس الريفية بمقاطعة جرينوود ، حيث عاد أحد التلاميذ الى المدرسة ، وكان المدرس بمفرده ، وضربه ضربا موجعا مبرحا . وكان من الممكن أن أتذكر ثلاثة أو أربعة من مثل هذه الحوادث ، ولكن لم يكن لدى وقت للتفكير . كلا . ليس الآن . ووقف « جاى » عند الباب ، وقبعته فى يده . ولم أشأ أن أجعله يرانى وأنا أرفع رأسى ناظرا اليه ، بيد أننى رأيته قادما يسير فى خطوات واسعة ، ويهز ذراعيه الكبيرين ، وقد بدا عليه غضب مجنون ، لم أشهد له مثيلا فى انسان أو حيوان من قبل . وتقدم نحو قمطرى ، ووقف أمامى صامتا .

فسألته قائلا : هل نسيت شيئا يا « جاى » ؟

فقال يذكرنى : كلا . أنا لا أنسى شيئا أبدا .

فقلت : اذن ماذا تريد ؟

قال : « أريد أن أضربك .

فسألته قائلا : ولماذا تريد أن تضربنى ؟

فقال : لم أكن أحب أختك . انك تعلم ما فعلته بها .

فقلت : أجل . أعلم ما فعلت بها .

فقال يتوعدنى : وسأفعل بك مثلما فعلت بها .

فسألته قائلا لماذا تريد أن تقاتلنى ؟ وألقيت بالقلم الرصاص من يدى ، ووقفت أمامه وجها لوجه ٠

فقال : أنا لا أحبك ٠ أنا لا أحب المدرسين ٠ لقد قلت انه لن يقوم بالتدريس فى هذه المدرسة شخص يحمل اسمكم أبدا ، ما دمت أنا فيها ٠

فقلت وقد بدأ الغضب يستبد بى من سوء الحظ أنك لا تحبنى أو تحب اسمى ٠

فقال : لن يرضينى شىء الا اذا ضربتك ٠

فقلت هل يمكنك أن تذهب الى مدرسة أخرى ؟ ان مدرسة « فالى » ليست ببعيدة عن مسكنك ٠

فصاح قائلا كلا ! كلا ! اذا كان لأحد أن يترك المدرسة فهو أنت ٠ أنا الذى جئت الى لونسم فالى أولا ٠ ولن أذهب الى أية مدرسة أخرى بسببك !

فقلت : اذن فلا مناص لنا من القتال : لقد جئت لأقوم بالتدريس فى هذه المدرسة ، وسأظل أقوم بالتدريس فيها لا أبرحها ٠

فزمجر قائلا : انك لن تبرحها فعلا ، فقد حاصرتك فى هذا المبنى ، ووقعت فى قبضتى حيث أريدك ٠ انك لن تستطيع النجاة ، ولن تستطيع الفرار ٠ ولسوف أضربك حيث أنت واقف فى مكانك ٠ انه نفس المكان الذى ضربت فيه أختك ٠

ونظرت الى وجهه ٠ لقد كان أحمر اللون كأنه بنجر قطع الى شرائح ، وكانت النيران تتراقص فى عينيه المستطيلتين ، الزرقاوين زرقة باهتة ٠ وكنت أعرف أن « جاى هوكنز » يعنى كل كلمة قالها ٠ وأيقنت أن على أن أواجهه ، وأن أقاتل ، فلم يكن أمامى غير هذا السبيل ٠ وكان على أن أفكر بسرعة ٠ كيف أقاتله ؟

وتذكرت عراكا نشب بينى وبين أحد الناس يوما ، فغص حلقى وكدت أختنق حين جذب رباط عنقى ، فقلت : أتسمح لى بأن أخلع رباط عنقى ؟ فقال : أجل ٠ اخلع هذا الرباط الجميل ، اذ سيكون قد اتسخ حين أفرغ منك ونزعت رباط عنقى فى بطء وأناة ٠

فقال اطو أيضا كمى قميصك الأبيض · انهما سيتسخان بعد أن أمسح بك هذه الأرض ·

فقلت : تمسح بى الأرض !

وقذف بذراعه الطويلة نحوى ، بيد أنى أفلت منها · وأحسست بالهواء الذى أحدثه اندفاعها يلفح أذنى · وقلت فى نفسى اننى لا يجب أن أقع فى قبضته ·

ثم عاد فوجه الى ضربة بيده اليمنى ، بيد أنى تفاديت ضربته الثانية · ثم وجهت اليه أولى ضرباتى ، وكانت ضربة يمنى ، فاستقرت فوق فكه · ولم تكن ضربة محكمة ، بيد أنها كانت كافية لكى تثيره ، وتزيد غضبه اشتعالا · وحين اندفع نحوى ، تنحيت جانبا ، فأخطأنى · وما ان استدار حتى لكمته فوق الذقن لكمة جعلته يترنح ، ثم أتبعتها بضربة سريعة ، فى شدة لم أضرب بمثلها من قبل · ومع ذلك فلم ألقه بعد أرضا · فهجم على مرة أخرى ، ولكنه لم يصل الى هذه المرة · ولقد صدق قوله ، اذ اتسخ قميصى فعلا · ثم اندفعت فى الهواء موجها اليه ضربة خاطفة تحت الركبتين ، فقد كنت أفعل ذلك فى أثناء لعب كرة القدم ، وضربت ضربا عنيفا ، ولم يحدث أن ضربت أحدا بمثل ذلك العنف الذى ضربت به « جاى » · وخانته قدماه ، وكنت قد هجمت عليه بسرعة فائقة ، فى الوقت الذى كان يتوقع أن أستدير اليه باللكمات ، فسقط بسرعة تعذر عليه معها أن تتشبث يداه بشىء ، فانبطح على الأرض ، واصطدم أنفه بها ، وكان الدم يتفجر منه حين شرع فى النهوض ·

وتركته ينهض واقفا ، وتساءلت عما اذا كان من الحكمة أن أفعل ذلك ، اذ أنى كنت أعلم أن واحدا منا يجب أن يضرب · وحين استطاع أن يقف على قدميه بعد تلك السقطة المروعة ، هجمت هجوما خاطفا ، وأخذت أضرب بسرعة ، وبعنف ، فترنح كالمجنون ، وانتزعت أظافره قطعة من الجلد من عنقى ، وتركت علامة حمراء يتدفق الدم منها ، وكانت توجع وتؤلم · فأخذت أدق ذقنه ، وأمسكت بفكه حيث تنمو لحيته ، وجعلته يستدير مرة أخرى ، ثم تابعت ضرباتى ، فضربت ضربة يسرى فوق ضلوعه السفلى ، على حين أمسكت يدى بفمه فى مثل لمح البصر · فتدفق منه الدم مرة أخرى · بيد أنه لم يكن قد انتهى بعد · ولكنى أيقنت أنه قد أصبح فى قبضتى ·

وقلت وأنا ألهث : أهذا يكفيك ؟

فلم يحر جوابا · ولم أكرر السؤال مرة أخرى ، وضربته ضربة بلغت من العنف درجة كانت تكفى لصرع رجلين · وجعلته يستدير ثانية ، وظهره نحو أحد المقاعد ، وتابعت ضرباتى ، فلكمته لكمة تحت الذقن ، وألقيته فوق القمطر ، فتدحرج ووقع على الأرض ، وظل راقدا والدم يتدفق من أنفه وفمه ، وقد شخصت عيناه · لقد كنت لا أقوى على التنفس ، وكانت يداى توجعان ، وقلبى يدق دقا عنيفا · وقلت فى نفسى : اذا كان هذا هو التدريس، واذا كان هذا من مستلزمات التدريس ــ ثم تذكرت فى غير وضوح أنى أنا الذى سعيت الى حتفى بظلفى ، فأنا الذى طلبت هذه المدرسة ، ولم أرض بغيرها بديلا ·

وكان « جاى » يرقد منبطحا على الأرض ، وقد اختلطت دماؤه بالقاذورات التى جلبتها الى حجرة الدراسة سبعون قدما حافية · وعدت فأحضرت دلو الماء، وأخذت أغسل الدماء من فمه وأنفه بمنديل نظيف ، ولكنى لم أستطع ازالتها من قميصه · ثم أخذت أمسح جبهته بالمنديل المبلل بالماء البارد ·

وهأنذا أعمل جاهدا لكى أعيد الوعى الى تلميذ كنت أقف الى جانبه منذ بضع ساعات فقط ، وأحاول أن أعلمه كيف ينطق بالكلمات حين يقرأ ، وأقول له بلغة يفهمها « لا تتعثر فى نطقها كما يتعثر الجواد فوق الأرض التى غطتها الثلوج » · ولقد نقلته الى الفرقة الثانية ، وأرسلته هو و « أوفا » لاحضار الماء ، فى حين كان تلاميذ آخرون يحبون أن يذهبوا هم لاحضار الماء · وكنت أعلم أنهما يمضغان التبغ وهما فى طريقهما لاحضار الماء ، وأنهما يحاولان أن يظهرا بمظهر يثيرنى · كنت أعلم أننى لن أسمح لهما باستعمال التبغ فى المدرسة ، وأن الوقت سيحين فى النهاية لكى أوقفهما عند حدهما ، ولكنى كنت أريد تأجيل ذلك أطول مدة ممكنة · والآن وقد ضربته ، أخذت أعجب ، وأنا أنظر اليه وهو ممدد على الأرض ، كيف استطعت أن أفعل ذلك · ان المكان الذى تقاتلنا فيه سيظل دائما مضرجا بالدم ، فقد كان من العسير ازالة بقع الدماء من خشب الصنوبر · وسوف تظل تلك البقع باقية ، تذكرنى بما حدث ، ما بقيت مدرسا بمدرسة لونسم فالى ·

وحين أفاق « جاى هوكنز » تطلع بنظره الى ، وكنت أمسح رأسه بالمنديل المبلل بالماء ، وبدأ ينهض ، فعاونته حتى وقف على قدميه ·

وقال يعترف بهزيمته : حقا يا مستر ستيوارت ، لقد انهالت على ضرباتك كالسيل المنهمر • انك مقاتل بارع •

وكانت هذه أول مرة ينادينى فيها بقوله « مستر ستيوارت » • لقد كنت أسمعه ينادينى باسم « جيس العجوز » فى كل مرة أولى فيها ظهرى للفصل ، ولكنى كنت أتظاهر بأننى لا أسمعه • وحين كان يوجه الكلام الى مباشرة ، لم يكن ينادينى بأى اسم على الاطلاق •

فقلت له : اننى لا أقاتل الا اذا اضطررت الى ذلك • أنت الذى سعيت الى هذا ، ولم يكن من قتالك بد •

فقال : أعلم ذلك • لقد عقدت العزم على أن أضربك ، منذ اللحظة التى سمعت فيها أنك ستدرس فى هـــذه المدرسة • ولكنك كسبت المعركة ، وكسبتها بحق أيضا • لم أكن أتصور أنك تستطيع أن تضرب هكذا •

وكان « جاى » لا يزال ضعيفا • وكان الدم لا يزال يتدفق من أنفه وفمه • ولم يكن معه منديل ، فأعطيته منديلا نظيفا •

وقلت له : أتظن انك تستطيع العودة الى البيت ؟

قال : أظن ذلك •

وغادر مبنى المدرسة ، وهو يمشى فى خطوات أكثر بطئا من تلك التى كان يمشى بها حين جاء • وانتابنى ضيق شديد لم أستطع معه أن أواصل العمل الذى كنت أقوم به • ووقفت الى جوار النافذة ، أرقبه وهو يعبر فناء المدرسة ، ويسير فى طريقه ، فينحدر فى جدول لونسم ، حتى دار حول المنحنى ، ثم غاب عن ناظرى • وهتف بى هاتف أن احذر من مجيىء « أوفا سليبرز » ، اذ قد يعود لكى يهاجمنى • وانتظرت عدة دقائق ، ولم يجىء « أوفا » • لقد جاء « جاى » ليقوم بالمهمة وحده •

والآن وقد انتهت المعركة ، أحسست بالراحة ، فأخذت المكنسة،وكنست الفصل ، اذ سرعان ما تعلمت أن المدرس بالمدارس الريفية يعمل أيضا بمثابة فراش ، وأن هذا العمل من أهم الأعمال المنوط به أداؤها بالمدرسة • وأصبحت أومن ، بعد ما مر بى من خبرة قصيرة ، أن المدرسة يجب أن تكون مكانا جميلا، يفوق فى جماله ونظافته أى بيت من بيوت التلاميذ ، وذلك لـــكى يحبوا

المدرسة ، ويحبوا كل ما يتصل بها ، ولكى تكون فى نظرهم مكانا ينبعث منه الجمال ، ويريدونها أن تظل كذلك ٠

وكان كنس أرضية الحجرة أمرا يسيرا ، بيد أنه كان من العسير ازالة الدماء منها ٠ وملأت دلو الفحم بالرمل ، ثم ألقيت بالرمال فوق الدماء ٠ وأخذت أرفع الرمل بالمجرفة ، ثم حملته الى الخارج ، وبذلك أزلت الدماء من الأرض ٠ ثم أخذت أنظف موضعه ، بيد أن بقعة الدم ظلت فى مكانها ، فلم أستطع ازالتها من أرضية الحجرة ، المصنوعة من خشب الصنوبر النـــاعم الأملس ٠ وكان هذا يوما من أيام التدريس لن أنساه ما حييت ٠

(٤)

وان الأنباء لتسرى بسرعة فى لونسم فالى ، اذ أنى حين وصلت الى بيت « كونوييى » ، وجدت أفراد الأسرة مجتمعين فى حجرة الجلوس ، ينتظرون رؤيتى بعد المعركة ٠ كانوا ينتظرون لكى يروا ما اذا كنت قد خرجت من المعركة مشوها ٠ ولقد أخذتهم الدهشة حين رأونى مكتمل الجسم ، بعد أن قاتلت « جاى هوكنز » ، فلم يمزقنى اربا ٠

وقال « دون » : لقد كان « أوفا » يزمع الذهاب اليك مع « جاى » ٠ غير أنى لم أدعه يذهب ، وقلت له انه ان فعل فسوف أظل أقاتله على طول الطريق ٠ وأخذنا ننتظر عودة « جاى » ٠ ولقد عاد فى حالة سيئة ٠

لقد كان كل فرد يعلم أن « جاى » كان ينوى قتالى ٠ ولم يشهده أحد يهزم فى قتال قط ٠ ولم يشهده أحد أبدا وقد فطست أنفه ، وتورمت شفتاه، وأحدق السواد بعينيه ٠ وكان هذا كله نبأ مثيرا ، وقصة تروى ٠

وقبل أن تنحدر الشمس نحو المغيب ، كانت أنباء المعركة قد بلغت الوادى ٠ وسمع بها « مورت هاكلس » فأخذه العجب ٠ لقد شهد « جاى » يخوض معارك كثيرة ، اذ كان « جاى » يذهب الى الوادى فى أيام السبت والأحد ، فاذا شاء أحد أن يقاتله ، وجده دائما على قدم الاستعداد ٠ وفى كثير من الأحيان كان الرجل يعرض عن قتاله ، فيصر « جاى » على ذلك اصرارا، وكان دائما هو الظافر المنتصر ٠

وقد كان « جاى » موضع احترام فئة معلومة من الناس ممن يؤمنون بأن الحق للقوة ، ويحبون أن يشاهدوا قتال الكلاب ، وقتال الدجاج ، وقتال البشر ، بل وكل قتال أيا كان نوعه ٠ وحين كان « جاى » لا يجد فى الوادى « متاعب » ، يذهب فيجلس عند الحانوت ، ويروح يقص قصص معاركه على صغار الصبيان الذين يبحثون عن بطل ، ويتبادل هذه القصص مع الكهول من الرجال ، الذين كانوا يقصون قصص المعارك التى خاضها أسلافهم ، تلك القصص التى ظلت تكبر مع السنين ٠ وكانت قصة المعركة التى دارت بيننا من القصص التى لن يسارع « جاى هوكنز » بسردها على الأسماع ٠

وما كان لقواعد النظافة التى وضعتها لتلاميذى ، ولا المعرفة التى كنت أحاول أن أنقلها اليهم ، ولا لأى شىء يمكن أن أحققه فى لونسم فالى ، أن يكسبنى تلك الشهرة التى أكسبتنى اياها هذه المعركة ٠ ولم أكن أعلم الا بعد أن اشتبكت مع جاى ، أن الناس كانوا يتحدثون من وراء ظهرى ، وأنهم كانوا يقولون اننى سأكون مدرسا صالحا اذا قدر لى البقاء فى المدرسة ، اذ كانوا يرون أن أيامى فى لونسم فالى معدودة ، وكانوا يعتقدون أنه حين يفرغ « جاى هوكنز » منى ، من ذلك الشاب الذى جاء ليدرس فى لونسم فالى ــ أننى سأستقل القطار سريعا ، عائدا الى لانزبيرج ٠ ولم يكن فى لونسم فالى شىء يثير أو يبعث على التسلية ، مما يحملنى على الاعتقاد ، الى يومنا هذا ، أنهم كانوا يتوقون الى مشاهدة معركة حامية تثيرهم ، فقد كانوا يريدون أن يجعلوها موضع أحاديثهم ، ويحبون ما تثيره فيهم من الشعور بالقلق والتوقع، ذلك لأن « جاى » كان قد أخبر كل فرد يعرفه فى لونسم فالى ، وفى كل مكان ، بما عقد العزم عليه ٠

ولم يحدث أن أصبح مدرس يتمتع بكل هذا الاحترام من جميع أفراد المجتمع المحلى ، كما أصبحت أنا بعد المعركة ٠ والناس الذين كنت قبل ذلك ألتقى بهم فى طريق جدول لونسم ، فيتحدثون الى فى حياء ، أو لا يتحدثون على الاطلاق ، أصبحوا يتوقفون ويعرفوننى بأنفسهم ، ويشكروننى لأننى « قمت بالمهمة » ٠ وقبل أن نكف عن الحديث كان كل واحد منهم تقريبا يقول نفس الكلام ، وهو أنه يحتاج الى وجود أولاده معه لكى يعاونوه على نزع القشر من أعواد القصب ، وعلى جنى التبغ ، بيد أنه سيحاول أن يقوم بالعمل بنفسه ، لكى يبعث بأولاده الى المدرسة عندى ٠ وهذه الكلمات الصادرة من أبناء الأرض ، بقامتهم المديدة النحيلة ، ووجوهم الملتحية ، أولئك

الذين اذا أحبوك وقدروك ، بذلوا أرواحهم من أجلك ، واذا أبغضوك واحتقروك قتلوك ، هذه الكلمات الصادرة منهم قد أثلجت صدرى ٠

لقد صنع وادى لونسم الضيق رجالا كهؤلاء ٠ ان هذا هو عالمهم الصغير٠ لقد ولدوا هنا ، وتزوجوا هنا ، وأبناؤهم ولدوا هنا ٠ ان من رأى منهم لمحة من العالم هم أولئك الذين اشتركوا فىالحرب العالمية الأولى ٠ وحين أصبح جل اهتمام هؤلاء القوم هو أن يبعثوا بأولادهم الى المدرسة عندى ، بدلا من أن يستبقوهم فى البيت لكى يعاونوهم فى العمل ، عرفت أننى سوف أبذل كل جهد ، لكى أهيىء لأولادهم مدرسة صالحة ، وعرفت أننى قد أصبحت الآن موضع الاحترام باعتبارى مدرسا ، وأننى قد أصبحت شيئا فى لونسم فالى ، وأننى سوف أبدأ عِملى بمشروعات جديدة ، وبجهود عظيمة ، من أجل مدرستى ٠

(٥)

ولم أكن أتوقع أن يعود « جاى هوكنز » الى مدرسة لونسم فالى ، وظننت أن عهده بالمدرسة قد انتهى ٠ بيد أنه حين غادر المدرسة لم يأخذ كتبه معه ٠ أتراه يعود لكى يأخذها ؟ وهل اذا عاد ، هل سيجيىء معه بأبيه أو بواحد من اخوته المتزوجين ؟ وهل سيبدأ معركة أخرى ؟ لابد أن هذه الأفكار نفسها قد أزعجت « جون كونوييى » أمين المدارس أكثر مما أزعجته الأنباء التى نقلتها له عن عزف نانسى كوشران على الجيتار ، وغنائها ٠ وحين ذهبت الى المدرسة صباح يوم الثلاثاء ، ذهب « جون » معى ٠

وكانت هذه أول زيارة يقوم بها « جون » للمدرسة ، فقد تراكمت عليه أعمال الحقل ، اذ كان جميع أولاده ، ما عدا « فلوصى » ، يذهبون الى المدرسة ٠ وحين وصلنا الى هناك ، كان « جاى هوكنز » ، بجسمه الضخم ، وعينيه اللتين يحيط بهما السواد ، وشفتيه المتورمتين ، يقف فى دائرة مع بقية التلاميذ ، ويدور معهم وهو ينشد أغنية « عين الابرة » ٠ ثم حيانى قائلا : صباح الخير يامستر ستيوارت ٠

وحينذاك تبسم جون كونوييى ، واستدار ليذهب ٠ وأخذت أرقبه وهو يعبر الطريق ، ويدخل الحانوت الصغير ٠ وانضممت الى تلاميذى أشاركهم فى لعبة « عين الابرة » ، فكنت أنا و « جاى هوكنز » الرئيسين ٠ واخترت ـ كما تقضى اللعبة ـ أن أكون البيضة المسلوقة سلقا جامدا ، واختار هو أن يكون

البيضة المسلوقة سلقا بسيطا • ثم أخذنا نخرج التلاميذ من الصف ونسألهم ان كانوا يفضلون أن يكونوا بيضة مسلوقة سلقا جامدا (وبذلك ينضمون الى صفى) أو يكونون بيضة مسلوقة سلقا بسيطا (وبذلك ينضمون الى صف جاى هوكنز) • واختار معظمهم النوع الثانى فكان ثلاثة أرباع التلاميذ من تصيب جاى • وبدأنا عملية « شد الحبل » ، فأخذ الصفان يتجاذبان طرفى الحبل ، غير أن جاى وتلاميذه جذبونا على طول الفناء ، وضج الكل بالضحك وخاصة جاى هوكنز • لقد كانت متعة بالغة • ولم يسألنى جاى هوكنز أو أى تلميذ من التلاميذ عن المعركة قط ، واذا كانوا قد تحدثوا عنها فانى لم أسمعهم • وقد لاحظت أنهم رأوا بقعة الدماء على أرضية الفصل • واذا كان جاى هوكنز قد هاجمنى فى حديثه مع أى من زملائه التلاميذ ، فلم أكن لأسمع به • لقد أصبح لأول مرة تلميذا كسائر التلاميذ ، وكان سلوكه سلوك من أصبح جزءا لا يتجزأ من المدرسة •

(٦)

وفى هذا اليوم نفسه ، حدث أمر آخر • كان الوقت ظهرا حين جاء الى لونسم فالى رجل ضخم محمر الوجه ، لعله فى الخمسين من عمره ، يسوق عربة محملة بالفحم ، ويجرها بغلان • وأوقف بغليه فى ظل شجرة جميز فارعة ، ونزل من عربته ، وسار الى حيث كنت أقف • وكنت أرى هذا الرجل عينه يتجه بعربته نحو الوادى كل يوم منذ بدأت التدريس فى لونسم فالى ، وكانت هذه أول مرة يتوقف فيها بعربته أمام المدرسة •

وقال الرجل يعرفنى بنفسه   هل أنت مستر ستيوارت ؟ ان اسمى بيرت ايشام •

فقلت وأنا أشـــد على يده الملطخة بالفحم   أجل ، هو أنا • انى لسعيد بمعرفتك •

فقال : هل أجد لديك ماء أشرب منه ؟ ان بى قليلا من الظمأ •

فقلت   أجل ، ان لدينا ماء فى المدرسة • ولكنه قد يكون دافئـــا قليلا •

فقال : اذن فلنذهب لنحضره ·

ودخلت المدرسة ، وهو يتبعنى · وألقيت نظرة على دلو الماء · لقد كانت ممتلئة الى نصفها · وبدأ يرفع المغرفة ليشرب ·

فقلت محتدا : لا تشرب من هذه المغرفة ·

فترك المغرفة تسقط من يده ، وقال وقد انتابه الفزع : أمسمومة هى ؟ قلت « لا · ليس الأمر كذلك · ان أحدا لا يشرب من المغرفة هنا · » فنظر الى فى فضول ، ثم قال يسألنى : ففيم تستعملونها اذن ؟

فقلت : نغرف بها الماء من الدلو ، فنملأ الأكواب التى نشرب منها · انتظر لحظة وأنا أصنع لك كوبا ·

ونزعت ورقة من « النوتة » ، وصنعت له منها كوبا · فملأ المغرفة ماء من الدلو ، ثم صبه فى الكوب ·

وبعد أن فرغ من الشرب قال وهو يضحك : ان أحدا لا يشرب من سؤر الآخر بهذه الطريقة ، أليس كذلك ؟ اننى فى الواقع لم يكن بى ظمأ ، وانما أردت أن أرى الرجل الذى ضرب « جاى هوكنز » ·

وأشرق وجهه بابتسامة الاعجاب ، وهو يتفحصنى بنظراته ، ثم تابع حديثه قائلا : لقد جاء هذا الفتى الى كنيسة « آبرلونسم » (*) ذات ليلة ، وضرب ولدى ضربا كاد يرديه ، دون ما سبب · لقد كان يبغى شجارا ، وبدأه بولدى فضربه ضربا مبرحا ، ثم اعتدى بالضرب على غلامين آخرين فى الليلة نفسها · لذلك أحببت أن أرى الرجل الذى كان أول من يضربه ·

وأخذ يتطلع الى من قمة الرأس الى أخمص القدم ، وتابع حديثه قائلا : عجبا ! انك لست على هذا القدر من الجسامة · لقد كنت أحسب أنك لا بد أن تكون عملاقا حتى استطعت أن تضربه ·

وحين خرجنا من المدرسة ، وسار متجها نحو عربته ، توقف · وظل لحظة ينظر الى « جاى هوكنز » ، الذى كان حينذاك يستمتع باللعب ، وكنت أنا أتطلع الى ما تحمله عربته من فحم ·

(*) Upper Lonesome

وسألته قائلا : كم حملا من الفحم فى عربتك ؟

فقال : خمسة وعشرون ٠

قلت : هل تزن فحمك ؟

قال : لا ٠

قلت : اذن كيف تعرف عدد ما معك من أحمال ؟

وفى أثناء حديثنا جاء « دون كونوييى » الى حيث كنا نقف ٠

فقال : بالحزر والتخمين ٠

ـ أعتقد أن ما بعربتك من فحم يزيد عن خمسة وعشرين حملا ٠

ـ هل لديك طريقة تعرف بها ذلك ؟

فقلت أسأله : هل تعرف طول عربتك ، وعرضها ، وارتفاعها ؟

قال : لا ٠

قلت : أسرع يا « دون » وجئنى بالمقياس من فوق قمطرى ٠

وأحضر « دون » المقياس ، وأخذ هو يقوم بعملية القياس ، وأنا أدون الأرقام ، وكان يبدى اهتماما بالغا وهو يشهدنى أحسب عدد الأحمال التى تحملها العربة ٠

وقلت : وفقا لهذه العملية الحسابية ، يوجد فى عربتك تسعة وثلاثون حملا وجزء من حمل ٠ ولما كان الفحم مكدسا بحيث يزيد على ارتفاع العربة ، فلن يدهشنى أن يكون فى عربتك ما يزيد على أربعين حملا ٠

فصاح يقول : ماذا ؟ اننى أبيع حمولة هذه العربة من الفحم منذ سبع سنوات ٠ انها خمسة وعشرون حملا ! كيف يتسنى لى أن أعرف ما تحمله العربة من الفحم على وجه الدقة ؟

قلت : زن الفحم فى الوادى ٠ ان عندهم موازين هناك ٠

وصعد بيرت ايشام الى عربته ، وقد اشتعلت حماسته ، وانطلق بها فى الطريق ٠

وفى عصر ذلك اليوم ، وقبل موعد الانصراف بدقائق معدودة ، سمعت دقا على الجدار بجوار باب المدرسة المفتوح ، فذهبت الى الباب ، وهناك وجدت « بيرت » واقفا ، وقد علت شفتيه ابتسامة مشرقة · لقد كان وجهه ملطخا بتراب الفحم الى درجة جعلت أسنانه التى لم تكن ناصعة البياض ، تبدو أشد بياضا من الثلج · وكانت ابتسامته عريضة تكاد تكشف عن أسنانه جميعـــا ·

وكانت أول كلمات فاه بها هى قوله : شكرا جزيلا أيها الشاب · لست أدرى كيف أستطيع أن أرد لك هذه المنة · لقد كان فى عربتى ثلاثة وأربعون حملا من الفحم ·

ثم صاح يقول منفعلا ، وهو يرينى وثيقة الوزن : هاك !

وناديت « دون كونوبيى » حتى يجيىء من الفصل لكى يراها ·

وقال بيرت ايشام : ان شيئا ما كان قد جعلنى أتوقف هنا لألقى نظرة عليك · انى سعيد لأنى فعلت ذلك فقد ظلوا يغشوننى سبع سنوات ·

فقلت له : لا عليك من حرج ، فقد أعطيتهم وزنا مضبوطا ، ولن يؤنبك ضميرك ، فأنت لم تغش أحدا ·

فقال : ان أحدا لن يغشنى بعد اليوم · آه ! ليتنى ذهبت الى المدرسة · انى لا أعرف كيف أكتب اسمى ·

فقلت مرحبا بالفكرة : انك تستطيع أن تأتى الى هنا اذا شئت · فقال فى حزن : كيف أبدأ فى سن الخمسين ؟ لقد فات الأوان · ان رجلا متزوجا وله تسعة أطفال قد فاته الأوان ·

وكان قوله هذا أقوى أثرا فى نفس « دون » من كل ما أقوله ويقوله أى مدرس غيرى · لقد أدرك « دون » الآن قيمة ما يتلقاه المرء من قسط ضئيل من التعليم ·

وقال بيرت ايشام : لقد كنت أسائل نفسى الآن عما اذا كنت متزوجا يا مستر ستيوارت · أنا أعلم أنك بلغت السن التى تؤهلك للتدريس ، والا لما جئت الى هنا ، واذا كنت قد بلغت سن التدريس ، فقد بلغت سن الزواج ·

فقلت ضاحكا : لا ٠ لست متزوجا ٠ ولا توجد العروس ٠

فقال متهللا : اذن فعندى عروس لك ٠ اسمع ٠ انى أريد أن أفعل شيئا من أجلك ٠ ان ميى وودز المدرسة بمدرسة « آبرلونسم » جميلة كالجرو الأرقط ٠ انها الفتاة التى تصلح لك ، فشعرها أسود طويل ، وعيناهـــا عسليتان كبيرتان ، تظلهما أهداب ثقيلة ٠ لو أنى كنت شابا عزبا لخطبتها لنفسى ٠

وحين قال بيرت ايشام قوله هذا ضج تلاميذى بالضحك ، حتى اضطررت أن أدق على الحائط بيدى لكى يحافظوا على النظام ٠ وكان « جاى هوكنز » و «أوفا سليبرز» يضحكان فيهتز جسماهما من فرط الضحك ، وكانا يتهامسان ثم يضجان بالضحك عاليا ٠ وذلك لأنه منذ أن ذهب « جون كونوييى » الى حانوت نانسى كوشران انقطع عزف الجيتار والغناء ، فلم يعودا يستمتعان به فى أوقات الدراسة ٠ وكانا ينصتان الى كل كلمة قالها بيرت ايشام ، على الرغم من أنه حاول أن يكون حديثه همسا ٠ وقبل أن يمضى أكد لى أنه سيرتب كل شىء مع « ميى وودز » ٠

(٧)

وكان سعى « بيرت ايشام » سعيا حثيثا ٠ ففى اليوم التالى جاء يقول : انه قد «رتب» كل شىء ، وضرب لى موعدا مع ميى وودز ٠ ثم قال : لقد حدثتها عنك ليلة أمس ٠ ذهبت الى منزل « أوسكار بنيكس » حيث تقيم ، وقلت لها انك أصلحت من شأن المدرسة التى كان تلاميذها يدفعون كل مدرس يجيئها الى الفرار بجلده ، بل قلت انك عرفت بالحساب عدد أحمال الفحم التى تحملها عربتى ٠

وتابع حديثه قائلا : ان هذا كله أثار اهتمامها ٠ لقد كنت صريحا معها ، وكشفت لها أوراقى ٠ قلت لها انها فى حاجة الى رجل مثلك ، وانك فى حاجة الى فتاة مثلها ٠ اننى لست وسيط زواج ، غير أنى أعتقد أنكما ستكونان خير زوجين شهدتهما هذه البقاع ٠ انه ليسعدنا أن يقيم بيننا فى لونسم فالى زوجان مثلكما ، وأن تقضيا حياتكما بين ظهرانينا ٠ والآن قد ضربت لك موعدا معها لكى تذهب وتراها فى بيت « أوسكار بينكس » مساء الغد ، فى الساعة

الثامنة ٠ انه لا يبعد أكثر من ميلين ، ولن تجد صعوبة فى العثور على المنزل ٠ انه أول بيت يقع الى يمينك ، بعد أن تتجاوز مبنى المدرسة ٠

فقلت له : سأكون هناك ٠

ولم يعد لى من الأمر شىء ٠ انى لم أقل له أن يضرب لى موعدا ، ولم يحدث أن واعدت فتاة دون أن أراها ، ولم أضرب فى حياتى الكثير من المواعيد٠ وكان لا بد أن أحافظ على الجزء الخاص بى من الصفقة ٠ لقد كانت هذه خبط عشواء ، فأنا لم أكن أعرف « ميى وودز » ، ولكننى قلت فى نفسى انها اذا كانت مدرسة واذا كانت جميلة بذلك القدر الذى وصفه ، فهى لابد تصلح لى ٠

وفى نحو السابعة من ذلك المساء ، كنت أسير فى طريقى الى « آبر لونسم » ٠ وكنت قد تريثت حتى يسكن الغبار حين يسقط الندى ، قبل أن أشرع فى المسير ، اذ كنت أرتدى حذاء أبيض اللون ، ولم أكن أريده أن يصبح بنى اللون من أثر الغبار٠ولم أكن أريد أن يلطخ الغبار بذلتى البيضاء٠ وكنت أريد أن أرى « ميى وودز » أننى كما وصفنى بيرت ايشام لها ، وأكثر ٠ كنت أريد أن أفاجئها ٠ لقد كان الأمر خبط عشواء بالنسبة لكلينا ٠ وأخذت أفكر وأنا سائر فى طريقى فى أن مثل هذه المواعيد تفضى الى قيام عاطفة عميقة ، وكثيرا ما تنتهى بالزواج ٠ وكانت هذه الأفكار تتسابق فى رأسى اذ أسير سيرا حثيثا فى الطريق الملتوى المتعرج ، وأنا أحاذر أن أشدد الوطء على الأرض ، حتى لا أثير الغبار من تحت قطرات الندى ، الرقيقة رقة النسيج الشفاف ٠

ومررت فى طريقى بكنيسة الايمان ، وكان قد تجمع عندها جمع صغير من الرجال والنساء والأطفال ، وكان الرجال يحملون فوانيس غير مضاءة ، أما النسوة فكن يحملن أطفالهن ٠ انهم بحاجة الى هذه الفوانيس لأنهم سيمكثون حتى ينحدر القمر الى المغيب ٠ وعلى بعد خطوات معدودة ، على الجانب المقابل من الطريق ، كانت تقع كنيسة مذهب الارادة الحرة ، التى يتردد عليها « جون كونوييى » ٠ والتقيت بأتباع هذه الكنيسة وهم فى طريقهم اليها ، وكان الرجال يحملون فوانيس غير مضاءة ، وكانت النسوة يحملن أطفالهن ٠

وكنت قد علمت من أختى ومن أهالى لونسم فالى ، أنه اذا أقيم اجتماع فى احدى الكنيستين فى ليلة ما ، أقيم اجتماع فى الكنيسة الأخرى ٠ فقد كان التنافس بين هاتين الكنيستين على أشده ٠ أما فى لونسم فالى فلم يكن

هناك كنائس مختلفة ، ولم أسمع أحدا يتحدث بذلك . ويتبين من أحاديث القوم أن هنـــاك جنتين : جنة لأتباع كنيسة الايمان ، وجنـــة لأتباع كنيسة الارادة الحرة . وكانت الكنيستان تتنافسان كما لو كانتا محلين تجاريين يقعان قبالة بعضهما بعضا فى شارع واحد ، يبيعان سلعا من نوع واحد ، مصنوعة فى مصنع واحد ، غير أن كل تاجر يبيع بضاعته الى الراغبين فى الشراء ، بكلام يختلف اختلافا طفيفا عن كلام الآخر . وقد كان هذا الشعور الدينى يفرق بين الناس أكثر مما تفرقهم السياسة . وكانت لونسم فالى فى الواقع عالما صغيرا قائما بذاته . غير أنها فيما يتعلق بالاعتقاد فى الآخرة كانت تنقسم الى عالمين . وكان على المرء أن يؤمن بأحد هذين العالمين ، وهو مكره على الانحياز الى احدى الكنيستين . وقد نأيت بنفسى عن كلتيهما ، وان كنت قد انتهيت بميلى الى كنيسة الارادة الحرة ، لأننى كنت أسكن مـــع « جون كونوييى » أحد أعضائها المجدين العاملين .

وضحكت لنفسى ، بعد أن جاوزت الجموع المتجهة نحو كنيسة الارادة الحرة ، من قول جون كونوييى لى على أثر زيارته « لنانسى كوشران » اذ قال « انها من أتباع الكنيسة المخلصين ، بيد أنى قلت لها فى جلاء ووضوح اننا لا نريد ازعاج مدرسة لونسم فالى بالغناء والعزف عـــلى الجيتار فى أوقات الدراسة . لقد كانت هذه أول مرة أدخل فيها حانوتها ، فاستولى عليها رعب قاتل حين رأتنى . لقد ارتعدت فرائصى منها أنا كذلك » .

ولم يكن القمر بنوره الشاحب يرتفع كثيرا فوق التلال الخضراء الراقدة تحت السماء . لقد كان رقيقا ساطعا جميلا . وكانت سهام ضوئه الرخصة المنتشية تغمر لونسم فالى بضوء ذهبى وفضى . انها الليلة التى يستحب فيها ضرب المواعيد . انها الليلة التى يحلو فيها للمرء أن يكون شابا ، يرتدى حلة بيضاء ، ويسير حاسر الرأس ، وشعره الحالك السواد قد سوى الى الوراء ، ناعما مصقولا . انها الليلة التى يحلو فيها للشاب أن يزور فتاة جميلة . لقد كان يحس بالحب فى قلبه وعقله والهواء الذى يتنفسه . انه الوقت الذى يستحب فيه أن يذهب ليلتقى بفتاة جميلة لم تقع عليها عيناه من قبل . وألهمت البلابل والحشرات فصدحت بالغناء ، ولم يكن لى أن ألومها ، فلقد كنت أنا كذلك أغنى ، اذ كان شىء فى أعماقى يدفعنى الى الغناء وأصبح الطريق البعيد النائى قريب المنال .

وكان الطريق يعبر الجدول المعروف باسم جدول لونسم ، وحين قفزت من فوق الجدول حتى لا يتسخ حذائى الأبيض ، كان لون مائه ذهبيا ، ثم

جعله ضوء القمر فضيا • يالها من ليلة ! ويالها من رحلة جميلة ! ويالى من رجل عاطفى ، فقد أخذت أحلم بما يمكن أن تكون عليه « ميى وودز » ، وأسائل نفسى اذا كانت على ذلك القدر من الجمال الذى وصفه بيرت ايشام • وفضلا عن أنى وقعت فى حبها ـ اذ كانت ليلة مثل هذه توحى بالوقوع فى الحب ـ فقد أخذت أفكر فى أننا يمكننا أن نتحدث قليلا فى شئون العمل ، فى ذلك اللقاء الأول بيننا ، كأن نجعل مدرستينا تتباريان فى التهجية ، وفى حل المسائل الحسابية ، وفى كرة القدم ، بل يمكن أيضا أن ننظم لهما رحلة ظهر يوم من أيام الجمعة ، ونجعل تلاميذنا يلعبون معا لعبة «عين الابرة» • وما أروعه من منظر ، اذ نشرف أنا وهى كأب وأم ، علـى أسرتنا الكبيرة الموحدة ، ونسهر على رعايتها ••• كانت هذه الأفكار تتسابق الى عقلى حين أخذت أسير فى ظلال حجبت عنى نور القمر •

ففى هذا المكان كان جدول لونسم ، وطريق جدول لونسم يفترقان كأنهما عاشقان ، فكان الجدول يغيب فى أعماق الغابة المظلمة ، المثقلة بالأوراق والأزهار العطرة ، وعند هذه البقعة كانت الغابة تغلق جانبى الطريق كليهما• وأخذت أسير ، وأنا أتحسس سبيلى بقدمى ، فى طريق غريب مظلم كالزمان • ونظرت الى يسارى والى يمينى على أجد بصيصا من النور ، بصيصا من أشعة القمر الذهبية المنبسطة فوق الحقول الطليقة ، وفوق الحقول التى انتشر فيها القمح والشوفان الآخذان فى النضوج ، والتبغ الأخضر الفتى ، بأوراقه العريضة ، والحنطة اليافعة القوية وهى تبـدو كسحب مظلمة • وكنت أقـول لنفسى انه لم يعـد أمامى سوى بضع ياردات ، ثم أصـل الى النور ، فأبلغ بغيتى ، حين اندفعت من بين الأشجار أجسام كأنهـا سرب من طيور مذعورة ، تفر طالبة النجاة بحياتها • وصفعنى أحدها فوق الفك مباشرة ، ولطخ العصير شفتى ، وعرفت من طعمه ورائحته أنه عصير طماطم عفنـة •

وتوقفت عن المسير ، ولم يسعفنى التفكير • لقد كانت « بذلتى » البيضاء هدفا واضحا لهم ، كما أن الفرخ الأبيض الصغير الجاثم فى الليل فوق شجرة الشتاء العارية من الأوراق ، يكون هدفا واضحا للبومة الناعقة • لقد كانوا يروننى ، وأنا لا أراهم•ولم أكن لأعرف عدد هؤلاء الذين يرجموننى الا حدسا وتخمينا ، من الطريقة التى كانت تنهال بها على الطماطم والبيض العفن (الذى تنم عنه رائحته) والبيض غير العفن ، والتفاح ، والقرع ، والبطيخ ، والشمام ، كأنها سيـل منهمر من حبات البرد • ولم يكونوا

ليخطئونى ، اذ كانت القذائف عديدة ، وتطلق من زوايا متعددة ، نحو هدف أبيض واحد ٠ وسالت بيضة عفنة فوق شعر رأسى فأحالته أصفر اللون ٠ وجاءت بيضة غير عفنة فأصابتنى حيث أصابت الطماطم من قبل ٠ ثم انهالت قرعة ، أولعلها بطيخة أو شمامة ، فأصابت ساقى فوق الركبة ، ثم تفتتت كسرا ٠ ووضعت يدى فوق عينى حتى أقيهما ، وأخذت أعدو ، ظنا منى أنى قد أستطيع تحدى ذلك السيل المنهمر ، ولكننى لم أستطع أن أفلت منـــه ٠ ثم سمعت ضحكات وصيحات تنبعث فى الظلام من تحت الشجر ، ولا بد أنهم كانوا خمسين صبيا ورجلا ، وكان ما يحدثونه من ضوضاء يفوق ما يمكن أن يحدثه جميع تلاميذى بمدرسة لونسم فالى ، لو أنهم كانوا يصيحون بأعلى أصواتهم فى وقت واحد ٠

وفى منتصف الطريق ، قمت بحركة التفاف سريعة ، وبدأت أعود من حيث أتيت ، فقد كان يغمرنى من قمة رأسى الى أخمص قدمى شىء يتساقط قطرات ، ولم يكن حلو الرائحة أو حلو المذاق ٠ وأصابنى الرجم فى فمى عدة مرات ٠ وأخذت أعدو فوق الطريق المغطى بالغبار كما يعدو الحصان ، وظلت القذائف تنهال على ، ثم خرجت الجموع الضاحكة المجنونة من الظلمات ، تجـــد فى أثرى ، وهى تطلق صيحات الحرب ٠ وانطلقت المسدسات ، ورصاصاتها تخترق أوراق الشجر من فوق رأسى ، فكنت أسمعها تضرب الأوراق ، وتصطدم بأغصان الأشجار وجذوعها ، ثم تئز وهى تنطلق فى الفضاء ٠

وحين عدت الى الضياء والنور ، أصبح جدول لونسم فى عينى فى لون الرصاص ، وهو الذى كان يبدو ذهبى اللون حين عبرته فىرحلة الذهاب. ذلك لأننى كنت أعدو كما لم أعد فى حياتى من قبل ، والجموع تجد فى اثرى ، وكان البيض والطماطم تطير فى الهواء ، لأنها كانت خفيفة ، وتصلح للطلقات بعيدة المدى ٠ وخشيت أن أنظر الى الوراء ، اذ كنت أحاول أن أسبق هذه الجموع الصارخة الثائرة ٠

وقبل أن أصل الى كنيسة الارادة الحرة ، ألقت ذراع قوية ببيضة عفنة من فوق نتوء تل ، عند ثنية فى الطريق ، فسقطت كأنها قذيفة مدفع ، وأصابت هدفها اصابة محققة ، فقد انفجرت فوق أم رأسى ٠ وخطر لى أن أهرع الى داخل الكنيسة ، بيد أن شيئا كان يستحثنى على السير ٠ وجعلت أدفع بدنى المنهوك القوى بكل ما لدى من طاقة ٠ وأيقنت أنهم لو تعقبونى

الى أبعد من ذلك فسوف ألقى بنفسى داخل الكنيسة الثانية ، ولكنهم لم يفعلوا • وسمعت ضجيج ضحكاتهم وصيحاتهم المجنونة ، تحملها الرياح المنحدرة نحو الوادى •

وحين اجتزت كنيسة الايمان كنت أنتزع قدمى من الأرض انتزاعا • وكـــان يغمرنى زلال البيض ممزوجا بالطماطم العفنة ، والطيخ والقرع والعرق • وابتلت بذلتى البيضاء بللا جعلها تلتصق بجسمى ، وتحيط به كأنها سراويل طويلة • وكان باب الكنيسة الأمامى مفتوحا على مصراعيه فى تلك الليلة القائظة ، وكانت الكنيسة غاصة بالناس ، وكانوا يروحون بأنواع مختلفة من المراوح • فهى اما قطع من ورق الكرتون مما يستعمل فى ظهر « نوت الكتابة » ، واما فروع من أوراق أشجار الزان • ورأيت نانسى كوشران تقف فى الصدر ، وهى تعزف على الجيتار ، وتغنى أغنية خاصة هى : « لقد أعددت للسماء » •

ولم أقف طويلا بباب الكنيسة ، فيممت وجهى شطر الطريق ، الذى لم يعد جميلا كما كان • وحين بلغت بيت آل كونوييى ، لم أستطع الدخول بتلك الملابس التى كنت أرتديها ، تلك الملابس البيضاء التى لن أرتديها أبدا فى الليل مرة أخرى ، ما بقيت فى لونسم فالى • ووجدت فى الشرفة الخلفية قطعة من الصابون موضوعة فى الوعاء الخاص بها ، ووجدت فى جدول لونسم مكانا ، المياه فيه عميقة ساكنة ، وتحوطه أشجار الصفصاف ، ولم يكن هناك سوى ثغرة واحدة ينفذ منها شعاع القمر • وخلعت ملابسى وحذائى ، اذ حتى ملابسى الداخلية وجواربى كان يغمرها البيض العفن • وغسلت جسمى جميعا بالماء والصابون ، وغسلت ملابسى ونشرتها فوق الشجيرات ، لكى تجففها شمس الغد، ثم هرعت الى المنزل حتى أصل قبل عودة «كونوييى» من الكنيسة •

(٨)

وسرت أنباء ذهابى لملاقاة « ميى وودز » ، المدرسة بمدرسة آبرلونسم، فى لونسم فالى ، كما تسرى النار فى الهشيم ، وكان الكل يضحكون • وحين كنت أتناول طعام الفطور فى صباح اليوم التالى على مائدة كونوييى ، كان كل فرد من أسرته يغلبه الضحك • وحتى « فلوسى » الصامتة كانت ترى فى الأمر ما يثير الضحك • وحين نظرت الى تبسمت كما لم تتبسم من

قبل • وكان « جون كونوييى » ينفجر ضاحكا ، ثم يروى نكتة ، يحاول بذلك أن يوهمنى أنه يضحك على شىء آخر ، ولكنى كنت أعرف مم يضحك • وابتسمت « بيرتا كونوييى » وهى تصب لى القهوة ، وكان « دون » ينظر الى من الجانب الآخر للمائدة ويبتسم ابتسامة عريضة كأنه حيوان الأبسوم • لقد كان كل منهم يريد أن يضحك ، وكانوا يحاولون كتمان الضحك فينفخون كالضفادع ، ولكن أحدا منهم لم يشر بكلمة الى ما حدث ، ولم أفه أنا كذلك بكلمة واحدة •

وحين ذهبت الى المدرسة ابتسم تلاميذى كلهم ما عدا واحدا هو « جاى هوكنز » • وكانوا يريدون أيضا أن يضحكوا ، فقد سمعوا « بيرت ايشام » وهو يضرب الموعد لى • وأخذوا يتهامسون ويتبادلون الابتسامات ، وفى كثير من الأحيان كان الواحد منهم يوجه نظره نحوى مباشرة وهو يبتسم • بيد أن أحدا منهم لم يتحدث بالأمر حديثا يصل الى سمعى • وحين خرجوا الى الفناء أخذوا يضحكون كما لم يضحكوا من قبل • فقد كان فى الجو شىء مضحك ، تناقلته أجنحة الهواء •

وانتهت « فسحة » الظهر ، وعدنا أدراجنا الى حجرة الدراسة ، وحينذاك توقف بيرت ايشام بعربته التى يجرها البغلان ، تحت ظلال شجرة الجميز ، ثم قفز منها ، وأخذ يجرى متجها نحو المدرسة بساقين متصلبتين • وقابلته عند الباب ، واتجه كلانا نحو عربة الفحم ، حتى لا يسمع تلاميذى حديثنا •

فقال معتذرا : يؤسفنى ما حدث ليلة أمس • يبدو أننى السبب فى كل ما حدث •

فقلت : لقد حدث الكثير من غير شك ، وكنت أنا الضحية •

فقال موضحا : دعنى أخبرك بما حدث • ان هذا هو سبب تأخيرى فى بيع الفحم اليوم • اننى لم أسمع بالأمر الا هذا الصباح • ان الفتى « بيل كوفى » الذى تصاحبه « مس وودز » ، رجع فجأة من مصانع أوكلاند للصلب فوجد أنها ضربت لك موعدا • وجن جنونه حين رفضت أن تلغى موعدك من أجله ، وقال انه سيفسد هذا الموعد بطريقة لطيفة !

فقلت : لقد أفسده من غير شك ، ولكن بطريقة غير لطيفة • انك لم تخبرنى أنها تواعد أحدا •

فقال بيرت بصوت هادىء : أجل انها صديقة « لبيل » منذ بضع سنوات • ولكنى ظننت أن لديك فرصة كبيرة للتغلب عليه • لقد ذهب الى تلاميذ مدرسة آبرلونسم ، وأنت تعلم أنهم لا يحبون تلاميذ مدرستك ، بله رجل غريب مثلك ، فأعدوا العدة للهجوم عليك • ان بيل كوفى هو نفسه أحد تلاميذ مدرسة آبرلونسم ، ويكاد يعرف كل تلميذ فيها •

فقلت : فليأخذ « بيل » « ميى وودز » فذلك ليس من شأنى • اننى لم أرها ولم أره ولا يعنينى أن أراها •

فقال : يؤسفنى أن يحدث ذلك الذى حدث بتلك الطريقة • هل أصابك منهم أذى ؟

قلت : ليس أذى بمعنى الكلمة •

قال : وهل طاردوك ؟

قلت : حتى كنيسة الايمان فقط !

قال : يالله ! أليس هذا شيئا مريعا !

وصعد الى عربته ، وعدت الى حجرة الدراسة ، وحينذاك ، عرفت لأول مرة ، أن كل شخص يرى فى النكتة ما يضحك ، حين تكون هذه النكتة على حساب شخص غيره •

(٩)

كثيرا ماتعود للانسان ذكرى حادث مر به ، عودا على أعين الناس • فقد رجعت من المدرسة فى ذلك اليوم ، وجلست فى الشرفة حيث كان يجلس أفراد أسرة كونوييى يروحون على وجوههم بأوراق أشجار الصفصاف ، ويذبون بها الذباب ، ويحركون الهواء الراكد • ثم حدث ذلك الأمر ؛ فقد رأيت ، وأنا أتطلع الى طريق جدول لونسم ، سيارة قادمة ، وكانت تفوق فى حجمها أية سيارة أخرى رأيتها فى لانزبيرج • كانت سيارة خضراء ذات سقف يرفع ويخفض ، وكان سقفها حينذاك مخفوضا ، وكان يقودها شاب يرتدى قميصا من الحرير المخطط ، وياقة عالية ، ورباط عنق زاهى اللون ، وفى فمه سيجار طويل ، وكان يلاحق السيارة خيط رفيع من الدخان ، تعبث

به الريح فتحيله هباء منثورا . وكان يقود السيارة باحدى يديه ، ويحيط بيده اليمنى فتاة جميلة ، فقد كانت تبدو جميلة من مكاني في الشرفة ، وكانت الريح تطوح بشعرها الأسود الى الوراء .

وقلت متسائلا وأنا أعجب كيف يتسنى لهذه السيارة الطويلة أن تسير فى منحنيات طريق لونسم فالى الضيقة : ترى من يكون هذا ؟

فأخذ كل من كان فى الشرفة من آلى كونويبى يضحكون ، وانفجر الضحك المكتوم الذى كانوا يحاولون أن يطلقوه من عقاله ، كماينفجر الماء حين ينهار السد المقام من الطين ، تحت تأثير الضغط . لقد بلغ بهم الضحك أنهم لم يستطيعوا أن يجيبوا سؤالى . ودارت السيارة فى المنحنى ، وغابت عن الأنظار .

وأخيرا قال دون بين نوبات من الضحك هذا « بيل كوفى » ومعه « ميى وودز » . وأحسست بوجهى يغشاه وهج ساخن .

وقلت : لابد أنه يملك مصانع أوكلاند للصلب .

فقال دون : كلا . انه مجرد عامل فيها . انه لحام .

وقال جون بعد أن فرغ من الضحك : لقد نجح « بيل كوفى » أكثر مما كان يتوقع أحد ، ولم يكن الناس هنا يعتقدون أنه يصلح لشىء ، اذ كان يرفض الذهاب الى المدرسة ، ولم يتعد فى دراسته كتاب المطالعة الأول ، ثم ترك المدرسة ، وحاول أن يشتغل بالزراعة فلم يستطع . ثم عمل فى مصانع أوكلاند للصلب ونجح ، وقد سمعت أنه يكسب ما يزيد على ثلثمائة دولار فى الشهر .

وتابع دون الحديث قائلا : لم يمض على التحاقه بمصانع أوكلاند سوى عامين ، وفى العام الأول رجع ومعه سيارة جديدة ، وكان يرتدى قميصا ثمنه عشرة دولارات ، وحذاء ثمنه خمسة عشر دولارا . وكانت كل فتاة تحاول أن تصادقه ، غير أن « ميى وودز » انتصرت عليهن جميعا ، وهى تثير غيرته بأن تضرب موعدا لشخص غيره من آن لآخر .

ثم قال جون فى زهو وخيلاء : ان ميى وودز حاصلة أيضا على الشهادة الابتدائية .

وقلت فى نفسى : يالى من أحمق • لن أقبل بعد الآن موعدا عشوائيا • لقد أيقنت أن هذه الحادثة سوف يتناقلها أهل لونسم فالى ، فتذهب فى التاريخ مثلا ، واننى لن أستطيع أبدا أن أمحوها من الأذهان •

(١٠)

وفى ظهر يوم الجمعة ، من الأسبوع الثالث ، صرفت التلاميذ لكى يعودوا الى بيوتهم • وكان على أن أحضر من لانزبيرج أشياء كانت المدرسة فى حاجة ماسة اليها • وكانت هناك أعمال كثيرة يتعين على القيام بها • ولكى أصل الى لانزبيرج ، كان على أن أمشى خمسة أميال حتى أبلغ الوادى وأستقل القطار • وكنت قد سمعت الكثيرين من المدرسين يقولون ان التدريس عملية مملة غير مثيرة ، ولكننى وجدت فيها شيئا مثيرا مشوقا كل التشويق ، وهذه الأسابيع الثلاثة بدت وكأنها أيام ثلاثة • لقد كنت أحاول أن أنقل ما لدى من معلومات ضئيلة الى فتية حظهم من العلم أضأل من حظى ، بيد أنى تعلمت من تلاميذى ، فى هذه الفترة من الزمان ، ومن أولى الأمر فى الاقليم ، وفى آبرلونسم ، أكثر مما تعلمته فى أى وقت مضى •

ومشيت ساعة فى حر أغسطس الخانق ، وغباره المتراكم كالسحب ، الى أن بلغت الوادى ، وهناك ركبت القطار ، واذ هو يتجه بى نحو لانزبيرج ، أخذت تعود الى ذهنى الأفكار التى كانت تراودنى وأنا أركب هذا القطار نفسه منذ ثلاثة أسابيع خلت • ان المخاوف الصغيرة التى كانت تراودنى لم تعد تقلق بالى ، فقد كانت هناك أمور أخرى غير المحافظة على النظام ، هى التى تقلقنى • وحين بلغ القطار لانزبيرج ، هرعت الى بيتى •

وفى صباح اليوم التالى ، ذهبت مبكرا مشرقا ، لكى أقابل « جون هامبتون » ، وأعرف منه هل سيارته القديمة لاتزال قادرة على الصعود فى الأرض المرتفعة قدرتها على الهبوط فى الأرض المنخفضة ؟ فقال انه أصلحها من جميع الوجوه ، ووعد بأن يوصلنى بها الى لونسم فالى يوم الأحد • ولما كان فى حاجة الى احضار ما تحتاج اليه مدرسته من أدوات ، فقد ذهبنا معا فى سيارته الى لانزبيرج ، ثم ذهبنا الى مكتب مستر ستاجرز ، مدير مدارس المقاطعة •

وسألنى مستر ستاجرز قائلا : كيف تسير فى عملك يامستر ستيوارت؟

فقلت : على ما يرام ياسيدى . هل بلغتك أية تقارير ؟

قال : لا ، لم يبلغنى شىء بعد .

ثم قال فى صوت يكاد يكون همسا : اياك أن تكون قد أتيت الى هنا لكى تتخلى عن المدرسة ؟

فقلت : لا ، أبدا . لقد جئت فى طلب بعض الأدوات .

فسألنى قائلا ، وقد سره أنى باق فى مدرسة لونسم فالى : وما هى الأدوات التى تريدها ؟ أتريد دلوا للفحم ، ومماحى للسبورة ، وألواحا للنوافذ ؟

قلت ــ وجون هامبتون ينظر الى نظرة غريبة : أريد كل هذا وأكثر منه أيضا . أريد « جوالين » من الجير ، وجهازا لتبريد الماء له صنبور ، وطلاء يكفى لطلاء مبنى المدرسة ، وفرشا للطلاء ، ومغرفة ، ومطرقة (قادوما) ومسامير ، ومجرفة ، وفأسا ، وجاروفا .

وهنا قاطعنى مستر ستاجرز بقوله : على رسلك . من الذى سيقوم بطلاء المدرسة ؟

قلت : سأقوم أنا بطلائها . اننى أريد أن أنظف ذلك المكان تنظيفا شاملا .

فسألنى قائلا : وماذا تريد أن تصنع بالجير ؟ ان هذه أول مرة يطلب فيها أحد منى جيرا .

قلت : سوف أستخدمه بمثابة مطهر فى دورات المياه التى توجد خارج المبنى ، فالذباب لا يتجمع ليأكل من الجير .

وبعد أن ناقشنا الوجوه التى سوف تستخدم فيها كل أداة من هذه الأدوات ، وافق على اعطائى اياها جميعا ، رغم أنى جاوزت القدر المخصص لى ، وذلك لأنى قبلت طلاء مبنى المدرسة دون أن يتكلف ذلك شيئا . وكتب مستر ستاجرز اذن الشراء الخاص بطلباتى ، على أن أشتريها من محلات لوسن للصناعات المعدنية .

وعند ظهر يوم الأحد ، وليت وجهى شطر لونسم فالى ومعى جون هامبتون . وأخذ وهو يقود سيارته ، يقص على خبراته العديدة فى ميدان

التدريس · وقال انه قد يخيل الى فى أول عهدى بالتدريس ، وأنا بعد فى عنفوان الشباب ، أننى سوف أقلب الأرض ظهرا لبطن ، حتى أرى ما يقع تحتها ، بيد أنه حين تمر السنون ، سوف أتقاعس ، وأقنع بقبول ما يقع فوقها · وتركته يتكلم ، فقد كنت أركب فى سيارته ، وكان قد أبدى صداقته بأن ساعدنى فى الحصول على هذه المدرسة · تركته يتكلم وأنا أنصت · وما جاءت الساعة السادسة حتى كنا قد وصلنا الى بيت كونوبيى ، اذ قطعنا ما يقرب من سبعة أميال ونصف ميل فى الساعة ، وكنت أسمع أجراس الموت تدق فى أذنى بعد كل ذلك الضجيج الذى كان يحدثه محرك سيارته ، أثناء صعودها التلال شديدة الانحدار ·

ورجع جون هامبتون الى لانزبيرج ، وحين فرغت من تناول طعـــام العشاء ، عاوننى دون كونوبيى فى حمل الجير الى المدرسة · فحملنا « جوالا » الى دورة المياه الخاصة بالبنين ، وحين دخلنا كانت هناك مفاجأة فى انتظارى · اننى حين صرفت التلاميذ منذ يومين ، وكان ذلك يوم الجمعة ، لم تكن هناك علامة واحدة على الجدران · والآن وجدت عليها علامات تغطيها جميعا · لقد كانت كلها رسوما هزلية مبتذلة تمثلنا جميعا ، وقد كتب اسم ميى وودز الى جوار اسمى ، مع رسوم هزلية مبتذلة تمثلها هى الأخرى · وكان اسم « فلوصى » أخت « دون » منقوشا على الجدران جميعا ، وفى أعلاها ، الى جوار اسمى ، وقد رسمت لها هى الأخرى رسوم بذيئة ·

فقلت أسائل جون : منذا الذى فعل شيئا كهذا ؟ أتظن أنه واحد من التلاميذ ؟

فقال ما أظن ذلك · أعتقد أنها فعلة شخص لا يذهب الى المدرسة ·

لقد كان أول ما تبادر الى ذهنى ، أننى وقد صرفت التلاميذ ظهر يوم الجمعة ، فمن المحتمل أن بعضهم تسلل راجعا الى المدرسة ·

وأخذت أنا و « دون » نرش الجير فى دورة المياه ، وتركنا ما تبقى فى « الجوال » فى الداخل ، لاستعماله فى المستقبل · ثم ذهبنا الى دورة المياه الخاصة بالبنات فلم نجد على جدرانها أية كتابة أو رسوم · ونثرنا الجير فيها ، ثم عدنا الى بيت كونوبيى فأحضرنا دلوا من الماء ، وقطعة من الصابون ، ومكنسة ، ورجعنا الى المدرسة فأزلنا ما على الجدران من رسوم بذيئة ·

(١١)

وفى يوم الاثنين قلت لتلاميذى ان شخصا رسم صورا بذيئة فوق جدران دورة المياه الخاصة بالبنين ، ولما كنت لا أصدق أن أحدا من تلاميذى يمكن أن يفعل شيئا كهذا ، فاننى أرجو أن يتعاون معى كل واحد منهم على حماية مبنى مدرستنا ، وأن يساعدنى فى المحافظة على نظافتها ٠ وقلت لهم : اننا قد أزمعنا طلاء المبنى ، وان ذلك المبنى هو بيتنا ، واننا نكون وحدة كما أن الأسرة وحدة ، وان علينا أن نعمل متكاتفين ٠ وقلت لهم انه اذا عمد واحد منا الى الشد ، فعلى الآخر أن يدفع ٠ ثم أوضحت لهم أننا لن نحتاج الى مغرفة أخرى نغرف بها الماء ، وأن دلو الماء لن يستعمل الا لكى يوضع فيه الماء فحسب ، اذ أصبح لدينا الآن جهاز لتبريد الماء ، وأريتهم ذلك الجهاز الجديد ، وهو أول واحد يشهدونه فى حياتهم ، ففرحوا وابتهجوا ٠

وفى عصر ذلك اليوم ، عرفوا أننا جادون بشأن طلاء مبنى المدرسة ، فصنع « جون كونوييى » لنا سلالم ، وجاء بالمعدات الى المدرسة ٠ وحين انتهت الدراسة ، شرعنا نحن الاثنين فى طلاء المبنى ٠ وكثيرون من التلاميذ ، الذين يهرعون الى بيوتهم بعد انتهاء الدراسة ، ظلوا بالمدرسة ليرقبونا ونحن نقوم بالطلاء ، كذلك بقى « جاى هوكنز » و « أوفا سلييرز » ٠

وقال « جاى هوكنز » اننى أستطيع الطلاء يا مستر ستيوارت ٠ سأساعدك ان لم تر فى ذلك بأسا ٠

فقال سلييرز : وأنا أيضا أستطيع الطلاء ٠

وأخذت أنا و « جاى هوكنز » نكشط الطلاء القديم ، فى حين شرع « أوفا » و « دون » فى طلاء الطبقة الأولى ٠

والنهار فى الصيف طويل ، وظللنا نعمل حتى ساعة متأخرة ٠ وأنجزنا جزءا لا بأس به فى يومنا الأول ٠ وبينما كنت أنا وجاى نزيل الطلاء القديم ، وجدنا بقعة بنية اللون فى أعلى الجدران ، على بعد نحو أربع أقدام من الأرض ٠ وكانت على شكل بثرات كبيرة بنية اللون كأنها أوراق البلوط فى الخريف ٠ وأخذ جاى هوكنز يضحك حين أخذت السكين وكشطت واحدة من هـــذه البقع ٠

وسألنى جاى قائلا : ألا تعرف ما هذا ؟

قلت : لست على يقين

فضحك جاى وهو يقول انه بصاق تبغ ٠ ان شخصا بصق على الجدران ٠ فقلت وأنا أعجب من هو ذلك الذى يمضغ التبغ من تلاميذى غير جاى وأوفا : ماذا تعرف عن ذلك ؟

ووجدنا بصاق التبغ حول ظهر المبنى جميعه ٠ وكان هذا أمرا لابد لى من أن أضع حدا له ، قبل أن نطلى المدرسة بالطلاء الأبيض الجديد ٠

(١٢)

وكانت الكتابة على جدران دورة مياه البنين ، وبصاق التبغ على جدران المدرسة ، مبعث قلق وازعاج لى ، بيد أننى كنت أواجه مشكلة أخرى ، كانت مبعث قلق أكبر ٠ لقد كنت أعلم أن المدرسين فى مدرسة لانزبيرج لا يواجهون هذه المشكلة لأنه كان لديهم مدرس لكل صف ، من المرحلة الأولى الى المرحلة الثانوية ، وكان التلاميذ فى كل فصل فى مستوى واحد من العمر تقريبا ٠ أما هنا فلدى تلاميذ من الصف الأول الى الصف الثامن ، وكلهم يجلسون فى فصل واحد ٠ وكانت أعمارهم تتراوح بين خمس سنوات وعشرين سنة ٠ وكان هذا هو الشأن فى كل مدرسة ريفية بمقاطعة جرينوود ٠ ولم يصبح هذا الأمر موضع تفكيرى الا حين اشتغلت بالتدريس ٠

وكانت أشق مرحلة فى التدريس ، هى مرحلة المبتدئين ٠ فكنت أعلمهم ألف باء تاء على صورة قديمة مهلهلة ، ظلت تستعمل سنوات عديدة قبل مجيئى الى لونسم فالى ٠ وقد تعلم تلاميذ الصف الثامن حروف الهجاء على هذه الصورة نفسها ٠ وبعد أن أراجع معهم الحروف ، كانوا يعودون الى مقاعدهم ، ولا يجدون بعد ذلك شيئا يفعلونه ٠ لقد كانوا يحتاجون الى اهتمام أكثر من ذلك الذى كنت أستطيع أن أوليهم اياه ، وكان الكثيرون منهم يستولى عليهم النوم فى الفصل ٠ وتحيرت ماذا أفعل لعلاج هذا الموقف ٠

لقد كنت أعرف كيف كان المبتدئون يتلقون تعليمهم فى الماضى فى المدارس الريفية بمقاطعة جرينوود ، ذلك لأنى كنت مبتدئا فى هذا النوع من المدارس ، وكانوا يعلموننى القراءة على مثل هذ النوع من الصور ،

وما أزال أحفظ عن ظهر قلب ما هو مكتوب عليها • وقد حدث مرة ، بعد أن أفقت من اغفاءة ، أن تركت مقعدى ، وأخذت أتنقل فى أنحاء الفصل ، فعثرت على زنبار ميت ، وحملته الى المدرس ، الذى كان مشغولا بالتسميع لأحد التلاميذ ، فضحك التلاميذ أجمعون ، وضربنى المدرس « علقة » ساخنة ظللت أذكرها على الدوام ، ثم أعادنى الى مقعدى مرة أخرى • وظللت بعدها أخاف مدرسى هذا وأخشاه •

وحين كان يستولى النوم على واحد من هؤلاء الصغار الذين كنت أحاول تعليمهم ، لم ألجأ مطلقا الى ضربه ، بل كنت أتركه ينام ، اذ ماذا كان يمكن أن أفعل غير هذا ؟ ماذا كان يمكننى أن أفعل غير هذا وأنا أحاول أن أستمع ، مدى ست ساعات ، الى تلاميذ أربعة وخمسين فصلا ، وهم يتلون دروسهم ، وأعطيهم واجبات جديدة ، وأصحح أوراقهم ؟ ماذا كان يمكننى أن أفعل غير هذا وأنا أقوم بمهمة الفراش أيضا ، وأطلى مبنى المدرسة ، وأنظف دورات المياه ، وأنظف الفناء من القمامة وقطع الزجاج المتناثر ، وأحاول أن أجعل من المدرسة مكانا أجمل وأكثر جاذبية من البيوت التى يعيش فيها التلاميذ ؟

وفى عصر ذات يوم ، وكنا نقوم بطلاء مبنى المدرسة ، بلغنا منزل « كونوييى » فى ساعة متأخرة • وجلس جون كونوييى بجوار المائدة ، وكنت وأنا و « دون » نتناول الطعام • أما بقية أفراد الأسرة فكانوا قد فرغوا من طعامهم • وأخذت أحدث جون كونوييى عن المشكلة التى تواجهنى فى تعليم المبتدئين ، بيد أنه لم يكن يعرف شيئا عن التعليم ، ولم يفهم قولى ، وكان من رأيه أنه لا ينبغى للمدرس أبدا أن يسمح لطفل بأن ينام فى المدرسة • فقلت أجادله ان على المدرس أن يوجد للطفل شيئا يثير اهتمامه بدرجة تجعله يظل متيقظا ، وقلت انه اذا نقلت كل المدارس الريفية فى الاقليم الى الوادى ، وهو على وجه التقريب مركز كل هذه المدارس المحيطة به ، أمكن أن يسير العمل وفق النظام الذى تسير عليه مدرسة لانزبيرج ، حيث يقسم التلاميذ الى فصول ، وسوف يتطلب ذلك عددا أقل من المدرسين ، وسيكون لدى المدرسين تلاميذ يوزعون على الفصول وفقا لمستويات أعمارهم ، وحينذاك يختص مدرس واحد بالتدريس للمبتدئين •

واحمر وجهه حين سألنى : كيف يستطيع التلاميذ أن يصلوا الى المدرسة ، اذا كانت تقع فى مكان ناء مثل الوادى ؟ فقلت له : « ننقلهم فى سيارة أو فى

عربة نقل » فضحك ضحكة غليظة وقال انني لا أعرف شيئا عن الحالة التى يكون عليها طريق لونسم كريك فى فصل الشتاء · فقلت له انه سوف يأتى الوقت الذى نستطيع فيه أن نرصف الطرقات ، وفى هذه الحالة يمكننا أن ننشىء مثل هذه المدرسة · فقال انه اذا جاء مثل هذا الوقت ، الذى يأخذون فيه من الشعب مدرسة لونسم فالى ، تلك المدرسة التى تلقى فيها تعليمه هو وأولاده وأبوه وجده ، فانه يتمنى أن يكون حينذاك من الأموات ، فلا يدرى عن ذلك شيئا · وكان يهاجم فكرتى هذه فى عنف كما لو أن رجلا اقتحم حقله المزدهر بالتبغ النامى الأخضر ، فأخذ يحشها بالفأس ، وقال انها فكرة خطرة ، وانني اذا أردت أن أكون مدرسا صالحا ، وأن يظل عقلى سليما ، فيجدر بى أن أكف عن مثل هذا الحديث الأخرق ·

لقد كنت أقيم فى بيته ، وأعلم أبناءه ، فلم أكن لأستطيع أن أصارحه برأيى · بيد أننى عقدت العزم على أنه اذا قدر لى أن أتولى منصبا هاما فى التربية والتعليم ، واذا قدر لى أن أنتخب فى وظيفة المشرع على أية صورة من الصور ، فاننى سوف ألغى نظام الأمناء (*) ما استطعت الى ذلك سبيلا ، وليعنى الله عـــلى تحقيق ذلك · واذا لم أستطع أن أفعل ذلك بمفردى ، فسوف أمد يد المعونة لغيرى ، لكى يقوضوا هذا النظام · لماذا أكون ـ أنا المدرس ـ تحت رحمة جون كونوييى ؟ لماذا يكون لدى جون كونوييى سلطة أكبر من سلطة مدير مدارس المقاطعة ، الذى انتخبه أعضاء مجلس التعليم بمقاطعة جرينوود ، وهم بدورهم منتخبون من الشعب ؟ لماذا يكون لديه سلطة أقوى من سلطة الأعضاء الخمسة الذين يضمهم مجلس تعليم مقاطعة جرينوود ، وهم الذين انتخبهم الشعب لكى يخدموا أهداف التعليم من أجل الشعب ؟ لماذا يكون لى ـ أنا المدرس ـ سبعة رؤساء هم جون كونوييى ، وستاجرز مدير مدارس المقاطعة ، وأعضاء مجلس تعليم مقاطعة جرينوود الخمسة ؟ ان اكتشاف هذا الأمر لم يكن يحتاج الى أن يكون المرء مدرسا فى مدرسة لانزبيرج الثانوية ، حاصلا على نصيب كبير من التعليم ، فمدرس الصف الثامن يستطيع أن يحاج فيه · ان الأمناء يحكمون الأقاليم الصغيرة النائية حكما دكتاتوريا ·

ان جون كونوييى لم يتجاوز فى تعليمه الصف الثالث ، وكل ما يستطيع أن يفعله هو أن يشرف على وضع الفحم فى مخزن المدرسة ، وأن يصنع لنا

(*) الأمين هو عضو فى مجلس الأمناء ، ووظيفته الاشراف على ادارة مدارس أو معاهد بعينها ·

سلالم نستخدمها حين نقوم بطلاء المبنى ، وأن يطلب من نانسى كوشران أن تكف عن العزف على الجيتار فى أثناء اليوم المدرسى • انه يستطيع أن يفعل هذا ، بيد أنه فى خلال كل تلك السنين التى كان يناضل فيها الأهالى لكى ينتخبوه أمينا على الاقليم ، لم يحاول مطلقا أن يحث المجلس المدرسى لمقاطعة جرينوود على حفر بئر فى مدرسته ، ولم يستطع العمل على طلاء مبنى المدرسة، ولم يتطوع بحفر البئر أو طلاء المدرسة بنفسه ••• وفرغت من طعام العشاء وغادرت المائدة ، وجلست فى الشرفة ، لأستمتع بنسيم المساء البارد ، وأفكر فيما يمكن أن أفعله مع تلاميذى المبتدئين • لقد كانت مشكلة ، وكان على أن أجد لها الحل بنفسى •

(١٣)

قال أنيس بيلور أحد جيراننا ، وصاحب أحسن مزرعة فى بلدتنا ، لأبى ذات يوم انه لو استطاع أن ينفرد بنفسه فى مكان هادىء ، فترة طويلة من الزمن ، فانه يستطيع أن يفكر ولو كان فى حجرة من فولاذ • لقد كانت حجرتى هادئة الى حد ما ، غير أنها كانت ساخنة كأنها تنور • واستلقيت فى فراشى ، وأخذت أعمل فكرى حتى سمعت الساعة فى الطابق السفلى تدق الثانية عشرة ، بيد أننى لم أعثر على حل للمشكلة •

وفى ذلك الصباح ، حين نهضت من الفراش ، كنت ما أزال أفكر فيما يمكن عمله مع تلاميذى المبتدئين ، وكنت أريد أن أبدأ معهم العمل فى ذلك اليوم ، فقد مضت عليهم أسابيع أربعة بلا عمل ، يعانون من الحر الذى يسود حجرة الدراسة • وحتى لو كان جو الحجرة معتدلا ، فانهم يعانون من الفراغ وعدم وجود عمل يقومون به • وتناولت طعام الافطار ، وتهيأت للذهاب الى المدرسة ، فخرجت مبكرا ، وأخذت أمشى الهوينا بمفردى ، وأحاول أن أفكر فى وسيلة من الوسائل ، غير أنى طردت الفكرة من ذهنى ، لأننى لم أستطع أن أهتدى الى حل للمشكلة •

ومشيت تحت أشجار الصفصاف ، تشرق من فوقى شمس الصباح ، وأخذت أصفر أغنية « عين الابرة » ، وأنا أرقب الخطوط الرفيعة من الظلال المتنقلة فوق الرمال ، تلك الخطوط التى تصنعها الشمس حين لا تجد سوى ثغرات صغيرة بين أوراق الصفصاف المرتجفة • ومن فوق رأسى كانت قطرات الندى المرصعة بالجواهر تتبخر سحبا بيضاء رقيقة ، وتتجه صاعدة نحـــو

الشمس • لقد كان صباحا جميلا ، يجعلنى أحب أن أستنشق الهواء البارد العليل استنشاقا عميقا • كان صباحا يبعث فى نفسى الرغبة فى أن أكون حيا • لقد جعلنى أتمنى أن أحيا الى الأبد • لماذا يراودنى القلق بشأن المشكلة التى أزعجتنى طوال الليل ؟ ان الحل قد يواتينى فى لحظة ما • لم لا أمشى فى هذا الصباح المشرق الجميل من أيام أغسطس ، وأصفر أغنية « عين الابرة » ؟

عين الابرة التى تعطى وتمنح
الخيط الحق الذى يدور فيها

ما هى عين الابرة ؟ وما هو الخيط الحق الذى يدور فيها ؟ لقد أدركت فى النهاية أن عين الابرة هى المدرس ، وليس الخيط الحق الذى يدور فيها سوى اللعب • أجل اللعب • عين الابرة التى تعطى وتمنح الخيط الحق الذى يدور فيها • المدرس الذى يعطى ويمنح اللعب الحق • اللعب • اللعب • اللعب الحق الذى يدور بين الأطفال ، واللعب بين الكبار • ان تلاميذى المبتدئين يجب أن يلعبوا ، ويجب أن يكون العمل الذى يؤدونه لعبا • ان على أن أجعلهم يحسبون أنهم يلعبون ، فى الوقت الذى يتعلمون فيه القراءة ، ويتعلمون العد فى علم الحساب • هذا هو الحل • لقد وجدته • انه اللعب •

ولو أن مشكلتى لم تحل حلا تاما ، الا أننى قلت لنفسى ، انه اذا استطاع تلاميذى المبتدئون أن يلعبوا ، فانهم لن يرغبوا فى النوم • انهم سيزهدون فى النوم فى أثناء اليوم المدرسى ، حيث يكونون فى صحبة بعضهم •

ذلك لأننى كنت أرى فى مزرعة أبى ، الحملان تلعب فى الربيع بين الحقول الخضراء ، وكنت أراها تقف صفا ، وتجرى فى سباق جميعا • وقد لا يصدق الكثيرون من الناس قولى هذا • ولكن راقبها بنفسك فى فصل الربيع • راقب الحملان الصغيرة فوق التلال والمروج الخضراء • لقد رأيت صغار الثعالب تلعب بين الصخور الهائلة حيث يوجد مأواها ، ورأيت كل واحد منها يطارد ذيل الآخر فوق قمة صخرة تغمرها أشعة الشمس ، فيظل يدور وراءه ، ورأيت صغار الرواقين (*) الجميلة ذات الذيل الحلقى حين كانت تغسل طعامها ـ وذاك درس مفيد فى المحافظة على الصحة ـ فى جدول ينحدر من جبل،ولم يتلوث ماؤه•ورأيت صغار الخنازير تنحدر على بطونها فوق الشواطىء

(*) جمع راقون (coon or racoon) وهو من آكلات اللحوم •

الزلقة ، وعلى الأرض الرطبة • ورأيت صغار الأرانب تلعب فى حقول القمح ، ورأيت السناجب الصغيرة تلعب فى ظلة خضراء من أشجار الزان • لقد كانت تتعلم المحافظة على النفس فى أثناء لعبها • لقد رأيت صغار الدجاج تلهو فتتظاهر بأنها سمعت صياح الصقر ، وتهرع الى الدجاجة الكبيرة لكى تحميها • هذا هو الحل • اللعب • اللعب • لقد كانت هذه الكلمة لعقلى سحرا ، ولم أكن قد فكرت فيها على ذلك الضوء من قبل • اللعب • اللعب • اللعب • تعلم أن تعمل عن طريق اللعب • يجب أن يكون كل عمل لعبا • والواقع أن التدريس بالنسبة لى كان لعبة ، ولعل هذا هو السبب فى أننى كنت أحب التدريس • وأسرعت الخطى ، تستحث ذهنى تلك الكلمة السحرية: اللعب •

(١٤)

واذ حان موعد الوقت المخصص للمبتدئين ، أخـــذت النتيجة التى تصدرها محلات لوسن للصناعات المعدنية ، فنزعت ورقة منها ، وأخرجت المقص من درجى ، وجلست مع الأطفال فى نصف دائرة • وتعلقت أبصارهم بى ، وأخذت أفصل الأعداد بعضها عن بعض بالمقص ، ثم أخبرهم ماذا تكون هذه الأعداد أو أسألهم عنها ، وأعطيها لهم ليمسكوا بها • ثم أخذت أنزع الورق السميك الذى يوجد فى ظهر « البلوك نوت » ، وأقصه مربعات متساوية الحجم تقريبا • وجئت بالقارورة التى تحتوى على عجينة اللصق ، وبدأت ألصق كلّ عدد فوق قطعة من قطع الكرتون • ثم قلت للأطفال أن يجلسوا كل أربعة على مقعد (كان عددهم ثمانية) ، وأن يلصقوا الأعداد فوق مربعات الكرتون •

وبينما كنت أدرس لبقية الفصول كان هؤلاء الأطفال منكبين على عملهم • وحين جاءت « الفسحة » ، فضلوا مواصلة العمل على الخروج للعب • وقد ألصقوا بعض الأعداد مائلة ، ولكن ما أهمية ذلك ؟ لقد أجادوا عملهم ، ولم يحتج ذلك منى الى أكثر من الاشراف الذى أوليتهم اياه •

وأخذت أفتش فى جعبتى عن فكرة تمكننى من ربط ذلك بتدريس المطالعة والرسم ، فرسمت على السبورة أشياء مما يعرفه الأطفال ، من تفاح، وفناجين ، وكور ، ورسوم على شكل عيدان الكبريت لصبيان وبنات ، فى مجموعة تتكون من واحد واثنين وثلاثة وأربعة • وحين جاء موعد حصتهم

التالية ، أخذت أطلب منهم أن يعرفوا الشىء أولا باسمه الذى كتبته فوقه ، ثم بعدده الذى كتبته تحته • وقد أثار ذلك كل انتباههم حتى انهم جلسوا على حافة مقعد التسميع ، وهم يدقون الأرض بأقدامهم العارية فى حركة عصبية • ثم جئت بمجموعة بطاقات الأعـــداد ، وأخـذت أعرض عليهم كل واحدة منها وأسألهم أن يقرءوا العدد ، ولشد ما أدهشنى أنهم تعرفوا عددا كبيرا منها •

وران السكون على الحجرة ، حتى لتسمع رنين الابرة ، وقد استولى الاهتمام على كل تلميذ • لقد كان هذا شيئا لم يفعلوه أبدا ، ولم يشهدوا أحدا يفعله ، غير أنهم تبينوا منه أنه طريقة مشوقة للتعلم • هذا هو اللعب • هذا هو الخيط الحق • ورأيت أن أكتفى بهذا القدر فى المرة الواحدة ، فطلبت من الأطفال أن يعودوا الى مقاعدهم ، وأن يحاولوا رسم الصور كما هى مرسومةعلى السبورة •

وكانت الفكرة تقود الى فكرة غيرها ، وكانت هناك مئات من الطرق التى تستخدم فيها بطاقات الأعداد • ولم تكن بضع الدقائق التى أقضيها مع كل فصل بكافية • وبمرور الأيام تعلم الأطفال رسم الأشياء التى تمثل عددا ، على بطاقة يختارها أحدهم ، وتعلموا أسماء الصور المرسومة • وقد أدخلنا تنوعا على هذه الطريقة وذلك بمحو الصورة والعدد ، ثم قراءة الكلمة • ووضعنا صفا من بطاقات الأعداد على طول السبورة فى القناة المخصصة للطباشير • ثم جعلت الأطفال يرسمون صورا تمثل العدد المكتوب على البطاقة • وهكذا لم تعد ترى رؤوس صغيرة تنام فوق الأدراج •

واذ حلت مشكلة المبتدئين ، حدث أمر عكر صفو سعادتى • ففى ذلك الصباح كنت قد كلفت دون ، وجاى ، وأوفا ، بطلاء المبنى فى أوقات فراغهم • وبعد أن فرغت من تناول طعام الغداء ، ذهبت الى الجزء الخلفى من المبنى لكى أرى مدى جفاف الطلاء • ولا بد أن وجهى قد اتقد حمرة كأنه أنف الديك الرومى ، فقد رأيت اثنتى عشرة لطخة بنية اللون من بصاق التبغ ، فوق طبقة الطلاء الأخيرة الناصعة البياض • وكانت هذه اللطخ من كبر الحجم بحيث يراها كل من يمرون فى الطريق •

وحين انقضت الساعة المخصصة لفترة الظهيرة ، تحدثت الى تلاميذى ، وقلت لهم اننى لو ضبطت أحدا يمضغ التبغداخل المدرسةفسوف أعاقبه،واننى

لو ضبطت أحدا يبصق التبغ فوق الطلاء فسوف أضربه ضربا مبرحا • فقد كنت أعرف أن الجانى واحد من التلاميذ ، اذ لم يدخل الفناء شخص غريب ، وكان يدور بخلدى ، وان لم أتهم احدا ، أنهما جاى هوكنز وأوفا سليبرز ، فقد كنت أعلم أنهما يمضغان التبغ ، وكنت أعلم أن « دون » أيضا يمضغه ، ولكنى كنت أستبعد أنه يبصق التبغ على الطلاء الذى شارك فى القيام به • وفى عصر ذلك اليوم ، بعد أن انتهت الدراسة ، وشرعنا فى تكملة الطلاء والانتهاء منه ، أخذنا دلوا من الماء المذاب فيه صابون ، ومكنسة ، وأزلنا لطع التبغ هذه • ثم واصلنا عملية الطلاء ، وظللنا نعمل الى وقت متأخر ، وفرغنا من مهمتنا •

(١٥)

وفى يوم الجمعة ، تناولت طعام الغداء ، ثم مشيت خارج مبنى المدرسة ، واستدرت فمشيت خلفه ، وكان تلاميذى يجلسون تحت ظلال شجرة الجميز العالية ، يتناولون غداءهم • كان الكل يأكلون ماعدا واحدة • لقد كانت تبصق التبغ فوق ألواح المبنى الحديثة البناء • أجل ، انها فتاة تدعى فيدا كونوييى ، وهى ابنة الأمين على مدرستى ، الصبية الجميلة ذات الأربعة عشر ربيعا •

وقلت قبل أن ترانى : فيدا • ما هذا الذى فى فمك ؟ ماذا تفعلين ؟

قالت : لا شىء •

قلت أحذرها : لا تبصقيه • دعينى أر ما هو ••

فلم تبصق العجين من فمها ، بل أخرجته بيدها وأرتنى اياه • ثم طأطأت رأسها ، ناظرة الى قدميها الحافيتين •

قلت أسألها : لم فعلت هذا ؟

فلم تجبنى ، فسألتها مرة أخرى •

فقالت مستر ستيوارت • لقد اشتغلت فى حقول التبغ الأخضر ، وكان ساخنا وله رائحة • وبعد أن تركت العمل فيها ، أصبح مضغ التبغ « كيفا » •

فسألتها قائلا : أتعنين أن عادة مضغ التبغ تمكنت منك بسبب عملك فى حقل التبغ الأخضر وشمه ؟

فأجابت قائلة : أجل ٠

فقلت : لقد عملت فيها طول حياتى ، ولم تتمكن منى هذه العادة من مجرد شم التبغ الأخضر ٠

واذا كانت هذه الفتاة تمضغ تبغا فى بيتها فانى لم أرها تفعل ذلك قط ٠ وتذكرت كيف ظننت بأوفا سليرز وجاى هوكنز الظنون ، وكيف أنى اعتقدت فعلا أنهما الجانيان ٠ ولو كنت قد قمت بعملية استعراض لتلاميذى ، لاخرج من بينهم ذلك الذى بصق التبغ على الحائط الأبيض ، لكانت فيدا كونوييى من بين آخر من كنت أخرجهم ٠ وشعرت بالأسف لمجرد ظنى بأن جاى هوكنز وأوفا سليرز هما الجانيان ٠

وقلت أسألها : فيدا ٠ لماذا بصقت على هذا الحائط الأبيض ؟

فقالت معترفة : لأنه يرضينى البصق عليه ٠ انى أحب أن أرى اللون البنى فوق اللون الأبيض ٠

فقلت لهـا أريدك أن تبقى فى المدرسة بعد انصراف التلاميذ فى العصر ٠

ولم يرنى أحد من التلاميذ أو يسمعنى وأنا أتحدث الى فيدا ٠ وما أظن أن أحدا من تلاميذى عرف ذلك الذى كان يبصق على الحائط ٠ وفى عصر ذلك اليوم ، عندما صرفت التلاميذ ، تخلفت فيدا كونوييى ٠ وتريثت حتى خلا الفناء من التلاميذ ٠ ولا بد أن دون كونوييى عرف بالأمر ، وأحسب أن بضعة تلاميذ آخرين قد حدسوا ما سوف يحدث ٠ وكان لابد لى من أن أنفذ وعيدى ، فوضعت فيدا كونييى فوق ركبتى ، وأمسكت بكتاب الجغرافيا ، وأخذت أضربها به على ظهرها ضربات لاذعة ، بيد أنها لم تكن كافية لجعلها تصرخ بالبكاء ، فهى فتاة حصدت قمحا كثيرا وتبغا ، وانتزعت من الأوراق العريضة لنبات التبغ الساخن ديدانا خضراء كثيرة ، ومن سويقاته الكثير من الجذور الزائدة ٠ لقد كانت جميلة ، بيد أنها كانت قوية الاحتمال ، وقليل من الضرب لم يؤذها ، وانما طعن كبرياءها فحسب ٠ وهكذا تمكنت من حل مشكلتين ، وبقيت أمامى واحدة ٠ لقد كان على أن أعثر على الشخص أو الأشخاص الذين يرسمون الصور البذيئة على جدران دورة مياه البنين ٠

(١٦)

وبعد أن ضربت فيدا ، توقفت فى طريقها وهى تغادر مبنى المدرسة ، ووقفت لحظة قبل أن تخرج من الباب ، تحدجنى بنظرات متوهجة ٠

وقالت والضرب لا يزال يوجعها : سأذهب الى البيت من فورى وأخبر أبى بما حدث ، وسوف يؤدبك ٠ وعلى أية حال فهو لا يحبك ٠ انه لم يعد يحبك منذ تحدثت عن نقل مدرستنا الى الوادى ٠

ثم خرجت تجرى من الباب ، واجتازت الفناء ٠ وفرغت من اعداد التقرير الشهرى حتى أستطيع الحصول على مرتبى ، الذى كنت فى مسيس الحاجة اليه ٠ وعلى قدر معرفتى ، كان هذا هو القانون الوحيد الخاص بمدرسى المدارس الريفية لمقاطعة جرينوود الذى ينفذه ستاجرز مدير مدارس المقاطعة ، ولابد أن يكون تقرير المواظبة الشهرى فى مكتبه قبل أن يرسل الى المدرس شيكا بمرتبه ٠

ونفذت فيدا وعيدها ، ففعلت ما قالت لى انها ستفعله ٠ وحين بلغت بيت كونوييى استقبلنى صمت بارد ، ولم يكن لدى كونوييى ما يقول ، الا قليلا ، وكانت الكلمات التى فاه بها حين قال ما كاد يكون مرغما على قوله ، كلمات باردة ٠ كانت فى حدتها وبرودها كأنها قطع الجليد التى تتدلى من الشاطىء الصخرى فى فصل الشتاء ٠ وأعرضت بيرتا عن التحدث الى ، وكنت أعلم أنهم ينظرون الى فيدا على أنها امرأة مكتملة النمو ، وأنها بعد عامين آخرين ستكون صالحة للزواج ، وبعد أربعة أعوام أخرى ، حين تصبح فى عمر « فلوصى » ، سوف ينظرون اليها على أنها بلغت سن الزواج ، فاذا لم تتزوج ، أو لم تكن موشكة على الزواج ، بدأ يساورهم القلق بشأنها ٠

وجلست فتناولت عشائى ، فقد كنت أدفع أجرة السكن والأكل والمبيت. ولم أكن أعرف بعد مقدار تلك الأجرة ، بيد أننى كنت أعرف أن صمتهم البارد لن يمنعنى من الأكل ٠ وتناولت عشائى ، ثم ذهبت الى الوادى ماشيا ، فأرسلت تقرير المواظبة لكى يصل الى لانزبيرج فى اليوم التالى ٠

ولم أتعجل عودتى الى البيت ، حتى يتاح وقت طويل لحجرتى أن تبرد ٠ وحين بلغت البيت ، كان السكون يخيم عليه ، فقـــد كان آل كونوييى يستيقظون مبكرين ، ويذهبون الى حقل التبغ صباح يوم السبت ٠ وفى هذا

اليوم يعد « جون كونوييى » خطة حافلة بالعمل ، اذ هو يوم عطلة من المدرسة، وأولاده جميعا يكونون فى البيت معه • وتقوم فيدا بشم التبغ الأخضر ، ولعلها لا تحتاج الى مضغة منه ، فان جهازها التنفسى سوف يمتص ما فيه الكفاية مما يحتويه هذا النبات السحرى من مادة مسكرة ، وذلك فى خلال قيامها باقتـــلاع الجذور من خلف الأوراق العريضة ، وحين تنزع الديدان الكبيرة الطويلة الخضراء من تحت بطون الأوراق ، ثم تمزقها بأصابعهـــا المتناسقة ، أو تضعها فوق الأرض الساخنة ، ثم تهرسها بقدميها السمراوين الحافيتين •

(١٧)

وفى صباح يوم السبت ، صحوت فى ساعة متأخرة ، وتناولت فطورى، بعد أن خرج جون كونوييى وأبناؤه جميعا الى الحقل • وكانت بيرتا هى الوحيدة التى بقيت فى البيت ، وكانت صامتة لا تتكلم ، وأعدت لى طعام الافطار فأكلته • ثم أخذت كتاب قوانين مدارس ولاية كنتكى ، وذهبت الى مدرسة لونسم فالى فجلست فى ظلال شجرة جميز ضخمة ، فوق جذر من جذورها • وكانت شمس أغسطس الساخنة قد أخذت ترتفع فى السماء ، وسحب الضباب غير المتناسقة المنبعثة من حقول التبغ والقمح تنتشر صاعدة هابطة فوق الوادى • وأخذت أقرأ الصفحة الأولى من كتاب قوانين المدارس ، فى حين جلست نانسى كوشران فى شرفة حانوتها ، تعزف على الجيتار وتغنى ، كما لم تعزف أو تغن من قبل •

ولم تكن تكف عن العزف والغناء لى الا اذا جاءها أحد الزبائن ، وكان هذا يحدث مرات قليلة ، وعلى فترات متباعدة • واذ تسلينى نانسى بعزفها وغنائها ، عثرت على مادة هامة فى قوانين مدارس كنتكى ، وهى وثيقة لم أعبأ بقراءتها من قبل • فقد اكتشفت أن استعمال التبغ محظور لا بالنسبة للتلاميذ فحسب ، وانما بالنسبةلأولى الأمر أيضا ، وأنه غير مسموح للزائرين باستعمال ذلك العشب العطر الرائحة فى مبنى المدرسة فى أى وقت من الأوقات ، وفى أية مدرسة من مدارس الولاية • كان هذا هو القانون • وكنت أحاول أيضا أن أعثر على مادة تجعل لزاما على المدرس أن يقيم فى حى المدرسة التى يعمل بها • وقرأت الوثيقة كلها ، ولكنى فشلت فى العثور على مادة تتصل بهذا الشأن •

وحين فرغت من قراءة هذه القوانين المدرسية ، كان الوقت عصرا · واذ أتأهب للنهوض من فوق جذر شجرة الجميز لكى أعود الى بيت كونوييى ، رأيت شابا طويل القامة يسير فى طريق لونسم كريك · ونظر ذات اليمين ثم نظر ذات الشمال ، ثم اتجه بنظره نحو الحانوت الصغير ، حيث كانت تجلس نانسى تعزف على الجيتار وتغنى · وحين وصل الى مبنى المدرسة أبطأ الخطى ، واستدار ، وجال ببصره حيث كنت أجلس ، غير أن شجرة الجميز حجبت عنه الرؤية قليلا ، ثم هرول يعدو ، فعبر الفناء ، ودخل دورة مياه البنين · وانتظرت لحظات حتى يخرج ، ولكنه لم يفعل ، فمشيت فى حذر نحو دورة المياه ، وفتحت الباب فى رفق ، فوجدته يلطخ الجدران برسوم بذيئة لى ، ولفلوصى كونوييى ، وميى وودز ·

وصحت قائلا اذن فأنت ذاك الرجل الذى يفعل هذا ! انك الرجل الذى كنت أبحث عنه ·

فألقى بقطعة الطباشير واندفع نحو الباب · وكنت أقف فى المكان المناسب بحيث وجهت الى ذقنه مباشرة لكمة علوية أودعتها كل ما لدى من قوة· وأنا أعلم أن هذا الذى أقول قد يبدو شيئا لا يصدقه العقل ، بيد أنه الصدق، فقد طحت بذلك الرجل فى الهواء ، فوقع على قدميه ، وجرى من دورة المياه ميمما وجهه شطر الطريق ، بيد أننى بعد أن ضربته كان متجها بوجهه نحو دورة المياه ، فقام بحركة التفاف ، وانطلق يعدو كالأرنب · ولم يتجه نحو الحانوت ، بل قفز من فوق جدائل السلك الشائك ، التى علاها الصدأ ، متجها نحو حقل القمح · ولم أكن لأستطيع أن أجتاز السور ، فكان على أن أمر من بين الأسلاك · وحين مررت من السور ، كان هو قد وصل الى أعواد القمح الطويلة الخضراء ، حتى يمكن أن يضل فلا أجده · ولم أر قط رجلا يجرى بمثل هذه السرعة · فقد كانت له ساقان طويلتان ، فاستخدمهما على خير وجه ، وانطلق هاربا وانا أتعقبه ، الى أن فقدت آثار قدميه تحت أعواد القمح الطويلة ·

وشهدت نانسى كوشران المطاردة · وحين مررت بحانوتها فى طريق عودتى الى بيت كونوييى قالت : ماذا كنت تحاول أن تفعل بآلفن بيردى ؟

فقلت أسألها : ومن هو آلفن بيردى هذا ؟

قالت فى زهو : انه شاب من آبرلونسم ، وهو يزعجنى أشد الازعاج ، ويحاول أن يضرب لى المواعيد ، ولكننى مع ذلك أرفض أن تكون لى به أية صـــلة .

ولم أخبرها بما كان يفعله · وأنا لم أره قبل ذلك قط ، ولم أسمع به الا حين اشتبك معى بهذه الطريقة العجيبة · وعلمت فيما بعد أنه كان يغار منى ، لأنه كان يحب نانسى كوشران · ونانسى كوشران وفلوصى كونوييى متنافستان عريقتان ، اذ كانت كل منهما تحاول أن تستولى على صديق الأخرى. وكان هذا ما حدا به الى رسم تلك الصور البذيئة لى فى دورة مياه المدرسة · وهكذا ثبت مرة أخرى أن تلك الظنون التى كانت تراود ذهنى بشأن جاى هوكنز وأوفا سلييرز كانت ظنونا خاطئة ·

(١٨)

وفى يوم الاثنين وصلنى شيك بأول مرتب لى وقدره ثمانية وستون دولارا بالضبط · وأدركت حينذاك أنه كان من الخير أن تنتهى مسألة ذهابى لملاقاة ميى وودز الى ما انتهت اليه ، فلو كنت قد قابلتها ، ووقعت فى حبها ، ما استطعت أبدا أن أهيىء لها وقتا سعيدا ، وما استطعت أن أصحبها فى نزهات بالسيارة ·

ذلك لأن « بيل كوفى » صديقها الذى يعمل لحاما فى مصانع أوكلاند للصلب ، لو فرض أنه تلقى تعليما حتى مرحلة الصف الثالث ، كان يفوقنى نجاحا بأربع مرات ، اذا كان للنجاح أن يقاس بالدولارات والسنتات · وصدقونى اذا قلت ان النجاح كان يقاس بهذا المقياس بين من أعرفهم من شباب لونسم فالى · واذا شاء بيل كوفى أن يستبدل ميى وودز بفلوصى كونوييى أو نانسى كوشران لاستطاع ، فهو على ذلك قدير . وأنا أدرك لماذا كانت نانسى كوشران تواعد بيل كوفى ، فلعلها كانت ــ كأختى ــ تقـــوم بالتدريس لكى تتمكن من شراء ملابس لنفسها ، فلم اذن لا تواعد بيل كوفى، الذى ينتقل بهـــا رائحا غاديا فى طريق لونسم فالى ، فى سيارة خضراء ذات سقف متحرك ، طويلة الى حد يجعل من المتعذر عليها أن تدور عندمنعطفات الطريق ؟ لم ترفض أن تواعد رجلا يدخن سيجارا عطر الرائحة طوله ثمانى بوصات ، ويلبس قمصانا من حرير ، وأربطة عنق زاهية الألوان ، وبذلا جيدة الحياكة ، ويقود سيارة كبيرة ؟ اننى لا ألومها · ما الذى أستطيع أن

أقدمه لهـــا بمرتب قدره ثمانية وستون دولارا فى الشهر ؟ لقد كنت أنا أيضا شابا أحب أن أواعد الفتيات ، وأجعلهن يقضين وقتا طيبا،وكان التدريس يخلب لبى ، وكنت أحب مهنتى ، وكنت على استعداد لتعلمها من أولى درجات السلم • لقد كنت أعرف أننى لست مدرسا كاملا ، وأن على أن أتعلم الكثير • ولكن ، لم أواصل العمل فى هذه المهنة ؟ لقد كنا فى عام ١٩٢٠ ، وكانت الدنيا رخاء ، والبلاد منتعشة ، والمعيشة راضية •

ولقد مرت بى شهور كنت فيها أشتغل بصيد الحيوانات ، وأقيم فى بيتنا ، وأتلقى تعليمى فى مدرسة لانزبيرج الثانوية ، وكان دخلى أكثر من خمسين دولارا فى الشهر • وكانت تمر بى شهور فى فصل الربيع كنت فيها أقتلع الجذور وأبيعها ، وكنت أكسب ما يزيد على ثلاثين دولارا فى الشهر • أما الآن ، فكم يتبقى لى بعد أن أدفع أجرة المسكن والمأوى والطعام ؟ وما مدى زيادة دخلى من مهنة التدريس عن دخلى حين كنت أتلقى تعليمى فى المدرسة ، وأعول نفسى باشتغالى بصيد الحيوانات فى الخريف ، واقتلاع الجذور البرية فى فصل الربيع ؟ ولم يمض وقت طويل لكى أعرف كم يتبقى لى ، فقد تقاضت « بيرتا » منى خمسة وعشرين دولارا أجرة المسكن والمأكل فى الشهر • ولم يكن ذلك مبلغا معقولا بالنسبة لمرتبى ، اذ لم يبق لى سوى ثلاثة وأربعين دولارا ، هذا عدا الأشياء البسيطة التى اشتريها لتلاميذى ومدرستى •

(١٩)

ولم يكن السبب الذى حدا بى الى ترك بيت كونوييى هو مبلغ الخمسة والعشرين الدولار الذى كان على أن أدفعه الى بيرتا فى الشهر أجرة المسكن والمأكل ، وانما كانت هناك أسباب أخرى هى أن آل كونوييى ، حين أدبت جاى هوكنز رضوا • حتى اذا أدبت ابنتهم « فيدا » سخطوا وغضبوا • كذلك كان كونوييى الأمين غاضبا عـــلى لأننى اقترحت ضم المدارس الريفية الى بعضها •

وحين فرغت من اعداد أمتعتى ، واتخذت أهبتى للرحيل ، قال كونوييى: ان القانون يلزمك بالاقامة فى هذا الاقليم ، وأنا لا أقول هـــذا لأستبقيك هنـــا •

فقلت متسائلا من قال هذا ؟ يا مستر كونوييى ، لقد تركت هنا نسخة من كتاب قوانين مدارس كنتكى ، وقد وضعت علامة فى مكان واحد منه ، لكى تقرأ ما جاء عندها ·

ثم انطلقت أسير فى طريق لونسم كريك ، موليا وجهى شطر الوادى · ذلك لأننى كنت قد قابلت الرجل ، وشاهدت المنزل الذى سوف أقيم فيه ، ورأيت حجرتى ، ولم يكن الأمر خبط عشواء ، فقد كنت أعرف القوم الذين سأقيم بينهم ، وأعرف الى أين أنا ذاهب ، فقد كنت مزمعا الاقامة مع العم آموس باتسون ، الذى كان يتولى ادارة الحانوت ومكتب البريد بالوادى · وكانت المسافة بين هذا المسكن وبين المدرسة خمسة أميال ، وكان على أن أمشى عشرة أميال كل يوم · بيد أننى سوف أكون بعيدا عن الحزبين اللذين ينتمى اليهما أهل الاقليم الذى تقع فيه مدرستى · وقد كانت النتيجة تعادلا بالنسبة للفريقين ، اذ أننى أدبت « جاى هوكنز » الذى ينتمى أبوه الى أحد الحزبين ، وأدبت فيدا كونوييى التى ينتمى أبوها الى الحزب الآخر ·

وقد عرف كل فريق الآن أننى لم أكن متحيزا ، فقد كانت مهمتى أن أعلم التلاميذ ، وهذا كل ما هنالك · ولذلك عقدت العزم على أن أواصل العمل حتى نهاية العام الدراسى ، فلن يتمكن أحد من هزيمتى ، بل سأبقى حتى تنتهى مهمتى ، واننى لقادر على أدائها خيرا من ذلك دون أن أقيم فى معسكر أى من الحزبين · ولو أننى ظللت أقيم فى لونسم فالى ـ وهو الاقليم الذى تقع فيه مدرستى ـ لكان لابد لى من الاقامة فى بيت ينتمى أهله الى أحد الحزبين ، فلم يكن فى الأمر حل وسط ، ولقد قالت لى أختى ذلك ، وكانت محقة فى قولها · وقد تعلمت ، مما مربى من تجربة قصيرة الأمد ، أن المدرس يجب أن يسمو بنفسه فوق المنازعات التافهة التى تنشب بين الجماعات المتناحرة ، فى مجتمعه المدرسى ·

وكان بيت العم آموس باتسون يتكون من طابقين ، وله اطار أبيض اللون ، وبه اثنتا عشرة حجرة ، ولم يكن به سوى ثلاثة أشخاص ، فكان العم آموس والعمة ايفى يقيمان فى الطابق السفلى ، وكان الطابق العلوى كله لى كما أشاء ، ففيه ست حجرات رحبة ، لها نوافذ ذات ستائر ، وبها فرش من ريش الطيور · ولم يكن بالبيت حمام ، ولكن كان فى الطابق السفلى مياه جارية ، وكان أفضل بيت فى ذلك الجزء من مقاطعة جرينوود · وعجبت كيف أنى لم أعثر على هذا البيت من قبل · لقد كان فى استطاعتى أن أفتح

النوافذ ، وكانت الحجرة رطبة بحيث كنت أنام وفوقى غطاء ، بعد أن كنت أنام فوق الفراش ، بلا غطاء ٠ ولم أكن بحاجة الى مكافحة الحشرات طوال الليل ، لقد كان المكان رحبا مريحا ، والطعام شهيا ، فلم أذق فى حياتى خيرا من ذلك البسكوت الساخن ، ومن عسل النحل البرى ٠ انه نعم المكان ٠

ولم أكن أيضا محروما من الموسيقى ، فقد كان العم آموس باتسون ، رغم أنه فى السابعة والستين من عمره ، يعزف على الكمان عزفا لم أسمع أرق منه نغما ، فقد كان قادرا على آن يجعل الكمان يتكلم أو يضحك أو يبكى ، وكان يعزف موسيقى تجعل العمة ايفى تضع جانبا غليونها ذا الساق الطويلة ، وترقص ٠ وفى أول أمسية قضيتها فى بيتهما ، كان زوجها يعزف على كمانه الساحر وهى ترقص ٠ وكانت خفيفة الحركة كالعصفور ، رغم أنها كانت فى السابعة والستين من عمرها ، وأما لأحد عشر ابنا كلهم متزوجون ، ويعيشون بعيدا عنها ٠ وكانت ترقص الرقصات القديمة ، فتدق قدماها الصغيرتان الأرض فى خفة ورشاقة ، وفقا للنغمة التى يعزفها العم آموس على كمانه الساحر ، وفى سرعة ، كالماء المنبعث من الثلج المذاب ، اذ يتدفق فوق الشواطىء الصخرية ٠

وكانت الأميال الخمسة التى أقطعها ماشيا الى المدرسة ، مخترقا الوادى، رحلة سارة ممتعة ، أمدتنى بما أحتاجه من رياضة ٠

وفى الأسبوع الأول من اقامتى فى بيت باتسون حدث أمر ، اذ لم يحضر بيل ستركلاند الذى يستأجره العم آموس لحلب بقراته السبع ، فقد لحق « ببيل كوفى » للعمل فى مصانع أوكلاند للحديد والصلب ، دون أن يخبر العم آموس بأنه راحل ٠ ولم يعد لدى العم آموس شخص يحلب له أبقاره ، فقد كان يستطيع العزف على الكمان ، ولكنه لا يستطيع حلب الأبقار ، وأما العمة ايفى فقالت انها لم تحلب بقرة فى خلال السنوات التسع والأربعين التى قضتها زوجة ، وأنها لا تنوى أن تتعلم الآن حلب الأبقار ٠ وحينذاك تطوعت أنا برعى الأبقار وحلبها ٠

وكان العم آموس يعلم أنه على أن أسرع اذا أردت أن أفعل هذا كله وأصل الى المدرسة فى الوقت المحدد ، فهرع الى الحظيرة ، ووضع السرج واللجام فوق البرذون « السيسى » الأبيض الكبير الذى يدعوه « سندانس »، فاعتليت صهوته ، وانطلقت لكى أقود الأبقار من ممر ملتو ينحرف الى اليمين

والى الشمال ، الى أن يصل الى قمة الجبل · وكانت هناك مئات من الحقول العشبية التى تنمو على منحدرات رفيقة وأخر وعرة ، وقد تناثرت الأشجار الضخمة هنا وهناك فى الوديان والأخاديد · وكانت مساحة هذه المراعى أربعمائة فدان ، وعند سفح هذه المراعى كان يرقد الوادى · وكنت أستطيع أن أرى الجدول المتعرج ، وكأنه شريط من الفضة تحت أشعة شمس الصباح الباكر ، ينساب فى رقة ، مارا ببيوت الفلاحين ، مخترقا الأرض الخصبة المستوية ، حيث ينمو القمح والقصب والتبغ · وكان الندى يتصاعد فى أشكال غير متناسقة ، بين الوادى الأخضر والشمس ، وظل ممعنا فى الصعود فى قبح ممزوج بالجمال · وجلست برهة فوق السرج اللين ، أرقب معجزة الجمال هذه ، فى حين كان الجواد يثب ويحك الأرض ويلوك اللجام · لقد كان قلقا يريد اللحاق بالأبقار ·

وهذا الجواد الضخم الذكى الجميل ، بلونه الذى يشبه لون أشعة شمس الصباح الباكر ، وهى ترقص فوق مياه الجدول من تحتنا ، كان يعرف كيف يجد الأبقار خيرا منى ، وكان يعرف طبيعة مهمته ، اذ سبق له أن سعى وراء الأبقار من قبل · فأطلقت له العنان ، فسار بى حتى عثر على الأبقار ، وحين رأت الأبقار الجواد تهيأت للذهاب الى البيت كيما تحلب ، الا بقرة بيضاء لم تشأ أن تتبعه ، بيد أنه حين شرعت البقرات الست تسير وراءه ، تاركة تلك البقرة البيضاء وحدها ، أخذت تخور خوارا حزينا ، ثم ما لبثت أن هرولت تجرى فى أثره · ولم أكن أعرف قبل الآن أنه يمكن لجواد أن يقود أبقارا ·

ولم يستغرق حلب البقرات السبع منى وقتا طويلا ، اذ وضعت الدلو الكبير تحت البقرة ، واستخدمت كلتا يدى ، فى سرعة بالغة · ثم مخضت اللبن ، ثم فصلت عنه القشدة ، لكى تضعها العمة ايفى فى علب ، ثم تشحنها بالسكة الحديد · وعندما فرغت من عملى ، لم يبق لدى من الوقت ما يسمح لى بالمشى خمسة أميال الى المدرسة ، اذ لو مشيت فسأصل اليها متأخرا ، واذا تأخرت مرة فسوف يكون ذلك مثار حديث الناس ، بعد أن أعرضت عن الاقامة فى اقليم لونسم فالى الذى تقع فيه مدرستى ·

فقال العم آموس اركب « سندانس » الى المدرسة ، ثم اتركه فى مخزن شارلى ابراهام فى أثناء النهار ·

وهـــذا هو ما فعلته · وبعد أن حلبت بقراته مرة ، ومخضت اللبن وفصلت القشدة ، لم يحاول العم آموس أن يجيء برجل آخر يحلب الأبقار ويرعاها · لقد كنت أحب الجواد ، وأحب أن أذرع على ظهره طريق لونسم فالى فى الصباح ، حين يكون الندى قد هدأ الغبار ، وحين تكون خصل القمح ونبات شب النهار (*) التى تعترش القمح،قد ترعرعت أزهارهاالزاخرة بالألوان القرنفلية والزرقاء والأرجوانية والبيضاء ، والأزهار التى تشبه البوق فى شكلها · لقد كانت عطرة الرائحة ، جميلة المنظر ، اذ كانت قطرات الندى التى لم تزل عالقة بها ، تتلألأ فى شمس الصباح الباكر ، كأنها جواهر متألقة · لقد كانت الحياة جميلة ، فأنا مدرس ، وعندى جواد كبير أبيض أركبه · وحين كنت أمتطى صهوته متأهبا للعودة الى البيت ، كان يبدى تلهفا وشوقا للرجوع الى حظيرته فى الوادى ، فينطلق عدوا كأنه ثعلب ، وكنت أشدد القبض على العنان لكى أبطىء عدوه · لقد كان سريعا ، صغير السن ، قويا ، ولم يكن يستغرق ذهابى من المدرسة الى الوادى سوى دقائق معدودة ·

(٢٠)

وفى خلال الشهر الثانى من قيامى بالتدريس فى مدرسة لونسم فالى ، كنت أتمتع بتعاون الحزبين ، فقد كانت اقامتى فى بيت لا ينتمى أهله الى أى من الحزبين ، أمرا يبعث على الرضا ، ولم أظهر تحيزا نحو أحد قط ، وكان تلاميذى يفهمون ذلك ، فكانوا يذهبون الى بيوتهم ويقصون على أهليهم كيف أننى أعدل بينهم ، وأعاملهم جميعا معاملة سواء ·

ولم يحمل « دون كونوييى » لى ضغينة ، وحتى « فيدا » سرعان ما نسيت ما فعلته بها ، ولم تعد تمضغ التبغ ، بعد أن قرأ أبوها الفقرة من قانون مدارس كنتكى التى وضعت له علامة عليها · ولم يشر بشىء على الاطلاق الى مسألة تركى الاقامة فى اقليم لونسم فالى · وعلى أية حال ، لم يكن لديه ما يقول ، فقد أصبحت أثيرا لدى ولاة الأمور فى اقليم مدرستى ، بحيث لم يكن ليستطيع رجل واحد أن يسيىء الى ، فقد تناقل المجتمع المحلى أنبائى مرات عدة ، بحيث كان لابد لهم أن يعرفونى · لقد ارتكبت

(*) Morning glories

أخطاء ، وهى أخطاء صغيرة ، ومن بينها محاولتى الذهاب الى آبرلونسم لألتقى بميى وودز ، ولكنهم كانوا يعلمون أننى بشر ، وأننى فرد من بينهم ، يحاول أن يصنع شيئا من أجل أطفالهم • بيد أن هذا لم يكن كل شيء •

وفى خلال الشهر الثانى من حياتنا فى لونسم ، بدأنا نطبق الحساب فى حل مسائل خاصة بالمجتمع المحلى • وكان « بيرت ايشام » قد قص على كل رجل فى لونسم فالى تقريبا كيف أنى حسبت عدد حزم الفحم الذى تحمله عربته ، فأخذ الناس يأتون الى لأحسب لهم ما تحمله عرباتهم من فحم ، وعدد حزم القمح المختزن فى « شونهم » ، ولأحسب لهم ما فى مخازنهم من فحم ، ومقدار القاذورات التى يتعين ازالتها من خزانة المؤن (الكرار) والبئر • ولم أكن لأرفض لأحد منهم طلبا ، فاذا كانت المهمة بسيطة عكفنا على حلها بعد انتهاء الدراسة ، وان كانت مهمة صعبة ، عكفنا على حلها يوم السبت • وكنت أصحب معى أكبر عدد ممكن من التلاميذ والتلميذات • وكان « دون كونوييى » دائما معى • وأبدى جاى هوكنز اهتمامابالغا بالأرقام، وبما يمكن أن نفعله بها ، ومتى اهتم جاى هوكنز بشيء ، حذا حذوه صديقه الحميم « أوفا سلييرز » • وكان يذهب معى دائما أحد تلاميذى ويدعى دنفر ليكنز ، وهو فتى ضخم الجسم يبلغ من العمر اثنى عشر عاما ، وكان فى الصف الأول ، ويستطيع أن يحسب الأرقام فى عقله بالسرعة التى أحسب أنا بها ، ولم يكن يستطيع كتابة الأرقام ، لأنه لم يذهب الى المدرسة أكثر من ثلاثة أشهر فى حياته • وقد أوليته عناية خاصة ، لأنه كان شديد الاهتمام بالتعليم ، وكنت أمسك بيده أعاونه على كتابة الأرقام على السبورة بادئا من واحد الى عشرة • ومع ذلك كان يذهب معنا حين نقوم بحساب الأراضى و « شون » القمح ومخازن الفحم ، ويذهب الى كل مكان ندعى اليه لنقوم بالعمليات الحسابية اللازمة لأولى الأمر فى اقليمنا • وهكذا بدأنا نستخدم علم الحساب ، وأولع الناس به •

وفى يوم من أيام السبت ، قمنا بحساب عدد الأفدنة فى مزرعة « تيم كونلى » ، فحمل دنفرليكنز مقياس القصبة (*) فى حين كان « دون كونوييى » يحسب عدد القصبات ، وكان جاى وأوفا يضعان علامات على خط السياج ، حتى نستطيع أن نقيس فوق الخط ، ويكون قياسنا مضبوطا • وحسبنا عدد الأفدنة فى المزرعة الصغيرة فوجدناها ٤٨ر٦ فدانا • وحين جاء

(*) rod مقياس للأرض مقداره ٣٥٥ سنتيمترا (قاموس مظهر) •

« دون شاكلفورد » مساح المقاطعة ، بعد ذلك بأسبوعين ، ومسح المزرعة ، وجدها ٤٨ر٧ فدانا ، وهكذا كان حسابنا دقيقا ، قريبا كل القرب من الرقم الصحيح ٠

بيد أن أعجب أمر حدث كان فى أوائل سبتمبر ، حين جاء الى مدرسة لونسم فالى رجل ضئيل الجسم يدعى سيلاس هيجنز ، يطلب منى أن أحسب له عدد الأفدنة التى توجد فى مرعى كان قد قطع منه النبت الصغير ، وقال ان المفروض أن يتقاضى ستة دولارات عن كل فدان يقطع منه النبت ، وأن الرجل صاحب المرعى ، ويدعى ويليس هيجر قاس الأرض ، وأنه هو نفسه قاسها ، فكانت النتيجة حسب قياسه اثنى عشر فدانا ونصف فدان ، وحسب قياس « ويليس » ستة أفدنة ٠ وكان يتحدث بصوت مرتفع حتى يسمعه جميع تلاميذ المدرسة ، فقال « جاى هوكنز » ان أحد الرجلين مخطىء ، وان الفرق بين القياسين كبير ، وقال « دون كونوييى » اننا جميعا يجب أن نقيس هذه الأرض ، فقلنا لسيلاس هيجنز اننا سنكون هناك فى الساعة الرابعة بعد ظهر ذلك اليوم ٠

وحين وصلنا الى هناك ، أنا ودون وجاى وأوفا ودنفر ، كان الرجلان ينتظران ويتجادلان ٠ ولابد أن ويليس هيجر كان يبلغ طوله سبع أقدام ٠ أما سيلاس فلم يكن يزيد طوله عن خمس أقدام الا قليلا ، وكان ويليس يستطيع أن ينظر الى سيلاس من عل ويضحك مستهزئا به ، ويتوعده بأن يأخذ بعنقه ثم يقذف به من الحقل اذا هو لم يتقبل قياسه ٠ وكان الرجلان قد قاسا المسافات الواقعة حول الحقل بالخطوة ، واعتبرا أن الخطوة الواحدة تساوى ثلاث أقدام ، وأن خمس خطوات ونصف خطوة تساوى قصبة ٠ وبدأ تلاميذى يضحكون ، فقد كان ويليس يبلغ من الطول حدا يجعله يخطو ست خطوات فى خطوة واحدة ، وكان سيلاس من القصر بحيث لم يكن ليستطيع أن يخطو ثلاث خطوات ٠ أما نحن فلم نقس الأرض بالخطوة ، بل قسناها بالمقياس ، وقام دون كونوييى بالعملية الحسابية ، فى حين وقف أوفا ، وجاى ، ودنفر يتفرجون ٠ ووجد « دون » أن مساحة الحقل ٦ر٩ أفدنة ، ورفض ويليس الأخذ بهذه النتيجة ، اذ لم ترضه على الاطلاق ، أما سيلاس فرضى بها ، وأخذ الرجلان يهددان بعضهما بعضا بالضرب ، وبالالتجاء الى القانون ٠ وراجعت الأرقام فوجدت أن « دون » قام بالعملية الحسابية على الوجه الصحيح ٠

وقال أوفا سلييرز : انك ترى يا مستر هيجنز أن ساقيك قصيرتان ، وأن خطواتك ليست واسعة بالقدر المطلوب ٠

ثم ضحك أوفا حتى اهتز جسمه من فرط الضحك ، وهو ينظر الى الرجل الطويل ويقول : وأما أنت يا مستر هيجر فخطواتك واسعة أكثر من القدر المطلوب ، وهذا هو السبب فى أنك وجدت الحقل حسب مقياسك ستة أفدنة فقط ٠

وأوشك ويليس هيجر أن يضربنى بغصن أحد النباتات ، حين قلت له انه اذا لجأ الى القانون فسوف يكون هو الخاسر ، لأن قياسنا هو على وجه التقريب نفس القياس الذى سيحدده موظف المساحة ٠ بيد أن عصاه لم تكد تلمسنى ، اذ تقدم نحوه أربعة من تلاميذى ، والتقط سيلاس هيجنز حجرا ٠ وأدرك ويليس أنه سيكون المغلوب ، فهدأ وأصغى لصوت العقل ٠ وقبل أن نغادر المكان ، كنا قد فصلنا فى النزاع القائم ، ورضى الطرفان ، وتصافحا وصارا صديقين ٠ وكثيرا ما كان يجول بخاطرى ذلك الخاطر ، وهو أنه لولا بعض المعلومات الحسابية البسيطة التى طبقناها هنـــا لقتل أحد الرجلين الآخر ، قبل أن يفصل بينهما القضاء ٠

وهكذا كان تلاميذى يشهدون ، عـــلى الطبيعة ، استخدام المعارف البسيطة فى حل المشكلات اليومية ٠ وأصبح « دون كونوييى » يهتم بالمدرسة اهتماما بالغا حتى انه قرر ألا يتزوج ، وأن ينتهى من دراسته فى مدرسة لونسم فالى ، ثم يستكمل دراسته فى المدارس الثانوية ، ثم فى الجامعة ٠ لقد التهب عقله وقلبه تحمسا لمزيد من التعليم ، وانتقل تحمسه الى سائر التلاميذ ، الذين أزمعوا يوما أن يطيحوا بكل مدرس يأتى اليهم ، وأصبح هؤلاء أكثر تلاميذ المدرسة ولاء وأحسنهم سلوكا ، وبعد أن كانوا ينزعون الى اتلاف كل شىء ، تاركين وراءهم الخراب والدمار ، أصبحوا بنائين ، تملؤهم الرغبة فى بناء حياتهم وحياة مجتمعهم ، وتشكيلها من جديد ٠

(٢١)

وفى أصيل يوم الجمعة من الأسبوع الثالث للشهر الثانى من السنة الدراسية ، حدث شىء جعل التلاميذ يهتمون بالتعليم أكثر من أى وقت مضى ، اذ لما كان بيرت ايشام ينقل الفحم بعربته بين آبرلونسم والوادى ، وكان يهتم بشئون غيره وبشئون المدرسين والمدارس بطريقة عجيبة ، فانه اتصل بميى وودز مرة ثانية ، وقال لها ان مدرستنا خير من مدرستها بكثير ، واننى مدرس أفضل منها ٠ فغاظها قوله ذاك ، وتحدتنى أن آتى بتلاميذى

الى مدرستها لكى يتباروا فى علم الحساب ، وكان التحدى هو كل ما نريده . وفى يوم الجمعة ذاك ، غادرنا جميعا لونسم فالى وقت الظهيرة ، وذهبنا الى آبرلونسم سيرا على الأقدام .

ولأول مرة التقيت وجها لوجه بواحدة من أجمل المدرسات اللاتى وقعت عليهن عيناى . وعرفت لماذا اشترى « بيل كوفى » لهذه الفتاة سيارة ذات سقف متحرك ، لا تستطيع بسبب ضخامتها أن تدور فى منعطفات طريق لونسم كريك ، اذ كان يطمع أن يستميل قلبها بسيارته . لقد كانت الفتاة جميلة ، ذات شعر أسود ، وعينين كبيرتين هادئتين عسليتين ، تظللهما أهداب ثقيلة ، وأسنان بديعة بيضاء ، وشفتين رائعتين . وكانت مدرستها نظيفة كل النظافة ، وتلاميذها على حظ كبير من الأدب والنظام . ولم أر فى مدرستها عيبا . وانتحى تلاميذها كلهم جانبا من الممر الذى يقع فى الوسط ، وكان الجانب الآخر محجوزا لتلاميذى ، ونقـــل المقعدان الطويلان المخصصان للتسميع الى مؤخرة حجرة الدراسة ، كيما يجلس عليهما الزائرون . وقد امتلأ المقعدان ، وبقى الناس وقوفا ، اذ كان عـــدد الزائرين الذين قدموا لمشاهدة المباراة يزيد على المائة ، وكان بيرت ايشام من بينهم .

وقبل أن نبدأ المباراة ، اتفقت أنا ومس وودز على بضعة مبادىء بسيطة، أحدها أن أقوم أنا وهى وبيرت ايشام بالتحكيم ، واتفقنا على أنه اذا تمكن أحد التلاميذ من حل المسألة فى عقله ونطق بالجواب الصحيح ، فليس ثمة ما يدعوه الى كتابه الأرقام على السبورة ، كما اتفقنا على أن التلميذ الذى يدعى الى السبورة ليحل مسألة ضد تلميذ لا يزال واقفا ، يكون له حق اختيار الجمع والضرب والطرح والكسور الاعتيادية أو الكسور العشرية ، والقسمة المطولة أو القسمة المختصرة .

وبدأنا بالتلاميذ المبتدئين ، فكانت تنادى واحدا من تلاميذها ، وأنادى أنا واحدا من تلاميذى ، ونوقفهما عند السبورة فى مقدمة الحجرة حتى يراهما الجميع . وتعادل الفريقان تقريبا من حيث السرعة والدقة ، غير أنه حين فرغ المبتدئون من تلاميذى ، وعادوا الى مقاعدهم ، بقى نصف المبتدئين من تلاميذها ، اذ كان عدد تلاميذها المبتدئين ضعف عدد تلاميذى ، فكان على كل تلميذ من تلاميذى أن يغلب اثنين من تلاميذها قبل أن نحصل على تعادل. ثم ناديت دنفر ليكنز ليتجه نحو السبورة ، وهو تلميذ كبير فى الصف الأول ، فوقف هناك يقول الاجابات الصحيحة حتى أخرج تلاميذها المبتدئين

جميعا من المباراة ، فصاح شخص يقول : « انه من تلاميذ الصف الثامن » . ولكننى أريت مس وودز سجل أسماء التلاميذ ، لأدحض هذا القول ، وظل دنفر ليكنز واقفا الى أن طلبت احدى تلميذات مس وودز مسألة فى الجمع تتكون من أربعة أعمدة من الأرقام . ولم يكن ليستطيع دنفر أن يجمع أربعة أعمدة بدون كتابة ، وان كان يستطيع أن يجمع ثلاثة . وكانت هذه الفتاة تسكن على مقربة من دنفر ، وتعرف مواطن قوته ومواطن ضعفه ، وبذلك هزمت ذلك الفتى الذى لم يكن يستطيع حل المسائل الحسابية على السبورة . غير أن هذه المباراة جعلته يعقد العزم على تعلم الحساب بالكتابة .

وقد غلب دنفر ليكنز سبعة تلاميذ ، ثم هزم جاى هوكنز خمسة ، وتغلب أوفا سليبرز على ثلاثة .

وظللنا نغلبهم ويغلبوننا حتى وصلنـــا الى الصف الرابع . ثم ناديت تلميذى الكبير السن « دون كونوييى » ، وأريتهم سجل أسماء التلاميذ لأثبت لهم أنه فى الصف الرابع . وغلب دون كونوييى عشرة تلاميذ ، وهم كل تلاميذ الصف الرابع بمدرسة مس وودز ، وستة من تلاميذ الصف الخامس ، وكان « دون » فرحا بنفسه أيضا ، وكنا نحن فرحين ، اذ أن كثيرين من هؤلاء التلاميذ كانوا كبار السن مثل « دون » . وكان لدى مس وودز فى الصفوف العليا ثلاثة تلاميذ مقابل تلميذة واحدة عندى ، بيد أن هذه الفتاة ، واسمها مارجريت بريتر ، كانت ممتازة فى الكسور العشرية والكسور الاعتيادية ، وكانت أفضل تلاميذ مدرستى ، فاستبقيتها حتى النهاية وظلت المباراة قائمة ، تنبعث فيها الصيحات من جانبنا اذا غلبنا واحدا من تلاميذهم ، ويعلو الصياح من الجانب الآخر اذا هم غلبوا واحدا من تلاميذنا ، وكذلك كان الزوارالجالسون فى مؤخرة الفصل يصفقون لمدرسة آبرلونسم ، اذ أنهم كانوا من أهل الاقليم الذى تقع فيه هذه المدرسة .

ولم يبق عندى سوى مارجريت بريتر مقابل سبعة من تلاميذ الصف الثامن بمدرسة مس وودز . وساءلت نفسى هل تستطيع مارجريت أن تنتصر عليهم ؟ هل يستولى عليها الاضطراب فتخطىء ؟ واختارت مس وودز واحدة من خيرة تلاميذها لتهزم مارجريت على الفور ، وتنهى المباراة ، التى استغرقت ما يقرب من ساعتين . غير أن مارجريت طلبت مسائل على الكسور الاعتيادية حين ذهبت الى مقدمة الفصل لتبارى تلك التلميذة الممتازة ، التى هزمت أربعة من تلاميذنا .. وتغلبت مارجريت عليها ، اذ وضعت تلميذة مس وودز العلامة العشرية فى غير موضعها .

ثم بعثت مس وودز بتلميذ لامع آخر لكى يتبارى ضد مارجريت ، فاختار الجمع ، فأصابت ماجريت وأخطأ هو ، رغم أنه انتهى من الجمع قبلها · ثم بعثت بتلميذة ثالثة اختارت الطرح ، فغلبتها مارجريت بثانية واحدة ، وقد توصلت كلتاهما الى الحل الصحيح · واختارت التلميذة الرابعة القسمة المختصرة ، فحلت ماجريت المسألة ، وراجعتها ، فى حين وقف منافسها الى جوارها يرتعد ، ولم يستطع أن يفعل شيئا · أما الرابعة ، فقد أقبلت فى عزم وتصميم ، واختارت القسمة المطولة · لقد كانوا يحاولون البحث عن فرع من فروع الحساب تكون مارجريت ضعيفة فيه · وغلبت مارجريت هذه التلميذة بجزء من الثانية وكان حل المسألتين صحيحا · وجاءت التلميذة السادسة فأشارت بأن تختار مارجريت المسألة ، اذ أنها أحست أنها يمكنها الآن أن تغلبهـــا ، فاختارت مارجريت ضرب الكسور الاعتيادية ، فكسبت بسهولة ، ولما تكد منافستها تشرع فى حل المسألة · وعندئذ لم يبق سوى تلميذة واحدة · لقد كانت فى هذه المرة فتاة طويلة ، تبدو أكبر من مس وودز سنا ، وأضخم جسما · واختارت الكسور العشرية · وتطلعت اليها مارجريت ، ثم وقفت تنتظر المسألة · وأخـــذت تلميذة مس وودز تكتب المسألة فى سرعة بالغة ، حتى انها أخطأت فى العدد ٧ فحسبته ٣ · وحلت المسألة كما هى مكتوبة على السبورة حلا صحيحا · غير أن مارجريت سبقتها بجزء من الثانية · وهكذا توصلت مارجريت الى الحل الصحيح مرة أخرى · وكسبنا المباراة · وكان علينا أن نهرع عائدين الى بيوتنا ، فقد كان لدى كل تلميذ واجبات يؤديها فى المساء · كما أن الوقت تأخر بنا · وكان على أن أذهب الى الوادى راكبا جوادى ، فأجيىء بالأبقار من المرعى ، ثم أحلبها ·

(٢٢)

وسرت أنباء هذه المباراة فى الحساب بيننا وبين مدرسة آبرلونسم ، فى جميع أرجاء لونسم فالى وما وراءه ، وكان بيرت ايشام هو الذى يقوم بالدعاية لنا ، فكان يقص نبأ المباراة على كل شخص يوليه سمعه · لقد كان يعرف تلاميذ الفريقين ، ويذكر عدد هؤلاء الذين هزموا وأسماء أولئك الذين هزموهم · وقد خلقت هذه المباراة الروح المدرسية فى لونسم فالى · وعلى الرغم من أن الوقت كان متأخرا ، فاننا نظمنا فريقا للعبة البيسبول ، ذلك أن أفضل شىء كنا فى حاجة اليه هو لعب جيد نظيف ، وتسلية جيدة نظيفة تتخذ شكل المباراة ·

وفى الأسبوع الأخير من شهر أغسطس ، التقى تلاميذى بتلاميذ مدرسة « تشكن كريك » وهزموهم ، ولم يبق أمامنا سوى مدرسة فالى (الوادى) أكبر المدارس الريفية جميعا • وحين حل موعد هذه المباراة ، كان الزائرون من الكثرة بحيث انهم كانوا يقفون فى الفناء ويشاهدون المباراة من النوافذ • ولم يكد الناس يصدقون أننا غلبنا مدرسة فالى ، وأننا لم نشرك مطلقا مارجريت بريتر ، أكثر تلاميذنا نبوغا • وقد غلب جاى هوكنز خمسة وعشرين تلميذا ، وكانت المباراة بالنسبة له معركة من نوع جديد ، ودهش الناس فيما حول الوادى أيما دهشة حين حدث هذا • لقد وجد « جاى » نوعا جديدا من العراك صادف هوى أكبر فى نفسه • وقمنا بمباريات مع هذه المدارس نفسها فى الهجاء ، فخسرنا اثنتين ، وكسبنا اثنتين • وقد نظموا أيضا مباريات فى الكرة واشتركنا فيها ، فخسرنا اثنتين ، وكسبنا سبع مباريات ، فقد كان دنفر ليكنز ، ودون كونوييى ، وجاى هوكنز ، وأوفا سلييرز بارعين فى لعبة البيسبول •

انه لعب بالنسبة لتلاميذى ، ولعب بالنسبة لى • لقد كنت أنا عين الابرة ، واللعب هو الخيط الحق الذى يدور فيها • ان التدريس لم يعد عملا كما كان الحال من قبل • لقد أصبح التدريس لعبا ، بل أصبح التدريس عملا فى صورة لعب ، فهو روح شىء ما • لقد كان شيئا رائعا ، وتسلية ومتعة • ولم يحدث أنى استمتعت فى حياتى بمثل تلك المتعة ، مع شدة حبى للمدرسة• لقد كان التدريس بالنسبة الى لعبة عظيمة •

ولعل شخصا آخر كان يرى أننا تجاوزنا الحد فى اللعب • ولم أعرف قط من هو ذلك الشخص الذى بلغ هارلى ستاجرز مدير مدارس المقاطعة عن مدرستى • ولم أكن أريد أن أتهم أحدا ، غير أنه حدث أن قام جون كونوييى برحلة الى لانزبيرج لكى يدفع ما عليه من ضرائب ، وليحصل على مئونة الشتاء • وبعد رحلته هذه الى لانزبيرج بوقت قصير « تسلل » مدير مدارس المقاطعة الى مدرستى ، وجلس فى حجرة الدراسة ، قبل أن أدرى من أمرى شيئا • وكانت هذه أول مرة يذهب فيها الى لونسم فالى ، فى خلال السنوات الخمس التى انقضت منذ توليه وظيفة مدير مدارس المقاطعة • بيد أن حضوره لم يضرنى ، فواصلت التدريس ، وجعلت مارجريت بريتر تقوم بتدريس لعبة الأعداد الى التلاميذ المبتدئين ، خارج حجرة الدراسة ، فتبعها المدير ، وأخذ يصيخ السمع • ولم تكن مدرستى كثيرة الضوضاء ، غير أنه كانت تنبعث منها الضوضاء الناجمة عن العمل ، وقد شرحت هذا للمدير فيما بعد ،

فالنحل يحدث ضوضاء فى الخلية حين يصنع العسل ، فهى ضوضاء العمل ولو كان النحل هادئا غاية الهدوء ، ما استطاع أن يصنع عسلا ٠

وقال ستاجرز مدير مدارس المقاطعة انك تقوم بعمل رائع هنا ٠ هذه مدرسة من أكثر المدارس التى شهدتها فى هذه المقاطعة يقظة ونشاطا ٠

ثم حدثت المدير عن استبدال اللعب بالعمل فى مدرستى ، وحدثته عن روح اللعب القائم على التنافس فى مباريات الحساب ، ومباريات الهجاء وألعاب الكرة ، وعن اهتمام تلاميذى ، واهتمام أولى الأمر ، بالحضور لمشاهدة هذه المباريات ، وعن الروح المدرسية ، التى حفزت التلاميذ وأولياء أمورهم على حد سواء ٠ وحدثته عن استخدامنا علم الحساب فى المجتمع المحلى ٠ لقد حدثته عن كل شىء ، ثم أجبته عن كل سؤال وجهه الى ٠ ولم يسألنى لم تركت مسكنى بالمجتمع المحلى ، ولو سأل لأجبته ، بيد أنه عرف ، بعد أن تحدثت اليه ، وبعد أن سألنى ما سأل ، أن مدرستى ومجتمعها زاخران بالحياة كخلية النحل حين يكون النحل عاكفا على جمع رحيق الصيف من الأزهار ٠

وحين تسلمت الشيك الثانى ، وبدأت أدفع أجر الطعام والسكنى للعم آموس والعمة ايفى ، لم يأخذا سوى اثنى عشر دولارا ، لأننى كنت أحلب لهما الأبقار ٠ وهكذا استطعت ، بقليل من العمل ، أن أخفض مصروفاتى الى أقل من النصف ، وتبقى معى ستة وخمسون دولارا هى صافى مرتبى من التدريس ٠ وعلاوة على خفض مصروفاتى الى أقل من النصف بسبب هذا المكان الرائع الذى أسكن فيه ، فاننى كنت أستفيد من استخدام جواد هو أذكى ما حمل من الجياد سرجا ، ومن أروعها جمالا ٠ لقد كنت أركب « سندانس » متى شئت ، وحيثما شئت ، وفى نهاية أحد الأسابيع ركبته حتى البيت فى مساء يوم الجمعة ، مسافة تبلغ ثلاثين ميلا ، ثم رجعت به فى يوم السبت ٠

(٢٣)

ولم يحدث أن تغيب واحد من تلاميذى بمدرسة لونسم فالى عن رغبة فى الغياب ، وان حدث فهو أمر نادر كل الندرة ٠ لقد كان التلميذ يتغيب عن المدرسة عادة لسبب من أسباب ثلاثة هى أن يكون مريضا ، أو يكون

مضطرا للاسهام فى جنى المحاصيل،أو لأنه ليس لديه ما يحتاج اليه منملابس أو أحذية أو كتب · وكان التبغ ينضج فى سبتمبر ، وكان الكثيرون من تلاميذى يضطرون الى البقاء فى البيت يعاونون فى قطع التبغ ونقله الى « الشونة » · كذلك كان القصب ينضج فى سبتمبر ، وكان لابد من نزع قشوره ، وفصل رؤوسه ، وقطعه ، ونقله الى المصنع ، ليستخرج منه العصير. وكان لابد من اقتلاع درنات البطاطس ، وقطع القمح ، فشهر سبتمبر فى لونسم فالى حافل بالعمل ، حيث ينتزع القوم من هذه الأرض الوعرة ــ بشق الأنفس ــ ما يقيم أودهم وأود أسراتهم ·

وكانت نسبة حضور التلاميذ الى المدرسة فى شهر سبتمبر تنخفض انخفاضا كبيرا ، ولم يكن بالمدرسة موظف مختص يبحث عن الأسباب التى من أجلها لا يحضر التلاميذ الى المدرسة ، فسواء حضر التلميذ الى المدرسة أو لم يحضر فكل شىء على ما يرام فقد كانت الدراسة تقوم على الحرية والعمل ، وكنا قد جعلنا مظهر المدرسة جذابا الى حد جعل التلاميذ يحبونها ، وقد اشتركوا هم فى تجميلها ، كما كانت لهم طوال أيام الدراسة بيتا ، وورشة ، وخلية نحل ·· فهذه المدرسة مدرستهم ومدرستى ، وهى أكثر بقاع مجتمعنا المحلى حياة ونشاطا ، فقد كانت المكان الوحيد الذى يستطيعون الذهاب اليه، وكان الكثيرون منهم لا يذهبون أبدا الى أبعد من هذه المدرسة ، فكان ينتهى تعليمهم بانتهاء دراستهم فى لونسم فالى ·· فهذه الأيام هى أيامهم السعيدة ، أما ما بعدها ، فهى بالنسبة لهؤلاء الذين يبقون فى لونسم فالى عمل لا نهاية له ، وحياة رتيبة متشابهة ، فهى زواج ، فانجاب أطفال ، فموت ، فدفن فى لونسم فالى ·

لقد كنت أفكر فى كل هذا وأنا أعلم تلاميذى كل الأشياء العملية التى يمكننى أن أعلمهم اياها ، كأن أعلمهم كيف يكتبون الرسائل ، وكيف يقيسون الأرض ، وكيف يحافظون على نظافة مياه الشرب ، وكيف يتبعون القواعد الصحية ، وكيف يصنعون ستائر لنوافذهم ، وأشياء أخرى كثيرة ، الى جانب تلك الكتب المدرسية الجافة غير المشوقة ، التى كنت مرغما على تدريسها ، لأنها كتب « موحدة » قد اختارها شخص من مكتب الولاية لا يقوم بالتدريس ، بل لعله لم يمارس التدريس قط ، وان كان قد قام بالتدريس يوما ما ، فهو الآن بعيد عنه كل البعـــد · وحين كنت أعطيهم واجبات منزلية تتضمن موضوعات يكتبونها ، لم أكن أعطهم أبدا الموضوعات التى جاءت فى كتبهم ،

بل كنت أجعلهم يكتبون عن أشياء يعرفونها ، كأن يكتبوا عما فى لونسم فالى من أناس ، وأماكن ، وأشياء ، وأحداث ٠

وفى شهر أكتوبر ، كانت تزداد نسبة حضور التلاميذ ، ولكى أبين لكم أن تلاميذى كانوا يحبون المدرسة أقول ان الكثيرين منهم كانوا يأتون ، بعد أن يسقط الصقيع الأبيض فيغطى الأرض المتجمدة ، حفاة الأقدام ، ليس عليهم من الملابس الا القليل ، اذ أن الفلاحين لا يكونون قد باعوا محصول تبغهم بعد ، بل كانوا يبيعونه عادة فى فترة عيد الميلاد على وجه التقريب ، فكانت هذه الفترة هى فترة « محصول النقود » بالنسبة لهم ٠ وكثيرا ما كنت أرى فوق الصقيع الأبيض بقع الدماء الحمراء ، مما تنزفه الأقدام الصغيرة العارية ، أقدام أولئك الذين كانوا يأتون الى المدرسة ، على الرغم من أنه لم تكن لديهم أحذية ٠ ولم أكن لأستطيع أن أشترى لهم أحذيةمن مرتبى الضئيل، فى الظروف التى كنت أعيش فيها ٠

بيد أنى استثنيت صبيا وصبية كان أبوهما يقضى عقوبة فى الاصلاحية الاتحادية ، بسبب تقطيره الويسكى من القمح ٠ فاشتريت لهما أحذية ، دون أن يعلم أحد بذلك ٠ لقد كانت أمهما ، وهى على وشك أن تضع وليدا جديدا ، تكافح فى شجاعة حتى تحافظ على تماسك بيتها وأولادها ٠ لقد عشت حياتى كلها فى مجتمعات كان يحدث فيها مثل ذلك ٠ وحين رأيت فوق الثلج آثار الدماء التى تركتها أقدام هذين الطفلين ، وهما تلميذان بمدرستى ، تحرك شىء فى نفسى ، وشعرت بالرغبة فى النضال من أجلهما ، نضالا عنيفا ، يفوق فى عنفه تلك المعركة التى خضتها ضد « جاى هوكنز » ٠

(٢٤)

وجاءت رياح نوفمبر الفجة القارسة فعصفت بأشجار لونسم فالى ، وأطاحت بذلك البحر الزاخر من أوراقها المتعددة الألوان ، وكأنها ضرب السياط ٠ أما الأخدودان العظيمان اللذان يبدوان كأن قد شقهما محراث أسطورى هائل ، فى جبهتين متقابلتين لكى يصنع وادى لونسم الضيق ، فقد أصبحا الآن عاريين قبيحى المنظر ، وكانت الصخور الرمادية الحرشفية الهائلة ، تنام كالوحوش أعلى المنحدرات الوعرة ، لا تزعجها عواصف الشتاء الثلجية ٠ ان لونسم فالى قد فقد ما فى الصيف من جمال الأزهار والبراعم والأوراق ، التى كانت تكسو ما بها من ندب ، بظلال عديدة خضراء ٠ لقد مضى

الخريف ، وحل الشتاء بيننا · ولو وجدت فى أية بقعة على ظهر البسيطة مدخنة باردة برودة الثلج ، لما كانت هذه المدخنة سوى لونسم فالى ·

لقد كنا نجتمع بالقرب من الموقد ، ونشعله حتى يسخن الى درجة الاحمرار ، وكانت الحرارة المنبعثة منه تؤذى أعيننا · لقد كنا الآن نتمنى حر يولية الثابت الذى لا يتغير ، فقد كنا نعلم أن احتمال حر يولية أهون علينا من احتمال الريح الثلجية الثائرة التى تلفح لونسم فالى · وكانت أركان حجرة الدراسة باردة ، حتى حين كانت تبلغ حرارة الموقد حدا ينذر بالخطر · بيد أن تلاميذى ، الذين لم يكن عليهم من الثياب الا القليل ، كانوا يواجهون ريح الشتاء اللافحة بشجاعة · وكانت نسبة الحضور ترتفع حين يسود هذا الطقس ، لأن العمل فى الحقول قد انتهى ، وأصبح التلاميذ ـ لأول مرة ـ غير مقيدين بالأعمال المنزلية · فكان هذا الوقت هو وقت التعليم ، والوقت الذى يتوجه فيه الى مدرسة لونسم فالى كل تلميذ مقيد فى سجل المدرسة ، فى زمهرير الشتاء ، فيجلس الى جوار الموقد · وكنا ننقل المقاعد فنضعها حول الموقد فى دوائر كالمدرج · ولم يكن المدرس ليستطيع أن يقف فى الوسط ، اذ كان البرد يجذب هذه الدوائر من المقاعد نحو الموقد ، وبذلك يترك المدرس خارج الدائرة ·

وفجأة تشرق الشمس ، فتذيب الأرض المتجمدة ، ويصبح لونسم فالى بحرا من الطين · وكان الجواد « سندانس » يغوص الى ركبتيه ، اذ يحملنى وهو يسير فى الطين فى أيام الشتاء القصيرة مسافة خمسة أميال · وكان الوادى بأسره مظلما قبيحا يموج بالأشباح ، وكانت الطيور الجائعة تطير هنا وهناك ، باحثة عن بذور الأعشاب ، وتزقزق مغردة نغمات الشتاء الحزينة · وكان الوادى الضيق يبدو جائعا قاحلا حين ترفع الريح جيف أوراق الأشجار القديمة من القاع ، وتجرفها بعيدا الى بقاع مجهولة · وحين كنت أرى هذه الأرض القاحلة الجائعة الموحشة ، التى لم يكن بها فى الشتاء طعام لغراب أو وحش أو طائر ، كنت أدرك السبب فى أن كل فرد كان يعمل فى الحقول حين يكون الموسم فى ابانه ، والوقت وقت عمل ، فهى قصة النملة والجندب ، وكان أهل لونسم فالى نملا ، ولم يكونوا جنادب كسالى ، لا هم لها سوى الرقص ، فكانوا يعملون طوال موسم نمو الزرع ، ويدخرون شيئا ليس بالكثير ، لطقس الشتاء بقسوته وبشاعته ، تلك القسوة والبشاعة اللتان أصبحنا نعرفهما كل المعرفة ·

(٢٥)

وحل شهر ديسمبر ، وأقمنا شجرة عيد الميــــلاد ، وتبادل تلاميذى الهدايا ، وأعددنا برنامجا خاصا ، واشتريت حلوى وتفاحا وبرتقالا وموزا ٠ ولم نضع فى عطلة عيد الميلاد سوى يوم الأحد ، فلم يكن تلاميذى يرون أى معنى فى الانقطاع عن المدرسة مدى أسبوع كامل بسبب عيد الميلاد ، اذ أن هذه هى الأيام التى يستطيعون فيها أن يذهبوا الى المدرسة ، وهى أيام لم يكونوا يحرثون فيها الأرض ويفلحونها ويجنون المحاصيل ٠ انها الأيام التى يستطيعون أن يتلقوا فيها العلم ، فالأشهر الستة التى تستغرقها الدراسة لم تكن لتمتد حتى أخريات الشتاء ، اذ كان لابد لهم من البدء فى حرق أحواض التبغ ، واعداد العدة لزرع محصول العام التالى ٠

ثم جاء يناير فقفزت نسبة حضور التلاميذ الى ستين ، رغم أنى لم أشهد مثل ذلك الجليد ، وتلك الرياح الثلجية ، وذلك الطقس الذى لا يحتمل٠ بيد أن هذا الشهر كان آخر شهور العام الدراسى ، وكان الوقت يمر سراعا بالنسبة لهم ، وهو الوقت الذى يتلقون فيــــه تعليمهم ، ووقت اللعب ، والاسترخاء ، ومتعة المخالطة واتخاذ الرفاق ، هذا الوقت كان قد شارف نهايته ، فقد كان العام الدراسى السعيد ، الذى نقضيه بعضنا مع بعض ، ينتهى فى الرابع من فبراير ٠ والآن حان وقت انتقال التلاميذ من فرقة الى فرقة ٠ وكان جاى هوكنز قد حصل على أعلى درجة ، فانتقل من الصف الأول الى الصف الخامس ، وانتقل أوفا سليبرز الى الصف الرابع ، وقفز دون كونوييى الى الصف السابع ، ولم يرسب تلميذ واحد ٠ وانتهى من الدراسة ستة من تلاميذ الصف الثامن ، ومعنى هذا أنهم لن يواصلوا تعليمهم بعد ذلك ٠ ان « أعوامهم السعيدة » قد انتهت ٠

وأعددنا برنامجا لليوم الأخير من الدراسة ، ووجهنا الدعوة الى أفراد المجتمع المحلى ، فجاءوا حتى ضاق بهم المكان ٠ وبدأ البرنامج بالقاء الكلمات، ثم أقمنا مباراة فى علم الحساب ٠ وفى النهاية ، صافحت تلاميذى ، كما صافحت أمهاتهم ، وآباءهم ، وشكرتهم على تعاونهم ، وعلى ارسال مثل هؤلاء المواطنين اليافعين الأقوياء الى مدرستى ٠ وقلت لهم انى سأعود طالبا من جديد فى القريب العاجل ، وعبرت لهم عن الفرحة التى تغمر قلبى لأن الفرصة أتيحت لى لتعليم أطفالهم ٠ وجعلتهم يضحكون حين قلت اننى تعلمت فى

الشهور الستة التى قضيتها فى التدريس ، أكثر مما تعلمته فى السنوات الثلاث التى قضيتها طالبا فى المدرسة الثانوية ، واننى سأعود الى المدرسة تلميذا أكثر ذكاء وحذقا ·· وهو قول حق ·

وفى الساعة الواحدة بعد الظهر ، امتطيت صهوة الجواد للمرة الأخيرة ، وأخذ تلاميذى يرقبوننى وأنا أبتعد عنهم ، ثم أدخل فى المنحنى ، ثم أختفى عن أنظارهم · وكانوا يلوحون بأيديهم ويصيحون صيحات الوداع ، فلوحت لهم بيدى ، وصحت صيحات الوداع · وكانت الأرض متجمدة · لقد بدأت الرحيل فى الوقت المناسب ، لقد كنت أغادر أرضا أليفة عشت فيها ستة أشهر من أكثر أيام حياتى اثارة وتشويقا · وبلغت البيت فى الساعة الواحدة وخمس وأربعين دقيقة ، فأدخلت « سندانس » فى الحظيرة ، وربت على أنفه · وحزمت ملابسى ، وودعت العمة ايفى والعم آموس ·

فقال العم آموس : لن أقول وداعا لك ، بل سأعزف لك قطعة قصيرة على الكمان لكى تذكرنى ·

وعزف قطعة موسيقية ، ورقصت العمة ايفى ·

وقال العم آموس وهو يضحك أتعلم يا ستيوارت أن ايفى وأنا قد فكرنا فى احضار الأوراق الخاصة بالتبنى لكى نتبناك ! لقد كنا دائما نريد اثنى عشر من الأبناء ، وعندنا منهم أحد عشر فقط ، فأنت الذى تكمل عددهم اثنى عشر ·

الجزء الثاني

الخيط الحق الذى يدور فيها

(١)

حين عدت فى يوم الأحد من شهر أغسطس من جامعة لنكولن ممموريال الى بيتنا سيرا على الأقدام قالت أمى انا جد فخورين بك ياجيس • اننا فخورون بأن يكون فى أسرتنا شاب جامعى • ان المدير الجـــديد للمدارس الريفية بمقاطعة جرينوود هو « لارى أندرسن » وهـــو يحتفظ لك بوظيفة طيبة •

لقد مرت خمسة أعوام منذ قمت بالتدريس فى لونسم فالى • وفى خلال هذه الأعوام الخمسة ، فرغت من السنة النهائية فى مدرسة لانزبيرج الثانوية • وكنت قد اشتغلت عاما فى مصانع أوكلاند للصلب ، وبدأت من « صبى احتياطى » الى حداد ، وانتهيت من دراستى الجامعية فى ثلاث سنوات ، غير أنى لم أتلق فى لنكولن ممموريال دراسة تربوية لأعد نفسى للتدريس ، بل كانت دراستى أكاديمية ، اذ كنت أريد أن أكون أول فرد فى أسرتى يحمل شهادة جامعية ، ولم يكن فى نيتى العودة للتدريس مرة أخرى •

ذلك لأننى حين تركت مصانع أوكلاند للصلب ، كنت على استعداد لمعاودة العمل فيها فى وظيفة حداد ، فأتقاضى سبعة دولارات فى الأسبوع ، ولم يكن هذا الأجر يوازى الأجر الذى كان يتقاضاه « بيل كوفى » • غير أن شهادتى الجامعية سوف تهيىء لى الفرصة للحصول على وظيفة طيبة • فقد قرأت فى احدى الصحف عن رجل أقدم على هذا العمل نفسه ، فبدأ « بصبى احتياطى » ، ثم ظل يترقى الى أن أصبح مديرا لاحدى شركات الصلب الكبيرة ، وقلت انه ما دام هذا الرجل قد استطاع أن يفعل هذا ، فسوف أستطيع أنا أيضا ، فأعمل فى مصانع أوكلاند للصلب وأربح مالا ، ثم أستثمر هذا المال فى الشركة ، ولن أنفقه فى شراء سيارة تبلغ من الضخامة حدا لا تستطيع معه أن تدور فى منعطفات الطريق الضيق •

وكنت قد عقدت العزم على ماأريد عمله فى الليلة التى قضيتها فى مبنى الكنيسة فى طريقى الى بيتنا • فقد كانت العاصفة تنذر بالهبوب ، وكنت أسير فى الطريق الرئيسى ولمع البرق ، وزمجر الرعد عبر السحب القاتمة الرقيقة المنخفضة ، وهبط الظلام فجأة ، ولجأت الى عدة بيوت أطلب من أهلها قضاء الليلة عندهم فرفضوا ، وحينذاك مشيت ، وظللت أمشى تحت وابل

المطر ، وفى ومضة من ومضات البرق رأيت مبنى الكنيسة ، وكان الباب غير مغلق فدخلت ، وظل البرق يومض حتى استطعت أن أتبين الارغن وعليه غطاء ، فنزعت الغطاء من فوق الارغن ، وهيأت لنفسى فراشا ٠ وبينما أنا راقد فوق المقعد ، وقد التففت فى غطاء الأرغن ، وأخذت أرقب وميض البرق حول هذه الكنيسة القديمة التى تغطيها الكروم ، حاولت أن أصل الى قرارات نهائية بشأن مستقبلى ٠ وكان أحد هذه القرارات ـ وهو قرار نهائى ـ اننى لن أشتغل بالتدريس ٠ وكان قرارى الأخير هو أن أعود الى مصانع أوكلاند للصلب حيث كان هناك عمل فى انتظارى ٠ لقد كان الرخاء يسود البلاد ، وكانت الفرص لا حد لها أمام شاب طموح يرغب فى العمل وفى الكفاح ٠ وكنت أعرف هذا بالتجربة ٠

وذهبت ماشيا الى جامعة صغيرة لم أسمع عنها قبل ذلك قط ، وفى جيبى تسعة وعشرون دولارا وثلاثون سنتا ، بعد أن رفضت كليتان قبولى ٠ وكنت أعرف أن ثمة كلية من الكليات سوف تقبلنى ٠ وقبلتنى الكلية التى طلب أبراهام لنكولن من الجنرال « هاوارد » أن يشيدها « لشعبه » ٠

وشققت طريقى فى الكلية ، فكنت أشترى الكتب والملابس وأدفع المصروفات وأجرة المسكن والمأكل من عشرين سنتا كنت أتقاضاها فى الساعة٠ وكنت أؤدى أعمالا متنوعة فى جامعة لنكولن مموريال ، فأسهمت فى الحفر ، ووضع أنابيب المياه من جانب أحد الجبال ، عبر جبل آخر ، وقمت بتنظيف نوافذ المرجل « وتسليك » البالوعات ٠ وسويت الحشائش فوق كل شبر من أرض المدينة الجامعية الشاسعة مرات عدة ، واشتغلت فى المزرعة ، وفى مخزن الألبان ، وقمت بغسل « الأطباق » وتجفيفها ، وقمت بتوزيع البريد ، وظللت عاما كاملا أقوم بتجفيف الأوانى والحلل ٠ وكنت أختار مواعيد المحاضرات بحيث أستطيع أن أشتغل نصف نهار كل يوم ٠ وكذلك عملت فى محاجر الجير ، حيث كنا ننسف كتلا ضخمة من حجارة الجير ، من تحت جذور غابات شجر الأرز ، ونحطمها بالمطارق الكبيرة (فقد كنت بارعا فى استعمالها ، اذ كنت أدق بها حين كنت أعمل فى قسم الحدادة بمصانع أوكلاند للصلب) وبعد ذلك كنا نسحقا لتحويلها الى خبث ٠ ولا يكاد يوجد فى لنكولن مموريال نوع من العمل لم أقم به ، ولم يكن بها أى نوع من العمل لا أستطيع القيام به ٠ وكل ما تلقيته من معونة مالية من الخارج كان صكين « كمبيالتين » قيمة كل منهما دولار ، أرسلتهما لى أمى ٠ وغادرت لنكولن

ممورِيال ماشيا الى البيت وفى جيبى عشرة دولارات ، وكنت مدينا للجامعة بمائة دولار ، وحصلت على تقدير أعلى من جيد ٠

وأصبحت الآن فى بيتى ، يحيط بى أهلى ، وقد عمهم الفرح لأننى انتهيت من دراستى الجامعية ، وكانوا فخورين بى ٠ وفى ذلك الوقت ، كان عدد خريجى الجامعات من أبناء مقاطعة جرينوود يقل عن ستة ، وهى التى يبلغ عدد سكانها نحو ثلاثة وعشرين ألفا ، وكان لارى أندرسن مدير المقاطعة قد تلقى دراسته فى الجامعة ، بيد أنه لم يحصل على درجة جامعية ٠

وقلت لأمى : لقد عقدت العزم يا أماه على أن أعود الى مصانع أوكلاند للصلب ٠ اننى أحب التدريس ، ولكن هل تذكرين مرتبى الذى كنت أتقاضاه فى لونسم فالى ؟

فقال أبى انك تستطيع بكل ما تلقيت من تعليم أن تتولى منصبا كبيرا فى مقاطعة جرينوود ، وسوف تكسب مالا أكثر بعد أن أصبحت من خريجى الجامعات ٠ اذهب وقابل « لارى » بشأن الوظيفة التى يحتفظ بها لك ٠

فقالت أمى موافقة أجل ، اذهب وقابله على الفور يا جيس ٠ أنت تعلم أنى لا أريد أن تعود مرة أخرى الى مصانع الصلب ٠

وقال أبى : انك أول من تلقى تعليما جامعيا من أهلى بكاليفورنيا ٠

وقالت أمى مزهوة : انك أول جامعى من أهلى ، وأريد منك أن تحذو حذو جدى « برستون هيلتون » ، أريد منك أن تشتغل بالتدريس ٠

ثم كررت قولها قائلة : أريد منك أن تشتغل بالتدريس ٠ انى لفخورة بك يا جيس ، وسوف تصبح شيئا مذكورا ، وسيعرفك أهل هذه المقاطعة بأسرها قبل مضى زمن طويل ٠ اذهب وقابل « لارى أندرسن » على الفور ٠ اذهب غدا ٠

(٢)

وفى يوم الاثنين ، حين جاء « لارى أندرسن » ليفتح باب مكتبه ، كنت واقفا أنتظر ٠

فقال وهو يشد على يدى انك جيس ستيوارت ، أليس كذلك ؟ •

قلت : أجل يا سيدى •

فقال يدعونى للدخول : أدخل المكتب • لقد كنت أتحدث مع والدك بشأنك • ان عندى وظيفة مناسبة لك ، وأنت الشخص الذى يصلح لها •

ثم قال يشرح لى : اننى أحاول أن أفعل شيئا من أجل مدارس مقاطعة جرينوود • اننى أحاول أن أفعل شيئا بذلك القدر من المال الذى يتعين علينا أن ننفقه • ان لدى سيارات مدرسية لنقل التلاميذ الى مدرسة لانزبيرج الثانوية فى الطرف الشرقى من هذه المقاطعة ، وسيارات تنقلهم الى مدرسة ماكسويل الثانوية فى الطرف الغربى • غير أنه يوجد طريق متين يبلغ طوله ما يقرب من اثنين وثلاثين ميلا ، تسير فيه هذه السيارات • أما بقية الطريق فأرض مفككة • وفيما وراء المكان الذى تستطيع سياراتنا أن تصل اليه ، توجد مساحات شاسعة لا يجد التلاميذ الريفيون فيها فرصة للتعليم أبعد من الصف الثامن ، الا اذا استطاع أولياء أمورهم أن يجدوا لهم سكنا بالقرب من مدرسة ثانوية • وقد شيدت ثلاث مدارس ثانوية ريفية فى هذه المقاطعة ، وأعتزم أن أبعث بك الى مدرسة ونستن الثانوية ، فما دمنا لانستطيع أن نأتى بهؤلاء التلاميذ الى مدارسنا الثانوية الكبيرة ، فاننى سأبعث بالمدرسين اليهم •

فسألته قائلا : ومن سيكون أعضاء هيئة التدريس بمدرسة ونستن الثانوية ؟

فقال وهو يبتسم : ستكون أنت كل هيئة التدريس ، وسيكون لديك أربعة عشر تلميذا ، وسيكون مرتبك مائة دولار فى الشهر •

وجلست برهة أفكر • اننى حين كنت طالبا فى مدرسة لانزبيرج الثانوية اعترضت على تعلم الجبر واللغة اللاتينية والهندسة ، وقلت مرة لهربرت مدير المقاطعة ان هـــذه المواد يجب ألا تكون اجبارية ، بل اننى ذهبت الى أبعد من ذلك ، فقلت انها يجب ألا تدرس على الاطلاق ، كما قلت له اننى لن أستخدم هذه العلوم أبدا ، فأجاب أن كل ما أتعلمه من المواد التى تدرس فى المدرسة الثانوية سيكون ذا فائدة لى فى فترة ما من حياتى • والسبب الذى حدا بى الى الاعتراض على هذه المواد هـــو أننى رسبت فى اللغة اللاتينية والهندسة ، ونجحت فى الجبر بشق النفس •

وسألته قائلا : ما هى المواد التى سأقوم بتدريسها فى مدرسة ونستن الثانوية ؟

فقال : الجبر ، واللغة اللاتينية ، والهندسة ، والتاريخ،واللغة الانجليزية٠

فقلت : أخشى أننى لن أستطيع تدريس الجبر ٠

فقال يذكرنى : لقد حصلت فى الكلية على درجات عالية فى الجبر ٠ ان لدى نسخة من درجاتك هنا ، وهذا أحد الأسباب التى من أجلها احتجزت هذه المدرسة الثانوية لك ٠ وعليك أن تكيف نفسك للجدول ، فنحن لا نغير الجدول لكى يناسبك ٠

ولم أستطع أن أقول للمدير اننى حين كنت فى لنكولن مموريال كان زميلى فى الحجرة هو « ماسون دورسى جاردنر » الذى فاز بجائزة هى مطمح الجميع ، وقدرها خمسة وعشرون دولارا لتفوقه على سائر التلاميذ فى الحساب ٠ ولم أستطع أن أقول له ان « جاردنر » كان يحل لى مسائل الجبر ، وكنت أنا أكتب له موضوعات الانشاء ٠

وقلت : سآخذ مدرسة ونستن الثانوية ٠ وسأكون أنا هيئة التدريس٠

(٣)

وفى أوائل شهر سبتمبر ، بعد ظهر يوم السبت ، ركبت عربة « ريو سبيد » التى تنقل البريد والركاب ٠ لقد كنت فى طريقى الى مدرسة ونستن الثانوية ، وكانت معى حقيبة بها أمتعتى ، كما كان معى الأدوات المخصصة لمدرسة ريفية ٠ وكانت العربة غاصة بالركاب ، ومن فوقنا سقف يحول بين رؤوسنا وبين وهج الشمس ، ولم يكن من حولنا شىء يرد عنا الريح والغبار ، وكانت سحب الغبار تتصاعد خلفنا ، حتى اذا أبطأت العربة أخذ الغبار يدور من خلفنا ، ويكاد يخنقنا ، وكانت العربة تسير بنا فى الطريق الملتوى وكأنها مركبة السفر القديمة ، غير أن العربة كانت أسرع فى السير ، وكانت هذه هى وسيلة المواصلات الوحيدة بين لانزبيرج وونستن ٠

واقتفينا أثر نهر ساندى ، ثم تسلقنا تل راكون ، وارتقينا جبلا ٠ ثم هبطنا الى وادى هنتون ٠ ثم ارتقينا جبلا آخر ، وحين بلغنا القمة ، رأيت

أمامى ، على عمق بعيد واديا من أجمل الوديان التى رأيتها فى حياتى ٠ وكان نهر تايبر ينثنى فى بطء ، مخترقا الأراضى الزراعية الخصيبة ، فيبدو فى ضوء الشمس كشريط فضى ٠ وهبطنا هذا الجدار الشرقى للوادى ، ودرنا حول المنحنيات ، ثم صعدنا حتى بلغنا حانوتا ومكتبا للبريد ٠ وكانت هذه هى ونستن ٠ وفى هذا المكان نزلت من العربة ٠ ورأيت مبنى مدرسيا واحدا٠ كانت هذه هى مدرسة ونستن الريفية ٠ بيد أننى لم أكن الآن أبحث عن مبنى المدرسة ، بل كنت أبحث عن بيت « بيلرز » الأبيض الكبير ، الذى يطل على نهر التايبر ٠ ورأيت على البعد البيت ٠ ان هذا هو المكان الذى سأقيم فيـــه ٠

وفى عصر ذلك اليوم ، بعد أن أرتنى « لوكريشيا بيلر » حجرتى ، خرج معى سنوكى وروبين بيلر ، وهما تلميذان بمدرسة ونستن الثانوية ، لكى يريانى مبنى المدرسة ٠ وعلى الرغم من أننى كنت قد رأيت هذا المبنى المتداعى حين مررت به وأنا راكب العربة ، فانه لم يدر بخلدى أن يكون هذا هو المدرسة الثانوية ٠ لقد كان هذا المبنى القبيح القاعد القرفصاء يستعمل فى يوم من الأيام بمثابة كوخ ذى ردهة ، واندثر الكوخ منذ عشرين عاما ، وبقيت الردهة ، وان كانت على وشك أن تتداعى ٠ وحين دخلت المبنى ، كاد أحد الخفافيش يصطدم برأسى وهو يحاول الهرب ، وكانت توجد فوق النافذة أعشاش الزنابير وأعشاش الطيور ٠ وطار من العش طائر فنفذ من زجاج النافذة المكسور وهو يحاول أن ينطلق هاربا نحو الحرية ٠

وخرجت من المبنى ، اذ كنت أريد أن أعاين دورات المياه والفناء ٠ ان هذه الألوف من الأفدنة التى يضمها هذا الوادى العريض الشاسع ، لم يخصص منها لتلاميذ المدرسة الثانوية سوى جزء من ستة عشر من الفدان٠وكانت هناك دورة مياه خارجية فى كل ركن من أركان هذه البقعة الصغيرة ٠ وقد نمت الأعشاب حتى بلغت فى ارتفاعها سقف الكوخ ٠ وقد وجد السفهاء من أفراد المجتمع المحلى طريقهم الى دورات المياه هذه ٠ وأرسلت « سنوكى » الى البيت لكى يحضر ماء ومكنسة ، وفرشاة لتنظيف الأرضية ، وصابونا ، ومنجلا كبيرا ٠

وفى عصر ذلك اليوم ذهبت الى المدرسة ومعى « سنوكى » و « روبين » لمساعدتى فى العمل ، فقمنا بتنظيف الكوخ والسقف والجدران والأرضية ، وغسلنا حوائط دورات المياه ، وأصلحت الفناء بالمنجل ، ونظفت الأرض من

الأعشاب بالمجرفة ، ثم قطعت التبن الجاف بالمحش ، وبذلك أعدنا الأمور الى نصابها فى مبنى المدرسة ، ودورات المياه ، والفناء ، وأصبحنا على استعداد لبدء الدراسة صباح يوم الاثنين ٠

وبينما نحن عاكفون على العمل فى الفناء، جاء صبى طويل يختال على الطريق ثم توقف ، وأخذ يرقبنا فى صمت ٠ وكان ذا شعر طويل ، ووجه تنتشر فيه البثور ، وعينين مستطيلتين زرقاوين بهما حول ، وكانتا تتألقان حين نظر الينا ٠ وكانت ملابسه الفضفاضة تبدو وكأنها ستنحسر عن جسمه ٠

وما ان رآه « سنوكى » وهو واقف يرقبنا حتى قال : أهلا « يابدج » ٠

فقال بدج : كيف حالك ياسنوك ؟ ٠

ثم قال روبين يسأله : هل ستأتى الى المدرسة يوم الاثنين ؟ ٠

فقال : أجل ، فما كنت لأتخلف ٠

فقال سنوكى يجرى بيننا التعارف : هـــذا هو مدرسك ٠ يا مستر ستيوارت ، هذا هو بدج ووترز ٠

فقلت : يسرنى أن أتعرف اليك يا بدج ٠

ولم أشهد فى حياتى لهذا الشاب مثيلا ، ولم أر قط أحدا يأتى بمثل هذه الحركات العجيبة حين يمشى ٠ لقد كان يسير وهو يدفع الهواء بيديه ٠ ووقف هذا الشاب الغريب الأطوار بضع دقائق يرقبنا فى صمت ونحن نعمل٠ ثم انصرف وهو يختال فى مشيته ، ويدفع الهواء بيديه ٠

فقلت لسنوكى متسائلا : هل أنت تهزل بشأن هذا الفتى ؟ أهو حقا تلميذ بالمدرسة الثانوية ؟ ٠

فقال سنوكى انى أقول لك الصدق ٠ سيكون أول تلميذ يصل الى المدرسة صباح يوم الاثنين ٠ انه سيكون هنا حين يبزغ النهار ٠

فسألته قائلا : كم يبعد مسكنه عن هنا ؟

فقال سنوكى : نحو سبعة أميال ٠

فقلت : أليس لديه عمل يقوم به حيث يقيم ؟ ٠

فقال سنوكى لديه عمل كثير ، فهم يزرعون نحو عشرة أفدنة تبغا كل عام ، كما يزرعون قمحا وقصبا ٠ ان بدج عامل ماهر ٠

فقلت موافقا : قد يكون عاملا ماهرا ، ولكنه سيجد الدراسة فى المدرسة الثانوية أمرا شاقا !

فقال سنوكى يحذرنى لا عليك يا مستر ستيوارت ٠ اذا لم تكن رجلا شديد الذكاء ، فستجد أنه هو الذى سيعلمك ٠

(٤)

وفى صباح يوم الاثنين ، حين وصلت أنا وسنوكى وروبين الى المدرسة ، مبكرين ساعة قبل بدء موعد الدراسة ، كان بها اثنا عشر تلميذا ينتظرون ٠ وتلقيت مفاجأة أذهلتنى ، فلم يكن واحد منهم حافى القدمين ٠ وكانوا جميعا حسنى الهندام ، الا « بدج ووترز » ٠ لقد كانت ملابسه جديدة ونظيفة ، غير أنها لم تكن تناسب جسمه ذا الزوايا ٠ وكانت تقف بالقرب من المدرسة سيارة جديدة ، وكان هناك جوادان كريمان مطهمان ، مربوطان فى ظل شجرة الدردار ، وبرذون « سيسى » يضاهى فى جماله جمال « سندانس » مربوط الى سور فناء المدرسة ٠ وجاء التلاميذ يقدمون أنفسهم الى قبل بدء الدراسة ٠ لقد كانوا ست فتيات وثمانية فتيان٠وقبل أن يحين موعدالدراسة، كنت قد تعرفتهم ، وعرفت أسماءهم ٠

وكان الجدول مكتوبا على السبورة الصغيرة ٠ وفى اليوم الأول أعطيتهم واجبات ، وناقشنا الدروس الأولى باختصار ، وكان ما لدى من الوقت قليلا ، اذ كان عدد التلاميذ أربعة عشر ، يتلقون خمس حصص تستغرق كل منها خمسا وأربعين دقيقة ، ولم يكن التدريس هنا كما كان فى لونسم فالى ، حيث كنت أدرس أربعاوخمسين حصة فى الأسبوع٠وفى أثناء نقاشنا الموجز أدركت أن التدريس لتلاميذ تايبر هؤلاء لن يكون أمرا يسيرا كما كان التدريس لتلاميذ مدرسة لونسم فالى ٠ ذلك لأننى حين كنت أدرس فى لونسم فالى ، كنت قد أكملت من دراستى السنة الثالثة الثانوية ، فلم أكن متقدما عن تلاميذ الصف الثامن الا بثلاث سنوات فقط ٠ ومن ناحية المرانة والمعلومات العامة كان بيننا بون شاسع ٠ أما تلاميذ مدرسة ونستن الثانوية فقد كنت أسبقهم بثمانى سنوات ، وظننت حين توليت أمر هذه المدرسة ، أن الفجوة بينى وبين تلاميذى ستكون شاسعة ٠

وحين بدأت فى تدريس التاريخ القديم ، وجدت واحدا من التلاميذ يعرف من المعلومات فى هذه المادة أكثر مما أعرف ، وكان هذا التلميذ هو « بدج ووترز » ، فكان يستعيد التاريخ من بدء عهد الملوك الفراعنة فى مصر ، ويذكر أسماء الملوك ، وتواريخ العهود التى حكموا فيها ، والأعمال التى قام بها كل منهم • وسألت « بدج » عما اذا كان قد درس هذه المادة من قبل ، فأجاب بأنه لم يدرسها من قبل ، وانما قرأ كل الكتب المقررة ــ ما عـــدا الجبر ــ فى فصل الصيف ، وقال ان الجبر صعب عليه ، أما بقية العلـــوم فسهلة • ثم طلبت منه أن يقرأ فقرتين من كتاب التاريخ ، فلما انتهى أخذت منه الكتاب ، وسألته أن يسرد على ما قرأه فى هاتين الفقرتين ، وبينما كان يسرد ما قرأه ، كنت أتابع ما يقول على الفقرتين • لقد سرد الكتاب بالحرف الواحد أو كاد • وأدركت الآن أن سنوكى لم يقل الا صدقا •

وطلبت من « بدج » أن يقرأ على التلاميذ بصوت مرتفع ثلاث صفحات أخرى من كتاب التاريخ ، ثم يتلو عليهم ما قرأه فى الصفحات الثلاث ، ومرة أخرى تلا الصفحات الثلاث بالحرف الواحد أو كاد • لقد سمعت عن الذاكرة المصورة ، وانها لتلك الذاكرة • ان هذا الصبى لم يكن ينسى شيئا ، فقد كانت له ذاكرة حافظة واعية •

وأدركت فى خلال الأسبوع الأول من قيامى بالتدريس بمدرسة ونستن الثانوية أن مشكلتى هى أن أظل سابقا هؤلاء التلاميذ فى اعداد المواد التى أدرسها لهم ، وهى التى كانت عويصة على حين كنت تلميذا بالمدرسة الثانوية، فكان على أن أذهب الى البيت فأظل أعمل فى المساء ساعات طويلة ، وكان على أن أستوعب الدروس ، فاذا لم أفعـــل علمنى تلاميذى • وكانوا يؤدون الواجبات التى أعطيها لهم مهما كثرت ، وكان مقدار العمل الذى أكلفهم به يتوقف على مقدار ما أريد أن أستذكره من معلومات تسبق معلوماتهم ، وكان على أن أسبقهم فى فهم الجبر ، واللغة اللاتينية ، والهندسة ، وأن أراجع التاريخ واللغة الانجليزية أيضا ، وكان على أن أقوم باعداد خمس مواد •

وكنت قد قبلت العمل بمدرسة ونستن الثانوية ، ظنا منى أنهـــا مدرسة صغيرة تقع بين التلال ، وتلاميذها هم نتاج أحياء ريفية مثل لونسم فالى • وكنت قد جئت معى بعدد من الكتب لكى أقرأها ، حتى لا أشعر بالوحدة ، فقد كنت أريد عملا أقوم به ، فاذا بى أجد من العمل الكثير ، اذ كان على أن أستذكر حتى أسبق « بدج ووترز » ، فقد كان يتذكر التواريخ

خيرا منى ، فاذا اختلفنا بشأنها رجعنا الى دائرة المعارف ، فكان هو دائما على صواب • من أين حصل هذا الفتى على كل تلك المعلومات ؟ ومن أين حصل أيضا الثلاثة عشر تلميذا الآخرون على ما لديهم من معلومات ؟ من هم هؤلاء التلاميذ ؟ وما هو حظهم من الثقافة والتعليم ؟ لقد كانت تواجهنى مشكلة من أعجب ما واجهه مدرس من مشكلات ، وكان هذا المكان هو آخر مكان كنت أتوقع أن أجد فيه مثل هذه المشكلة •

(٥)

وكان تسعة من التلاميذ الأربعة عشر يأتون من المزارع ، وكانت كل أرزاقهم تنحصر فى بيع المنتجات الزراعية ، فهناك « بيلى ليونارد » ، الذى كان يذهب الى المدرسة راكبا جوادا مسافة قدرها تسعة أميال • انه ابن رجل يعمل فى مناجم الفحم • وثمة تلميذ آخر هو ابن مدرس فى المدارس الريفية ، كان يزيد من مرتبه بأن يمارس الزراعة فى فصل الصيف • وكان عندى ابن وابنة نائب حاكم المقاطعة ، وكان هذا يمارس الزراعة قبل تعيينه نائبا للحاكم • ولم يكن واحد من آباء تلاميذى متخرجا فى الجامعة ، ولم يذهب واحد منهم الى الجامعة ، بل لم ينته واحد منهم من الدراسة الثانوية • والمدرس بالمدارس الريفية لا يدرس الا بضع مواد فى المدارس الثانوية ، ومعظم هؤلاء لم ينتهوا من مرحلة الدراسة فى المدارس الريفية • بيد أن هؤلاء الآباء قد تلقوا نوعا آخر من التعليم • كانوا يعرفون التربة التى يفلحونها ، ويعرفون ماذا يزرعون ، ومتى يزرعون • كانوا يعرفون كيف يزرعون أرضهم ، وقد تعلموا ذلك كله بالتجربة ، كذلك كانوا يعرفون متى وكيف يجنون المحصولات •

وبينما الرجال يكافحون التربة وتقلبات الفصول ، تقوم زوجاتهم المدبرات بادارة المنزل • لقد كانت هناك بعض الفروق بين البيوت فى تايبر فالى وبينها فى لونسم فالى ، ولعل سبب هذه الفروق هو التربة ، فقد كانت تربة نهر تايبر أفضل من تربة لونسم فالى ، وكان فلاحو تايبر فالى يستخدمون فى الزراعة طرقا أحدث ، وآلات أفضل ، وكانوا يعنون بأرضهم ، وكانت أرضهم تلك كأنها من لحمهم ودمهم • لقد استقر أجدادهم فى هذا الوادى منذ قرن ونصف على وجه التقريب ، فالأسماء هنا هى نفس الأسماء والأسر هى نفس الأسر • وبمرور الزمن أصبحت المزارع أصغر رقعة ، فقد قسمها الأبناء حين مات الكبار ، ثم قسمت المرة بعد المرة ، حتى لم تعد لها حدود شاسعة

كما كانت فى يوم من الأيام • وكان لكل شاطىء صخرى ، ولكل جدول ، ولكل شجرة ضخمة نامية على جانب الطريق ، كان لكل من هؤلاء معنى عزيز لديهم •

وكان الرجل ، فى موسم زراعة المحصولات ، اذا عوق فى عمله ، أو اذا مرض أحد من أفراد أسرته فلم يستطع أن يؤدى عمله ، مد جيرانه اليه يد المعونة ، وكان الحال يجرى على هذا المنوال فى موسم الحصاد فى الخريف • لقد كان الناس يعملون متعاونين ، يساعد كل منهم الآخر ، فلم تقم بينهم عداوات ، بل كانوا جيرانا طيبين ، وكانوا يتبعون أربع ملل دينية مختلفة ، تنتمى الى كنائس مثلها عددا ، ولكن لم يكن يهم أحدا منهم أية كنيسة يتردد الفرد عليها ، فذاك أمر يخصه وحده • واذا هو لم يذهب الى الكنيسة على الاطلاق فما من أحد ينتقده ، وكان هذا أمرا من العسير على تصديقه ، بعد التجربة التى مرت بى فى لونسم فالى ، التى كانت تقع على بعد يقل عن ثلاثين ميلا •

وفى نهاية الأسبوعين الأولين ، تبينت أنى أتعلم مع تلاميذى الجبر ، واللغة اللاتينية ، والهندسة • ولم يكن أمر التلاميذ يقلقنى ، بل كان الذى يشغل بالى هو أن أظل متقدما عنهم ، وفكرت فى أنى قد أريح نفسى فلا أرهقها بالعمل اذا أنا اشتريت لهم مزيدا من الكتب ليقرؤوها • ولم يكن لدينا مكتبة، بل كان لدينا « قاموس » ودائرة معارف فحسب ، والكتب التى كنت قد جئت بها لأقرأها ، قرأها تلاميذى فى الأسبوعين الأولين ، وكانوا يطلبون مزيدا من الكتب • وكان « بدج » لا يقرأ جملة جملة ، بل كان يقرأ فقرة فقرة •

وكان هذا هو السبب الذى حدا بى الى أن أستقل عربة السفر الى لانزبيرج صباح يوم السبت من الأسبوع الثانى • ثم مشيت من لانزبيرج الى بيتها مسافة قدرها خمسة أميال • ولم تكن ثمة وسيلة للرجوع الى ونستن يوم الأحد • ولم تكن عربة السفر تحمل بريدا يوم الأحد • وكان على أن أحمل حملا ثقيلا من الكتب مسافة بعيدة ، غير أنه لم يكن ليضيرنى أن أحمل كتبا الى تلاميذ متلهفين على القراءة ، كتلاميذى بمدرسة ونستن الثانوية •

ولم أكن لأعرف أى نوع من الكتب أختار لهؤلاء التلاميذ ، وكانت هناك كتب تتناسب مـــع مستويات الاعمـــار ، مقترحة للتلاميـــذ المستجدين بالمدارس الثانوية ، ولكنى لم أكن أعلم بها • وملأت حقيبتى بالكتب التى أحبها ، وهى كتب حسبت أنها تكفيهم فترة من الزمن • لقد اخترت كتبا من

تأليف تولستوى ، وملفيل ، وتشيكوف ، وفكتور هوجو ، ودى موباسان ، وبلزاك ، وتوماس هاردى ، وسنكليرلويس ، وامرسون ، وهويتير ، وهاملن جارلند ، ودريزر ، وهويتمان ، وبو ، وادجار لى ماسترز ، وبرت هارت ، وجاك لندن · وحملت حقيبتى الملأى بالكتب ، وعبرت الطريق الى البوابة ، حيث ينتشر الغبار ، ومشيت على طول النهر ، ثم عبرت الوادى ، وصعدت حتى قمة الجانب الشرقى للجبل ، وهى تطل على وادى تايبر · ووضعت حقيبتى على الأرض ، وجلست أستريح تحت ظلال شجرة نامية على جانب الطريق · لقد مشيت نحو أحد عشر ميلا ومعى حمل يزن أربعين رطلا · وكنت أتصبب عرقا ، وقد أخذ التعب منى كل مأخذ · ثم مر غريب يقود سيارة عليها رخصة من أوهايو فتوقف ، ودعانى للركوب ، وقطعت بنا السيارة الطريق الطويل حتى ونستن ·

وفى يوم الاثنين عرفت تلاميذى بهؤلاء المؤلفين الجدد ، وقلت لهم أن يأخذوا الكتب فيقرؤوها ويتبادلوها الى أن يقرأها كل واحد منهم ، كما قلت لهم ان هذه الكتب كتبى ، وان كل ما أبغيه منهم هو المحافظة عليها ، وارجاعها بعد أن يفرغوا من قراءتها · واختار بدج ووترز كتاب « الحرب والسلام » ·

بيد أن ما جئت به من كتب تشتمل على روايات طويلة ، وأشعار ، ومقالات ، وقصص قصيرة ، لم يحل دون ارهاق تلاميذى لى ، ولكم تمنيت لو أنى بذلت جهدا أكبر حين كنت طالبا فى المدرسة الثانوية وفى الجامعة ، وكم تمنيت لو أنى استذكرت كل ما كان يعطى لى من واجبات ! لقد حسبت أنى لن أحتاج الى هذه المواد بعد ذلك أبدا ، وكان على أن أتعلم كل ما لم أتعلمه ، وأن أراجع كل ما تعلمته وحاولت أن أنساه ، فكان ذلك مما شغل وقتى كله · وكانت هذه أول مرة فى حياتى أسمع فيها عن تلاميذ المدرسة الثانوية الذين يرهقون مدرسيهم ، فقد كان العكس دائما هو الصحيح ، وذلك مما جعلنى أتساءل عما اذا كنت قد نسيت ما تعلمته ، أو أنى لم أتعلم شيئا على الاطلاق ·

ولما كنت قد درست اللغة اللاتينية عامين فقط ، وكنت الآن أحاول أن أدرس الجزء المقرر على السنة الاولى ، كان على أن أنفق وقتا طويلا فى اعداد هذه المادة ، وكانت نتيجة ذلك أنى أهملت اعداد دروس الجبر بحيث أسبق تلاميذى · وحدث ذات يوم فى الاسبوع الثالث ، أن جاءنى « بيللى ليونارد » وقال : أتسمح يا مستر ستيوارت أن ترينى كيف أحل مسألة الجبر هذه ؟ ·

وألقيت نظرة على المسألة ، فاذا هى عن قطارات تقوم من أمكنة معلومة ، ويسير بعضها فى اتجاه بعض عددا من الأميال فى الساعة ، فكم يمضى من الزمن قبل أن تتقابل هذه القطارات ٠ ولم يحدث أنى حللت هذه المسألة على الاطلاق فى الجبر الذى تعلمته فى السنة الأولى الثانوية ٠

فقلت ضاحكا : لا أستطيع أن أحل هذه المسألة يا بيللى ٠

وكنت أقول الصدق ٠

فرد قائلا أنا فاهم يامستر ستيوارت ٠ انك تريد أن يحل تلاميذك هذه المسائل بأنفسهم ، أليس كذلك ؟ ٠

فقلت أجل ، اذا هم استطاعوا ٠

وفى أقل من ثلاثين دقيقة ، عاد بيللى وقد حل المسألة ، وأرانى اياها ٠

فقلت : ان نظريتك صحيحة يا بيللى ٠ لقد حللت المسألة ٠

وعرفت أنه على صواب ، بعد أن رأيت الطريقة التى حلها بها ٠ غير أن بيللى ليونارد لم يعلم أبدا أنى لم أكن لأستطيع فعلا أن أحل هذه المسألة ٠ وكثيرا ما كان تلاميذى يحلون مسائل الجبر قبل أن أتمكن أنا من حلها ٠ وقد ألقيت على عاتقهم عبء دراسة الهندسة ، والجبر ، واللغة اللاتينية ، ولم أكن سوى تلميذ يدرس معهم ، ويتقدم عليهم قليلا فى الهندسة واللغة اللاتينية ٠ أما الجبر فما أظن أنى كنت أجيده كما يجيده نصف عدد تلاميذ الفصل ٠ غير أن الطريقة التى سار بها تدريس الجبر ، والطريقة التى تعلمه بها تلاميذى ، لفتتا نظرى الى أمر آخر ، وهو أن الكثيرين من المدرسين يجيدون المواد التى يدرسونها الى حد يجعل تدريسهم فوق مستوى التلاميذ ٠ وقد جعلتنى هذه التجربة أعتقد أنه من الأفضل ألا تكون معلومات المدرس عن مادته معلومات غزيرة مستفيضة ، وأن تكون قريبة من معلومات تلاميذه ، حتى يكون أكثر فهما لهم ، وعطفا عليهم ٠

وكان مزاج « بدج ووترز » فى الضحك مزاجا عجيبا ، فلم يكن يضحك أبدا الا حين يقع تلميذ من زملائه فى خطأ ٠ وكم من أخطاء كانوا يقعون فيها! واذا ضحك فهو يضحك من قلبه ، حتى ليهتز جسمه كله ٠ واذا وقع المدرس فى خطأ أخذ يضحك حتى تفيض الدموع من عينيه المستطيلتين ، وتنحدر على

خديه اللذين تنتشر فيهما البثور ، ويظل يضحك حتى يضحك منه التلاميذ والمدرس جميعا ، وما أكثر ما كان يضحك المدرس ٠

(٦)

وحين جئت الى ونستن لأول مرة ، كنت أتساءل عن الوسيلة التى يروح بها التلاميذ عن أنفسهم ، وعن الوسيلة التى أروح بها عن نفسى ٠ وكنت أحسب أن القراءة تكاد تكون هى الوسيلة الوحيدة للترفيه، ولم يمض وقت طويل حتى أدركت أن الأمر على خلاف ذلك ، ففى احدى أمسيات شهر سبتمبر، دعيت الى بيت « بيل مادن » أحد تلاميذى ٠ وكان أبوه قد دعا ستة أو سبعة من الموسيقيين من أهل البلدة لكى يعزفوا لنا ٠ وجلسنا فى الفناء ، حيث كان العشب يجف حتى يذبل ، وقد تحولت أوراق شجر الخوج الى اللون الذهبى ، والقمر يضىء عاليا فى السماء من فوقنا ٠ واستمعنا الى تلك الفرقة المحلية وهى تعزف على البانجو والكمان والجيتار والماندولين والاكورديون ، من الساعة السابعة حتى الحادية عشرة ، ولم يعزف هؤلاء الموسيقيون النغمة الواحدة مرتين ، وكثيرا ما كان يقف أحد السامعين فيرقص ، حين يعزفون موسيقى الرقصة الشعبية عزفا سريعا ٠ ولم يسبق أن كان للموسيقى القديمة ، وهى تعزف فى ضوء القمر ، فى تلك الامسية اللطيفة من أمسيات سبتمبر ، مثل ذلك الوقع الجميل على مسمعى ٠

ولا تكاد توجد أسرة فى هــذه الناحية ليس من بين أفرادها شخص موسيقى ٠ وتلك كانت وسيلتهم فى الترفيه عن أنفسهم ، وقد تعلموا العزف على الآلات الموسيقية حتى تكون لهم موسيقاهم الخاصة بهم ، تماما كما تعلموا كيف يزرعون ويفلحون ويجنون المحاصيل ليتخذوا منها طعامهم ٠ لقد كانوا يعتمدون على أنفسهم فى كل شىء تقريبا ٠

وكنت أصحب تلاميذى وأولياء أمورهم والجيران لمشاهدة القمح وهو يدرس والتفاح وهو يقشر ، كما كنت أصحبهم الى الرقصات الشعبية وحفلات الزفاف ٠ وكثيرا ما كنا نذهب الى هذه الأحداث التى تقع فى المجتمع المحلى ، راكبين البغال ، فتسير بنا أميالا عدة ، فى الظلام أو فى ضوء القمر ٠ ولم يفتنى مطلقا احتفال يقام فى المصنع حين كانوا يصنعون العسل ، فى هذا البلد الغنى بالقصب ٠ لقد كنا نذهب الى المصنع فيدفع بعضنا بعضا فى

الفتحة التى تنزع فيها الرغوة ، ونأخذ الرغوة اللينة الحلوة من عصير القصب الذى يغلى ، بمجاذيف طويلة قدت من خشب الصفصاف • وكنت أذهب مع تلاميذى الى الكنائس التى يختارونها ، والى الحفلات • ولم يعد أمر وسائل الترفيه يشغل بالى ، فقد وجدت منها الكثير ، وكانت من النوع الذى يشترك فيه الكبار ، ومتوسطو الأعمار والصغار ، فلم تكن هناك فئة قليلة هى التى تستمتع ، وتقف الجموع حولها تتفرج عليها ، ولم أشهد وسيلة كهذه ، هى أكثر وسائل الترفيه ديموقراطية •

ولم يكن واحد من تلاميذى قد شهد مسرحية قط ، ولا أعلم : هل أحد منهم قد ذهب الى السينما قط فى حياته ، فلم يكونوا بحاجة الى الخروج من ونستن بحثا عن وسائل الترفيه ، لأنها كانت لديهم فى بيوتهم • لقد كانوا يبتدعونها ، تماما كما كانوا يبتدعون احتياجاتهم الضرورية فى الحياة • وبينما تمضى أيام الخريف ، كانوا يشوون الحنطة على النار المتأججة التى يوقدونها بالخشب ، ويصنعون كرات من العسل ومن الفشار ، وكان هناك مكان يمكن الذهاب اليه كل ليلة ، فلم أكن لأستطيع أن أقبل جميع الدعوات، اذ كان كل تلميذ يدعونى الى بيته لأقضى الليل عنده ، فتلك كانت عادة قديمة ، ففى السنوات التى خلت كان المدرس يقيم عند تلاميذه ، اذ لم يكن مرتبه يكفى لكى يدفع نفقات الطعام والمأوى ثم يتبقى له منه شىء •

وحين يبدأ موسم الصيد ، كنت أخرج مع تلاميذى لصيد السمان ، كما كنا نصيد الأرانب فى حقول الأعشاب البرية الواقعة عند نهر تايبر • وكان تلاميذى يجيدون اصابة الهدف ، بيد أننى أثرت دهشتهم ببعض الطلقات التى صوبتها ، ولم أكن قد حدثتهم عن السنوات التى كنت أشتغل فيها بالصيد ، وكنت أذهب معهم الى التلال التى كساها الخريف بألوانه ، لكى نصيد حيوان الابسوم ، وكنت أدرس لهم بعض المعلومات عن صيد الابسوم كما كنت أدرس لهم المواد المقررة ، وهى أن الوقت الملائم لصيد الابسوم يكون فى الليالى الساكنة التى يلفها الضباب ، حين لا تتحرك ورقة واحدة من أوراق الشجر • وحين عرفت المزيد من المعلومات عن البيئة على جانبى الجبل الشرقى والغربى ، والنبات الذى ينمو فيها ، أريتهم المكان الذى يجدون فيه حيوان الابسوم • وكانوا يصيدون الحيوانات للحصول على فرائها كما كنت أفعل أنا فى يوم من الأيام ، ويبيعون الفراء ، ثم يشترون بالنقود كتبا وملابس • وقد علمتهم كيفية العناية بالفراء بطريقة أفضل •

وكم من ليلة تسلقت معهم الجانب الشرقى أو الجانب الغربى للجبل ، حتى نبلغ نهايته ، ومعنا جمع من كلاب الصيد . وكثيرا ما كان يصحبنا خمسة وعشرون أو ثلاثون رجلا ، ومعنا من ثلاثين الى خمسين كلبا لمطاردة الثعلب ، ثم نوقد نارا فوق أعلى قمة من الحجر أو التراب ، ونصغى الى الصوت الموسيقى المنبعث من عدو كلاب الصيد . لقد كنا نسمع موسيقى نباحها ، اذ كنا على مرتفع من الأرض بحيث نستطيع أن نسمعها وهى تحيط بالثعلب من حولنا . وكنا نتحمل مختلف الأجواء ، لكى نصغى الى النباح السحرى ، وعدو الكلاب . وكم من ليلة مقمرة كنا نرى فيها الثعلب وهو يسبق الكلاب المبرقشة باللون الأسود والأبيض والبنى ، بمسافة لا تزيد عن مائة ياردة وهى تنطلق من غابات الخريف فتخرج الى حقل مكشوف ، ورؤوسها مشرعة فى الهواء . أما الثعلب الذى سخن جسمه ، وحملت الريح رائحته ، فلم تكن الكلاب بحاجة الى أن تلصق أنفها بالأرض لكى تشم أثره ، اذ أنها كانت تشم رائحته وهو ينطلق أمامها .

ثم جاءت أمطار الخريف ، فلم تعد عربة البريد تذهب به الى لانزبيرج ، وكان الطريق الوحيد الذى يربط بين الوادى وبين المدينة الرئيسية فى المقاطعة لا يمكن المرور فيه ، وكان على الشخص الذى يريد الذهاب الى لانزبيرج أن يدبر لنفسه وسيلة للنقل ، فاما أن يذهب ماشيا ، أو يركب بغلا أو حصانا ، أو يركب عربة يجرها زوجان من البغال . ذلك لأن الوادى ، بعد هطول أمطار الخريف ، وبعد تجمد الثلوج ثم ذوبانها ، كان يتحول الى بحر من الطين . وكان الطريق الضيق الملتوى كأنه شريط من الطين . وكنت أرى أحمالا من التبغ تغادر ونستن فوق عربات ، العربة الواحدة يجرها ثلاثة أزواج من البغال . ولم أشهد عربة محملة ببراميل من العسل أو التبغ يجرها أقل من زوجين من البغال ، وكان لا يمكن أن يجر العربة وهى فارغة سوى زوج قوى من البغال ، وكانت العجلات تغوص فى الوحل حتى جوالقها (*) . وتصبح ونستن فى عزلة ، فكان هذا مما يجعل الناس يعتمدون على أنفسهم . وحين كانت عربة البريد تتوقف عن نقل البريد ، يعرف الناس أن شهور عزلة الشتاء الطويلة قد بدأت .

وكان البريد ينقل على ظهور الخيل ، وكان « ويد مادوكس » يخزن عربة البريد الى أن يعود الى استعمالها مرة أخرى فى شهر مايو أو يونيـــة

(*) الجولق محور دولاب العجلة (قاموس مظهر) .

المقبل ، حسب حالة الطرق · وكان الناس فى ونستن يعرفون أن الربيع قد عاد ، حين تعاود عربة البريد نقل البريد ، وحينذاك كان « ويد مادوكس » يستخدم من أربعة الى ستة خيول لجرها ، وكان يركب جوادا ، ويقود جوادا من خيول الحمل ، فاذا كان البريد ثقيلا فانه فى كثير من الأحيان يقود جوادين محملين ، وكان يركب جزءا من الطريق الذى يبلغ طوله بضعة وثلاثين ميلا ، حيث كان يترك هذين الجوادين فى اسطبل يقع فى الطريق الأوسط ، ويأخذ جوادين آخرين ، ويواصل رحلته الى لانزبيرج · ثم يقضى ليلته فى لانزبيرج · وفى صباح اليوم التالى يركب حتى الطريق الأوسط ، حيث كان يستبدل جواديه المتعبين بجوادين مستريحين ، حتى يستطيع أن يواصل رحلته مخترقا شريط الطين الموحل ·

(٧)

وحين كانت أوراق الأشجار فى الوادى تغير لونها ، وتشرق الشمس كأنها الشعلة ، كنت أصحب تلاميذى فى رحلات طويلة سيرا على الأقدام ، فما ان ينتهى اليوم الدراسى حتى نذهب ، مشيا على الأقدام ، الى التلال التى تكسوها ألوان الخريف ، ونأخذ معنا طعاما نطهوه على نار نوقدها فوق أحد جوانب الجبال التى تحيط بالوادى ، وكانت الفتيات يذهبن معنا فى بعض الأحيان ، وكان التسلق الى أعلى القمم شاقا مرهقا ، وكنا نستطيع ، ونحن نأكل ونتحدث ، أن نرى الوادى من تحتنا تكسوه ألوان الخريف ·

وكانت الأشجار التى تنمو فوق جوانب الجبال المحيطة بوادى التايبر ، تكاد تكون كلها من نوع واحد هو شجرة البلوط الأبيض ، وكانت هذهالشجرة تكاد توئد نمو سائر أنواع الأشجار ، على هذه المنحدرات المجدبة ، ولكن يجود نموها فى الأرض الصلبة ، وفى شقوق الصخور · وفى فصل الخريف ، حين تتلون هذه الأوراق ، يصبح منظرها جميلا يسر الناظرين · وعلى جانبى الوادى ، كانت هذه الأوراق التى كأنها السحب ، تصعد متجهة نحو السماء ، حتى تصل الى غابات الصنوبر فوق قمم جوانب الجبال ، وكانت تتألق حين تتموج فى الشمس ، وكانت غابات الصنوبر تكون سحبا خضراء ، بين سحب الأوراق الذهبية وزرقة السماء ·

وفى الوادى من تحتنا كنا نرى الألوان جميعها ، فكانت الأوراق الخضراء لا تزال هناك ، اذ حماها الضباب الذى يغلف نهر التايبر من الصقيع القارس، وكانت هناك أوراق الشوميك حمراء بلون الدم ، وأوراق أشجار الجميز والحور الذهبية ، وأوراق أشجار التامول المائية بلونها الاردوازى ، وأوراق

أشجار الصفصاف بلونها الذهبى البراق والمعتم . وفى الوادى من تحتنا كانت أكداس القمح منتصبة كأنها أكواخ فى قرية من قرى الهنود الحمر . وكنا نرى أرومات (*) القمح البراقة ، التى تبلغ فى طولها الركبة ، وهى تتلألأ فى شمس الخريف ، وكنا نرى أيضا مروج الأرومات البنية اللون ، حيث تم حش الدريس وتكويمه على شكل رواب عالية ، وضعت أعواد فى وسطها .

وكثيرا ما كنت أسير وحدى بجوار نهر التايبر فى فصل الخريف ، اذ كانت تسوده كآبة تكاد تلهمنى شعرا ، فكنت أرقب أوراق الجميز الكبيرة تخرج متعرجة من الفروع التى تطبق عليها من أعلى ، الى مياه نهر التايبر الزرقاء الصافية ، ثم تسبح بعيدا كأنها سفن صغيرة ذهبية اللون . وشهدت على طول هذا النهر الأزهار تودع الصيف ، وحينذاك خطرت لى فكرة رائعة ، ولم تكن هذه الفكرة تتصل بالشعر ، انما كانت تتصل بالمدارس .

وتلك هى أنه لو استطاع كل مدرس فى كل مدرسة من المدارس ، سواء أكانت مدرسة فى الريف أم القرية أم المدينة ، أو مدرسة عامة أو خاصة أو دينية ، لو استطاع كل مدرس فى هـــذه المدارس أن يلهم تلاميذه بكل ما لديه من قوة ، ولو استطاع أن يعلمهم كما لم يعلمهم أحد من قبل ، أن يحيوا ، وأن يعملوا ، وأن يلهوا ، وأن يتقاسموا ما لديهم ، ولو استطاع أن يملأ عقولهم وقلوبهم بالطموح ، لو استطاع كل مدرس أن يفعل هذا ، لكانت هذه وسيلة عظيمة لخلق جيل من المواطنين لم تشهد البلاد له مثيلا . وكان لابد لهذا كله أن يبدأ بالوحدة الصغيرة ، ولابد أن يقوم كل مدرس بنصيبه ، فكل مدرس مسئول عن مصير البلاد ، لأن التلاميذ يقعون تحت تأثيره ، والمدرس يقبض بيده على مصير بلاده ، كما لا يقبض عليها أى مواطن ينتمى الى أية مهنة أخرى ، اذ المهن الأخرى جميعا قد تفرعت من حصيلة مهنته .

وبدا لى أن حل معظم مشكلات المدن والمقاطعات والولايات ومشكلات الشعب انما ينحصر داخل هذه المهنة العظيمة . ان حل معظم هذه المشكلات يقع فى نطاق مملكة المدرس ، فهو قادر على أن يبث الالهام والوحى فى قلوب تلاميذه وعقولهم ، حتى يقوموا بأعمال مجيدة على هذه الأرض . ان حجرة الدراسة هى الطريق الى حل جميع مشكلات البشر ، وهى الطريق الى اصلاح

(*) الأرومة بقية جذع الشجرة أو بقايا الحصيد (قاموس مظهر) .

الشرور ، وهى الطريق الذى يقود أفراد الأجيال المقبلة الى المعيشة مع بعضهم عيشة أكثر جمالا وأعظم سموا ، والى السعادة والصحة والأخوة ، بل هى الطريق الذى يقودهم الى كل شيء ٠

كنت أفكر فى كل هذا وأنا أسير ، فى الخريف الكئيب ، بجوار ذلك النهر ، أرقب أوراق الشجر وهى تسقط من الأشجار العالية النامية علـى ضفاف النهر ، فى المياه الزرقاء الدوارة ، وكنت أومن من أعماق قلبى بأننى أحد أفراد أعظم مهنة عرفتها البشرية حتى ولو كان المرتب الذى أتقاضاه فى نظير تنشئة أربعة عشر مواطنا ، ورسم مصيرهم ، هو دون ذلك الذى أتقاضاه لو أننى كنت حدادا ، على قسط ضئيل من التعليم ، أعمل فى مصانع أوكلاند للصلب ٠

(٨)

ولم يكن لأحد أن يحول بينى وبين ذهابى الى بلدتى ، وكنت مصمما على الذهاب ، اذ أنى كنت فى حاجة الى مزيد من الكتب التى تتناول الروايات الطويلة ، والقصص القصيرة ، والشعر ، والمقالات ، لكى يقرأها تلاميذى ٠ وكذلك كنت أريد أن أقابل «لارى أندرسن» مدير مدارس المقاطعة٠وحين علمت لوكريشيا بيلر أننى مصمم على الذهاب ، أعدت لى غداء ساخنا على وجـه السرعة ، حين كنت أضع ملابسى فى الحقيبة ، وأتخذ أهبتى ٠ وكان اليوم المدرسى ينتهى فى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر ، وكنت قد قطعت المسافة التى تؤدى الى بيت آل بيلر ، وطولها ثلاثة أرباع الميل ، وأنا أسير سريع الخطى ٠ وكان الوقت فى الأصيل لا يزال مبكرا ، غير أن سماء ديسمبر المظلمة كانت تتدلى فوق الوادى،وبلغ ارتفاع الثلوج على الأرض ست بوصات٠ وكان أمامى سبعة عشر ميلا ، ولم تكن هناك من وسيلة لبلوغى غايتى سوى السير على الاقدام ٠

وقال « أوتيس بيلر » : لو أنك ابنى لما تركتك تذهب ، ولما تركتك تقطع رحلة طولها سبعة عشر ميلا فى ليلة كهذه ٠ انى أنصحك ألا تذهب ، فأنا أعرف الطريق الى لانزبيرج خيرا منك ، فقد مشيت فيه عددا من المرات يكفى لمعرفته ٠ انه طريق محفوف بالمخاطر ٠

ولم أكن لأصغى الى « أوتيس بيلر » ، فقد اعتزمت الذهاب ، مهما كانت

الأحوال • وأنا أعرف أنى سريع الخطى ، فقد مشيت خمسة وثلاثين ميلا فى يوم واحد فلم تؤلمنى ساقاى أو قدماى ، فاذا أنا استطعت أن أمشى هذه المسافة فى يوم قصير ، فلا شك عندى فى أننى بالمشى المنتظم المتواصل ، سوف أستطيع أن أقطع ميلا كل اثنتى عشرة دقيقة • وقلت لنفسى : « اذا أسعفنى الحظ ، فاننى أستطيع أن أقطع الرحلة فى ثلاث ساعات ونصف ساعة • وقد قدرت لنفسى أربع ساعات ، وهو وقت كاف ، وكنت سأغادر منزل أسرة بيلر فى الساعة الرابعة •

واستقرت السحابة الضخمة السوداء كالسقف فوق جانبى الجبال الشرقى والغربى المحيطين بالوادى ، وكان الجانب الشرقى هو الذى يتعين على أن أتسلقه ، فاذا وصلت الى القمة ، أصبحت فوق أخدود لوريل ، واذا أنا سلكت هذا الطريق ، استطعت أن أختصر ثلاثة أميال من المسافة التى لابد أن أقطعها سيرا على الأقدام • وكنت أعرف الممر الذى يؤدى الى أخدود لوريل، اذ سبق أن اجتزته مرات عدة ، ولم أكن أعلم ان كان الثلج قد تكسر فوق ذلك الممر أم لم يتكسر ، ولم أكن لأعبأ به • وودعت آل بيلر ،وانطلقت فى سبيلى •

وكانت ريح ديسمبر تصفر فوق القمم القاحلة ، حيث كانت الطيور الحمراء تقفز من غصن الى غصن ، وتزقزق مغردة نغمات حزينة شاكية ، ووقفت طيور الثلج الى جوار كتل الأشجار الميتة ، التى لم تغطها الثلوج • لقد كانت تبحث عن عشاء ضئيل من الحبوب المتجمدة • ومع أن الوقت كان مبكرا فى هذا النهار القصير من أيام الشتاء ، فقد قدرت أن يهبط الظلام سريعا • وأخذت أتسلق الجبل فى توقيت بديع ، وسرت فى الممر الجبلى فلم أخطىء الطريق ، وكان على أن أكسر الثلج ، اذ لم يسبق لأحد أن سار فيه ، وكنت أتعرف على الطريق بجذوع الأشجار المقطوعة ، والشواطىء الصخرية ، والسياج ، اذ كانت هذه هى علامات الطريق التى أسير على هداها ، والتى لم تكن تتغير معالمها حين تغطى الثلوج الممر •

وحين بلغت الثغرة الكبيرة ، وهى فجوة كانت تزرع فيها أشجار التبغ ثم اجتثت منها ، عرفت أننى أصبحت فى منتصف الطريق الى أخدود لوريل ، وكانت المسافة من بيت آل بيلر حتى أخدود لوريل تقرب من ثلاثة أميال • ونظرت الى ساعتى فوجدت أن السير قد استغرق ثلاثين دقيقة ، وهو وقت أكثر بطئا مما توقعت • وكانت الثلوج على الجبل أكثر ارتفاعا ، والثلوج فى

الممر أكثر صلابة بحيث يتعذر كسرها ٠ ولعل أوتيس ولوكريشيا بيلر كانا على حق حين حذرانى من الذهاب ، ولكن ما كان لى أن أعود أدراجى ، فقد اعتزمت أن أواصل المسير ، حتى ولو لم أستطع بلوغ البيت قبل منتصف الليل ٠ وكنت حينذاك قد بلغت منتصف الطريق الى أخدود لوريل ٠ ورأيت أرنبا يثب فى طريقى ، وحين رآنى أخذ يثب وثبات طويلة ، متجها نحو دغل به أشجار الخلنج ، وقد حسب أن الليل قد جاء ، اذ أن الأرانب تنام بالنهار فى الشتاء ، وتسعى فى الليل ٠

وقبل أن أبلغ الثغرة الصغيرة الثانية ، بالقرب من أخدود لوريل ، ضللت طريقى ٠٠٠ وأخذت أسير فى غابة من أشجار البلوط الأبيض ، قد تكاثف نموها حتى حجبت ضوء نهار الشتاء الذى كان يخبو ٠ ولم أكن قد رأيت هذه الأشجار قبل ذلك أبدا ، فاستدرت بسرعة ، وعدت أدراجى حتى عثرت على الممر ٠ لقد أدركت أننى كنت فى عجلة من أمرى ، وأنه ينبغى على أن أكون أكثر حذرا ٠ ولم أكد أسير أكثر من مائة ياردة ، حتى اعترض طريقى ثعلب أحمر يكاد يكون مثل كلب الراعى فى ضخامة جسمه ، وحين رآنى لاذ بالفرار بأقصى سرعته ، وحجبه شفق الشتاء ، الذى كان يزداد كثافة فوق الجبل ٠ وساءلت نفسى عما اذا كنت قد بلغت السحابة السوداء التى كانت تبدو وكأنها استقرت هناك ، وما اذا كان هذا هو السبب فى أن الغسق كان يتحول فجأة الى ظلمة ٠ ولكن ، ما الذى يدعونى الى القلق الآن ؟ لقد وصلت على الأقل الى أخدود لوريل ، فقد كان هناك سور من خمس جدائل من السلك الشائك الذى علاه الصدأ ، وهو مثبت فى الأشجار بالمسامير ٠ وكنت أعرف ذلك السور ، فهو يمتد فى اتجاه أخدود لوريل مسافة ما ، قبل أن يرتد الى أسفل الجبل ٠ وحين رفعت ذراعى لكى أنظر فى ساعتى لم أستطع أن أرى الأعداد فوق وجهها ٠ ولم أعرف كم الساعة ، بيد أننى كنت أعرف أن الوقت مبكر ٠ وعرفت أن سحابة الثلوج قد أدركتنى ، اذ أن ندف الثلج الكبيرة كانت تتساقط من حولى ، وكنت أرى هذه الندف البيضاء فى غير وضوح ، وهى فى حجم قطعة النقود الصغيرة ، تتساقط أمام عينى مباشرة ، وكنت أحس بها تصطدم بمعطفى ٠

وكل ما كان على أن أفعله هو أن أنعطف الى اليمين ، بعد أن أصل الى أخدود لوريل ، فهذه هى الوجهة الصحيحة ، ويمكننى أن أتتبع سور السلك، حتى ولو كان على أن أتحسسه بيدى وأنا أمشى ٠ وكنت أحمل حقيبتى بيدى اليمنى ، وكانت يدى اليسرى خالية ، غير أننى لم ألمس السور ، فلم يكن

الوقت قد حان لذلك بعد،اذ كنت أتتبع طريق أخدود لوريل،وكنت أتحسسه بقدمى . لقد مارست صيد الحيوانات فترة طويلة من حياتى ، ولم أكن لأعبأ كثيرا بالظلام ، بيد أننى الآن لم أستطع أن أتبين الغابات ، وعرفت أنه ليس من المعقول أن تكون الساعة قد بلغت السادسة . لقد كنت وسط عاصفة ثلجية ، وكنت أسمع صوت ندف الثلج وهى تتساقط من خلال قمم أشجار البلوط الجرداء ، التى كانت أغصانها تتشابك فوق الطريق .

ثم سمعت أصواتا كان وقعها حلوا على مسامعى . كانت أصوات زوجين من البغال لم أكد أجد متسعا من الوقت لأتنحى لهما جانبا.وكدت أصطدم بأحد هذه البغال قبل أن أراه . ومع ذلك فقد كان بالعربة التى تجرها البغال مصباح موقد . وحين تبينت « ايف بوترز » أوقف البغال وهو فى دهشة بالغة ، وسألنى أين أنا ذاهب فى ليلة كهذه ، وعرفت حينذاك ماذا يقصد .

فقد انفجر غضب العاصفة فكادت تطفىء نور المصباح ، ولم تكن المسافة التى يضيئها نوره تزيد عن ست أقدام ، وكانت ندف الثلج كبيرة الحجم ... لقد أدركتنى السحابة التى رأيتها قبل أن أغادر بيت آل بيلرز ...

وقلت لايف بوترز وابنه زيك ، الذى كان يجلس فوق العربة الى جواره، اننى فى طريقى الى بلدتى ، وان هذه الثلوج لم تكن تهطل فى وادى التايبر حين بدأت رحلتى منذ فترة لا تزيد عن ساعتين ، فقال ان العاصفة لم تدركهما الا حين بلغا قمة تلال راكون . ثم دعانى لركوب العربة والذهاب معه الى بيته ، بيد أننى رفضت ، فقال انه كان بوده لو أعارنى مصباحه ، لولا أنه لا يستطيع الدوران حول أخدود لوريل بدونه ، وقال انه لا يزال أمامه مسيرة خمسة أميال أخرى ، وانه قد نقل حمولة من التبغ الى لانزبيرج ، وهو الآن عائد فى اليوم نفسه ، وقد بلغ هو والبغال درجة من الاعياء لا تسمح بالمسير خمسة أميال أخرى فى الظلام والعاصفة .

وفوق هذا الأخدود الموحش ، وسط سحابة ثلجية ، ودعت ايف وابنه، وبدأت أواصل المسير ، اذ أنى أضعت نحو خمس دقائق فى التحدث اليهما . ولم أكد أمشى سوى بضع خطوات حتى تلفت خلفى ، فوجدت أن زوجى البغال والعربة وراكبيها والمصباح قد اختفوا جميعا وسط العاصفة . بيد أنى كنت أسمع جلجلة عدة البغال ، وصوت الرجلين وهما يتحدثان الى بعضهما ، ثم اندفعت أسير وحدى ، متخذا كلا جانبى الطريق ، ومددت يدى أتحسس بها السور فى الظلام ، بيد أننى لم أعثر له على أثر .

وكان ايف قد حذرنى من مكان بعينه ، فقال اننى اذا أوغلت فى المسير على يسارى فسوف أصل الى بقعة شاسعة بها أخشاب توجد فوق الجانب الشرقى لجبال وادى التايبر ، ولهذا كنت أسير متجها الى اليمين ، أتحسس طريقى بقدمى ، فى حين كان الثلج يتساقط كما لم أشهده يتساقط من قبل ، وكان هناك شىء واحد نسيت أن أطلبه من « ايف » ، ألا وهو الثقاب ٠ لقد كان هو الآخر يدخن الغليون ، وكان يدخن غليونه طوال الوقت الذى قضاه جالسا فوق عربته يتحدث الى ٠ آه لو كان معى عود ثقاب ! لقد كنت أتعثر فى الطريق ، وغصت فى الماء مرة حتى ركبتى ، وحينذاك عرفت أننى لابد قد أصبحت أسير فى طريق أخدود لوريل ، اذ كان ذلك حفرة عميقة أحدثتها عجلات العربات ، وقد سار ايف بعربته فوقها فتكسر الثلج الرفيع الذى يغطى سطح الماء ، وابتلت قدمى ، وتناثر الماء فى حذائى ، وامتلأ قالوشى (*) بالماء ٠

ثم خطوت بقدمى غير المبللة فدخلت فى حفرة بها ماء ، وغصت فى الماء الى ركبتى ، وابتلت رجلا البنطلون حتى الركبتين ، وظللت أغوص فى الماء المرة بعد المرة ، بيد أن قدمى كانتا مبتلتين ، ولم يعد يضيرهما أن تبتلا مرة أخرى ٠ وواصلت المسير ، وأنا أتابع الطريق قدر استطاعتى ٠ لقد كنت أعرف أننى أسير فى طريق أخدود لوريل ، وهذا هو كل ما يهم ، ولن ألبث حتى أبلغ البوابة التى تقع عند قمة تل راكون ، حيث ينتهى طريق أخدود لوريل ، وهذه المسافة كانت تبلغ على وجه التقريب ثلاثة أميال ، من حيث بدأت المسير من منزل آل بيلر ، واخترقت سور الأسلاك الشائكة ، حتى بلغت أخدود لوريل ٠ آه لو استطعت أن أرى الساعة ! ما من شك فى أننى قد مشيت ثلاثة أميال أخرى ٠

ان الوقت فى الليل ، حين يكون المرء سائرا وحده يبدو أكثر طولا مما هو فى الواقع ٠٠ وواصلت المسير ، وكنت أغوص فى الماء،وأغوص فى الثلوج، بيد أننى ظللت أسير ٠ ثم أدركت أننى قد مشيت ما يكفى لكى أصل الىالبوابة التى تقع على تل راكون ، وهى البوابة التى سوف تقودنى الى لانزبيرج رأسا ، وبينما أنا أفكر فى الوقت الذى سوف يمر سريعا متى وصلت الى البوابة ، اذا بى أجد نفسى وسط حقل من القمح ، وقد وقفت الى جوار كومة من الدريس مربوطة على شكل حزمة ، وكانت منتصبة أمامى كأنها خيمة بيضاء من خيام

(*) القالوش خف يلبس فى البلل (galosh).

الهنود الحمر . ودفعت بيدى داخل الثلج ، وتحسست سويقات الدريس الجاف ، وعرفت حينذاك أنى قد ضللت طريقى ..

وعجزت عن أن أتتبع آثار قدمى كى أعود أدراجى ، اذ لم أستطيع أن أتبينها ، ولو كان هناك بصيص من نور يمكننى من رؤيتها ، ما استطعت أن أتتبعها الى مسافة بعيدة . اذ تكون قد غطتها الثلوج . لقد ضللت طريقى وانتهى الأمر ، وأصبحت وسط حقل القمح هذا ، وعلى أن أواجه الموقف على خير وجه مستطاع . ووقفت الى جوار حزمة الدريس ، ذلك الشىء الصغير الذى أحتمى به ، وأخذت أصرخ بأعلى صوتى . وكنت أعرف أن فى هذا الجزء من مقاطعة جرينوود كثيرا من الأراضى المقفرة ، تمتد الى أميال بعيدة ، وليس فيها بيت واحد . بيد أننى صرخت على أية حال ، اعتقادا منى أنه قد يسمعنى أحـــد فيهب لنجدتى ، وكان الرد الوحيد الذى تلقيته هو نباح ثعلب آت من بعيد ، وكأنه يسخر من صراخى .

وكانت قدماى حين بلغت حزمة الدريس لاتزالان دافئتين ، وكان وجهى مبللا بالعرق . أما فى هذا الفضاء المكشوف ، حيث كان القمح ينمو فوق قمة الجبل فكانت الريح تعصف دون انقطاع ، وتقذف بالثلوج فى وجهى . واستطعت أن أقيس سرعة الريح من الطريقة التى تلفح بها الندف الناعمة وجهى ، فقد كان وقعها مثل حبات القمح . وكان لابد أن أشرع فى المسير لكى أدفأ ، وأن أفعل شيئا على عجل . وحينذاك خطر لى خاطر ، هو أنه ما دامت توجد هنا حزمة من الدريس ، فلابد أن هناك غيرها ، ولابد أن حقل القمح من الاتساع بحيث يعطى الريح كل هذه السرعة . وكدت أخاف أن أترك حزمة الدريس التى عثرت عليها . وحتى بعد أن تركتها ، لجأت الى حقيبتى فتشبثت بها . وسرت بضع خطوات فوجدت حزمة دريس أخرى ، فلففت ذراعى حول طرفها العلوى ثم أخذت أجرها عائدا بها الى حزمة الدريس الأولى ، وظللت أفعل هذا حتى جررت ثمانى حزم الى المكان نفسه . ولم تكن حزم الدريس كبيرة ، فلم تكن تبلغنى طولا ، اذ كنت أحملها بيد واحدة ، وأتشبث بحقيبتى باليد الأخرى ، فقد كنت أخشى أن أفقدها ، وسرعان ما تغطيها الثلوج . وفضلا عن ذلك ، كانت لدى أفكار أخرى ، اذ بعد أن أتيت بهذه الحزم كلها الى مكان واحد ، وضعت أطرافها الثقيلة بحيث تواجه الجانب من الجبل الذى تهب عليه الريح ، ثم ألقيت بثلاث منها فوق الثلج لأصنع منها فراشا ، ووضعت حزمة على كل جانب من جوانب ذلك الفراش ، وأوقفت حزمتين على الجانب الذى تهب منه الريح ، حتى أجذبهما فوقى بمجرد أن أتخذ

أهبتى للنوم ، ثم أوقفت آخر حزمة بحيث اذا جذبتها تغطى جسمى فى الموضع الذى يكون فيه مقدار الدريس فى بقية الحزم صغيرا • ثم وقفت فوق الدريس، وخلعت حذائى • وكانت الثلوج التى تدفعها الريح باردة ، وهى تلفح قدمى وساقى المبتلة • وخلعت معطفى وبنطلونى المبلل ، وأخرجت من حقيبتى قميصا متسخا ، فجففت به قدمى وساقى ، وربطت حول قدمى قمصانا متسخة ، وارتديت بنطلونا متسخا كنت أزمع أن أرسله الى محل التنظيف بالبخار ، ثم لففت نفسى بكل ما كان فى حقيبتى من ملابس ، ورقدت وقد بسطت فوقى معطفى • ثم مددت يدى الى أعلى فجذبت حزم الدريس فوقى لكى ألتحف بها ، وكانت لحافا كثيفا ، بيد أنه لم يكن ثقيلا كل الثقل • ورقدت هناك وأنا أسمع صوت الفيران التى تمرح فى الدريس من حولى ، وأسمع دقات ساعتى ، والريح تنوح ، والثلوج تنهمر •

وكنت أعلم أننى لا ينبغى أن أنام، اذ لو نمت فان الرياح قد تطيح بالدريس الذى يغطينى ، فيتجمد جسمى حتى أموت ، ولن يعثر على أحد فى حقل القمح ذاك ، الا حين يأتى صاحب الحقل لكى يحمل الدريس الى بيته ، ولابد أننى كنت نصف نائم حين سمعت نعيق البوم ، وقد بدأت كل واحدة تنادى على الأخرى من الأشجار التى تحيط بحقل القمح جميعا • ولم أعرف على وجه الدقة أين كانت ، ولكنى كنت أعرف أنها تتردد على الأماكن التى يقل فيها السكان ، وعرفت من نداءاتها ، التى كانت تأتى من جميع الجهات ، أن ذلك المكان لابد أن يكون مكان تجمعها ، ولم أعد أسمع الريح ، ولا أحس بها تنفذ من خلال الدريس ، ففرقت بيدى سويقات الدريس لأرى ماذا حدث • لقد كان هناك ملايين من النجوم ، عالية فى السماء الصافية الزرقاء ، وعلى مسافة قصيرة ــ فلم تكن تزيد مساحة حقل القمح ذاك عن فدانين ــ كنت أرى معالم الأشجار المظلمة • وبين هذه الأشجار كان يكمن البوم الناعق • كان يحتل كل جانب منها ، وكانت كل بومة تصيح مبتهجة تنادى على الأخرى، وهى تسأل دائما نفس السؤال : من ، من أنت ؟ •

وجذبت الدريس فوقى مرة أخرى ، ورقدت ، وأنا أستمع الى نعيق البوم ، والى أصوات الفيران من فوقى ومن حولى ومن خلال الدريس ، والى دقات ساعتى • وخيل الى أننى أستطيع أن أظل يقظا حتى الصباح ، اذ عرفت أنه ما دامت السماء قد صفت ، فسوف تكون درجة الحرارة تحت الصفر قبل الصباح ، فوق قمة الجبل هذه • وغشينى النوم وأنا أحلم بأننى لن أنام •

(٩)

وحين استيقظت كانت النجوم فى السماء أقل عددا ، ولم يكن ضوء النهار يشرق فى أيام ديسمبر القصيرة هذه الا فى الساعة الثامنة على وجه التقريب • وحاولت أن أعرف الوقت فلم أستطع أن أرى عقارب الساعة • وكان البوم قد طار وولى ، وساد سكون لم يكن يقطعه سوى دقات ساعتى ، وصوت الفيران التى لم تنم طوال الليل • وقد نمت فى دفء ، فى تلك الليلة الباردة ، وأدفأت الدريس للفيران ، وكان المكان مريحا بالنسبة الينا جميعا • أما الآن فقد نهضت ، ووضعت الدريس حولى كأنه خيمة الهنود الحمر • لقد كنت أريد أن يطلع النهار ، حتى أرتدى ملابسى وأواصل المسير • وكنت أشعر بجوع لم أشعر بمثله فى حياتى •

وما ان طلع من ضوء النهار ما يكفى لكى أتبين ما أنا فاعل ، حتى شرعت أرتدى ملابسى • لقد كانت رجلا البنطلون الذى خلعته متجمدتين متصلبتين ، كما تجمد حذائى فلم أستطع أن أضع قدمى فيه • ولم يكن معى ثقاب أوقد به نارا حتى يذوب ما به من ثلج ، وكان من المتعذر على أن ألبسه ، فلففت حول كل من قدمى قميصا متسخا ، ثم أدخلت قدمى فى قالوشى المتجمد ، ووضعت حذائى المتجمد وبنطلونى فى حقيبتى • وبدا من الضوء ما مكننى من رؤية آثار أقدام معتمة فى الثلوج • ان فى استطاعتى أن أقتفى آثار قدمى ، فقد كنت أريد أن أعرف أين أخطأت الطريق •

واقتفيت آثارى ، وكانت آثارا صغيرة معتمة ، تمتد فى الثلوج الصلبة مسافة تزيد عن الميل ، ثم بلغت أخدود لوريل • وفى الأعماق السحيقة ، رأيت وادى هنتون الذى كان يبدو مساحة شاسعة بيضاء ، يسودها السكون المطبق ، فيما عدا الأشجار الجرداء المظلمة النائمة • أما عن يمينى فقد وجدت أننى لو كنت قد مشيت خمسين قدما فقط نحو اليسار لعثرت على بوابة تل راكون ، لكننى أوغلت فى السير الى يمينى ، بعد أن حذرنى « ايف بوترز » من أن أنعطف الى اليسار ، فبلغت بقعة فوق الجبل بين منابع الماء فى نورث فورك وراكون ، حيث وجدت حقل القمح ، ونمت فى وسط الدريس •

ورغم أن اليوم كان صباح السبت ، حين يكون الفلاحون فى طريقهم الى لانزبيرج ، فقد كنت أول شخص يصل الى البوابة ، وظل سكون الثلج الأبيض ، الذى بلغ فى ارتفاعه الطرف العلوى من قالوشى ، لا يقطعه شىء ، حتى شققت لنفسى طريقا ، فسرت هابطا تل راكون ، وعلى البعد ، سمعت

أصواتا فى نهاية الطريق ٠ كان القوم قادمين نحوى ، وكنت متجها نحوهم ٠ وعلت صيحاتهم وهم يستحثون بغالهم على السير ، وشاهدت ثلاثة أزواج من البغال مشدودة الى كاسحة الثلوج ، وعمال الطرق فى المقاطعة يكسرون بها الثلوج التى تغمر الطريق ، وحين سرت بمحاذاتهم أخذوا ينظرون الى ٠ ذلك لأننى لم أتنبه الى أن قطعا من الدريس كانت لا تزال عالقة بمعطفى ، فنفضتها عنه قبل أن أتوقف عند طاحونة القمح التى يملكها « جلليت » ٠ وكنت أعرف « افريم جلليت » ، فلما دخلت الطاحونة سألنى عما حدا بى الى السفر فى وقت مبكر ، فقلت له اننى ضللت طريقى ، واننى نمت فوق الجبل ، فوضع مزيدا من الفحم فى الموقد ، وصنع لى قهوة ، فأخذت أذيب الثلوج التى تكسو حذائى ورجـــلى بنطلونى وأنا أشرب القهوة الساخنة ، وأدفىء نفسى أمام الموقد ، الذى تتأجج فيه النار ٠ وقال لى افريم ان درجة الحرارة فى الساعة السادسة من ذلك الصباح ، كما تبدو من مقياس الحرارة الذى لديه ، هى اثنتى عشرة درجة تحت الصفر ، ولم يستطع أن يتصور كيف خلعت ملابسى وجففت الماء من ساقى وقدمى ، هناك فوق قمة الجبل ، وأنا أواجـــه لفحات الريح المحملة بالثلوج ، ولم يستطع أن يتصور كيف تحملت عنف عناصر الطبيعة فوق قمة الجبل ، فى الوقت الذى كانت درجة الحرارة فيه فى الوادى اثنتى عشرة تحت الصفر ، دون أن أقضى نحبى ٠

(١٠)

وحين فتح لارى أندرسن مدير مدارس المقاطعة باب مكتبه فى الساعة التاسعة من صباح يوم السبت ذاك ، كنت هناك فى انتظاره ، وكنت قد ركبت فوق عربة فحم من طاحونة جلليت حتى لانزبيرج ٠

وسألنى المدير أندرسن قائلا : مرحى ، مرحى ، كيف وصلت الى هنا مبكرا هكذا ؟ هل قطعت كل هذا الطريق من ونستن هذا الصباح ؟ ٠

فقلت : جزءا من الطريق فقط ٠

ولم يسألنى أين أقمت ، ولم أقل له ، فقد كان لدى شىء آخر أريد أن أتحدث اليه بشأنه ٠

ثم سألنى قائلا كيف تسير بك الأمور فى مدرستك هناك ؟ ٠

فقلت : أحسب أنها تسير على ما يرام ٠ ماذا سمعت من تقارير ؟

فقال : تقارير طيبة ٠

فقلت : يسرنى أن أسمع أن التقارير الخاصة بتدريسى تقارير مرضية : اننى أنا نفسى أتعلم ، وتلاميذى يشغلوننى بمثل العنف الذى أشغلهم به ٠

وظن المدير أنى أهزل ، وأخذ يضحك ، وظل يضحك حتى لم يعد يستطيع الكلام ٠

فقلت : اننى أقول لك الصدق ، ولا أقول نكتة ٠ لقد بذلت من الجهد ما يفوق ذلك الذى كنت أبذله وأنا طالب بالمدارس الثانوية أو بالجامعة ! ٠

وضحك المدير لارى أندرسن أكثر من ذى قبل ، وكان ضحكه عاليا بحيث يسمعه كل شخص يوجد بممرات المبنى ٠

ثم قال : أنت تعرف أنه لا شىء يعـــادل ضحكة صافية فى الصباح الباكر ٠

وأدركت أنه كان لا يزال يهزل ٠

فقلت جادا : ياسيدى المدير : اننى لا أريد التدريس لهؤلاء الاربعـــة عشر تلميذا ، اذ ليس بينهم تلميذ واحد بليد ٠ ان عندى اثنين متوسطين ، وهما يستطيعان انجاز أى عمل أعهد اليهما به ٠

ثم قلت مشيرا بيدى اشارة تؤكد قولى وعندى واحد هـــو تلميذ عبقرى ٠ انه أغزر منى علما ، وهو لم يزل فى أول المرحلة الثانوية ٠ ان « بدج ووترز » عبقرى ، واذا لم يكن عبقريا فأنا اذن رجل شديد الغباء ٠ ان عندى ستة أو سبعة تلاميذ يحصلون على الدرجات النهائية ، وهو يفوقهم ٠

فسألنى قائلا : هل تقدر الدرجات وفقا لنظام المنحنى ؟

فقلت : طبعا لا ٠

فقال : لم لا ؟

فقلت ان درجاتى التى حصلت عليها فى المدرسة الثانوية لم تكن سيئة ، وفى الكلية حصلت على تقدير أعلى من جيد ، ومع ذلك فتلاميذ الصف الأول الثانوى يرهقوننى بالعمل ، ويسألوننى أسئلة تتميز بتوقد الذهن فلا أستطيع الاجابة عنها ٠ لماذا أقضى على تلاميذ مثل هؤلاء بطريقة المنحنى ؟ ان

مثل ذلك كمثل اعطاء تلميذ ضعيف فى فصل كل تلاميذه ضعاف ، الدرجة النهائية ، لأنه يتفوق عليهم تفوقا ضئيلا ٠

وجلس المدير لارى أندرسن صامتا ينظر الى لحظة ٠ وكنا فى مكتبه وحدنا ، اذ لم يبلغ مدرس من مدرسى المدارس الريفية لانزبيرج سواى ٠ ثم قال مفكرا : حسن ٠ ما هى مشكلتك ؟

فقلت : ليس عندى أية مشكلة ، ولم أضطر يوما الى تأديب تلميذ من التلاميذ ، فالكل يعملون بكل قواهم ، ويلعبون بكل قواهم ٠

وكنت أعرف أنه يتساءل فى نفسه عما حدا بى الى المجىء الى مكتبه ٠

فقلت : بيد أن هناك شيئا واحدا أحب أن أفعله ، وهو ما حدا بى الى زيارتك فى هذا الصباح ٠ اننى أريد أن أختبر قدرتى على الحكم لكى أرى رأيى فى تلاميذى أكان رأيا خاطئا أم صائبا ٠ اننى أريد أن أعرف الاجراءات التى يتعين على اتخاذها لكى أدخلهم المسابقة المدرسية للولاية ٠ ان المسابقة تعقد كل ربيع ، أليس كذلك ؟

فقال أجل ٠ غير أن هناك عملية تصفية ، فلابد أن يؤدى تلاميذك امتحانا ضد مدرسة لانزبيرج الثانوية ، فاذا نجحوا فيه ، ذهبوا الى أوكلاند كى يدخلوا مسابقة الاقليم ، فاذا نجحوا فيها ، فانهم يدخلون مسابقة الولاية ٠

وكنت أعلم أنه لكى نفوز على مدرسة لانزبيرج ، التى أصبحت الآن مدرسة ثانوية تابعة للمدينة والمقاطعة ، فان علينا أن نبارى صفوة التلاميذ المنتقين من بين نحو أربعمائة تلميذ ، وأنه لكى نفوز على مدارس الاقليم ، فان علينا أن نبارى الصفوة المنتقاة من بين ألوف التلاميذ ٠ بيد أن عقلا واحدا كان يكفى للفوز فى المسابقة ، وكنت أعرف أن لدى « بدج ووترز » هذا العقل ، اذا أحسن تدريبه ، وكنت أومن بأنه قادر على الدخول فى مسابقة على مستوى الولاية ٠ ورأيت أن يدخل بيللى ليونارد مسابقة الاقليم فى علم الجبر ، وكنت على استعداد لتحدى مدرسة لانزبيرج الثانوية الضخمة فى جميع المواد الخمس التى أقوم بتدريسها لتلاميذى ٠

وقلت : اذا لم يكن لديك اعتراض ياسيدى المدير ، فاتخذ ما يلزم من اجراءات ، وحدد لنا الوقت الذى نتبارى فيه مع مدرسة لانزبيرج الثانوية فى الجبر ، واللغة اللاتينية ، واللغة الانجليزية ، والهندسة ، والتاريخ ٠

فقال وهو يبتسم : سأفعل ذلك · هل يوافقك يوم فى يناير ؟

فقلت : ان أى وقت يناسبنى ، فاختر الوقت الذى يناسب مدرسة لانزبيرج الثانوية ·

فقال ذاك عدل ·

قلت : هذا ما جئت اليك من أجله ·

وبهذه الكلمات ، تركته وحده فى مكتبه ·

(١١)

وفى صباح يوم الأحد ، فى الساعة التاسعة ، غادرت « و · هوللو » ، ميمما وجهى شطر ونستن · وأخذت أسير سيرا حثيثا فوق الثلوج المتجمدة ، التى كانت تقرقع تحت قدمى ، وكنت أواجه ريح ديسمبر التى لا ترحم · لقد كانت تلهب ملابسى كأنها السياط ، وتلسع وجهى ، ولكنى كنت أعلم أننى لن أشعر بالبرد ، فقد كنت أحمل عشرين كتابا استعرتها من أجل تلاميذى ، اذ كانوا قد قرأوا كل ما لدى من كتب ، وكنت أحمل أيضا عددا محدودا من الملابس ، فلم أستطع أن أحضر كل ما كنت أريد احضاره منها ، لأن الكتب احتلت معظم ما فى حقيبتى من فراغ · وكنت أسير فى طريقى ، فوق الثلوج المتجمدة ، وتحت سماء لا تشرق فيها شمس ، وأواجه ريحا عاتية ، وفى هذه المرة ، كنت سأقطع الطريق كله فى ضوء النهار ، فما كان لى أن أرتكب الخطأ الذى وقعت فيه من قبل · وعلى الرغم من الريح القارسة ، والسماء التى لا تشرق فيها شمس ، والثلوج المتجمدة التى تقرقع ، كنت أحمل ثقلا يبعث الدفء فى جسمى ·

واخترت الطريق القصير عبر أخدود « سيتن » فهو يوفر على السير مسافة ثلاثة أميال · وحين بلغت أخدود « سيتن » واجهت ريحا قارسة تهب من الجنوب لم أواجه مثلها من قبل · وفرحت أنى اجتزت الاخدود ، وانحدرت نحو بوابة نهر ساندى ، وكان الطقس أكثر دفئا فى وادى نهر ساندى · وهنا كان يخالجنى الأمل فى أن تمر بى عربة يصحبنى معه قائدها ، بيد أنى واصلت المسير على طول البوابة الزلقة ، ولم تكن كاسحات الثلج قد كسحت الثلوج من الطريق ، فظلت مكانها · ولم أقابل عند بوابة نهر ساندى مخلوقا قط ·

ثم بلغت « راكون » ··· لقد قطعت الطريق كله ، يخالجنى الأمل ، حيث لا يوجد أمل ، فى أن أجد أحدا يصحبنى فى عربته · وعلى الرغم من أن العرق كان يتصبب من وجهى ، كان جسمى ينتفض بردا من أثر الريح ، وكنت اذا توقفت عن المسير لحظة قصيرة ، جف العرق من وجهى ·

وحين بلغت قمة تل راكون نظرت الى ساعتى · كانت الساعة الثانية عشرة ظهرا ، ولم يزل أمامى مسيرة ستة أميال · لقد مشيت أحد عشر ميلا فى ثلاث ساعات · ولو لم أكن أحمل ثقلا ، ولو لم تكن البوابة مغطاة بالثلوج، لاستطعت أن أمشى بسرعة أكبر · وأخرجت من جيب معطفى شطائر صنعتها أمى لى ، فأدهشنى أن أجدها قد تجمدت · بيد أننى كنت أكثر جوعا مما كنت أتصور ، وكان طعم الشطائر المتجمدة مستساغا ، فأكلتها وأنا أسير فى طريق أخدود لوريل · ولم أشهد فى حياتى ريحا تماثل فى سرعتها وبرودتها تلك التى كانت تهب على هذا الطريق ، فقد كانت تنفذ من معطفى وملابسى ، وخيل الى أن قوة هذه الريح العاتية سوف تقتلعنى من الطريق ، وتلقى بى فى وادى التايبر ·

وشعرت بالبرد كما لم أشعر به من قبـــل ، وكانت يداى وقدماى توجعنى ، والدموع تسيل من عينى ، وكنت وأنا أسير مسافة ثلاثة أميال على طول أخدود لوريل ، أقف وراء شجرة كبيرة هنا وهناك ، أتقى بها الريح ، حتى يدب الدفء فى جسمى ، وكثيرا ما كنت أقف خلف منحدر صخرى أحتمى به ، وكان البرد يفعل فعله فى بدنى وحواسى · لقد كان النوم فى ليل يوم الجمعة وسط الدريس نوما هانئا دافئا اذا قورن بذلك البرد · ثم بلغت الممر فى النهاية ، حيث تركت الأخدود · وكان جسمى متصلبا بحيث لم أكد أستطيع أن أنحنى كى أنفذ من بين أسلاك السور · وتساءلت عما اذا كنت أستطيع أن أواصل المسير حتى أبلغ بيت آل بيلر · وجلست مرة فوق الثلوج ، وفكرت فى أن أترك حقيبتى وأسير عدوا حتى أبعث الدفء فى جسمى ·

واذ أنا أمشى وأعدو فى بطء ، منحدرا من الجبل ، فوق آثار قدمى المعتمة التى تركتها يوم الجمعة ، عادت الى حواسى بالقدر الذى جعلنى أدرك أن على أن أواصل المسير · ولم أكن لأستطيع أن أتوقف الآن ، اذ لو فعلت لأصبحت من الهالكين · وكانت فكرة الجلوس مرة أخرى تخيفنى ، وكانت قدماى لا تحسان بشىء ، وشعرت كأنما أمشى بقدمين من خشب · وكانت يدى

الخدرة التى لا حياة فيها تتشبث بحقيبتى وكأنها شدت بسلاسل اليها • وبلغت بيت آل بيلر فى الساعة الثانية والنصف •• لقد قطعت الأميال الستة الأخيرة فى ساعتين ونصف • وانى لأعتقد الى يومنا هذا ، أنه لولا « أوتيس بيلر » لتجمدت يداى وقدماى • وكان أول شىء فعله أن أخذ الحقيبة من يدى، ثم نزع قفازى وحذائى ، اذ لم أستطع أن أخلعهما بنفسى •

ثم صب ماء باردا كالثلج فى وعاء ، وجعلنى أضع قدمى فيه • ولم تحس قدماى بالماء • ثم جعلنى أضع يدى فى وعاء به ماء بارد برودة الثلج ، فلم تحس يداى • وما هى الا بضع لحظات حتى جاءت « لوكريشيا » بماء ساخن ، وأخذ « أوتيس » يضيف منه الى الماء البارد شيئا فشيئا ، حتى عاد قليل من الحس الى يدى وقدمى • ثم ظل يضيف المزيد من الماء الساخن ، فدب مزيد من الحس فيها • وظل يقوم بهذه العملية الى أن أصبحت درجة حرارة الماء مثل درجة حرارة الجسم تقريبا • وعاد الحس الطبيعى الى يدى وقدمى •

وحين أخذت فى ارتداء جواربى قال أوتيس بيلر : لا أدرى ما الذى حدا بك الى الذهاب الى لانزبيرج فى يوم كيوم الجمعة ذاك ، ثم اذا بك تعود فى يوم هو أشد ما عرفت من الأيام بردا •• ما كان لى أن أبيت فى العراء ليلة كليلة الجمعة الماضية ، حين كانت درجة الحرارة فى الوادى اثنتى عشرة تحت الصفر ، أو أعود ماشيا الى هنا من لانزبيرج فى يوم كهذا ، ولو أعطيت هذه المزرعة ، فلماذا فعلت أنت ذلك ؟ •

قلت : اذن فأنت تعلم أنى ضللت طريقى يوم الجمعة الماضى •

فأجاب قائلا : ان كل شخص فى ونستن قد علم بالنبأ ، والكل يتحدثون عنه •

واذ أخذت ألبس حذائى أضاف يقول مفكرا ليس كل الناس هم الذين يفهمون السبب الذى دفعك الى أن تفعل ذلك •

وقالت لوكريشيا ضاحكة : لابد أن لك صديقة فى لانزبيرج •

فقلت وأنا أفتح حقيبتى : هذا هو السبب الذى جعلنى أفعل ما فعلت سأريكما اياه • هل تريان هذه الكتب ؟ لقد ذهبت بغية احضار هذه الكتب من أجل أبنائكما ، ومن أجل تلاميذ مدرستى • انهم أذكى من علمت من تلاميذ

وحينذاك نظر كل منهما الى الآخر •

فأضفت قائلا : لقد فعلت شيئا آخر أيضا ، وسوف تسمعون به بعد شهر من الآن • لقد ذهبت لمقابلة أندرسن مدير مدارس المقاطعة بشأن أمر بسيط •

فسألنى أوتيس بيلر قائلا اياك أن تكون قد أزمعت الاستقالة من مدرسة ونستن الثانوية !

فقلت مجيبا كلا ، كلا ، فذاك أمر لا يخطر ببالى •

(١٢)

وحين حملت الى تلاميذى نبأ عزمنا على دخول المسابقة المدرسية ضد مدرسة لانزبيرج الثانوية ، أخذت أرقب أثر ذلك فى وجوههم • لقد كانوا على استعداد لمواجهة التحدى ، ورأيت فيهم روح التنافس •

وقلت لهم ان علينا أن نراجع كل ما انتهينا من دراسته فى الكتب المقررة • كذلك علينا أن نقطع مرحلة أكبر فيها • ارفعوا أيديكم اليمنى اذا كنتم على استعداد لذلك •

فرفع كل تلميذ يده • وبدأنا العمل فى التو واللحظة • وبالاضافة الى الدروس المنتظمة ، بدأ تلاميذى يراجعون جميع الدروس القديمة التى انتهينا من دراستها •

وعلى الرغم من التحدى الذى ينتظرنا ، وكل ما أعددناه من مراجعة ودراسة ، لم نكف عن اللعب أبدا ، فقد كان نهر التايبر متجمدا ، وكان رنين قباقيب الانزلاق ، والضحك المرح يقطعان سكون ليالى الشتاء ، فقد كنا نتزحلق فوق شريط الثلج الأبيض الملتوى ، تحت قمر الشتاء المرتفع البارد ، وكثيرا ما كنا نتزحلق حتى منتصف الليل ، فنسمع الريح تهب حزينة فوق السكون الأبيض العظيم الذى يحيط بنا ، وتغنى أغنيات موحشة بلا كلمات ، بين أغصان الأشجار الجدباء ، التى تنمو على ضفاف النهر ، ونسمع نباح الثعالب عاليا فوق الشواطىء الصخرية التى تأوى اليها ، وهو يهزأ من الموسيقى التى يحدثها رنين قباقيب الانزلاق •

وفى نهاية الأسبوع كنا نذهب الى نهر التايبر ، حيث نثقب حفرا فى الثلج ، ونصيد السمك • وكنت أذهب أنا والصبيان نصيد الأرانب أعلى وادى

التايبر وأدناه ، فى الحقول التى تركت بها أرومات بعد الحصيد ، وقد أصبحت الآن تكسوها الثلوج وتجتاحها الرياح • وكنا نقتفى آثار حيوان المنك ، والابسوم والراقون ، وابن عرس والثعالب ، فنتبعها حتى عرينها ، وكنـــا نتسلق الجبال ثم نسقط من فوق الصخور فنقع وسط الثلوج الكثيفة ، فكان هذا يصرف عقولنا عن الكتب ، ويعلمنا نوعا آخر من الدروس ، وكان يجلب من المتعة والترفيه ما تجلبه قراءة الكتب ، اذ كان لابد لنا من الترويح عن النفس ، ما دمنا مقبلين على مسابقة ضخمة • وقد كان لنا ما أردنا ••• ان ولايتنا لم تكن عادة شديدة البرودة بالقدر الذى يتيح وجود أنواع الرياضة الشتوية ، وكان هذا الشتاء استثناء ، فحاولنا استغلاله الى أقصى حد ممكن •

وحين كنا نذهب للصيد ، لم تكن الفتيات يذهبن معنا ، أما حين كنا نذهب للتزحلق على الثلج ، أو لصيد السمك ، أو نركب الزلاقات ، فانهن كن يخرجن معنا • وكان يوجد ، غير بعيد من المدرسة ، منحدر طويل رفيق ، وجدناه منحدرا نموذجيا لزلاقاتنا • وكان يبلغ طوله حتى الجزء الذى تنتهى عنده زلاقاتنا ميلا على وجه التقريب ، وكنا ننزلق على ضفة النهر ، ونندفع فى اتجاه تيار الماء مسافات طويلة فوق ثلوج نهر التايبر ، ونركب الزلاقات فى ساعة الظهيرة ، قبل بدء الدراسة وبعد انتهائها •

وفى أيام الشتاء ، بعد أن تذوب الثلوج ، تاركة الأرض المظلمة بحرا من الطين الموحل ، كنا نعد ألعابا تصلح للعب داخل مدرستنا ذات الحجرة الواحدة، وهى ألعاب بسيطة ، مثل قذف السهام فى صناديق صغيرة • وكنا نلعب لعبة النيشان كما كنا نلعب أيضا لعبة تسمى ، « الثعلب والاوزة » ، ونلعب بحبوب القمح البيضاء والصفراء والحمراء ، فقد كان علينا أن نهيىء لانفسنا وسائل الترفيه • ولم أر أبدا على وجه تلميذ من التلاميذ نظرة تدل على شرود الذهن، ولم أسمع أحدا منهم يشكو من أن أيام الشتاء القصيرة المظلمة أيام مملة لأنه لا يجد ما يفعله ، وأحسب أن كل تلميذ كان يدعو ، فى صمت ، لكى يطول النهار • لقد كنا جماعة صغيرة متحدة • كان عددنا صغيرا ، بيد أننا كنا أقوياء • كنا نلعب بجد ، وندرس بجد ، كنا ندرس ونلعب ، بينما تمضى أيام ديسمبر •

(١٣)

وفى ذلك اليوم من أوائل شهر يناير ، أوقفنا الدراسة وكانت هذه أول مرة نوقف الدراسة فيها لسبب من الأسباب ، فلم نكن فى العادة نضيع ساعة

واحدة ، بل اننى فى الواقع قد قمت بالتدريس عددا من الساعات يزيد عما هو مطلوب منى • وكان هذا اليوم بالنسبة لنا هو اليوم الأعظم • ومن سوء الحظ أن اجتاحت أرضنا الوعرة عاصفة ثلجية أخرى ، وعصفت ريح قارسة بالوديان والتلال • بيد أن هذا لم يحل دون ذهابى أنا والتلاميذ • ولم تستطع « ليونامادوكس » ، أبرع تلاميذى فى اللغة اللاتينية ، أن تذهب معنا ، فان أباها « ألكسى مادوكس » رفض أن يدعها تركب بغلا مسافة تبلغ سبعة عشر ميلا الى لانزبيرج ، لكى تشترك فى مسابقة فى يوم كهذا ، ولم أستطع اقناعه بأن يدعها تذهب معنا •

وفى ذلك الصباح البارد العاصف ، جاء « بدج ووترز » الى المدرسة على ظهر بغله فى ساعة مبكرة للغاية ، وأشعل النار فى الموقد ، وحين وصلت بقيتنا على ظهور البغال فى نحو الساعة السابعة ، كان بدج ووترز قد أدفأ حجرة الدراسة • وربطنا بغالنا فى السور ، ووقفنا أمام النار نستدفىء ، قبل أن نبدأ رحلتنا • ثم حللنا رباط البغال ، وامتطينا ظهورها • وكانت تتصاعد من حوافر البغال سحب صغيرة من الثلوج على شكل لفحات من مسحوق ، وقد امتطى ظهورها ستة تلاميـــذ ومدرسهم ، وانطلقوا فى الطريق •

ورغم أن قوة الريح فى وادى التايبر كانت شديدة ، فانها كانت فى ظهورنا ، وكانت الريح من القوة بحيث تزيد من سرعة سير البغال • وقطعنا مسافة فى وقت مناسب الى أن تركنا الوادى ، وارتقينا الجبل ، وهنا أصبحنا نواجه الريح ، وكانت ريحا تلهب كالسياط ، ريحا لاسعة قارسة ، جعلت الدموع تنساب من أعيننا وأعين بغالنا ولكن لم يكن لنا أن نعود أدراجنا • لقد كنا ذاهبين الى مدرسة لانزبيرج ، وذاك أمر لامناص منه ، وقد عقدنا العزم على ملاقاة هذه المدرسة الكبيرة ، الكبيرة بالنسبة لنا ، فقد كانوا يتفوقون علينا فى العدد بنسبة ستة وعشرين الى واحد • وما لبثنا أن هبطنا الى وادى هنتون ، ثم صعدنا حتى قمة تل راكون ، حيث واجهنا الريح القارسة مرة أخرى •

وبينما نحن ماضون فى طريقنا معا قال « بدج ووترز » : لقد كنت أفكر يامستر ستيوارت فى أنك وقد استطعت أن تنام فى حزمة من الدريس حين كانت درجة الحرارة اثنتى عشرة تحت الصفر ، فاننا نستطيع أن نفوز فى هذه المسابقة على مدرسة لانزبيرج الثانوية • اننى لم أنس أنك سرت على

قدميك سبعة عشر ميلا ، لكى تجىء بكتب لنا ، وكل تلاميذك يذكرون ذلك • اننا لن نخذلك أبدا •

لقد فكر بدج ووترز فى هذا لأننا كنا نعبر الجبل فى البقعة التى بت فيها تلك الليلة ، ثم نزلنا الى وادى راكون ، وحينذاك شكا « بيللى ليونارد » ، وهو لا يعدو الثالثة عشرة من عمره ، من أن يديه وقدميه وشفتيه فاقدة الحس، وقال انه يشعر كأن النوم سوف يستولى عليه • وفهمت ما يعنيه ، فقد انتابنى هذا الشعور نفسه فى اليوم الذى وضع فيه أوتيس بيلر يدى وقدمى فى الماء البارد ، فتوقفنا عند أحد البيوت ، وربطنا بغالنا فى السور ، ودخلنا نطلب الدفء • فجاء بيرت باتون صاحب البيت ، وهو رجل غريب بالنسبة لنا ، فأخذ يضع مزيدًا من الخشب فى النيران ، حتى دب فى أجسامنا الدفء فصارت كما كنا حين غادرنا المدرسة ، ثم أخبرناه من نحن والى أين نحن ذاهبون •

فقال وهو يهز رأسه بحزن : فى يوم كهذا ؟

وامتطينا ظهور البغال مرة أخرى ، وقد بلغنا الآن منتصف الطريق ، والمرحلة التالية سوف تنتهى بنا الى مدرسة لانزبيرج الثانوية ، وكان أمامنا طوال الطريق الى لانزبيرج واد تحيط به أسوار من تلال وعرة ، هى بمثابة حاجز يصد الريح •

(١٤)

وفى الساعة الحادية عشرة عبرنا ببغالنا فناء مدرسة لانزبيرج الثانوية ، ثم ربطناها فى السور الذى يحيط بالملعب الرياضى • وكانت هناك وجوه تطل علينا من وراء زجاج النوافذ • ثم دخلنا المدرسة ، حيث قابلنا الناظر « ايرنست تشارترز » فرحب بنا وقال انه قد أدهشه أن نأتى فى يوم كهذا ، وأن نستطيع أن نصل بمثل هذه السرعة •

وفى مكتب الناظر ، جلسنا حول موقد الغاز ، وكنا نسمع ضحكا كثيرا فى ممرات المدرسة ، فقد كان تلاميذ مدرسة لانزبيرج الثانوية يرون فينا جماعة عجيبة المنظر ، ودخل كثيرون منهم مكتب الناظر ليلقوا نظرة علينا • لقد كان الكل ينظر الينا بفضول واستغراب وعجب ، فلم يشهد هؤلاء التلاميذ من قبل سبعة بغال مربوطة فى سور فناء مدرستهم ، ولم يحدث أن تباروا فى مسابقة مدرسية أمام مثل هذا العدد الصغير من التلاميذ ، الذين جاءوا اليهم

على ظهور البغال · وكان رأى ناظر مدرسة لانزبيرج الثانوية فى المسابقة غير رأينا ، فلم تكن فى نظره سوى مباراة ضد خصم ضعيف،لاختبار قدرة تلاميذه على الاشتراك فى مسابقة الاقليم ، التى كانت ستعقد فى وقت قريب · وقد قال لى ذلك حين ذهب لكى يحضر الظروف المختومة التى تحتوى على الأسئلة · وأخذنا نستدفىء أمام موقد الغاز ، فى حين أخذ هو يقوم باعداد الترتيبات اللازمة للمسابقة · وحين عاد قال ان الادارة التعليمية للولاية هى التى وضعت هذه الأسئلة ، ولا أعلم مدى صعوبتها ·

ووقف تلاميذى صامتين الى جوار الموقد ، وهم ينظرون بعضهم الى بعض ثم طلب الينا أن نتوجه الى فصل من أكبر فصول المدرسة · وعهد الى مدرسات المدرسة بالاشراف على الامتحان · وحين دخل تلاميذ مدرسة لانزبيرج الثانوية من الباب ، لكى يتباروا ضد تلاميذى ، أدركنا السبب الذى من أجله اختار الناظر هذا الفصل الكبير · ونظر تلاميذى بعضهم الى بعض ، ثم نظروا الى منافسيهم ·

واخترت « جيس جارفيز » ذا الشعر الأحمر ، لكى ينافس عشرة من تلاميذهم فى الهندسة ، واخترت « بيللى ليونارد » لينافس واحدا وعشرين تلميذا من خيرة تلاميذهم فى علم الجبر ·

وقلت « لبدج » : انك ستمثلنا يا « بدج » فى علم النحو ، وأدب اللغة الانجليزية ، والتاريخ ، وأظن أنى سأدخلك فى مادة الحكومة المدنية · هل يوافقك هذا ؟ ·

فقال موافقا : أجل ·

ولم يكن « بدج » قد درس مادة الحكومة المدنية ، وكل ما كان يعرفه منها هو ما قرأه فى خلال دراسته علم التاريخ ·

ثم قلت : أنت تدخل مسابقة التاريخ والنحو ياروبرت باتسون · وأنت ياروبن بيلر تدخل مسابقة الجبر ، وأنت يا سنوكى بيلر تدخل مسابقة الجبر والهندسة ·

وقلت للناظر يؤسفنى يا مستر تشارترز أنه ليس لدينا من يدخل مسابقة اللغة اللاتينية ، فان « ليونامادوكس » أبرع تلاميذى فى اللغة اللاتينية ، لم تستطع المجىء ·

وبعد أن بدأ الامتحان ، خرجت من الحجرة ، وكانت الآنسة بيرتا مادين تتولى الاشراف عليه · وقدت البغال الى اسطبل « والترسكوت » فى الطرف الشرقى من لانزبيرج ، حيث أطعمتها وسقيتها ·

واستمر الامتحان حتى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر ، فيما عدا الفترة التى تناول فيها المتسابقون وجبة غداء سريعة · واشترك أحد تلاميذى ، وهو بدج ووترز فى أربع مسابقات ، مع أنى كنت قد رتبت الأمور بحيث يشترك فى مسابقتين فقط · وما أن انتهى « بدج » من امتحان الحكومة المدنية ، حتى بدأنا فى تصحيح الأوراق وطلب من جميع التلاميذ أن يغادروا الحجرة ·

وشرعنا فى التصحيح وفقا لنماذج الاجابة · وكان يقوم بالتصحيح مستر تشارترز والآنسة مادين ومدرستان أخريان وأنا ، وكان مستر تشارترز يقرأ نماذج الاجابة ونحن نراجع الاجابات وفقا لها · وتوقفنا عن التصحيح مرة أو مرتين ، نتبادل النقاش فى صعوبة الأسئلة ، ونتساءل عن مدى ما كنا نستطيع أن نجيب عليه منها لو أن هذا الامتحان نفسه عقد لنا ، ونحن جميعا من خريجى الجامعات · وسألتنى احدى المدرسات ، ونحن نصحح هذه الأوراق ، ما اذا كان بدج ووترز قد اطلع على هذه الأسئلة من قبل ·

وحين فرغنا من تصحيح الأوراق ، نادى مستر تشارترز على المتسابقين ليدخلوا الحجرة ، ثم قال فى صوت متهدج : أريد أن أقرأ عليكم نتائج هذه المسابقة ·

بدج ووترز الفائز فى أدب اللغة الانجليزية ·

بدج ووترز الفائز فى النحو ·

بدج ووترز الفائز فى التاريخ ، وحاصل على الدرجة النهائية تقريبا ·

بدج ووترز الفائز فى الحكومة المدنية ·

ثم قال مستر تشارترز يسألنى لماذا لم تكتف باحضار هذا الفتى وحده ؟

فأجبت بسرعة قائلا : لأن لدى تلاميذ ممتازين غيره ·

وواصل مستر تشارترز قراءة النتائج :

بيلى ليونارد الفائز فى الجبر ·

جيمس جارفيس الثانى فى الهندسة ، وخسر المرتبة الأولى بدرجة واحدة ٠

« سنوكى بيلر » و « روبين بيلر » حازا المرتبة الثانية فى الجبر بالتعادل.

ثم قال مستر تشارترز الناظر أهنىء تلاميذك وأهنئك بنجاحكم ٠ يبدو أن مدرسة ونستن سوف تمثل هذه المقاطعة فى المسابقة المدرسية للاقليم ٠ اننى لم أشهد شيئا رائعا كهذا ٠

واذ نحن نغادر مدرسة لانزبيرج الثانوية ، سمعنا التلاميذ المنهزمين يبكون لأن « مدرسة حقيرة مثل مدرسة ونستن قد هزمتهم » ٠

وبعد بضع دقائق ، جاوز موكب البغال مدرسة لانزبيرج الثانوية ، وكانت الوجوه تطل من وراء زجاج النوافذ ، وكان بعض التلاميذ يلوحون لنا متهللين ، ونحن نمر على ظهور البغال ، وقد أطاحت الريح بذيول معاطفنا فألقيت بها خلف أسرجة البغال ، وجعلت من أوشحتنا بيارق ترفرف فى الهواء ٠ وسار بنا موكب النصر فى الشارع الرئيسى للانزبيرج ، مولين وجوهنا شطر بلدتنا ٠

(١٥)

وسرت أنباء انتصارنا على مدرسة لانزبيرج الثانوية كالنار المشبوبة فى أوراق الخريف الجافة ، وكانت حديث الناس فى كل بيت على طول وادى التايبر ، وقد قال الكس مادوكس لجيرانه انه يأسف الآن أنه لم يدع ابنته ليونا تذهب معنا ٠ ولم يكن انتصار مدرستنا الصغيرة على مدرسة لانزبيرج الثانوية حديث الناس فى وادى التايبر وحده ، بل كان حديث القوم فى طول مقاطعة جرينوود وعرضها ، وأبلغ المدير أندرسن النبأ الى مدرسى المدارس الريفية ، ونقل المدرسون النبأ الى تلاميذهم ، وهؤلاء نقلوا النبأ الى أهليهم ، وبهذه الطريقة سرت الأنباء فى جميع أنحاء المقاطعة ٠ وكان كل فرد يفتخر بنا ، لأننا كنا أصغر المدارس الريفية الثانوية ، والمدرسة الوحيدة التى جرأت على تحدى المركز العلمى الذى تتمتع به مدرسة لانزبيرج الكبيرة ٠

وسرعان ما حملنا أنباء سعيدة أخرى الى أندرسن مدير مدارس المقاطعة، والى مدرسى مدارسه الريفية ، وأهالى مقاطعة جرينوود ، اذ دخل بيللى ليونارد وبدج ووترز المسابقة المدرسية للاقليم ، وفاز بدج ووترز بثلاث جوائز فى

النحو والتاريخ والحكومة المدنية ، وفاز بيللى ليونارد بالمرتبة الأولى فى الجبر • ثم حدث أن أصيب بيللى ليونارد بالتهاب رئوى ، فلم يستطع أن يشترك فى مسابقة الولاية ، وذهب بدج ووترز وحده ففاز بالجائزتين الأوليتين فى التاريخ والنحو • لقد كنت أعرف أن حكمى على تلاميذى لم يكن حكما خاطئا •

وهكذا كان على أن أضرب جاى هوكنز ، لكى أكون لنفسى سمعة طيبة فى لونسم فالى ، وكان هذا أعظم عمل قمت به فى مجتمع محلى يؤمن بأن الحق للقوة ، أما فى وادى التايبر ، فقد كان على أن أجعل تلاميذى يفوزون فى المسابقات المدرسية ، وهذا هو الفرق بين أثر المجتمعين • وأصبحت الآن سمعتى كمدرس سمعة طيبة •

(١٦)

وجاء الربيع فأمدنا جميعا بحياة جديدة،فعدنا الى الحقل لكى نلعب الكرة، فى حين كانت الفتيات يلعبن الكروكيت • وكنا نذهب بعد ذلك الى النهر فنصطاد بالشباك ، وكانت عودتنا الى نهر التايبر فى الربيع شيئا ممتعا ، وأحببت هذا النهر كما أحببت أهله •

وكان العام الدراسى يقترب من نهايته ، واستطعنا أن نفرغ من جميع الكتب المقررة ، وأعدنا قراءتها مرة ثانية ، لكى نراجعها المراجعة النهائية ، ولم يرسب تلميذ واحد من تلاميذى ، ولم تعترضنى أية مشكلة تتعلق بالنظام، فقد كان التلاميذ يعيشون معا كأنهم أخوة وأخوات ، وكانوا يكنون لى من الاحترام ما يكنونه لآبائهم ، فقد كنت أدرس لهم،وأصطاد الحيوانات والأسماك معهم ، وأستمتع بما هيأوه لى ولأنفسهم من وسائل الترفيه ، وكنت فردا منهم ولو أنى كنت مدرسهم •

وذات يوم ، بعد انتهاء الدراسة ، كنت أجلس على ضفة نهر التايبر أصيد السمك ، حين سمعت حفيف أوراق الجميز الخضراء من خلفى ، وكانت السمكة على وشك أن تعلق بالصنارة ، ولكنها كفت فجأة عن قضم الطعم ، اذ لابد أنها هى الأخرى قد سمعت الصوت • وخرج من بين الأشجار رجل متين البنيان ، يرتدى بذلة رمادية اللون ، وقبعة صغيرة ، وقميصا أبيض ، ورباط عنق على شكل الأنشوطة •

وقال ضاحكا هأنذا أعثر على المدرس العظيم يصطاد سمكا • وددت لو استطعت أن أفعل كما تفعل ، فى هذا الوقت من السنة •

ثم تنهد قائلا : غير أن العمل يقيدنى فلا أستطيع حراكا ٠

وأمسك بيدى ، وقال يعرفنى بنفسه أنا « لارى كينوود » رئيس مجلس تعليم مدارس مدينة لانزبيرج ٠

فقلت : انى لسعيد بمعرفتك ٠

فقال : فلندخل فى الموضوع ٠ ان أعضاء مجلس تعليم مدارس مدينة لانزبيرج قد قرروا التعاقد معك على أن تتولى نظارة مدرسة لانزبيرج الثانوية فى العام الدراسى المقبل ٠ انهـــا مدرسة كبيرة ، والمشكلة الرئيسية التى ستواجهك هى مشكلة النظام ٠ ولكنك تتمتع بسمعة طيبة ، وقد قر رأينا على أنك الرجل الذى يصلح لهذا المنصب وقـــد استقال مستر تشارترز ناظر المدرسة ، ليتولى عملا آخر ٠

وأذهلتنى المفاجأة فبقيت لحظة لا أنطق ولا أبين ٠ فسألنى قائلا : هل توافق ؟ ٠

فقلت بعد لأى : طبعا ٠

فقال : اذن قابلنا يوم الثلاثاء الثانى من الشهر القادم فى مكتب مدرسة لانزبيرج الثانوية ٠

فقلت : سأكون هناك ٠

واختفى فجأة كما ظهر فجأة ٠

وبعد أن حجبته سحابة أوراق الجميز الرقيقة الحانية ، كان من العسير على أن أصدق أنه جاءنى ليطلب منى أن أتولى هذا المركز الكبير ، فقد كان كبيرا فعلا بالنسبة لى ، اذ كنت قد تخرجت فى مدرسة لانزبيرج الثانوية منذ خمسة أعوام فقط وكنت قد قبلت فيها بامتحان ، نجحت فيه ، بعد أن قضيت ما يقرب من ثلاثين شهرا أتدرب فى المدارس الريفية ، ولعلى كنت أضعف المتقدمين من التلاميذ تدريبا ٠ وهأنذا الآن أدعى للعودة الى المدرسة لكى أكون ناظرا لها ، وبعد مضى تسع سنوات على الوقت الذى دخلتها فيه ، أعود اليها من جديد ٠

وساءلت نفسى : لم يطلبون منى أن أعود ؟ ٠

لأن مدرسة ونستن الثانوية هزمت مدرسة لانزبيرج الثانوية فى المسابقة المدرسية ٠٠ لقد كان هذا هو السبب الوحيد ، الذى جعلهم يعلمون بأمرى ، ويأتون الى بدلا من أن أذهب أنا اليهم ، وكانت سمعة تلاميذى هى التى جاءت الى بهذه الترقية التى لم أكن أتوقعها ٠ ولم يكن السبب أننى مدرس ممتاز ، ولكن لأنه كانت لدى خامة طيبة أعمل بها ، وقد علمت هؤلاء التلاميذ الذين تمتلىء نفوسهم بالطموح ، فكان أن انتفعوا بميزات التعليم الثانوى لأول مرة فى حياتهم ، واستفادوا منه أيما فائدة ، وكافأونى على كل ما فعلته من أجلهم ، فأعطونى خير ما لديهم ، وأعطيتهم خير ما لدى ، ولسوف يعودون عما قريب الى حرث الأرض وزرعها،والى عملهم تحت الشمس والريح والنجوم، فى واديهم الذى يشيع فيه الضباب ، وتصدح فيه أصوات الربيع الحنون ٠ ولسوف أعود الى الكلية لكى أتلقى دراسة فى التربية ، حتى أعد نفسى للعمل المدرسى الكبير الذى ينتظرنى ٠

الجزء الثالث

تعثرت إصبع قدمي فوقعت أرضا

(١)

وقال أبى يذكرنى فى صباح ذلك اليوم من أيام سبتمبر أنت ترى الآن من منا كان على صواب · انك لن تندم أبدا على النصيحة التى بذلتها لك أمك وأنا · أتذكر حين عدت الى البيت ، يمتلىء رأسك بالتعليم الجامعى ، وقررت أن تعود الى مصانع أوكلاند للصلب ؟

ثم قال أبى موضحا ، وهو يلوح بيده : لم تمض ست سنوات منذ أن كنت تصيد الحيوانات فى طريق ذهابك الى المدرسة ، وعودتك منها ، وتبيع جلود الحيوانات لكى تشترى كتبا وملابس ، وهأنتذا تعود فتتولى نظارة هذه المدرسة الكبيرة · انى لفخور بك يا جيس · ان زملائى فى العمل فخورون بك ، والأب ملفين لا يفتأ يتكلم عنك ، وبرت سنيدر ، رئيسى فى العمل قد أخذ يحسن معاملتى عن ذى قبل ولم يعد يطلب منى أن أعمل ، كما كنت ، فى حمل اللفافات الثقيلة وأصعد بها المنحدرات الى المحطة · ثابرعلى ما أنت عليه ، وسوف تصبح رجلا ذا شأن ·

فقالت أمى وهى تعد لأبى طعام الغداء : لقد أصبح فعلا رجلا ذا شأن ورسم طريقه فى الحياة · لقد حقق أكثر مما حققه أحد فى عائلتك أو فى عائلتى باستثناء ايفرت هيلتون ، فقد تخرج فى الجامعة ويعمل مدرسا هو الآخر ·

فقال أبى وهو يضع قفازه الجلدى الثقيل الممزق فى جيبه : « ليس عليك ياجيس أن تشق طريقك فى الحياة مثلما فعلت أنا · فأنت ستخوض الحياة وقلمك خلف اذنك ، اما أنا فأقطع خمسة أميال ذهابا وايابا من عملى ، وأقضى عشر ساعات فى محطة السكة الحديد ، وهذا عمل أقوياء البنية فهو يحتاج الى ظهر قوى ، وعقل محدود · » وقال لأمى : » اسرعى ياسال ، سوف أتأخر عن عملى اذا لم تسرعى فى اعداد العشاء · اننى لم أتأخر عن عملى منذ اثنتى عشرة سنة » ثم حمل دلو الطعام القديم من فوق المنضدة وقال : هذا يوم سعيد عندى يا جيس · وعليك أن تتحكم فى المدرسة ، لا أن تدعها تتحكم فيك ، وأعمل طوال الثلاثين الساعة المخصصة لك فى الأسبوع كما أعمل أنا طوال الستين الساعة المفروضة على ، وبذلك تستطيع أن تديردفة العمل · وأغلق أبى باب المطبخ من خلفه ، وانطلق على عجـــل الى عمله ، يحمل فى احدى يديه مصباحه المضاء ، وفى اليد الأخرى دلو الطعام ·

وتذكرت كيف بدأ حياته بالتنقيب عن الفحم فى أحد المناجم ، حيث كان يزحف على بطنه كما يزحف الثعبان · وكان سقف المنجم هشا ، كما

كان عرق الفحم رفيعا ٠ ثم كف عن التنقيب عن الفحم ، وحاول الاشتغال بالزراعة ، فكان ينتقل من مزرعة الى أخرى ٠ ثم عمل على خط السكة الحديد ، وكان هذا أفضل عمل تولاه ٠ وكنت أعلم أن الشخص المتعلم ليس هو الذى يعرف أقدار الناس ، وانما يعرفها رجل مثل أبى لا يعرف القراءة أو الكتابة ، وامرأة مثل أمى لم يتعد تعليمها الصف الثانى من المرحلة الأولى ، وهـــذا ما جعلهما يفخران بى ، وما جعل أمى تعتقد أن تعيينى ناظرا لمدرسة لانزبيرج الثانوية معناه أنى أصبحت شيئا مذكورا ٠

ولم أقل لأبى ان الأجر الذى يتقاضاه من عمله على خط السكة الحديد أكبر من ذلك الذى كنت أتقاضاه حين كنت مدرسا بمدرسة ونستن الثانوية، فقد كان أبى يحصل فى المتوسط على خمسة وسبعين دولارا ، وكان يتقاضى أجر يوم كامل ونصف اذا عمل وقتا اضافيا ، وكان ذلك يحدث كثيرا خلال شهور الشتاء ، اذ كان عليه أن يزيل الثلوج من محولات القطارات ٠ واذا حدث أن تحطم أحد القطارات فى الجزء من السكة الحديد المنوط به الاشراف عليه ، فاستدعى هو ورجاله للعمل فى يوم الأحد ، فانه كان يتقاضى الضعف، وبذلك كان متوسطأجره فى الشهر يزيد عن خمسة وسبعين دولارا يتقاضاها طوال اثنى عشر شهرا فى السنة ٠ أما أنا فكنت أتقاضى وأنا مدرس بمدرسة ونستن الثانوية مائة دولار فى الشهر لمدة ثمانية شهور ، وبذلك كان متوسط مرتبى فى الشهر خمسين دولارا لمدة اثنى عشر شهرا ٠ وكنت أدفع منها أجر السكن والمأكل ، فيتبقى خمسة وسبعون دولارا ، غير أنه كانت لدى أوجه نفقات أخرى ، وكنت أشترى عدة أشياء صغيرة لمدرستى ٠

ولم أقل أبدا لأبى وأمى اننى حين كنت أذهب الى كلية « بيبودى » لأحضر دراسة صيفية رأيت أنها تفيدنى من حيث اعدادى لوظيفة ناظر مدرسة لانزبيرج الثانوية ، لم أقل لهما اننى اضطررت الى اقتراض النقود من البنك الأهلى فى لانزبيرج ٠ ذلك لأننى كنت قد ادخرت مبلغا قدره مائتا دولار ، بعد أن دفعت ما على من مصروفات لجامعة لنكولن مموريال ، وقدرها مائة دولار ٠ ولم أستطع أن أحسب جميع نفقاتى فى السنة النهائية ، حين كنت مشغولا بأوجه نشاط مدرسى متعددة ، وذهبت الى كلية « بيبودى » بمبلغ يقل قليلا عن ثلثمائة دولار ، لأحضر الدراسة الصيفية ، فقد امتدح الناس هذه الكلية ، باعتبارها « جامعة كولمبيا للجنوب » ٠ وكانت المواد التى اخترتها هى اللغة الانجليزية ، وفلسفة التربية ، والنشاط المدرسى والتربية ، وكان يحضر معى هذه الدراسات مدرسون ونظار ، ومديرو مدارس المدن ، ومديرو مدارس

المقاطعات · وقد قابلت كثيرين من رجال التربية هؤلاء ، وتناقشت معهم فى الادراة المدرسية ، والمشكلات الخاصة بالمدارس الثانوية ·

وبعد أن رجعت من كلية بيبودى الى البيت سيرا على الأقدام ، عقدت أول اجتماع مع مدرسى مدرسة لانزبيرج الثانوية ، وكان ذلك يوم السبت الذى يسبق يوم الاثنين ، وهو يوم افتتاح الدراسة · والتقيت لأول مرة بالمدرسين الذين سأعمل معهم ، ولم أكن قد زكيت أو رشحت أحدا منهم ، اذ أن مدرسا ومربيا معروفا فى كلية بيبودى قال لى ان من واجبات الناظر تزكية مدرسيه وترشيحهم ، ما دام هو الذى سيعمل معهم ، وحينذاك يعتبره مدير مدارس المقاطعة ، وأعضاء مجلس التعليم ، مسئولا عن نتيجة مدرسته ، ومدى نموها وتقدمها ·

غير أن الذى حدث هو أن التعاقد مع مدرسى مدرستى كان قد تم حين كنت أدرس فى كلية بيبودى ، ولم يكن واحد منهم من أهل مقاطعتى ، اذ كان عدد خريجى الجامعة من أهالى المقاطعة لا يزال يقل عن عشرة ، فكان أحد المدرسين من مقاطعة قريبة ، وآخر من مدينة نيويورك ، وثالث من لكسنجتون بولاية كنتكى ، وأربعة منهم من جهة قريبة من لويزفيل بولاية كنتكى ، وكان الذى تعاقد مع هؤلاء المدرسين هو « لارى أندرسون » مدير مدارس مقاطعة جرينوود ، ومجلسا التعليم فى مقاطعة جرينوود ومدينة لانزبيرج · وبعد أن التقيت بالمدرسين ، اتضح لى أن لارى أندرسن ومجلس التعليم قد أحسنوا الاختيار · وكان المدرسون جميعا حديثى السن ·

وكان المدرب وتسن ، وهو أكبر أعضاء هيئة التدريس سنا ، يبلغ من العمر ستة وعشرين عاما · وكان الوحيد المتزوج فيهم · أما بقية أعمار المدرسين فكانت تقرب من عمرى ، وهو ثلاثة وعشرون عاما ، ولم يتلق الدراسة الثانوية من المدرسين جميعا سوى ثلاثة ، وكان على أنا وهيئة التدريس البالغ عدد أفرادها سبعة ، أن ندرس لما يقرب من مائتين وثمانين تلميذا ، وكان على أن أدرس جدول مدرس كاملا ، حتى لا يزيد نصاب المدرسين عن المقرر ؛ اذ أن الولاية أصدرت قانونا يحد من عدد التلاميذ الذين يكلف كل مدرس بالتدريس لهم · وقلت فى نفسى حين عرفت عدد مدرسى المدرسة ، وعدد التلاميذ الذين سنعلمهم ، أنه لن يتحمل هذا العبء سوى مدرسين حديثى السن ، بل لعلهم لن يستطيعوا ذلك · ولست أدرى ماذا أنا فاعل بنصابى ، وهل أستطيع أن أقوم به · وما من شك فى أنهم كانوا محقين فى اختيار

مدرسين حديثي السن · ووضعنا الجدول متعاونين ، وأخذنا نلقى النكات ونضحك على ما ينتظرنا من عمل وجهود ·

بيد أننى لم أضحك حين ذهبت الى المدير لأسأل عن مرتبى · ذلك لأننى حين تعاقدت على أن أتولى نظارة مدرسة لانزبيرج الثانوية سألت عن مقدار ما سيدفعونه لى ، فقيل لى انه لا يمكن البت فى مرتبى الى أن يحاط مدير مدارس المقاطعة علما بمقدار المال المخصص لكل فرد ، وهو الذى تدفعه الولاية ، وبمقدار الضرائب التى تدفعها المقاطعة للمدارس · ثم قيل لى انه ستوضع قائمة بمرتبات المدرسين ، وان مرتبى سيدفع على أساس مرتباتهم ·

وقد كنت أظن أننى سأتقاضى ما يقرب من ألف وخمسمائة دولار فى تسعة أشهر ، ولكن حين أخبرنى مدير مدارس المقاطعة أننى سأتقاضى مائة وأحد عشر دولارا فى الشهر ، بهت فلم أستطع نطقا ، اذ كان معنى ذلك أننى أدرجت فى جدول مرتبات المدرسين ، بل ان احدى المدرسات عندى كان مرتبها أكبر من مرتبى ، لأنها أقدم منى وأكثر خبرة · ولم يكن هناك سبيل للتراجع الآن · وغادرت مكتب المدير دون أن أفوه بكلمة ·

لقد كنت أعرف كيف أقتصد فى نفقات المعيشة ، فأقيم بين أهلى ، وأدفع فى المأكل والمبيت أجرا أقل ، وأقطع الطريق سيرا على الأقدام ، كما يفعل أبى ، وأرتقى الجبال نفسها التى يرتقيها أبى منذ اثنى عشر عاما ، فى طريق ذهابه الى عمله ، وأستطيع أن أمشى فى الممر القديم الذى ظللت أسير فيه أربعة أعوام فى طريقى الى مدرسة لانزبيرج الثانوية · ولم أقل لأبى وأمى شيئا عن المرتب الذى سوف أتقاضاه من مدرسة لانزبيرج ، ولكنى قلت لهما اننى أريد الاقامة معهما ، على أن أدفع أجر المأكل والمبيت ، فضحكا من قولى ، اذ كان يسعدهما أن أقيم معهما ·

(٢)

وهرع أبى متجها صوب لانزبيرج فى الساعة الخامسة صباحا ، وبذلك يكون لديه ساعة للوصول الى عمله · أما أنا فانطلقت فى طريقى فى الساعة السابعة ، فقد كان عملى يبدأ فى الثامنة والنصف ، وبذلك يكون أمامى ساعة ونصف ساعة ، فلم أكن أريد أن أسير سيرا حثيثا بحيث يتصبب منى العرق ، وتنثنى بنيقة « ياقة » قميصى الأبيض فى طقس سبتمبر المعتدل · ذلك لأننى

أعرف بالخبرة ، منذ كنت فى المدرسة الثانوية ، أننى اذا مشيت مسافة قدرها خمسة أميال ، فلابد أن أحافظ على ملابسى لكيلا تتسخ ، فقد كنت أعلم أن تلاميذى سوف يرون كل عيب يعيب ملابسى ، وكل ما يتسخ به قميصى ، وكل بقعة من الطين تلطخ حذائى ، فكنت حريصا فى كل خطوة أخطوها ، حتى لا تمس ملابسى الأعشاب التى تحيط بطريقى • وكان أبى حين مر بها قد أسقط بعضا مما علق بأوراقها وسيقانها وأزهارها من ندى ، حين لمستها ملابسه ، بيد أنه كان لا يزال يعلق بها من الندى ما يكفى لكى تبتل ساقا « بنطلونى » ، فكان على أن أمشى فى وسط الممر مباشرة ، الى أن أصل الى الطريق الذى تسلكه العربات •

وحين بلغت مدرسة لانزبيرج الثانوية ، كانت هناك ثلاث سيارات كبيرة ينزل منها تلاميذ المقاطعة ، جاء الكثيرون منهم من مزارع على بعد خمسة عشر ميلا ، وكان لابد لهم أن يستيقظوا مبكرين ، وأن يمشوا فى كثير من الأحيان مسافات طويلة ، قبل أن يصلوا الى الشوارع الرئيسية لكى يركبوا السيارات ، وكان معظم هؤلاء التلاميذ يقومون بالأعمال المنوط بهم أداؤها فى المزارع فى الصباح ، قبل أن يتوجهوا الى المدرسة ، وكـان الكثيرون منهم يضطرون الى الاستيقاظ فى الساعة الرابعة • ووجدت جميع المدرسين قد وصلوا • أما التلاميذ المقيمون فى مدينة لانزبيرج ، وهم يقطنون على بعد بضعة شوارع من المدرسة ، فكانوا آخر من وصل الى المدرسة • ولشد ما كانت دهشتى حين رأيت ثمانية من تلاميذى بمدرسة ونستن الثانوية ، البالغ عددهم أربعة عشر ، قد جاءوا الى المدرسة • وجاء بدج ووترز الى المدرسةماشيا لكى يكون معى • وأول شىء فعلته هو أن حييت تلاميذى القادمين من مدرسة ونستن الثانوية • وسألت « بدج » أين يقيم ، فقال انه لايجد مأوى أو نقودا ينفق منها على المسكن والمأكل ، فدعوته الى الاقامة فى بيتنا • أما الآخرون فقد وجدوا فى لانزبيرج بيوتا يقيمون فيها • وجاء جيس جارفيس ذو الشعر الأحمر من مزرعة أبيه فى وادى التايبر ، لكى يدرس فى مدرسة لانزبيرج الثانوية ، ويلعب كرة القدم •

وحتى يلتقى التلاميذ الجدد بعضهم ببعض ، ويقابلوا المدرسين ، تركت الوقت يمضى ، وجعلت الدراسة تبدأ متأخرة بضع دقائق • وكان عدد تلاميذ مدرسة لانزبيرج الثانوية ثلاثة أضعاف عدد تلاميذها حين كنت تلميذا بها ، أما مبنى المدرسة فلم يزد فى اتساعه عما كان عليه حين تخرجت • وحين دخل جميع التلاميذ المبنى ، لم نجد مكانا يكفى لجلوسهم ، فاضطررنا أن نتخذ من

مكتبى فصلا ، وأن نحول ممرا الى فصل آخر ، وأحضرنا كراسى ومناضد من كنيسة مجاورة ، لكى نهيىء لتلاميذنا مكانا يجلسون فيه ويعملون ، وخصصنا لكل أربعة تلاميذ خزانة واحدة يحفظون فيها أدواتهم •

وفى منتصف اليوم الأول ، جاءنى التلاميذ الذين فصلوا فى العام الماضى ، وطلبوا أن يعاد قيدهم ، وكانوا مخلصين فى طلبهم ، وسأل الكثيرون ما اذا كانوا يستطيعون تعويض أعمال السنة الماضية ، ماداموا قد فصلوا قبل انتهاء العام الدراسى ببضعة أسابيع فقط ، وكانوا شبانا تلوح عليهم سيماء الذكاء ، ونظراتهم ثابتة غير زائغة ، وكان أخى جيمس ستيوارت واحدا منهم• وكان أول شيء فعلته أن بادرت باعادة قيده ، ومن ثم أعدت قيد هؤلاء التلاميذ، ولم أسأل حتى عن السبب الذى فصلوا من أجله •

وفى ساعة الظهيرة من ذلك اليوم ، لاحظت لافتة متروكة من العام الماضى وقد كتب عليها بحروف كبيرة : « ابتعد عن الحشيش » ، ثم كتب تحت هذه الكلمات بحروف صغيرة هذه العبارة : « فاذا لم تفعل فسوف تعاقب » • ولم تعجبنى تلك العبارة ، لأنها كانت تحفزنى على أن أسير فوق الحشيش • فاعددت لافتة جديدة ووضعتها فى البقعة نفسها ، وقد كتب عليها : « حافظ على الحشيش من فضلك » •

واستجاب تلاميذى للافتة الجديدة ، فقد أدركوا أننا نعمل من أجلهم لا ضدهم ، وتبينوا الفرق بين التهديد والتوجيه ، وكان للمدرسة فناء خلفى مساحته فدانان ، لم يمنع التلاميذ من السير فوقه • وقد علمت فيما بعد أن أحد التلاميذ الذين أعدت قيدهم كان قد أوقف فى العام الماضى لأنه مشى فوق الحشيش •

(٣)

وكان جميع مدرسى يقومون بنصاب كامل ، فيما عدا الآنسة « ولش »، وظل نصابى مساويا لنصاب المدرسين ، الى أن أحلت أحد فصولى على الآنسة « ولش » ، وهو الصف الأول الذى كنت أدرس له الجبر ، فقسمته الى قسمين، قسم تدرس له مع فصلها فى الصباح ، وقسم تدرس له بعد الظهر ، وبهذا أصبح لدى حصة فراغ أستطيع فيها أن أبحث مشكلة حضور التلاميذ الذين يقطنون فى مدينة لانزبيرج ، فلم يكن التلاميذ القادمون من المقاطعات يسببون لنا هذه المشكلة ، اذ كانوا يجيئون الى المدرسة بالسيارة ، ويبقون بالمدرسة فترة الظهيرة ، ثم يعودون الى بيوتهم بعد الظهر بالسيارة •

أما التلاميذ المقيمون فى مدينة لانزبيرج ، فكانوا يذهبون الى بيوتهم لتناول طعام الغداء ، وكثيرا ما كانوا ينسون أن يرجعوا الى المدرسة بعد الظهر ٠ وفى ذلك الوقت لم يكن هناك شيء اسمه مشرف على الحضور ، فكان الناظر هو الذى يقوم بحصر الغياب والحضور ٠ وكان يأتينا نبأ التلاميذ الذين يهربون من المدرسة ، ويتسكعون فى شوارع لانزبيرج ٠ وكان أولياء الأمور يلقون اللوم على المدرسة اذا تغيب أبناؤهم أو بناتهم ، فقد كان من رأيهم أن المدرسين هم المسئولون عن بقاء جميع التلاميذ فى المدرسة ، ولكننى كنت أرى أن المسئولية تقع على عاتق الوالدين كما تقع على عاتق المدرسين ، وأنه لابد من وجود مزيد من التعاون بين الطرفين ٠ ان هذه المشكلة لم تواجهنى قط حين كنت فى مدرسة ونستن الثانوية ، ومدرسة لونسم فالى ٠

وفى اجتماع خاص مع المدرسين ، عقدته فى الأسبوع الأولمن الدراسة، تباحثنا فى مشكلة الحضور ، ووصلنا الى بعض القرارات الحاسمة ، فاتفقنا على أن نحصر عدد الحاضرين من التلاميذ أولا فى الحجرة التى يجتمعون فيها فى الصباح ثم بعد الظهر ٠ وفى كل حصة يذهب أحد التلاميذ الى كل فصل ليحصر عدد الحاضرين ، واذا وجدنا تلميذا غائبا ويوجد فى بيته تليفون ، اتصلنا بوالديه ، فاذا لم يكن لديه تليفون طلبنا من التلميذ أن يأتى بخطاب من والديه يوضحان فيه سبب غيابه ، فاذا كان العذر غير مقبول أنقصنا خمسة فى المائة من درجاته فى جميع المواد ، مادام فى الشهر عشرون يوما ، أما اذا كان الغياب بعذر مقبول ، فيسمح للتلميذ بتعويض ما فاته من عمل ٠ واذا بلغت مرات التأخير بدون عذر ثلاثا اعتبرناها غيابا ٠ ثم أعلنا هذه القرارات وشرحناها للتلاميذ فى كل فصل ، حتى تأكد لدينا أن كل تلميذ أصبح يدرك أن مسئولية وجوده بالمدرسة ، ووصوله اليها فى الموعد المحدد ، انما تقع على كاهله وحده ٠ ثم أوضحنا لتلاميذنا أننا نضع فى ملفاتهم كل عذر مكتوب يقدمونه الينا ، وان من حق أولياء أمورهم الاطلاع على هذه الملفات ٠ بيد أن هذا النظام لم يضع حدا لمشكلة الحضور ، فكانت خطابات الغياب والتأخير بدون عذر تترى على الملفات ٠

(٤)

وقبل أن أقوم بالتدريس فى مدرسة لانزبيرج الثانوية ، كنت أحسب أن احدى المشكلات التى ستواجهنى هى وجود تلاميذ المقاطعات مع تلاميذ المدينة فى مدرسة واحدة ، فلم اكن أدرى ما اذا كان سيقوم بينهم التفاهم

والانسجام · وتذكرت أننى حين كنت تلميذا بمدرسة لانزبيرج الثانوية ، أن التلميذ القادم من الريف لم يكن ينظر اليه دائما بعين الاحترام ، وكان عدد تلاميذ المقاطعات حينئذ قليلا ، فلم يكن يزيد عن اثنى عشر تلميذا · أما الآن فقد زاد عددالتلاميذ القادمين منمقاطعة جرينوودعن عدد القادمين من لانزبيرج. وكنت أحسب أن هذه الفئات المتباينة اذا اجتمعت فى صعيد واحد ، فان كل تلميذ يتشبث بفئته ، ولكنى كنت مخطئا ، فقـــد قام بينهم جميعا التفاهم والانسجام ·

غير أنه قام نزاع بين التلاميذ ، ونشب فى مجال لم يكن من المتوقع أن ينشب فيه ، فقد كان هناك عداء بين اللاعبين فى فريق الكرة بالمدرسة ، وجاء جاك ألكسندر الى مكتبى ذات يوم بعد انتهاء الدراسة ، وقال انه يريد أن يفضى الى بمشكلة ، وهى أنه ظل يلعب باسم فريق قطط لانزبيرج المتوحشة ثلاث سنوات ، وأن روجر سذرلند يغار منه · ثم قال انه يلعب دائما خلف الخط الأمامى ، فى حين أن روجر يلعب دائما على الخط ، وأن هذا هو العام الرابع لوجودهما معا فى فريق كرة القدم ، وقد ظل روجر مدة الثلاثالسنوات الماضية لايشل حركة خصمه حين تكون الكرة معه ، فى الوقت الذى يفعل ذلك لأى لاعب آخر يمرر الكرة من خط النصف ، ولذلك قرر أن يؤذيه ·

فسألته عما اذا كان قد نشب بينهما أى خلاف قبل أن يشتركا فى فريق كرة القدم ؟ فأخذ يقص على قصته فقال ان كل أسرة من أسرتيهما كانت ترعى أبقارها فى مرعى واحد ، على الحافة المنحدرة للتلال التى تقع فى الجانب الجنوبى من المدينة ، وكان هو وروجر يتشاجران ويتقاتلان فى كل مرة يلتقيان فيها فى المرعى ·

وذهب جاك فى قصته الى عهد أبعد من ذلك فقال ان أسرتيهما تناضل احداهما الأخرى فى ميدان السياسة على مر السنين ، وانهما تتبعان كنيستين مختلفتين ، وليس هناك من شىء يتفقان عليه سوى أن أطفال كل عشيرة منهما يذهبون الى المدارس العامة ·

وحين فرغ من قوله قلت له انه لا ينبغى أن يرث جيل تلك الخلافات التى تركها الجيل الذى سبقه · وبقيت فى مكتبى أتحدث الى جاك الكسندر فترة طويلة بعد أن أوصلت السيارات المدرسية تلاميذ المقاطعات الى بيوتهم ، وبعد أن بلغ تلاميذ لانزبيرج منازلهم · وكان الحديث يهمه ، اذ أنه كف عن التمرين

فى كرة القدم اعتقادا منه أن وتسن المدرب ينحاز الى روجر سذرلند · وكانت المشكلة من القدم والتعقيد بحيث انى لم أستطع حلها ·

وفى اليوم التالى ، تحدثت الى وتسن المدرب ، فقال ان هـــذه العداوة قسمت فريق كرة القدم الى معسكرين ، معسكر جاك ألكسندر وأنصاره ، ومعسكر روجر سذرلند وأنصاره ، وان عدد الأنصار فى كل معسكر يكاد يكون واحدا ، ولا يوجد أشخاص غير متحيزين سوى تلاميذ المقاطعات ، وهؤلاء غير مدربين · ثم قال ان الكسندر وسذرلند هما أفضـــل لاعبيه ، ولكنه لا يستطيع أن يجمع بينهما فى الفريق ، للتدريب فى وقت واحد · فقلت له أن يرجع ألكسندر الى الفريق للتدريب ، وأن يتحدث الى كل من الاثنين حديثا صريحا ، حتى يفضيا بمكنون صدريهما ·

وفى ذلك اليوم ، بعد انتهاء الدراسة ، دخل روجر سذرلند مكتبى وهو يجرى ، وقال ان وتسن المدرب استدعى جاك الكسندر للتمرين ، بعد أن أثر فيه حديثى ، وحين دخل جاك الملعب غادره هو (أى روجر) ، ثم قال ان الملعب لا يتسع لكليهما ، وانه ينوى أن يؤذى جاك الكسندر · فسألته عما يحدو به الى أن يفعل ذلك ، فقص على قصة عن الخلاف بين أسرتيهما ، وهى قصة شبيهة كل الشبه بالقصة التى رواها لى جاك · وهو اذ يقص قصته ، أدركت أن العداء بين الأسرات ليس أمرا مقصورا على سكان المرتفعات وسكان الوديان وحدهم ·

وفى اليوم التالى ، جاءنى جاك وأخذ يتوعد روجر ، ثم جاءنى روجر وأخذ يتوعد جاك ، وجاءنى كل منهما مرتين فى اليوم ، ليقول لى كل منهما ماينوى أن يفعله بالآخر ، فطلبت اليهما أن يقابلانى فى المكتب بعد انتهاء الدراسة ، حتى نستطيع أن نصفى الخلاف القائم بينهما · وقلت لوتسن المدرب أن يؤجل تمرين الفرقة ، ويحضر الاجتماع معنا ·

وفى مكتبى ، أخذ جاك وروجر يتشاجران ، ويتوعد كل منهما الآخر ، وحين قلت اننى سأوقف كلامنهما ، قالا ان ذلك لن يحل الخلافات التى بينهما · واعترف كل منهما لى ولمدربهما بأنهما يكرهان بعضهما ، ولو لم نتشدد أنا والمدرب فى حفظ النظام ، لضرب كل منهما الآخر ·

ثم قلت لهما : تعاليا معى ·

واتجهت أنا وروجر وجاك ووتسن المدرب نحو الجزء الخلفى من مبنى المدرسة ، ولم يبق من اللاعبين سوى عدد قليل بلغ ثمانية أو عشرة ، لكى يشهدوا ما نحن فاعلون بجاك وروجر • ولم يطل بهم الانتظار •••

وقلب كل من روجر وجاك جيوبه بطنا لظهر ، حتى يريانا انه لم يعد فيها شيء ، وأخذت عصا فرسمت بها دائرة كبيرة فوق أرض الملعب ، ثم قلت: مادامت ليست هناك طريقة أخرى لحل خلافاتكما ، فاننى أريد منكما أن تدخلا هذه الدائرة ، وتتضاربا حتى تشفيا غليلكما ، وبعد أن تنتهيا لا أريد أن يأتينى واحد منكما ليهدد ويتوعد الآخر ، وان فعلتما فسوف أفصلكما من المدرسة فصلا نهائيا •

فقال جاك : أنا موافق يا مستر ستيوارت •

وقال روجر : وأنا أيضا موافق يا مستر ستيوارت •

ودخل الاثنان الحلقة • لقد شهدت فى حياتى كثيرا من المعارك ، بيد أننى لم أشهد لهذه المعركة مثيلا ، فقد كان كل منهما يدق الآخر بضربات مروعة • وأقبل لاعبو الكرة فأحاطوا بهما يشاهدونهما •

لقد كان جاك ألكسندر يبلغ من العمر تسعة عشر عاما ، وكان طوله ست أقدام وأربع بوصات ، ووزنه ١٩٠ رطلا ، أما روجر سذرلند فكان طوله خمس أقدام وعشر بوصات ، ووزنه ١٩٥ رطلا ، وعمره تسعة عشر عاما ، ويتمتع بعضلات لم أشهد لقوتها مثيلا ، وحين كان هذان الفتيان يضربان بعضهما كانا يبدوان كأنهما بغلان يرفس كل منهما الآخر ، وتتابعت الضربات متلاحقة وسريعة ، ولم يكن هناك جرس يدق فى هذه الحلقة ، وانما كانت مباراة بلا توقف أو فترات راحة ، حتى تنتهى •

واستغرق القتال ما يقرب من خمس دقائق ، وكان الدم يلطخ وجهيهما وأكتافهما • ، وفجأة مد « روجر سذرلند » يده فانتزع عصا كانت ملقاة خارج الحلقة • ولما كنا نعرف أن المعركة قد انتهت ، فقد تدخلنا ، وأمسكنا بروجر ، وحلنا بينه وبين العصا • وخرج روجر بانتهاء المعركة ، وكذلك جاك •

وقلت لأولئك الذين بقوا لكى يروا ما سوف يحدث : اذا قامت منازعات أخرى بين لاعبى كرة القدم ، فهذه هى الطريقة التى تفضونها بها •

ورأينا عجبا ، اذ اتجه جاك الكسندر نحو روجر سذرلند،وأحاط بذراعه كتفيه ٠ وذهب الاثنان الى الحمامات معا ، وكأنهما قد فرغا من مباراة عنيفة فى كرة القدم ، وغسل كل منهما للآخر الدماء التى تلطخ جسمه ، ومنذ ذلك الوقت أصبح روجر يشل حركة خصم جاك حين تكون الكرة مع جاك ، وأصبح فريق قطط لانزبيرج المتوحشة ، فريقا متماسكا وطيد الأركان ٠

(٥)

وحدث عصر ذات يوم ، فى الأسبوع الرابع من الدراسة ، أن تحدث الى فى التليفون « جيسون هنتون » ، عضو مجلس تعليم مدينة لانزبيرج بصوته الرقيق فقال : لا أستطيع يا جيس أن أناقش معك هذه المسألة فى التليفون ٠ أحب أن أقابلك حين لا يكون لديك عمل كثير ٠

فقلت : لن أستطيع أن أراك الا بعد انتهاء الدراسة ٠

فقال : فليكن ٠ ان الأمر على جانب كبير من الأهمية ٠

وبعد انتهاء الدراسة ، بقيت أعمل فى مكتبى ، فى انتظار قدوم جيسون هنتون ٠ وأخذت أسائل نفسى عما يريده منى ، وكنتأعرف أن الأمر يتعلقبى شخصيا أو بالمدرسة ، ذلك لأن جيسون هنتون كان دائما يعطف على ، وحين تخرجت فى مدرسة لانزبيرج الثانوية كان هو الشخص الوحيد الذى قدم الى هدية بمناسبة التخرج ، فأرسل هو وزوجته الى حوالة بمبلغ خمسة دولارات، داخل ظرف مختوم ، ومعها حاشية مكتوبة بخط جيسون الذى لا يكاد يقرأ ، يقول فيها انه كان يرانى كل يوم أتخذ طريقى الى المدرسة الثانوية ماشيا ، أخوض فى وحل الشتاء وأمطاره وثلوجه وبرده ، دون معطف أرتديه ، وأنه هو وزوجته قد سرهما أنى أستطعت أن أعمل بجد حتى وصلت الى بغيتى ٠ وقد قال لى بنفسه ذات مرة انه لو كان هو وزوجته قد أنجبا أطفالا لتمنيا أن يكون لهما ولد لديه ما لدى من طموح ٠٠ فاذا كان لديه اليوم مشكلة يريد أن يحدثنى بشأنها ، فلا بد أنها تتصل بمصلحتى الشخصية ٠

وحين دخل جيسون مكتبى قال فى رقة : انك تعلم ياجيس أننى وزوجتى كنا دائما صديقين لك ، وقد رأيت أن أجيىء اليك بنفسى لكى أبلغك بعض أمور بسيطة ٠

وأقلقنى الأمر فقلت له هل حدث شىء يسيىء الى المدرسة ؟

فقال : ليس هذا تماما ٠

وأحسست لحظة بالارتياح ٠

ثم قال : ان الأمر يتعلق بك ٠

فقلت متسائلا : يتعلق بى من أية ناحية ؟

فقال وهو يجلس على كرسى فى مواجهة مكتبى لقد بحثت الأمر مع زوجتى قبل مجيئى ، ورأينا أنه من الأفضل أن نطلعك على الحقائق ٠ انها مسألة شخصية تتعلق بك ، وأنى لأكره أن أكون الشخص الذى يبلغك اياها ، غير أنك كنت دائما قريبا الى نفسى حتى لكأنك ولدى ٠

فقلت : انى لشديد الفضول لمعرفة ذلك الأمر ٠

فقال وهو يقرب وجهه من وجهى ، ويهمس فى رقة ، وكأن أحدا يحاول أن ينصت الينا :

انهما أمران ، أحدهما يتعلق بملابسك ٠

فقاطعته قائلا يتعلق بملابسى ؟ وماذا يعيب ملابسى ؟

فقال : أنظر الى ثنيتى « بنطلونك » ٠

فأخرجت ساقى من تحت المكتب ، وألقيت نظرة على ثنيتى « البنطلون ». ثم قلت : اننى لا أرى شيئا يعيبهما ٠

فقال جيسون لعل ضوء الحجرة ليس من القوة بحيث تستطيع أن ترى ٠

فقلت أسأله : ما كل هذا الكلام ؟ هل أنا فى يقظة أم فى حلم ؟

فقال جيسون : اننا هنا معا يا جيس ، أنت وأنا جيسون هنتون ، فى مكتبك بهذه المدرسة ، وأنا أحاول أن أنقل الى مسامعك شيئا هـــو حديث المدينة ٠

ثم قال فى لهجة جادة ينصحنى : أصغ الى ٠

وقام من كرسيه فاتجه نحو النافذة ، ورفع الستار حتى نفذت أشعة شمس الأصيل من خلال زجاج النافذة ، ثم قال والآن ، أنظر الى ساقى « بنطلونك » ، أليس لونهما غريبا ؟ أليسا فى لون الكبريت ؟ ألم تصبغهما ؟

فقلت مكررا كلامه : أصبغهما ! اننى لم أصبغ « بنطلونا » فى حياتى ٠ ما هذا الذى تقول ؟ انى لا أفهم شيئا ٠

فقال : انك تستطيع أن ترى بنفسك أن لون ساقى « بنطلونك » تحت الركبتين ليس هو نفس اللون فوقهما ٠

فقلت مقرا بصحة كلامه ، اذ تبينت اختلاف اللونين : أعتقد أنك على حق ٠ انى لم ألاحظ ذلك من قبل ٠ انها لا ترى الا فى ضوء الشمس ، ولست أدرى ما هى ٠ أنا واثق من أنها ليست صبغة ٠

فقال : ان الناس فى مدينة لانزبيرج بأسرها يقولون انك صبغت ساقى « بنطلونك » فى الجزء الذى فقد لونه الأصلى ، وأنك قد صبغتهما بلون لا يتناسب مع سائر سترتك ٠ أنت تعلم ياجيس أن الناس فى هذه المدينة يهتمون اهتماما خاصا بالملابس ، وتعلم ما ينتظرونه من ناظرالمدرسة الثانوية.

ثم عاد يقول : ان التقارير التى تبلغنى كلها تقارير طيبة ، والناس يقولون انهم لم يشهدوا هنا مدرسة يستتب فيها النظام خيرا من مدرستك ٠ ولكن فلنعد بالحديث الى مسألة « البنطلون » ٠

فقلت وصوتى يكاد يكون صياحا : لقد عرفت ما هو ذلك الذى يلون « بنطلونى » ! انه الكبريت الذى تحمله سيقان نبات الرجيد ، فهو يعلق « ببنطلونى » حين سيرى فى الممر الجبلى فى الصباح ، اذ يبلل الندى ثنيتيه فيلتصق الكبريت بهما ٠ هذا هو السبب ٠

ثم قلت ، وأنا ألقى نظرة ثانية على ساقى « البنطلون » فى ضوء الشمس الرخو : غير أن المرء لا يراه الا اذا أنعم فيه النظر ٠

فقال جيسون فى رقة : اذن فأنت لم تصبغ «بنطلونك» ٠ أنا أعرف انك لم تكن لتفعل شيئا مثل هذا ٠ ولكنك تعلم كيف أن تلاميذ المدارس الثانوية يلاحظون مثل هذه الأمور البسيطة ، ويذهبون فيحدثون بها أولياء أمورهم ٠

فقلت موافقا : لقد بدأت أتعلم . هذا أول شيء يحدث لى من هذا القبيل .
فقال : ثم ان لدينا هنا قاعدة يجب أن أحيطك بها علما ، وقد أوضحت لأعضاء مجلس التعليم أنك لم تكن على علم بها حين قبلت الوظيفة . فالقاعدة المتبعة هنا هى انك اذا كنت تدرس فى مدينة لانزبيرج ، فانه يتحتم عليك أن تقيم فيهـــا .

وجلست صامتا ، والأفكار تتسابق فى رأسى . ثم قال جيسون يقطع حبل السكون : اذا أنت فكرت فى هذا تجد أنك اذا أقمت فى لانزبيرج فسوف تحل مشكلتك الأولى .

ثم ابتسم قائلا : اذ لا يوجد نبات الرجيد فى شوارعنا ، ولن تبدو ساقا « بنطلونك » وكأنهما مصبوغتان ، وتستطيع أن تحتفظ بملابسك فى حالة جيدة . فسألته : هل اقامتى فى لانزبيرج اجبارية ؟

فقال أجل يا جيس . انها لكذلك .

فقلت : اذا كان « ويل هادن » يستطيع أن يقيم فى فندق ، ويدفع أربعين دولارا فى الشهر أجر المأكـــل والمسكن ، من تسعة وثمانين دولارا يتقاضاها ، فكذلك أستطيع أنا ، ومرتبى أكبر من مرتبه .

فقال جيسون معتذرا : انى أكره يا جيس أن أنقل اليك هذه الانتقادات، غير أن أعضاء مجلس التعليم الآخرين يعلمون اننى أعرفك معرفة وثيقة .

فقلت : انك عضو فى مجلس التعليم ، وهـــذا واجبك . سأنتقل الى لانزبيرج يوم الاثنين .

فقال وهو يبتسم : هذا هو عين الصواب ياجيس . الآن سيسير كل شيء على ما يرام .

وأخذ قبعته من فوق المنضدة ، وغادر مكتبى فى هدوء .

(٦)

كانت غرفتى فى فندق لانزبيرج تطل على الشارع الرئيسى مباشرة ، فكنت أستطيع أن أرى من نافذتها المدينة من شرقها الى غربها . وكانت غرفتى

مرتفعة بحيث أستطيع أن أطل على القطاع من لانزبيرج المتجه نحو حافة التلال الوعرة ، التى تحيط بالمدينة فى الجنوب ،وكنت أستطيع أن أرى كل جزء منها على وجه التقريب ، ماعدا ذلك الذى يمتد على حدود النهر تجاه الجنوب ، وكان هذا هو المنطقة السكنية الهادئة فى لانزبيرج ٠

ولعلى كنت سعيد الحظ اذ عثرت على هذه الغرفة فى فندق لانزبيرج ، فلم أكن لأجد مكانا عداها أستطيع منه أن أزيد معرفتى بالمدينة ٠ وكنت قد اخترتها لأنها حسنة الأثاث ، وكانت خالية ، ولم أكن أدرى أنها المفتاح الذى يفتح مغاليق أوجه النشاط الليلى الذى يدب فى المدينة ٠ ولن أنسى ما حييت أول ليلة قضيتها فى تلك الغرفة ٠٠٠

وبعد أن تناولت عشائى فى الفندق ، خرجت أجوب المدينة من أطرافها، سيرا على الأقدام ٠ لقد كانت المدينة كغيرها من سائر المدن الصغيرة ، وكان الناس يمشون فى الشوارع يضحكون ويتحدثون ، فى تلك الأمسية اللطيفة من أمسيات الخريف ، ويحيوننى فأبادلهم التحية ، وكان الكثيرون منهم أولياء أمور التلاميذ بالمدرسة ، كما أننى كنت أحيى كثيرين من تلاميذى الذين كانوا يستمتعون مثلى بالمشى فى الشارع الرئيسى ٠ ثم عدت بعد ذلك الى غرفتى ، وأخذت أعد دروس الغد ، ثم أطفأت النور لكى أنام ٠

وأويت الى الفراش ، غير أن الضوضاء حالت بينى وبين النوم ، ولم يكن ذلك لأنى رجل قادم من المزرعة حيث يسود الهدوء ، فقد قضيت الصيف فى ناشفيل بولاية تنيسى ، غير بعيد من مبانى جامعة بيبودى ، حيث كانت عربات الترام تئز طوال الليل حول المنحنيات ، والسيارات تزوم كأنها القذائف ، فى كل ساعة من ساعات الليل ٠ ان هذه الضوضاء كانت من نوع آخر ، فلم يكن فى لانزبيرج عربات ترام ، ولم تكن السيارات تزوم فى الشارع الرئيسى طوال الليل ٠ لقد كانت الضوضاء التى تصل الى مسامعى هى أصوات وضحك مرح صاخب ، وكان كثير من تلك الأصوات مألوفا لدى ، كما كان الضحك مألوفا لدى كذلك ٠ فنهضت من الفراش ، وجلست بجوار النافذة ٠ وكان الوقت منتصف الليل ، وقد بدأت الحياة لتوها تدب فى المدينة ، تحت الأضواء الكهربية الساطعة ، التى تنتشر على طول الشارع الرئيسى ، وتمتد فتخرج منه الى الشوارع الفرعية ، التى تخيم عليها الظلال ، اذ الأضواء فيها قليلة متباعدة ٠

وفى هذه الساعة المتأخرة ، رأيت تلاميذى بمدرسة لانزبيرج يمشون فى

الشوارع ، وكان منهم عدد صغير من الفتيات ، وعدد كبير من الفتيان ، وقدرت أنهم يبلغون ثلاثين فى المائة من عدد تلاميذ المدرسة٠ان هؤلاء التلاميذ همالذين يتأخرون عن موعد الدراسة فى الصباح ، وهم الذين يحصلون على درجات منخفضة فى مواد الدراسة،وهم الذين يلوم أولياء أمورهم المدرسين والمدرسات لأنهم يعطون أبناءهم وبناتهم درجات منخفضة ، بل ان كثيرين من آباء هؤلاء التلاميذ قالوا انه يجب استبدالى بناظر آخر ، و « فصل » نصف مدرسى المدرسة ، فهم يلقون اللوم على الناظر والمدرسين،لأن هؤلاء التلاميذ لم يحصلوا على درجات عالية كتلك التى حصل عليها غيرهم من التلاميذ ، الذين يضطلع آباؤهم بمسئولية الاشراف عليهم فى غير أوقات الدراسة ٠

وقد وجه كثير من النقد الى ناظر مدرسة لانزبيرج الثانوية ، والى هيئة التدريس بها ، بسبب المراهقين من التلاميذ ، الذين يعاقرون الخمر ليلا ، فى عطلة نهاية الأسبوع ، فى ذلك القطاع من كنتكى الذى طال أمد جفافه ٠ والآن أخذ يساورنى العجب فى أولياء أمور هؤلاء التلاميذ ، وخيل الى أنهم لابد يعلمون ، أو أن لديهم فكرة صحيحة عن المكان الذى يحصل أبناؤهم على الخمر منه ؛ اذ من أين يحصل القاضى على ما يشرب من خمر ؟ ومن أين يحصل الكثيرون من رجال الأعمال فى المدينة على ما يشربون من خمر ؟ لقد كنت على يقين من أن كل فرد فى المدينة يعرف من أين يحصل هؤلاء التلاميذ على الخمر ٠ لقد بدأت الأمور الآن تتكشف لى ٠

وكنت قد سمعت عن مروج الخمر المفضل فى مدينة لانزبيرج ، الذى يبيع الويسكى بطريقة غير مشروعة ، وقد اتخذ من ذلك صناعة يرتزق منها طوال الفترة التى عاشها فى لانزبيرج ٠ ولم يستطع القانون فى عهد أى من الحزبين السياسيين أن يلقى القبض على ذلك الرجل قط ٠ ورأيته من نافذة حجرتى يسير متباطئا هنا وهناك ، يتحدث الى هذا الرجل أو ذاك ، وكان يرتدى معطفه ، رغم أن الطقس كان دافئا ٠ وقد قيل لى فيما بعد أنه توجد فى بطانة معطفه ذاك جيوب كبيرة يضع فيها زجاجات الويسكى ، كل زجاجة فى جيب على حده ، حتى لا تحدث الزجاجات قرقعة أثناء سيره ٠ وكنت أرى هذه العملية تتم ليلة بعد ليلة ٠

وكنت أعرف أن هذه مشكلة يتعذر على حلها وحدى ٠ لقد كنت أحب أن تعترضنى المشكلات المدرسية ، فأواجهها ، وأتغلب عليها ، بيد أن هذه المشكلة كانت أكبر من أن أواجهها بمفردى ، وانما هى مشكلة يقع حلها على

عاتق المدينة والمقاطعة ، والولاية ۰ غير أنها قد أثرت على المدرسة ۰ ولم أكن لأستطيع أن أتدخل فى شئون المدينة ، بيد أن شئون المدينة هى شئونى ، ما دامت تؤثر على تلاميذ مدرسة لانزبيرج ۰

وكانت هذه الأمور تترك أثرها فى مدرستنا،فكان المراهقون من التلاميذ يسهرون فى الليـــل ، ويتأخرون فى النوم عن بدء الدراسة فى الصباح ، فيصلون الى المدرسة فى وقت متأخر ، بعد ليلة ليلاء ، وكان الكثيرون منهم لا يستطيعون أداء عملهم المدرسى ، وكانت تتراكم تقارير الغياب والتأخير بدون عذر ، بعضها فوق بعض ۰ لقد كنت أسمع المثل القديم يقول : الوقاية خير من العلاج ، فلماذا نترك أمامهم هذه المغريات ؟ ولماذا لا يتعاون أولياء الأمور معنا فى محاربتها ؟ ولكن كيف أحدث النّاس بشأن هذه المشكلات دون أن أستثير غضب كل واحد منهم ؟ لقد كنت أريد أن أستخدم الكياسة واللباقة ، ولم أكن أريد أن أكون فارسا مغوارا ۰ غير أننى كنت أعلم أن حياة مدرسة لانزبيرج الثانوية ، ومبادئها ، وروحها ، وتقدمها ، تعتمد جميعا على كل فرد من أفراد المجتمع المحلى ۰ وكان لابد من أن أجد تعاونا ، وأن أجد حلا لهذه المشكلات ، عن طريق المنظمات فى لانزبيرج ، اذ لم أكن لأستطيع أن أواجهها بمفردى ۰

(٧)

وكانت جماعة الآباء والمدرسين هى خير منظمة لدينا ، نعرض أمامها مشكلات لانزبيرج التى تتصل بالمدرسة الثانوية ۰ وهى لم تكن جمعية كبيرة، اذ لم يـــكن نصف الآباء الذين يذهب أبناؤهم وبناتهم الى مدرسة لانزبيرج الثانوية منضما اليها ۰ ولم يكن يحضر اجتماعات الجماعة أحد من آباء تلاميذ المقاطعات ، اذ كانوا يقيمون على بعد أميال عدة ، ولم تكن لديهم وسائل مناسبة للانتقال ۰ وكانت جمعية الآباء والمدرسين بمدرستنا تكاد تكون وظيفة اجتماعية ، فيلتقى أولياء الأمور بالمدرسين ، ويشربون الشاى ، ويأكلون الكعك فى نهاية كل اجتماع ۰ ورأيت أن الوقت قد حان لكى نفعل شيئا بجانب الأكل والشرب ، ولكى نقوم بعمل بنائى من أجل المدرسة الثانوية والمجتمع المحلى ۰ بيد أننى لم أكن أعرف كيف أعرض هذه المشكلة عـــلى الأمهات ، اذ قلما كان الآباء يحضرون اجتماعات جماعة الآباء والمدرسين ، وكانوا فى كثير من الحالات يرتكبون هذا الاثم الذى نريد أن نضع له حدا ۰

ثم حدث شيء هيأ لى الفرصة التى كنت أتحينها · فقد كنت أذهب الى الفندق لتناول طعام الغداء ، وكنا قد وضعنا جدولا يبقى بمقتضاه اثنان من المدرسين فى المدرسة فى فترة الظهيرة ، ويذهب الآخرون الى الحى التجارى من المدينة ، فيتناولون طعام الغداء هناك ، وكنا نتناوب هذا الجدول فيما بيننا · وجاء دورى فى البقاء فى المدرسة فى ساعة الظهيرة · وكنت قد سمعت أن التلاميذ يلعبون الورق فى المكان الذى يقع وراء السور الذى يحيط بالملعب الرياضى ، فقررت أن أمشى الهوينا حول هذا السور · وكان الخريف يلوح فى الجو ، وكانت أشجار الجميز والتامول والصفصاف ، التى تنمو بين مبنى المدرسة والنهر ، تلوح بأوراقها الزاهية لرياح الخريف · وكان الهواء منعشا رقيقا · لقد كان يوما جميلا ·

وحين مشيت حول ركن السور ، وقع نظرى على لاعبى الورق الصغار ، وقد فرشوا معطفا فوق الأرض ، وعلى المعطف رأيت الورق ، ونقودا من الفضة والورق · وكان أربعة من الشبان يجلسون على الأرض حول المعطف والورق فى أيديهم وكان يقف حولهم خمسة عشر أو عشرون شابا ، يتفرجون على لعبة البوكر هذه · وكنت قد مشيت حول ركن السور ، ووقفت وسطهم ، دون أن يلحظنى أحد ، اذ كان الجميع يرقبون الورق والنقود ·

فقلت أسألهم : من الرابح ومن الخاسر يا رفاق ؟

وكان واحد من هؤلاء الذين يلعبون البوكر ابن قسيس من لانزبيرج ، وآخر ابن مدرس فى المدارس الريفية ، وكان اثنان ابنى أحد تجار لانزبيرج · وحين رأونى احمرت وجوههم فكأنها شرائح البنجر ، ولم يستطيعوا نطقا ، ونظر بعضهم الى بعض ، وأخذ الذين تجمعوا ليرقبوا اللعب يتفرقون · ولمأعبأ بالورق أو النرد ، أو أطلب منهم أن يرفعوها أو يكفوا عن لعب البوكر · وعدت ادراجى · لقد تركت هذه المشكلة بين أيدى التلاميذ ، وعليهم أن يجدوا لها حلا · وواصلت المسير حول السور ، حيث كانت أوراق الجميز والتامول والصفصاف تندفع مع كل هبة من ريح الخريف ، وكأنها طيور ذهبية · وحين بلغت الركن البعيد من السور ، تلفت خلفى ، فوجدت أن المقامرين والنقود والمعطف قد اختفوا جميعا ·

وفى عصر ذلك اليوم ، كان هؤلاء الشبان يتوقعون أن أستدعيهم الى مكتبى · غير أننى كنت أنوى أن أفعل أكثر من مجرد لومهم وتعنيفهم على عامل من عوامل الاغراء ور ع أمامهم ، اذ كان علينا أن نطبق مبدأ الوقاية

خير من العلاج ٠ وكنت أعرف أن حادث ضبطى هؤلاء الشبان يلعبون البوكر، سوف يحدث ضجة فى لانزبيرج ، وأن كل فرد سيسمع به ، اذ كان عدد من كانوا يرقبون اللعب أكبر من أن يظل الأمر فى طى الكتمان ، وكنت أعلم أن هذا كله سيكون دعاية طيبة لمدرستنا ٠

وأول من جاء يسألنى عن ابنه الذى يلعب الميسر كانت مسز هنتر زوجة القسيس ، فقد سألتنى عن العقوبة التى أنوى أن أنزلها به ، فأجبتها بأننى لم أبت فى ذلك برأى بعد ٠ ثم فكرت ثانية ، وقلت لها انه من المحتمل ألا أعاقب هؤلاء التلاميذ على الاطلاق ، فلم تصدق قولى ٠

وقالت وهى تحملق فى بغلظة : هل من رأيك أن يترك التلاميذ يلعبون الميسر ؟

فقلت : كلا ٠ ليس من رأيى أن نترك التلاميذ يلعبون الميسر ٠

فسألتنى قائلة : اذن لماذا لا تفعل فى الأمر شيئا ؟

ولم أزد قولا ، فقد كنت أريدها أن تتكلم ، وأن تنقل الخبر الى غيرها من النساء ، فقد كنت أعلم أنها ستفعل ، وكنت أريد أن تتحدث النسوة جميعا فى هذا الشأن ٠

وجاءت أم كل تلميذ ضبطته فى ذلك الحادث لكى تسألنى : ماذا أنا فاعل بشأن لعب الميسر فى مدرسة لانزبيرج الثانوية ؟ فلم أعط واحدة منهن جوابا شافيا ، بل تركتهن يخضن فيه بالحديث ، وينقلن خبره الى غيرهن ٠

ولابد أن هؤلاء النسوة قد تأكد لديهن أننى أقر لعب الميسر ، اذ أن أعضاء جماعة الآباء والمدرسين قد أخذوا على عاتقهم اثارة الموضوع فى اجتماعنا التالى ٠ اننى لم أعاقب أيا من هؤلاء التلاميذ المذنبين ، وقد أخذ القلق يساور كل واحد منهم ، فجاء الى أكثر من مرة ليعتذر ، وليعرف أية عقوبة سوف تنزل به ٠ لقد كان كل واحد منهم يتلقى عقوبته دون أن يدرى ، وتلك هى الترقب ، فالترقب عقوبة بالغة ٠

وفى أول اجتماع عقدته جماعة الآباء والمدرسين بعد حادث لعب الميسر، لاحظت أن الأعضاء كان يبدو عليهم الوجوم ، فلم يضحكوا أو يتحدثوا كما كانوا يفعلون فى كل اجتماع من اجتماعاتنا السابقة ٠ وكان القسيس هنتر

من بين أعضاء الجماعة · وحضر عدد كبير من الآباء · وبعد أن انتظم عقد الاجتماع،وفرغت مسز ألبرت ديفز رئيسة جماعة الآباء والمدرسين من الشئون الخاصة بالجماعة قالت هنـــاك أمور تجرى فى المدرسة الثانوية أحب أن أثيرها · انها صورة محزنة ، ولكنها صورة حقيقية ، وهى حديث المدينة بأسرها · انه لعب الميسر الذى يجرى هنا ، وقد ضبط التلاميذ متلبسين ، ولم توقع عليهم أية عقوبة · اننا نحب أن نسمع من مستر ستيوارت اذا كان لديه ما يقوله فى هذا الشأن ·

فقلت وأنا أنهض واقفا ان لدى الكثير مما أريد قوله · أولا : أحب أن أقول لكم لم لم أعاقب هؤلاء الشبان · اننى لا أرى جدوى من عقابهم ما لم تزل من أمامهم بعض عوامل الاغراء ، وانى لأعرفها ·

ثم رويت لهم قصة انتقاد ملابسى ، وكيف أننى انتقلت لأقيم فى فندق لانزبيرج ، وقلت ان انتقادهم لملابسى كان هو السبب فى أننى أحطت علما بكل ما يجرى فى المدينة ، واننى أرى من غرفتى فى الفندق المدينة من جميع جهاتها الا جهة واحدة ، واذا كان أحـــد لا يصدق قولى فليأت الى غرفتى ، وليطفىء الأنوار ، ثم ليطل على المدينة فى الليل · وقلت لهم ان غرفتى هذه جديرة برجال بوليس المدينة · ثم قلت لهؤلاء الأباء والأمهات اننى رأيت أبناءهم وبناتهم يذرعون الشوارع فى منتصف الليل ، فهل كانوا يعرفون أين هم ، واذا كانوا يعرفون هذا ، فهل يعرفون فى أى وقت انصرف أبناؤهم من الشوارع ؟

وأخذت النسوة يتهامسن ، واحمرت وجوههن ، وطأطأن الرؤوس · ثم قلت ان أبناءهم يشترون الويسكى الذى يباع بطرق غير مشروعة ، وانه ليس من بينهم واحد لا يعرف من أين يحصلون عليه ، وان مهمتهم هى منع بيع الويسكى الى أبنائهم ، اذ هى مهمة المدينة لا مهمة المدرسين ، ومع ذلك فهى تمس المدرسة الثانوية ، لأن تلاميذنا شربوا حتى سكروا فى الزوارق ، فى أثناء الرحلات النهرية ، وألقى اللوم على المدرسة بسبب ذلك · والآن أصبح من واجبهم القضاء على تلك المغريات ·

ثم قلت : وثمة شىء آخر · ان لعب الميسر يمارس داخل كثير من البيوت فى المدينة ، ولعب البوكر بالنقود يجرى على مشهد من أبنائكم وبناتكم ، وانكم لتعلمون من هم هؤلاء الناس · ان آباء أعضاء فريق كرة القدم فى مدرستنا يأتون وعلى رؤوسهم قبعات سباق الخيل ، وفى فم كل منهم سيجار

طويل ، فيمشون ذهابا وجيئة حول الملعب ، وفى أيديهم حفنة من النقود ، فيراهنون على احدى مبارياتنا بما تصل قيمته الى خمسين دولارا ، وأنتم تعلمون أن هذا صحيح ، بل يقال ان الرجال فى هذه المدينة يراهنون على من يستطيع أن يبصق على أقرب نقطة من ثغرة فى جدار ، أو من شق فى الأرض · ان على الآباء فى هذه المدينة أن يغيروا ما بأنفسهم ، اذا كان علينا أن نقضى على لعب الميسر فى هذه المدرسة · لاشك أننى سعيد يامسز ديفز أنك أثرت هذا الموضوع ·

وواصلت الكلام قائلا : وثمة شىء آخر · يحسن أن يذهب واحد منكم فيبلغ مروج الويسكى ذاك أن يحذر الى من يبيع الويسكى · ولا تنسوا أن له خمسة أبناء فى هذه المدرسة · واذا كنتم تريدون أن تروه يبيع الويسكى ليلا ، فتعالوا الى غرفتى ·

وختمت حديثى قائلا : وثمة شىء أخير ، ثم أفرغ من حديثى · ان مدرسة لانزبيرج الثانوية ليست وحدة منفصلة عنكم · اننا جزء منكم · وكل رجل وكل امرأة وكل طفل فى هذا المجتمع المحلى جزء من مدرسة لانزبيرج الثانوية ، وان سلوككم فى بيوتكم وفى المدينة لينعكس هنا فى المدرسة ، ففى استطاعتكم أن تساعدونا أو أن تضرونا · ونجاحنا هنا يتوقف الى حد كبير عليكم · لقد كنت أعتقد فى أول عهدى بالتدريس أن كل شىء يتوقف على المدرسين والتلاميذ ، ولكننى غيرت رأيى · ان هذه الجزر الصغيرة من البشر ، التى هى أنتم ، لابد لها أن تتحد مع غيرها من الجزر ، وتصبح قارة موحدة ، اذا أردنا أن تكون لنا مدرسة ناجحة ···

وقد أدت النتائج التى أسفر عنها هذا الاجتماع الى حل المشكلات التى كانت تواجه لانزبيرج ، فلم أشهد بعد ذلك أبدا أحد الآباء يراهن على لعب كرة القدم ، وكف الناس عن المراهنة فى سباق الخيل ، وأصبح الرقص ينتهى فى الساعة التاسعة ، اذ أن مجلس ادارة موظفى البلدية ألزم بأن يدق فى الساعة التاسعة جرس انذار ، فينصرف الى بيته كل تلميذ مقيد فى المدرسة ، وكف تلاميذنا فجأة عن معاقرة الخمر ، ولم يلق القبض على فرد واحد · وكانت مدرستنا السبب فى قيام حركة اصلاح أخلاقية بين مواطنى مدينة لانزبيرج ، ولم تقم للميسر بعد ذلك فى مدرستنا قائمة ، والعقوبة الوحيدة التى وقعتها على الشبان الأربعة الذين ضبطوا وهم يلعبون الورق ، كانت

الترقب والانتظار ، فقد ظلوا ينتظرون ويتوقعون حتى طال عليهم الأمد ، ولم يحدث ما كانوا ينتظرون أو يتوقعون ٠

وفى مدى ستة أسابيع ، استطعنا أن نرى أعضاء جماعة الآباء والمدرسين أثر تعاونهم معنا فيما حصل عليه أبناؤهم وبناتهم من درجات ، بل ان الكثيرين منهم أخذوا الآن يحصلون علىدرجات النجاح ، بعد أن كانوا يرسبون،وارتفعت درجات كثيرين من الذين كانوا يحصلون على تقديرات ضعيفة ، ونقصت نسبة التأخير والغياب بدون عذر الى ما يقرب من سبعين فى المائة ، وأصبح العمل المدرسى بالنسبة لنا أكثر يسرا ، وأصبح التلاميذ أسعد حالا ، وازداد حبهم للمدرسة ، وكان هذا كله نتيجة التعاون بين أولياء الأمور ، والمواطنين ، والمدرسين ، والتلاميذ ٠ وعلق « بيل هادن » بعد ذلك فى أحد اجتماعات المدرسين بقوله : لقد علمتنا جماعة الآباء والمدرسين شيئا ٠ ان كل ما عليك أن تفعله لكى تحل مشكلة تسيىء الى سمعة مدرستك ، هى أن تجعل النساء فى صفك ، وما أن تبين لهن ما يجرى من خطأ ، حتى يقضين عليه قضاء تاما ٠

(٨)

كانت هيلين كيرستن هى الوحيدة من بين أعضاء هيئة التدريس التى لم تكن من كنتكى ، بل كانت من مدينة نيويورك ، فقد ولدت فى هذه المدينة، وتلقت تعليمها بها ، وعاشت فيها طوال حياتها ٠ وحين جاءت الى مدينة لانزبيرج الصغيرة ، فى ولاية كنتكى ، التى تبعد عنها بعدا شاسعا ، كان عليها أن تلائم نفسها لهذه البيئة من وجوه عدة ٠ غير أننا لم نكن نعلم بهذا ، فلم يذهب واحد منا الى مدينة نيويورك ، وكان ما يثير اهتمام المدرسين والتلاميذ فى مدرسة لانزبيرج الثانوية هو لهجتها ، وكانت هى شديدة الاهتمام بلهجتنا والتعبيرات التى نستعملها فى الكلام ، كانت شديدة الاهتمام بكل شيء ، وبخاصة عملها ، ولم يكن بين أعضاء هيئة التدريس من يبذل جهدا فى عمله أكثر من هذه المدرسة القادمة من نيويورك ٠

وفى أول اجتماع عقدته هيئة التدريس ، لم تظهر أدنى تذمر من العمل الذى كلفت به ، وحين عرفت عدد تلاميذ المدرسة ، وعلمت بنقص عدد المدرسين اللازمين لأداء العمل ، لم تشك من نصيبها الذى عهد به اليها ٠ وقد كان التعاقد معها على أساس أن تعمل بنصف جدول كمدرسة ، ونصف جدول كأمينة للمكتبة ، غير أنه بعد أول اجتماع لهيئة التدريس ، أعطيت هذه المدرسة جدولا كاملا ، الى جانب اضطلاعها بمسئولية المكتبة ٠

وقالت فى ذلك الشأن : أعتقد أننى أستطيع القيام بهذا العمل يامستر ستيوارت ، فلا تجعله يشغل بالك ، ولا تتوقع منى الشيىء الكثير نحو أسبوعين ٠

وفى خلال أسبوعين ، كانت مس كيرستن قد اختارت بعض التلميذات ، وقامت بتدريبهن على أعمال المكتبات ، فجعلت اثنتين تبقيان فى المكتبة فى كل حصة أثناء النهار ، وكانت تهرع الى المكتبة فى الفترات التى تقع بين الحصة والتى تليها ، لكى ترى ما اذا كانت قد طرأت صعوبات عجزت الفتاتان عن التصرف بشأنها ٠ وكان لديها حصة فراغ واحدة بعد الظهر ، كانت تقضيها فى المكتبة ٠ واستطاعت بمعونة التلميذات والمشرف على المكتبات أن تضع نظاما للمكتبة سار العمل على أساسه سيرا حسنا ، ولم يفقد من المكتبة كتاب واحد طوال العام ، وان كان بعض الكتب قد وضع فى غير المكان المخصص له ، الا أن مس كيرستن كانت تعثر على هذه الكتب وتعيدها الى مكانها ٠

وكنا فى أول الأمر ننظر الى مس كيرستن على أنها تختلف عنا اختلافا كبيرا ، فلهجتها تختلف ، والتعليم الذى تلقته يختلف عما تلقيناه من تعليم ، وكانت لها آراء فى التدريس تختلف عن آرائنا ٠ وكانت دقيقة فى عملها ، لا تعطى ولا تأخذ ، واذا حدث أن حصل أحد تلاميذها على درجات تقل درجة واحدة عن درجة النجاح فى مادة اللغة الانجليزية بالصف الأول ، فان هذا التلميذ يرسب ٠ وكانت أول من يصل الى المدرسة من المدرسات فى الصباح، وآخر من يغادرها بعد الظهر ٠ وكانت فى اجتماعات هيئة التدريس تجلس صامتة لا تتكلم الا اذا سئلت عن رأيها ، وكانت لها دائما آراء فى المشكلات المدرسية وفى طرق حلها ، وهى آراء كانت تختلف عن آرائنا كل الاختلاف ٠

وسرعان ما بدأنا ، نحن أعضاء هيئة التدريس ، نفهم مس كيرستن ، وبدأت هى الأخرى تفهمنا ٠ وجاءتنى مرة تقول انني أدرس الآن اللغة الانجليزية والانشاء بدلا منك يا مستر ستيوارت ، وأريد منك أن تدلنى على الطريقة التى تحب أن أدرس بها ٠ اننى أريد أن أدرس بالطريقة التى تدرس أنت بها ، حتى تكون راضيا كل الرضا ٠

فقلت : حين يكون عندى مدرسات لديهن مالديك من ابتكارية وابداع، فاننى أحب أن أضع مسئولية تدريس اللغة الانجليزية بين يديك ، فمن

العسير أن نجد مدرسات للغة الانجليزية يمتزن بالابتكارية والابداع ، وأنت واحدة من القليلات اللاتى يمتزن بهذه المقدرة • وكل ما أطلبه منك هو أن تدرسى اللغة الانجليزية بطريقتك الخاصة ، ولك مطلق الحرية فى ذلك •

وسر هيلين كيرستن قولى هذا أكثر مما سرها أى حديث وجهته اليها قبل ذلك • وذات يوم جاءتنى وهى تبتسم •

وقالت وهى تعطينى حزمة من أوراق الانشاء : هاك يامستر ستيوارت • أنا أعلم أنك مهتم بالكتابة الابداعية ، وأحب أن تقرأ هذه الموضوعات التى كتبها تلاميذى •

وحين قرأت موضوعات الانشاء هذه ، استولت على دهشة بالغة • كانت كتابة تمتاز بلغة بسيطة جميلة كأنها شعر •

وقلت فى نفسى وأنا أرد الأوراق اليها : اننى أحاول الكتابة الأدبية ، فلماذا لا أكتب لغة كهذه ؟

وقلت أسألها كيف استطعت أن تحصلى على مثل هذا المستوى من تلاميذ لم يكتبوا موضوعات أدبية قبل ذلك أبدا ؟ هذه كتابة رائعة • اننى لم أقرأ كتابة ابداعية لتلاميذ المدارس الثانوية تماثل هذه الكتابة فى روعتها • انها شعر !

فقالت مس كيرستن وهى تبتسم : أجل يا مستر ستيوارت • ان الشعر طبيعة فى هؤلاء التلاميذ القادمين من جبالكم ، فجبالكم وأنهاركم وأشجاركم ، والماء الصاخب ، والأزهار البرية ، وحقول القمح الصغيرة ، الذى يخضر فى الربيع ، وينضج فى الصيف ، ويحصد فى الخريف ، كل هذا قد ألهمهم الشعر •

ثم قالت وهى تتنهد أما اللغة ، فلم أسمع لها مثيلا فى روعتها ، فلا هى ناعمة مفرطة فى نعومتها ، ولا هى خشنة مفرطة فى خشونتها ، ولأول مرة فى حياتى أسمع قوما يتكلمون لغة لها ايقاع ، وكأنها الشعر ، فلماذا لا يكتبونها ؟ انهم يتلهفون على التعبير الابداعى •

فقلت : زيدينى علما بما تلاحظينه عن الناس هنا ، فهذه أشياء لم أفكر فيها قبل ذلك أبدا •

فقالت : لأنك تعيش فيها ، وقد نشأت هنا ، فأنت جزء من هذا كله ، ولذلك فأنت لا تراه ٠

فسألتها قائلا ولكن خبرينى ، كيف تجعلين تلاميذك يعبرون عن أنفسهم على هذا النحو ؟

فقالت أتركهم يكتبون أفكارهم بأية طريقة يريدونها ، وأعطيهم مطلق الحرية فى التعبير عن أنفسهم ، وعن أى موضوع يختارونه ، وأجعلهم يكتبونه بالاسلوب الذى يروق لهم ٠ وبعد أن يكتبوا موضوعاتهم ، نقرأها فى الفصل ، ولكل تلميذ الحق فى أن يقدم ما يعن له من مقترحات تتصل بموضوع زميله ، ونحن لا نصحح الأخطاء دائما ، ولعلك لاحظت ذلك ٠

فقلت : أجل ٠ لقد لاحظت ذلك ٠

فقالت اننا لا نصحح الخطأ اذا كان هذا الخطأ يعطى الموضوع لونا وابتكارية ٠٠

وعلى الرغم من أن هيلين كيرستن كانت غريبة عن ولاية كنتكى ، فانها لم تبق غريبة طويلا،ولم يلبث التلاميذ والمدرسون أن وثقوا معرفتهم بها،وكان تلاميذ مقاطعة جرينوود على وجه خاص مشغوفين بها ، فكانوا يدعونها الى بيوتهم فى عطلة نهاية الأسبوع ، وكثيرا ما كنت أراها بعد الظهر من أيام الجمعة ، وهى تصعد الى احدى السيارات المدرسية المزدحمة ، تحمل حقيبة فى يدها ، وتزورهم فى أكواخ ليس فيها ضوء كهربى أو حمام أو تليفون ، وهى أشياء اعتادت عليها مس كيرستن القادمة من نيويورك ، طول حياتها ٠

ولم تشهد هيلين كيرستن فى حياتها الفلاحين وهم يحصدون القمح ، ويجمعون البطاطس ، ويصنعون السرغون فى مصانع القصب فى فصل الخريف ، حيث تكون أوراق الأشجار زاهية بلون الذهب ، ولم تشهد فى حياتها رجالا يقطعون الأشجار ، ويسحبون كتل الأخشاب التى يقطعونها فوق الأرض بوساطة الماشية والبغال الى ساحة خاصة ، ثم ينشرون كتل الخشب بمناشير القطع فيجعلونها كالعصى ، ثم يوقدون نيران المدافىء بتلك العصى ، ولم تشهد مخازن المؤن فى البيوت،وقد امتلأت بالأطعمة التى يختزنها القوم فى مقاطعة جرينوود لفصل الشتاء ، اذ أنهم يكونون فى ذلك الفصل فى عزلة ، فيتزودون قبل أن يحل عليهم الشتاء بقسوته ٠ كذلك لم تشهد

قوما يهيئون لأنفسهم وسائل الترفيه كالرقص والألعاب وعزف الموسيقى القديمة ··· ان هؤلاء التلاميذ الذين يعزفون الموسيقى القديمة ، دون أن يكون لديهم المام بالنوته الموسيقية ، هم الذين كتبوا لها تلك الموضوعات الرائعة ٠

وقد أفاد المدرسة وجود هيلين كيرستن بيننا ، وهى القادمة من بيئة تختلف عن بيئتنا كل الاختلاف ٠ وقد جعلتنى هذه الحقيقة أرى رأيا هو أنه يجب أن يكون هناك تبادل بين مدرسى الولايات المختلفة ، وأن مثل هؤلاء المدرسين يكسبون التلاميذ معرفة بالحياة ، ويوسعون أفق تفكيرهم ، ويعدونهم للمستقبل اعدادا أفضل ، وأن كل مدرسة فى حاجة الى تنوع فى هيئـــة التدريس ، وان قصر هيئة التدريس على المدرسين الذين ينتمون الى نفس البلدة التى تقع فيها المدرسة من شأنه أن يؤدى فى نهاية الأمر الى عقم ذهنى لا يلبث أن يظهر أثره فى المجتمع المحلى ، فكل جزء من أجزاء البلاد يكمل بعضه بعضا من الناحية المادية ، مكونا كلا كثير الخيرات ، فلماذا لا يكمل كل جزء من أجزاء البلاد بعضه بعضا من الناحية العقلية ، عن طريق النظم المدرسية المختلفة ، حتى يزداد التفاهم بينها ، وتثرى هذا الكل من تلك الناحية ؟ وقررت أن أتمسك بهيلين كيرستن فى مدرستى ، مادامت راغبة فى البقاء ٠

(٩)

ولم نعد نسمع نقدا يوجه من أى فرد فى لانزبيرج الى هيئة التدريس بالمدرسة ، أو الى ناظرها ، أو الى مدير مدارس المقاطعة ، بعد أن تعاون معنا الأهالى ، وأصبح يساندنا أكبر مجلس للآباء والمعلمين فى تاريخ لانزبيرج ٠

وفى أوائل الربيع ، أشركنا عددا من خيرة تلاميذنا فى المسابقة المدرسية للاقليم ، الذى يعقد فى أوكلند بولاية كنتكى ، وكنا نواجه فى هذه المسابقة مدارس أكبر من مدرستنا أربع مرات ، ومدارس ثانوية كثيرة العدد ، بيد أنه كان لدينا « بدج ووترز » ، ويرجع الفضل فى وجوده الى أمى وأبى ، اللذين أسكناه معهما دون مقابل ، وكانت أمى تغسل له ملابسه ، وكلما اشترت ملابس لأخى جيمس ، اشترت مثلها « لبدج » ٠ وكان لدينا أيضا تلاميذ ممتازون آخرون ٠ وفاز بدج ووترز فى جميع المسابقات الثلاث التى اشترك فيها ، وفزنا بمركزين أولين آخرين ، وبالمراكز الثانية والثالثة والرابعة والخامسه ، وفزنا بالمركز الأول فى مسابقة الاقليم بنقط تزيد على

النقط المطلوبة · وتحدثت الصحف عن ذلك الفوز الذى حققناه ، مما كان له أثر عظيم فى سمعة مدرستنا العلمية بين المدارس الثانوية فى هذا القطاع من ولاية كنتكى · وكان ترتيبنا متقدما فى الألعاب الرياضية ، غير أننا كنا الأوائل فى العلوم المدرسية ، ومنحت الولاية مدرسة لانزبيرج الأولوية على سائر المدارس ، وانشأنا فى المدرسة لأول مرة فرقة موسيقية ، وأحضرنا لها قائدا من أوهايو كان أولياء الأمور هم الذين يدفعون له مرتبه ، بدلا من مجلس ادارة المدرسة · لقد كان كل واحد منا يكرس نفسه للعمل ، وبذلك أدينا واجبنا ·

غير أنه كان هناك شيء لم نستطع أن نقوم به ، وهو أنه حين كان يطلب منا أن نتبرع للأعمال الخيرية ، كنا نجد أنفسنا عاجزين عن ذلك ، فلم تكن لدينا نقود نتبرع بها ، اذ كانت مرتباتنا ضئيلة ، غير أن كل مدرس كان يجود بما يستطيع ، وكان هذا الذى يستطيعه ضئيلا كل الضآلة · وكان لدينا بالمدرسة تلميذ يعمل بالسكة الحديد ثمانى ساعات · وكان فى فريق كرة القدم ، ويحصل فى علومه على درجات عالية · وحين كان جامعوا التبرعات يجيئون الينا ، كان دائما يعطيهم ضعف ما أعطى ، بل انه كثيرا ما كان يدفع مبلغا يساوى مجموع ما يدفعه المدرسون جميعا · وكان شابا سخيا ، وكنا نقدر فيه هذا السخاء،غير أن ذلك كان يؤلمنى ويؤلم المدرسين أكثر مما كان هو يدرك أو يتصور،اذ أنه كشف سترنا ، فلم يكن التلاميذ يعرفون أننا نتقاضى مرتبات ضئيلة ، فاذا رأوا واحدا من زملائهم يتبرع بمبلغ أكبر من ذلك الذى يتبرع به ناظرهم أو مدرسوهم ، بل يساوى فى بعض الأحيان مجموع ما يتبرع به جميعهم ، حملهم ذلك على الاعتقاد بأننا بخلاء نضن بمالنا ، أو أننا لا نشجع الأعمال الخيرية ·

وكان وتسن المدرب يزيد من مرتبه بالتحكيم فى مباريات كرة القدم وكرة السلة · ولم يكن واحد من المدرسين يملك بيتا يأويه ، ولا أعرف واحدا منهم كان له حساب فى بنك المدينة · وكل ما كنت أستطيع أن أفعله بمرتبى هو أن أسد رمقى ،وأن أدخر ما يكفى للوفاء بدينى الذى كنت قد استدنته لكى التحق بكلية بيبودى ·

وكانت هيلين كيرستن ، ومارتا ولسن وباربرا كارتر واديث نولان يعشن على مرتبهن ، الذى كان يتراوح بين ٩٨ و ١١٧ دولارا فى الشهر · أما لونى ماكسويل ، مدرس العلوم والفلاحة ، فكان يتقاضى مرتبا أكبر من

ذلك ، بيد أنه اضطر الى شراء سيارة ، اذ كان عليه أن يطوف بمزارع مقاطعة جرينوود ، وكان فى كثير من الأحيان يلجأ الى الاستدانة لكى يسد نفقات معيشته ، ويدفع تكاليف السيارة • وفى ثلاث مناسبات مختلفة وقعت له بامضائى حين اقترض نقودا من البنك ، وذلك فى خلال أول عام له فى مدرسة لانزبيرج الثانوية •

(١٠)

وكان « يوم مايو » هو يوم العطلة الأكبر لمدارسنا ، وأقيم الحفل فى مدرسة لانزبيرج الثانوية ، اذ تكاد تقع فى منتصف مقاطعة جرينوود ، وكل طرقات المقاطعة تؤدى الى لانزبيرج • ودعى الى الحفل جميع مدرسى وتلاميذ المدارس الريفية بمقاطعة جرينوود • وتخلف الكثيرون عن الحضور لوعورة الطرق • ونقلت السيارات المدرسية المدرسين والتلاميذ الى مكان الحفل • أما المدارس الريفية القريبة من لانزبيرج ، فقد جاء تلاميذها ومدرسوها الى هذا الحفل الكبير سيرا على الأقدام ، اذ لم يكن ليفوتهم مثل هذا الحفل •

وغص مبنى المدرسة بالناس ، ورفعنا لافتة التحذير من المشى فوق الحشيش ، وأخذ التلاميذ يرتعون ويلعبون ، ما عدا أولئك الذين كانوا مشتركين فى برامج الحفل • وكان البرنامج يشمل بعض الرقصات ، ومفاجآت فى الألعاب الرياضية أعدها وتسن المدرب ، وقدمنا معروضات مدرسية فى القاعة الكبرى ، وأخرى فى النادى • وقام باعداد الطعام أعضاء مجلس الآباء والمعلمين • وتخلى التلاميذ عن الدراسة ، فقد كان اليوم يوما عظيما ، يلتقى فيه الجميع من أجل التسلية والترويح عن النفس •

وبينما كنت أسير من الملعب الرياضى الى مبنى المدرسة ، لكى أعاون على تنظيم المعروضات ، التقيت وجها لوجه بسيدة بدا وجهها مألوفا لدى • وتوقفت فجأة حين رأتنى ، وكانت تمر من البوابة ، متجهة نحــو الملعب الرياضى ، وكنت أنا خارجا منه • وكانت تمسك فى كل يد من يديها طفلة صغيرة •

وقالت تسألنى وهى تصعد فى النظرات كما لو كانت غير واثقة : انك جيس ستيوارت ، أليس كذلك ؟

فأجبت قائلا : أجل ، وأنت •• لابد أنى أعرفك ، فقد رأيتك فى مكان ما • فقالت ضاحكة : لقد كبرت كثيرا منذ أن كنت أعرفك •

فقلت وأنا أعجب كيف يمكن أن تتغير امرأة كل هذا التغيير فى بضع سنين : انك نانسى كوشران ، أليس كذلك ؟

فقالت : كذلك كنت ، أما الآن فاسمى مسز أوفا سلييرز • انك تذكر أوفا ، أليس كذلك ؟

فقلت : أذكره ولا شك • هل هاتان ابنتاك ؟

فقالت لنا ثلاث بنات وولدان ، وهاتان أكبر الجميع سنا ، فبيرتا عمرها ست سنوات ، ولومى عمرها خمس ، وسوف تذهب بيرتا الى مدرسة لونسم فالى • لقد سمعت بهذا الحفل فجئت بهما اليوم •

فسألتها قائلا : ألم يجىء أوفا معك ؟

فتضاحكت قائلة كلا فقد تركته يقوم بطلاء البيت ويرعى الأطفال •

فسألتها قائلا : أين تقيمان الآن ؟

فقالت : لقد اشترى أوفا مزرعة لون تيرنر التى تقع على جدول لونسم • انك تعرف هذه المزرعة ، أليس كذلك ؟

فقلت : لقد قست أنا ودون كونوييى وجاى هوكنز ودنفر ليكنز وأوفا هذه المزرعة ذات يوم •

فقالت : أجل • لقد أنبأنى أوفا بذلك •

فقلت ونحن نفسح الطريق للناس الداخلين والخارجين من البوابة : خبرينى ماذا حدث لجاى هوكنز ؟

فقالت : انه هو ودون كونوييى فى مورهيد بولاية كنتكى ، اذ لا توجد مدرسة ثانوية قريبة • ان « دون » فى كلية مورهيد ، و « جاى » فى مدرسة المعلمين بمورهيد • ان « دون » يعتزم أن يصبح مدرسا ، وكذلك « جاى » •

فقلت : وهل لا يزال « جون » يقوم بوظيفة الأمين هناك ؟

فقالت : كلا • فقد سقط جون فى الانتخاب بصوت واحد •

وعندئذ قالت ابنتها بيرتا وهى تشد يد أمها : هيا يا أماه • فلنذهب لنشهد السباق •

فقالت نانسى : انتظرى لحظة أخرى ثم نذهب ٠

فقلت : سأذهب الى هناك يوما للزيارة ، فاننى أحب أن أرى لونسم فالى مرة أخرى ، وأقضى ليلة عند العم آموس والعمة ايفى باتسون ، فأسمعه يعزف على كمانه ، وأشهدها ترقص على نغماته ٠

فقالت نانسى : انه لن يعزف على كمانه مرة أخرى ، الا اذا كان يعزف عليه فى عالم آخر ، فقد مات وهو نائم ، وذهبت العمة ايفى لتعيش مع واحد من أبنائها ٠ وقد بيع بيتهم الكبير والمزرعة والمخزن الى « أليك بريتر » ٠

فقلت : اذن فقد تغير كل شىء فى الوادى ٠

فقالت : لم يعد كما كان حين كنت تقيم هناك ٠

فقلت : وماذا حدث لجوادى ؟ ألا يزال « سندانس » حيا ؟

فضحكت قائلة : آه ذلك الجواد ! انه لا يزال حيا ، غير أنه بلغ من العمر أرذله ، فلم يعد يقوى على العدو صاعدا هابطا فى طريق وادى لونسم ، وكأنه شبح أبيض ٠ انى أذكر كيف كنت تركبه فتمر بحانوتى فى الصباح وبعد الظهر ٠ انه الآن ملك « أليك بريتر » ٠

وعند ذاك أخذت ابنتاها تجذبان يديها ، فقد كانتا تريدان مشاهدة ما يجرى فى الاحتفال ٠

(١١)

وفى منتصف مايو ، كنت أجلس على ضفة النهر الكبير ، ألقى بحصى فى الماء الذى يضيئه نور القمر ، وأنا أنتظر قرار مجلس تعليم مدارس مدينة لانزبيرج ، وقرار المدير لارى أندرسن ٠ فقد انتهى العام الدراسى ، وأصبح الصمت يسود مبنى المدرسة ، بعد أن فرغت من رصد الدرجات ووضعنا الكشوف فى الملفات ٠ وعاد التلاميذ القادمون من المقاطعات الى المزارع ، أما التلاميذ الذين يعيشون فى المدينة فلم يكن لديهم ما يعملونه فى الصيف ٠ وعادت مس ولش ومس كيرستن الى بلديهما ٠ ولم تطلب مس كيرستن تجديد عقدها ، وأشيع فى لانزبيرج أنها ذهبت الى مدينة نيويورك ماشية ، وقالت احدى الشائعات انها ذهبت ماشية لأن ضآلة ما كانت تتقاضاه من مرتب

لم تمكنها من توفير أجرة السفر ، وقالت شائعة أخرى انها ذهبت ماشية لكى تستمتع بتلك التجربة ٠

وقد طلبت أنا ومس كارتر ولونى ماكسويل والمدرب وتسن تجديد عقودنا ، غير أنى ضمنت طلبى بعض التحفظات ، فقد طلبت رفع مرتبى الى ١٥٠٠ دولار فى تسعة أشهر ، وأوضحت فى الخطاب الذى أرفقته بطلبى أنه ما لم يرفع مرتبى الى ١٥٠٠ دولار فلن أتولى مرة أخرى وظيفة ناظر مدرسة لانزبيرج الثانوية ٠

وجلست على ضفة النهر ، أنتظر قرار مجلس التعليم ، وقرار مدير المدارس ، وليس فى جيبى دولار واحد ٠ لقد عشت عيش الكفاف طوال العام، وسددت للبنك مبلغ مائة دولار ، ولم أشتر لنفسى بذلة جديدة ، ولم أنفق مرتبى الا على ضروريات الحياة مما يقيم أودى ٠ ولم يكن لقائى بصديقتى « نوفى دين‌موريس » يكلفنى كثيرا ، فقد كانت تنفق على نفسها ، وهى فى كلية مورهيد ، التى كانت قد التحقت بها لتعد نفسها لمهنة التدريس ، وقد أصبحت الآن مدرسة ، تتقاضى مرتبا أصغر من مرتبى ، ولذلك كانت تقدر ما يلاقيه المدرس من صعوبة اذا هو أنفق من مرتبه على صديقته ٠

وتوجهت الى مكتب لارى أندرسن ، وطرقت الباب ، فجاء الى ، وسألته ما اذا كان أعضاء مجلس التعليم قد وصلوا الى قرار بشأن طلب تجديدى العقد، فقال انهم يبحثون مسائل أخرى ، ولم ينظروا فى طلبات تجديد عقود المدرسين بعد ، فعدت أدراجى الى ضفة النهر ، وجلست فى سكون المساء ، حيث كانت أذرع أشجار الصفصاف الطويلة تنثنى لكى تمس أصابعها الماء مسا رفيقا ٠ ثم ساورنى القلق من جديد ، فذهبت مرة أخرى الى لارى أندرسن لكى أسأله عما تم بشأن طلبى ، فتلقيت منه نفس الجواب الذى تلقيته فى المرة الأولى ٠

وانتظرت لدى باب المكتب الى أن انفض المجلس ، وحين خرج الأعضاء سألت لارى أندرسن عن قرار المجلس بشأن طلبى تجديد العقد فقال لم نجدد التعاقد معك ، فقد غاليت فى طلبك ٠

فقلت : هذا كل ما أريد أن أعرفه ٠

وارتديت قبعتى ، وسرت فى ممشى المبنى العتيق ٠ لقد كنت أعرف أن التدريس مهنة عظيمة ، وأننى أحب هذه المهنة ، غير أننى قررت ألا أعود

اليها ، وبذلك انضممت الى المدرسين الأربعة الذين لم يطلبوا تجديد عقودهم . لقد كانوا مدرسين ممتازين ، بيد أنهم قرروا هجر مهنتهم ··· وعدت الى الفندق ، فحزمت ملابسى ، ويممت وجهى شطر بيتنا ، سائرا تحت ضوء القمر ، فى الممر الجبلى القديم ، وقد أخذ نبات الراجيد ينمو على حافتيه من جديد ، ولم يعد يعنيني حينذاك أن تلطخ بقع الكبريت ساقى البنطلون ·

الجزء الرابع

وكم من ليلة ليلاء عاصفة

(١)

وبعد أن رفض مجلس التعليم فى لانزبيرج تجديد التعاقد معى ، قضيت الصيف أعمل فى مزرعة أبى ، فقمت أنا وأخى جيمس بزراعة محصول من التبغ ، وكان جيمس ينوى أن يلتحق بكلية بيريا ، ويدفع نفقات عامه الأول من ثمن نصيبه من المحصول . أما أنا فكنت أنوى أن أقوم بدراسات عليا لمدة عام فى جامعة فاندربلت ، وأدفع نفقاتى من ثمن نصيبى من المحصول .

وفى شهر يوليه هطلت الأمطار الغزيرة . وأتلفت قلة الحرارة وغزارة الأمطار محصول التبغ ، وبذلك انهارت الآمال التى عقدناها على ثمن المحصول، الذى كنا ننوى أن ندفع به نفقات الدراسة بالجامعة مدة عام .

واقترضت فى هذهالأثناء مبلغ ٢٥٠ دولارا منالبنك الأهلى فى لانزبيرج، أعطيت منها خمسين دولارا لجيمس لكى يلتحق بكلية بيريا ، وأعطيت أمى خمسين دولارا لأنها كانت فى حاجة الى نقود ، اذ كان العمل الذى تقوم به أمى متقطعا غير متصل ، وبقى معى مائة وخمسون دولارا ذهبت بها الى جامعة فاندربلت لكى أحضر دراسات عليا لمدة عام ، فى حين أن الدراسة فى هذه المدة تتطلب مبلغا قدره تسعمائة دولار . لقد ذهبت الى جامعة فاندربلت لأننى سمعت عن « الفيوجتيفز » Fugitives (جماعة من الكتاب فى أمريكا يصدرون مجلة تسمى الفيوجتيف ولهم طابع خاص فى الأدب الأمريكى) . لقد قرأت أشعارا فى المجلات والكتب كتبها أفراد هـــذه الجماعة . وكنت أريد أن اتلقى دراساتى العليا على أيدى هؤلاء الناس .

وخيل الى أننى أستطيع الجمع بين الكتابة والزراعة ، فقد اشتغلت فى المزرعة منذ بلغت السادسة من عمرى ، وما من عمل عجزت عن أدائه . وكانت تدفعنى الرغبة الى الكتابة منذ أن وعت ذاكرتى ، وخيل الى أن كل ما أحتاج اليه هو أن أدرس فن الكتابة لمدة عام فى جامعة فاندربلت على أيدى هؤلاء الكتاب الجنوبيين الكبار .

وحين تسلمت أول بحوث قدمتها ، بدأت أشك فى قدرتى على الكتابة ، فقد كانت مليئة بالعلامات الحمراء،ولم أكن لأجد الوقت لكى أقوم بما تحتاجاليه دراستى من بحوث ، وذلك لأنى كنت أعمل فى كافتيريا « وسلى هول » فى موعد وجبات الطعام احدى عشرة مرة فى الأسبوع ، وفضلا عن ذلك كنت أعمل « فراشا » أربع ساعات فى اليوم . وبعد انتهاء الفصل الدراسى الأول

بفترة قصيرة ، شب حريق فى مبنى « وسلى هول » أتى عليه ، واحترقت الكافتيريا التى كنت أعمل فيها ، وأتناول فيها وجباتى الاحدى عشرة كل أسبوع ٠

وفى خلال الفصل الدراسى الثانى ، كنت أعيش على وجبة واحدة فى اليوم ٠ ومع ذلك لم أترك الدراسة بجامعة فاندربلت ٠ وقد أتى الحريق على كل ما أملك من ملابس ، فلم يعد لدى سوى تلك التى تستر بدنى ، كما أتى على الأشعار التى ألفتها وجئت بها الى فاندربلت ، وعلى الرسالة التى كنت أعدها للحصول على درجة الماجستير ٠ وقدم الى أحد الناس « بذلة » أرتديها ، وحين بليت « البذلة » القديمة ، أعارنى « لونى ماكسويل » ـ وكان لا يزال يقوم بالتدريس فى مدرسة لانزبيرج الثانوية ـ « بذلة » من عنده ، حتى يكون لدى اثنتان أتناوب ارتداءهما ٠

وفى خلال الفصل الدراسى الثانى بجامعة فاندربلت ، كلفنا الدكتور ميمز أستاذ اللغة الانجليزية بأن يكتب كل منا ترجمة موجزة لحياته ، وطلب منا ألا نكتب أكثر من ثمانى عشرة صفحة ٠ وكانت هذه أول مرة أكلف فيها أثناء دراستى بجامعة فاندربلت بكتابة موضوع لا يتناول حياة شخص ميت ٠ ولم أكن لأستطيع أن أقول للدكتور ادوين ميمز كل ما كنت أريد قوله فى ثمانى عشرة صفحة فحسب ، ففى الأحـــد عشر يوما السابقة لموعد تقديم الموضوعات ، كنت قد كتبت ٣٢٢ صفحة من الهامش الى الهامش ٠ وبعد أيام ثلاثة ، قال لى اننى بهذه الصفحات قد ألفت كتابا ٠ ذلك أنه أخذ ما كتبت الى « دونالد ديفدسن » ليقرأه ، ثم بعث الاثنان برسالة الى أحدالناشرين ، وأشارا على بأن أرسل اليه ما سميته « فيما وراء التلال المظلمة » ، ونشر الكتاب بعد ذلك بست سنوات ٠

وفى أثناء ذلك فرغت من دراستى بجامعة فاندربلت ، التى استغرقت عاما ٠ ولم أحاول كتابة الرسالة مرة أخرى بعد أن أتى الحريق عليهـــا ، واقترضت دولارين ، وتركت فاندربلت ، واتخذت طريقى الى بلدتى ماشيا ، دون أن أحصل على درجة الماجستير ٠

(٢)

وفى شهر يولية ، فى عصر يوم من أيام السبت ، كنت مستلقيا فوق الحشيش الذى يكسو الفناء ، تحت ظل شجرة حور كانت أوراقها العريضة تتدلى فى ارتخاء تحت وطأة أشعة شمس منتصف الصيف ، التى كانت تنفذ

من بين هذه الأوراق المتجمعة كالعناقيد ، وقد اتخذت شكل أعمدة فى حجم الأقلام الرصاص ، لكى تكون ظلالا على الأرض • وأخذت أرقب النور والظل يتقاطعان ويمتزجان فوق الحشيش الجاف ، الذى لفحته الشمس •

وجاء رجل يقول : هل هذا بيت ستيوارت ؟

فقلت وأنا أنهض من فوق الحشيش : أجل • انه هو •

لقد كان رجلا قصير القامة ، ذا وجه أحمر ، وشارب أشقر • وقال وقد وقف عند بوابة فناء البيت ، وسار فى أثره رجلان طويلان : هل تستطيع أن تخبرنى أين أجد جيس ستيوارت ؟

فقلت : انك تتحدث اليه •

فقال وهو لا يزال واقفا بالبوابة : لقد كنت أظنك أكبر سنا •

ثم التفت الى الرجلين الآخرين وقال : هذا هوالرجل الذى نبغى مقابلته. هذا هو ستيوارت •

فقلت أدعوهم للدخول : تفضلوا •

فقال الرجل يعرفنى بنفسه : ان اسمى « مونر بنتوورث » ، وأنا رئيس مجلس تعليم مقاطعة جرينوود ، وهـــذان مستر ويليام دوسن وتوبياس كلاكستون ، عضوا مجلس التعليم •

قلت يسرنى أن ألقاكم أيها السادة • لكن اذا كنتم قد جئتم لكى تحدثونى بشأن عودتى الى التدريس فلا فائدة ترجى منى • لقد تركت مهنة التدريس فى العام الماضى ، وقررت ألا أعود اليها أبدا •

فقال مونر بنتوورث موضحا : هذا أمر أكبر كثيرا من التدريس • اننا نريد مديرا جديدا لمدارس مقاطعة جرينوود •

فقلت مرددا قوله ، اذ كان من العسير على أن أصدق : مديرا جديدا لمدارس مقاطعة جرينوود ؟ وماذا حدث للارى أندرسن ؟

فقال « مونر » يشرح لى ان مدارس مدينة لانزبيرج لم تعد تابعة

للمقاطعة ، بل أصبحت نظاما مستقلا تابعا للمدينة ، كما كان الحال من قبل ، اذ حدث سوء تفاهم بسيط ·

فقال ويليام دوسن يعاون « مونر » فى الشرح والايضاح ، وهو يبصق مضغة من التبغ فوق الحشيش : لقد وقع بين المقاطعة والمدينةما أسميه خصاما. وعلى أية حال ، لم يكن من المستطاع أن يقوم بيننا وفاق ، وقد قلت لهم ذلك حين قامت الشركة بيننا وبينهم ·

فقال « مونر » : وقد أخذت لانزبيرج منا لارى أندرسن ، فهو المدير الجديد لمدارس مدينة لانزبيرج ·

فقلت : اذن فهذه هى القصة ·

فقال توبياس كلاكستون مقاطعا : لقد كان لارى أندرسن رجلا كفؤا ، وانا لنكره أن نفقده ، ولكن لانزبيرج تدفع له أكثر مما نستطيع نحن أن ندفع له ·

وقال « مونر بنتوورث » : اننا بحاجة الى رجل يتولى قيادنا ، وقد تحدثنا بشأن ذلك الى المدرسين بمدارس المقاطعة ، والى مواطنين من مختلف أنحائها ، فكان كل واحد منهم يقول انك الرجل الذى تصلح لهذا المنصب ، ولم نجد أحدا يذمك أو يعترض على تعيينك ·

فقلت : يسرنى أن يشعر الناس نحوى بمثل هذا الشعور ، وان هذا لنبأ سار ، غير أنه ليس لدى ما يؤهلنى لمنصب مدير مدارس المقاطعة ·

فقال ويليام دوسن ، وهو يبصق مضغة من التبغ فوق الحشيش مرة أخرى : ان لديك شهادة جامعية يا مستر ستيوارت ، أليس كذلك ؟

فقلت أجل ، غير أن القوانين المدرسية الخاصة بولاية كنتكى تحتم قضاء أربع سنوات فى مهنة التدريس ، قبل أن يستطيع المرء الحصول على شهادة التأهيل لوظيفة مدير ، وأنا لم أقض فى التدريس سوى ثلاث سنوات، الا اذا احتسبت لى الفترة التى قضيتها فى الكلية ·

فقال توبياس كلاكستون : هل بلغت السن اللازمة ؟

فقلت : ان عمرى أربع وعشرون سنة ·

فقال : هذا هو الحد الأدنى للسن ، فلا يجوز أن يكون مدير المدارس أصغر من ذلك سنا ٠

وقال مونر بنتوورث : هل تستطيع أن تحصل على الشهادة التى تؤهلك لوظيفة مدير ، وتتسلم عملك فى الشهر القادم ؟

فقلت : لست أدرى ٠

وأخذت عبارة « مدير مدارس مقاطعة جرينوود » تدور فى رأسى ، فلم تكن الوظيفة وظيفة مدرس ، أو ناظر مدرسة ثانوية فحسب ، بل مدير مدارس مقاطعة جرينوود ٠ لقد كان هذا أمرا من العسير على تصديقه ، وخيل الى أننى أحلم بأننى مستلق تحت شجرة الحور ، وقد جاءنى ثلاثة من أعضاء مجلس تعليم مقاطعة جرينوود ، يعرضون على هذا المنصب ٠ وها هم أولاء يقفون أمامى ، وقد اتكأ اثنان منهم على سور الفناء ، وأمسك «مونر بنتوورث» البوابة بيده ، وهم ينتظرون جوابى على سؤالهم : هل أقبل الوظيفة اذا حصلت على ما يؤهلنى لها ؟

ولم أكن لأستطيع أن أرفض هذا العرض فقلت : أيها السادة ، هل تحتفظون لى بالوظيفة الى أن أرى هل أستطيع الحصول على الشهادة التى تؤهلنى لها ؟ اذا استطعت الحصول على هذه الشهادة ، فاننى أوافق على أن أكون مديرا لمدارس مقاطعة جرينوود ٠

فسألنى مونر بنتوورث قائلا : وكم من الزمن يستغرق ذلك ؟

فقلت : لن يستغرق أكثر من أسبوعين ، بل قد لا يستغرق كل هذا الوقت ٠

فالتفت مونر الى زميليه عضوى مجلس التعليم ، وسأل قائلا : هل نستطيع أن ننتظر كل هذه المدة ؟

فقال ويليام دوسن : أجل ، نستطيع الانتظار ٠ فهذا الرجل هو بغيتنا ٠

وقال توبياس كلاكستون محذرا : عليك أن تسرع فى الحصول على هذه الشهادة ، فلسنا نريد أن تظل المدارس بلا مدير ٠

فقلت : سأبدأ فى السعى هذا المساء ، وسأخبركم بما يتم فى أسرع وقت مستطاع ٠

فقال مونر بنتوورث : لا بأس ٠

فقلت وقد تبين لى فجأة أن ثلاثة أعضاء فقط من مجلس التعليم هم الذين جاءوا يعرضون على منصب مدير المدارس الريفية بمقاطعة جرينوود : خبرتى ، أين هما عضوا المجلس الآخران ؟

فسارع مونر بنتوورث يقول : لا عليك منهما ٠ انهما عضوان جديدان انتخبا ضد لارى أندرسن فى العام الماضى ، فانتخب بنتون دينجر فيلد من غرب المقاطعة ، وانتخب مانلى ووربيرتون من شرقها ٠ انهما يعارضان كل اجراء نقوم به ٠

وقال ويليام دوسن انننا لا نعول عليهما ٠

فقاطعه توبياس كلاكستون بقوله اننا نحن الذين نوجه المجلس ، فنحن الأغلبية ، ويشد بعضنا أزر بعض ٠ ونحن أصدقاؤك ، ونريدك ٠ انهما يعترضان على اختيارك لأننا نحن الذين اخترناك ٠

(٣)

وقال أبى وقد أشرق وجهه : انك لم تعد الآن يابنى فى أول الطريق ٠ انك فى القمة ، وقد أصبحت شيئا مذكورا ، وبلغت منتهى آمالك ، ولذلك جعلت اليوم يوم عطلة ٠

وقالت أمى تنصحنى : كن مخلصا أمينا فى كل شىء يا جيس ، فانك ستتولى أكبر منصب فى هذه المقاطعة ٠ ان مكتب مدير مدارس المقاطعة كان مقبرة لسمعة الكثيرين من الرجال ٠ لسوف أصلى من أجلك ٠

ثم سرت وأبى موليين وجهينا شطر لانزبيرج ، متخذين الممر القديم المألوف وسار أبى أمامى ، لكى يعلق الندى الذى فوق نبات الراجيد بملابسه، حتى اذا سرت خلفه لم تبتل ملابسى ، ثم قال : اذا كان فى استطاعتك يابنى أن تكون مديرا لمدارس هذه المقاطعة الكبيرة ، ففى استطاعتى أنا أن أمسح بملابسى الندى العالق بنبات الراجيد ، لكى أقى ملابسك منه ٠

وحين بلغنا لانزبيرج ، وبدأنا نسير فى الشارع الرئيسى ، أخذ أبى العجب من ذلك العدد الكبير من الناس ، الذين كانوا يستوقفوننا أثناء سيرنا ويهنئوننى ، كما كانوا يهنئون أبى أيضا لأن له ولدا سيكون مديرا لمدارس مقاطعة جرينوود · ذلك لأن هؤلاء الناس ـ وكان الكثيرون منهم تجارا ـ كانوا يعلمون أن أبى لا يعرف القراءة أو الكتابة ، وأن المامه بعلم الحساب يبلغ من الضآلة حدا يجعله يعتمد على التجار الذين يتعامل معهم ، فيقومون هم بالعمليات الحسابية ، وكان يأخذها قضية مسلما بها ، ما لم يكن معه واحد من أبنائه ، وكنت أنا وأختى صوفيا نكتب له خطاباته · ونجرى له حساباته ، منذ كنا فى الثامنة من عمرنا ·

واستوقفنا العم والت وتسن ، وقال وهو يصافحنى انى لفخور بك يا فتى · لقد أصبحت شيئا مذكورا ·

وقد ظل العم والت وتسن يدير محلا لبيع الملابس فى لانزبيرج مدى ستين عاما ، وكنت أشترى ملابسى من حانوته حين كنت طالبا بمدرسة لانزبيرج الثانوية · وكثيرا ما كنت أشتريها اقتراضا ، وكان يمهلنى حتى أحصل على نقود من بيع جلود الحيوانات ، بل انه كان دائما يعطينى ما أشاء « على الحساب » ، اذ ظل أبى يتعامل معه فى التجارة مدى أربعين عاما ·

وكان المفروض أن نصل الى مكتب مدير مدارس المقاطعة ، قبل انعقاد مجلس التعليم بساعة ، غير أن الكثيرين من أصدقائنا استوقفونا فى الطريق ، بحيث اننا وصلنا فى الوقت المحدد للاجتماع ·

وقال رجل ضخم أحمر الخدين : أنا أحد أعضاء المجلس ممن لا تعرفهم · أنا بنتون دينجر فيلد ·

غير أنى كنت أعرف دينجر فيلد ، فهو الرجل الذى قتل لصين من لصوص الدجاج ضبطهما فى « عشة » الدجاج عنده ، وكانت محاكمته من أكثر المحاكمات اثارة فى المقاطعة ، وخرج منها برىء الساحة · وكان يبلغ طوله نحو ست أقدام وخمس بوصات ، ويزن نحو ٢٦٠ رطلا ، وله عينان ضاحكتان زرقاوان زرقة زاهية ، وشعر كثيف أشقر ، ولم يكن ينم مظهره عن أنه قاتل ، وكان أجمل أعضاء المجلس صورة ، وأحسنهم هنداما ·

وقال وهو ينظر فى عينى : لقد سمعت عنك ، وكنت أتساءل أى نوع من الرجال أنت · انك حديث السن جدا · لقد كنت أنوى ألا أصوت فى

جانبك ، لأن بقية أعضاء المجلس الثلاثة يؤيدونك ، وهم لا يزالون يودون « لارى أندرسن » أكثر مما ينبغى ، وأنا ضد هذا الرجل • اسمع يا فتى ، انك مقبل على مأزق ، وأمامك مشاكل كثيرة •

فقلت : انى على استعداد للتغلب عليها •

وحينذاك دعا مونر بنتوورث مجلس تعليم مقاطعة جرينوود الى الانعقاد ، ودخلنا حجرة الاجتماع . وقدمنى بنتون دينجرفيلد الى « مانلى ووربيرتون » ، وهو رجل قميىء ، له عينان رماديتان ، وكان يرتدى بذلة رمادية اللون ، وقميصا أزرق اللون زرقة خفيفة ، ورباط عنق أحمر اللون • وحييت الأعضاء الثلاثة ، الذين يمثلون حزب الأغلبية فى المجلس ، وهم الذين جاءوا الى بيتى لكى يعرضوا على أن أقبل الوظيفة • وحييت « لارى أندرسن » وهو المدير الذى عملت تحت امرته مدى عامين،وكان ذلك اليوم هو آخر أيامه فى منصبه، وغدا سأحتل مكانه ، وسيذهب هو حيث كنت أنا فى يوم من الأيام •

وبدأ الاجتماع ، وعرض مونر بنتوورث على مجلس التعليم الطلب المقدم منى لتولى وظيفة مدير مدارس مقاطعة جرينوود ، فاقترح ويليام دوس تعيينى، وأيد توبياس كلاكستون الاقتراح ، وعند ذاك صوت أعضاء حزب الأغلبية فى جانبى • وحدثت المفاجأة حين صوت بنتون دينجر فيلد فى جانبى • وحين وجد مانلى ووروبيرتون أن بنتون دينجر فيلد أعطانى صوته صوت هو الآخرفى جانبى • وبذلك حصلت على الموافقة الاجماعية للمجلس • وأخذ أعضاء كل حزب ينظرون الى بعضهم وكـــأن هناك شيئا لا يفهمونه • وحلفت اليمين الخاصة بالوظيفة ، وخرجت من الحجرة ، فعقدت أول اجتماع للصحفيين • وكان موعد تسلمى العمل هو يوم الاثنين ، فطلبت عقد اجتماع اضافىلمجلس مدارس مقاطعة جرينوود فى اليوم الأول من تسلمى العمل ، اذ كان هناك شىء أريد أن أعرفه •

(٤)

وأول يوم تسلمت فيه الوظيفة كان يوما حافلا بالعمل ، ولابد أن عدد الزوار قد بلغ المائة ، وكل منهم يريد أمرا • وكان الكثيرون منهم من أمناء المدارس ، الذين كانت لهم مصالح خاصة مع غيرهم من الأمناء • وحينما كنت فى جامعة فاندربلت لم أكن أعلم أنه قد صدر قانون يحتم تعيين ثلاثة أمناء لكل اقليم ، بدلا من أمين واحد • وهكذا أصبح الآن لكل اقليم ريفى صغير ،

فى كل مقاطعة من مقاطعات ولاية كنتكى ، ثلاثة أمناء · ولم أستطع أن أتصور كيف سمح المدرسون والمربون والمفكرون من المواطنين لهذا القانون أن يصدر ، اذ بمقتضاه يصبح لكل مدرس فى المدرسة الريفية الصغيرة تسعة رؤساء هم الأمناء الثلاثة ، وأعضاء مجلس تعليم مدارس المقاطعة الخمسة ، ومدير مدارس المقاطعة · بيد أن الأمناء كانوا هم أصحاب السلطة · وجاء كثيرون من هؤلاء الأمناء لمقابلتى فى اليوم الأول من تسلمى العمل ، وقد بلغ عدد ما لدينا من أمناء المدارس فى مقاطعة جرينوود مائتين وستة وأربعين أمينــــا ·

وكنت أريد أن أعرف شيئا عن الحالة المالية فى مدارس مقاطعة جرينوود، وكان ما حدثنى به أعضاء مجلس التعليم فى الجلسة الختامية ، بشأن الحالة المالية فى مدارسنا حديثا مخيفا ، واذا كان لى أن أعول على ما قالوا ، فمعنى ذلك أننا نواجه خطر انهيار مالى ، فقد قالوا انهم لم يتسلموا مرتباتهم منذ شهور ، وانهم ينتظرون حتى يتم جمع ضرائب الدخل الجديدة ، فقلت لهم انه لا ينبغى أن نتقبل ما يقال بشأن الوضع المالى للمدارس ، وانما الواجب أن نأتى بمحاسب يراجع سجلاتنا ، وينبئنا بحقيقة الموقف ·

وحين قدمت هذا الاقتراح لم يوافق عليه سوى بنتون دينجرفيلد ومانلى ووربيرتون ، اذ أن كل اقتراح كانا يؤيدانه ، كانت ترفضه الأغلبية ، وكنت أنا مضطرا الى جعل أغلبية الأعضاء تقف الى جانبى · وبعد أن تحدثت مع أعضاء المجلس ، اتضح لى أنه ليس من بينهم واحد يفهم فى الشئون المالية ، فقد كانوا كلهم مزارعين ، ولم يكن فيهم واحد يملك ويدير مزرعة كبيرة ، ولم يسبق لواحد منهم التعامل بمبلغ كبير من المال ·

ثم قلت لهم فى النهاية ان المعتاد أنه حين يتسلم موظف جديد وظيفة عامة ، تراجع الحسابات ، بحيث يعرف الجمهور الحالة التى ترك عليها الموظف القديم وظيفته لمن جاء بعده ، وقلت ان حالة مدارس المقاطعة قد تكون خيرا مما يظنون ، ولمحت بالقول بأنه قد يكون لدينا من المال ما يكفى لدفع مستحقاتهم، وأن طلبى مراجعة السجلات على يد محاسب لا يقصد به الاساءة الى سلوك أى شخص كان يتولى هذه الوظيفة · كذلك قلت ان هذا هو الاجراء السليم ، حتى نستطيع أن نبنى عملنا على أساس من الحقائق · وقد وافقوا فى النهاية ، اذ تقدموا باقتراح يقضى باحضار محاسب ليراجع السجلات ، ويحسب مقدار ضريبة الدخل ، ووافقوا عليه بالاجماع ·

وبعد يومين كانت قد تمت مراجعة الحسابات ، ووجد أن مدارس مقاطعة جرينوود مدينة بمبلغ ١٤٤٠٠٠ دولار منها ٥٤٠٠٠ دولار اقترضتها من البنك الأهلى بلانزبيرج ٠

وسألتهم عما اتخذوه من ترتيبات بشأن التلاميذ الذين يقيمون فى الجزء الشرقى من مقاطعة جرينوود ، ما دامت مدرسة لانزبيرج الثانوية لم تعد مشتركه بين المقاطعة والمدينة فى الناحية الادارية . فقيل لى انه قد رسم خط مؤقت يمر بالمقاطعة عرضا ، فيذهب كل التلاميذ المقيمين غرب هذا الخط الى مدرسة ماكسويل الثانوية ، ويذهب أولئك الذين يقيمون شرق هذا الخط الى مدرسة لانزبيرج الثانوية ٠ وقد قيل لى انه سيكون علينا أن ندفع ثمانية دولارات فى الشهر عن كل تلميذ ، وهو مبلغ ضخم بالنسبة لمقدار الدخل الذى نصرف منه ٠ وقد عمل هذا الخط المؤقت بحيث ان « كليف كريك » ــ وهو جدول صغير ينساب من « النهر الكبير » نحو الجنوب ــ يقسم المقاطعة الى الثلث والثلثين على وجه التقريب ٠ وبمقتضى هذا التقسيم الذى قام به مجلس تعليم مقاطعة جرينوود قبل أن أتولى منصب المدير ، يتعين على معظم تلاميذ الثانوى المقيمين فى القطاع الذى يشمل ثلثى مساحة المقاطعة أن يذهبوا الى مدرسة لانزبيرج الثانوية ، وفى هذه الحالة ندفع لهم مصروفات المدرسة ، فى حين لا يذهب الى مدرسة ماكسويل الثانوية ، وهى المدرسة الوحيدة فى المقاطعة ، نصف عدد التلاميذ المقيمين فى القطاع الذى يشمل ثلث المقاطعة ، مما لا يتناسب مع عدد المدرسين الذين لدينا ، وعدد الأمكنة الخالية ٠

فقلت : انى أقترح تغيير هذا النظام ، فبدلا من دفع هذه المصروفات الى مدرسة لانزبيرج الثانوية أقترح نقل تلاميذنا بالسيارة من الطرف الشرقى للمقاطعة الى مدرسة ماكسويل الثانوية ، وبهذا نستطيع أن نوفر شيئا من المال ، ونهيىء لقمة عيش لسائق آخر نشغله ، ولا تزال لدينا سيارة مدرسية اضافية ٠ واذا اقتضى الأمر يمكننا أن نتعاقد مع مدرسين آخرين للتدريس لهؤلاء التلاميذ بمدرسة ماكسويل الثانوية ، ونستطيع مع هذا كله أن نوفر شيئا من المال ٠

فقال مونر بنتوورث وهو يقفز واقفا : ولكن هناك مدرسين لهؤلاء التلاميذ تعاقدت معهم مدرسة لانزبيرج الثانوية ٠

فقال بنتون دينجرفيلد ، وهو ينهض من مقعده : أحب أن أسأل مستر

بنتوورث شيئا • هل أنت تعمل بادارة مدارس مدينة لانزبيرج أم بادارة مدارس مقاطعة جرينوود ؟

وعندئذ أبرزت لأعضاء المجلس الحقائق والأرقام ، وأبنت لهم مقدار ما نتكبده من نفقات اذا نحن دفعنا المصروفات لمدرسة لانزبيرج الثانوية ، ومقدار ما نتكبده فى حالة ذهاب التلاميذ الى مدرسة ماكسويل الثانوية •

فقال مانلى ووربيرتون : انى أقدم اقتراحا بأن نرسل التلاميذ المقيمين فى الطرف الشرقى من مقاطعة جرينوود الى مدرسة ماكسويل الثانوية •

وقال بنتون دينجرفيلد : وأنا أؤيد هذا الاقتراح •

فقال مونر بنتوورث : هل تعلمون أيها السادة أن هناك قانونا لمدارس كنتكى يلزمكم بأن تبعثوا بالتلاميذ الى أكثر المدارس ملاءمة لهم ؟ هل تعلمون أنه لا يجوز لنا أن تجتاز سياراتنا المدرسية مدرسة لانزبيرج الثانوية ، وهى محملة بالتلاميذ ، فلا يذهبون اليها ، وانما يذهبون الى مدرسة ماكسويل الثانوية ؟ اننا لا نستطيع بحكم القانون أن ننقل تلاميذنا من ذلك الجزء من مقاطعة جرينوود مجتازين مدرسة لانزبيرج الثانوية •

فقال بنتون دينجرفيلد : انى أحب أن أضع هذا القانون موضع الاختبار. ان القوانين توضع من أجل الشعب ، ولا يخلق الشعب من أجل القوانين •

فقال مونر محذرا : أنا أعلم أن هذا سوف يثير المتاعب • اننا اذا فعلنا ذلك فسوف يقاضوننا • ان اقتراح جيس ستيوارت اقتراح خاطىء ، وأنا لا أوافق عليه •

وأشار الى باصبعه السبابة التى ترتعش وهو يقول : اننى أعتقد أنك رجل خطـر •

فقال بنتون دينجر فيلد : فلنصوت على هذا الاقتراح ، ولنر من هو الذى يدين بالولاء للمقاطعة • اننا نعلم أن هذا اقتراح صائب ، وأنه من أحسن المقترحات التى قدمت الى هذا المجلس •

وصوت فى جانب هذا الاقتراح ويليام دوسن ، وتوبياس كلاكستون ، وبنتون دينجر فيلد ، ومانلى ووربيرتون • ثم حدث شىء عجيب ، اذ قال

مونر بنتوورث : وأنا أصوت فى جانب الاقتراح أيضا ، فهو تشريع ينبغى ألا يسجل فى محضر الجلسة أننى صوت ضده ٠

(٥)

وكان لابد من عمل شىء لاصلاح مركزنا المالى ٠ وكانت الدراسة قد بدأت فى المدارس الريفية ، وبدأ العمل فيها ما يقرب من مائة مدرس ، وسوف يحتاج هؤلاء فى نهاية أول شهر من بدء العمل الى مرتباتهم التى وان كانت ضئيلة ، الا أنهم فى مسيس الحاجة اليها ٠ ولم يكن يقل مرتب المدرس فى المدارس الريفية عن ٤٨ر٧٠ دولارا فى الشهر ، ولم يكن يزيد عن ٧٩ر٨٠٠ والمدرسان اللذان كانا يتقاضيان مرتبا قدره ٧٩ر٨٠ دولارا فى الشهر كانا حاصلين على شهادة جامعية ، ومضى عليهما فى التدريس أربع سنوات أو أكثر٠ أما مرتبات سائر المدرسين فكانت تتراوح بين هذين الرقمين ، وكان معظمها يقرب من ٦٥ دولارا فى الشهر ، وكان المفروض أن ندفع هذه المرتبات فى نهاية الشهر الأول من العام الدراسى ٠

وأخذت أقرأ كل كتاب عن الشئون المالية تقع عليه يدى ، فلم أكن لأعرف كيف أتصرف فى مال الغير ، ولم يحدث أن تصرفت فى مبلغ كبير من المال ، وكنت واثقا من أن الحال كانت كذلك بالنسبة لأعضاء المجلس ، ولذلك رأيت أنه لابد لواحد منا أن يتعلم ، وأنه ينبغى أن يكون هذا الشخص هو أنا ٠ لقد كنت أريد أن ألم بالشئون المالية ، بأية طريقة من الطرق ، وكنت على استعداد لتعلم كل شىء يتصل بواجباتى ٠ بيد أن الكتب التى قرأتها لم تشف غليلى ، ولعلها لم تكن الكتب الصالحة فى هذا الباب ٠ وكان لابد لى من التفكير ،حتى أجد من هذا الضيق مخرجا ٠

ثم واتتنى الفكرة ، وهى أنه يوجد فى مقاطعة جرينوود كثيرون من رجال الأعمال الناجحين ، وان لم يكونوا من ذوى الشهرة ، وقلت لنفسى انه اذا استطاع رجال الأعمال هؤلاء أن يحققوا نجاحا لأنفسهم،فلماذا لا يستطيعون أن يبذلوا النصيحة لى ولأعضاء مجلس التعليم ، الذين كانوا فى ضيق وشدة؟ بيد أننا لم نكن لنستطيع الاستعانة بخدماتهم الا اذا كان ذلك بدون أجر ٠

وحين طلبت من جوتيريل ، وتشارلز آنجوس ، وجون روبرتس ، وجيمس ملفين أن يجتمعوا بنا فى جلسة مالية استشارية بدون أجر ، أحس كل منهم أن فى ذلك تقديرا له ، اذ كانت هذه أول مرة يدعى فيها رجال

الأعمال فى المقاطعة لكى يدلوا بمشورتهم الى المدارس · ولم أطلب منهم سوى شىء واحد ، هو نفس ما طلبته من أعضاء مجلس التعليم ، وذلك ألا يذيعوا على الجمهور نبأ الأزمة المالية التى نعانيها ، فقد كنت أرى أن انتشار هذا النبأ يسىء الى القليل من حسن السمعة الذى لدينا ·

وحين أطلعنا رجال الأعمال هؤلاء على تقرير المحاسب ، وأحطناهم علما بمقدار الدخل المنتظر الحصول عليه فى ذلك العام ، كان قرارهم قرارا واحدا ، هو ألا مناص لنا من أن نقترض مالا ، وهكذا كان لابد لنا أن نحصل على ديون جديدة ، لكى نسدد ديونا قديمة ، وكان لابد من البحث عن بند نقتصد فيه النفقات ، وكنت أعلم أن هذا البند لن يكون مرتبى ، اذ كان قد خفض قبل أن أتولى الوظيفة ، وكنت أتقاضى أدنى مرتب يمكن أن تمنحه الولاية لمدير مدارس المقاطعة ، وهو مائة دولار فى الشهر ، ولم يكن يسمح لى بمبلغ خاص بالنفقات ·

ووافق « جوتيريل » على أن يذهب معى للبحث عن جهة تعطينا قرضا لمدارس مقاطعة جرينوود ، فاتصلنا أولا بالبنك الأهلى فى لانزبيرج ، ولكن ، بدلا من أن يعطينا قرضا جديدا ، طلب منا أن ندفع ما علينا من ديون · ثم اتصلنا بثلاثة مصارف فى أوكلند ، فكان كل مصرف يسألنا عن الضمانات التى نستطيع أن نقدمها ، ولم نكن نستطيع أن نقدم مبنى مدرسة ماكسويل الثانوية ، لاننا لم ندفع ايجاره ، وعلى أية حال لم نكن لنجد مصرفا واحدا يرضى بمبنى مدرسة ضمانا ، اذ ماذا يصنع المصرف به اذا لم نستطع أن نرد المبلغ الذى نستدينه ؟ ولم نكن لنستطيع أن نقدم السيارات المدرسية ضمانا، اذ لم يكن لدينا سوى أربع ، وهى سيارات قديمة ، ولم يكن لدينا ما نقدمه سوى الوعد بالدفع من الدخل المنتظر · واتصلنا بثلاثة مصارف فى فرجينيا الغربية فسألتنا عما اذا كنا قد حاولنا الاقتراض من مصارف كنتكى · واتصلنا بالبنك الأهلى فى دارتماوث بولاية أوهايو ، وفى كل مكان كانت تتكرر القصة نفسها ، فمجرد الوعد بالدفع ، كان فى نظر المصارف كأنه قبض الريح · وأصبح حل المشكلة أمرا بعيد المنال ·

ولما لم نجد من يقرضنا مالا ، وكنا مدينين للبنك الأهلى بلانزبيرج بمبلغ ٢٦٠٠٠ دولار سوف تجبى من الضرائب المحلية التى تدفع لنا ، لجأنا الى طريقة تنقذنا بصفة مؤقتة · ففى ولاية كنتكى ، يضاف نصف الضريبة المحلية الى مخصصات الولاية (نصيب المقاطعة من الأموال المخصصة لكل

فرد) ، لكى يصرف مرتبات للمدرسين • وكان استخدام هذه الأموال فى أى باب ، عدا مرتبات المدرسين ، أمرا مخالفا لقوانين الولاية • أما النصف الآخر من هذا الدخل فكان يصرف مرتبات لمدير مدارس المقاطعة ، وللخدم ، ولأعضاء مجلس التعليم بالمقاطعة ، ولسائقى السيارات المدرسية ، كما يصرف على صيانة هذه السيارات ، وصيانة مبانى ثنتين وثمانين مدرسة ريفية ، ومدرسة ماكسويل الثانوية ، وحين ندفع الى البنك الأهلى بلانزبيرج مبلغ ٢٦٠٠٠ دولار ، وهو التزام كان لابد علينا من دفعه ، فلن يتبقى الا القليل ـ اذا تبقى شىء ـ من الضريبة المحلية ، فيما عدا نصفها المخصص لمرتبات المدرسين •

واقترحت على مجلس التعليم أن نعير السيارات المدرسية للسائقين ، فيتكفلوا هم بثمن البنزين ، وما تحتاج اليه من اصلاحات ، ونجعل تلاميذ المدرسة الثانوية يدفعون مبلغا متوسطا كل شهر ، أجر نقلهم • وفى هذه الحالة لن يحصل السائقون على أجر كبير كذلك الذى كانوا يتقاضونه ، ولن يكون نقل التلاميذ مجانا كما كان من قبل • ولما كنا فى مركز لا يسمح لنا بتسيير السيارات على الاطلاق ، كان من الخير اتباع هذه الطريقة ، حتى يظل فى استطاعة تلاميذ المقاطعة الذين يسكنون فى أماكن بعيدة ، أن يذهبوا الى المدرسة الثانوية •

ولم يستجب لهذه الفكرة من أعضاء المجلس سوى اثنين هما بنتون دينجرفيلد ومانلى ووربيرتون ، وعارض مونر بنتوورث الفكرة ، ولم يبد ويليام دوسن رأيه • وظننت أنه سوف يصوت مع توبياس كلاكستون ومونر بنتوورث ، ولكنه انضم لرأيى على الفور ، وبذلك وافق المجلس على اقتراحى بأغلبية ثلاثة أصوات الى صوتين ، فاستطعنا بهذا أن نتخلص من نظام النقل الذى كان يكبدنا نفقات باهظة • وهذا الحل لمشكلة السيارات المدرسية ، اتبعه اثنان ممن خلفونى فى منصبى •

ثم تقدمت باقتراح يقضى بأن نقتطع شهرا من العام الدراسى فى جميع مدارس مقاطعة جرينوود ، ومعنى ذلك أن يصبح العام الدراسى فى جميع المدارس الريفية ستة أشهر بدلا من سبعة ، وفى مدرسة ماكسويل الثانوية ثمانية أشهر بدلا من تسعة ، اذ لم أكن أرى مبررا لجعل تلاميذ المدارس الثانوية يدرسون تسعة أشهر فى العام ، فى حين لا يدرس تلاميذ المدارس الريفية سوى ستة أو سبعة أشهر ، اذ أنه ، وفقا للاحصائيات ، لا يذهب الى المدرسة الثانوية من تلاميذ المدارس الريفية سوى نسبة مئوية بسيطة ،

ولا يكمل الدراسة الثانوية من هؤلاء التلاميذ سوى نسبة ضئيلة ، وبدا لى أن المدارس الريفية ومدارس المرحلة الأولى هى دعامة النظام المدرسى العـــام بأسره ، فلماذا لا تستخدم أموال الضرائب التى تحصلها المدارس العامة من الشعب ، فى تحقيق أكبر فائدة لأكبر عدد من أبناء الشعب ؟ وأذهلنى أن يوافق أعضاء المجلس ، دون أن ينشق عنهم صوت ، على انقاص شهر من العام الدراسى فى كل مدرسة من مدارس المقاطعة • وتساءلت عما اذا كان المسئولون فى الادارة التعليمية لولاية كنتكى يسمحون لنا باتخاذ هذا الاجراء، واعتزمت ، اذا لم يوافقوا ، على أن أطلب منهم أن يرشدونا الى الطريقة التى نحل بها الأزمة المالية التى نعانيها •

وبعد أن حصلت على موافقة المجلس ، شرعت فى اعداد ميزانيتنا من جديد ، اذ كانت الميزانية التى خلفها لى المدير السابق مبنية على دخل لن نستطيع الحصول عليه • ولم يكن فى استطاعتنا أن نرفع الضرائب ، اذ لم يكن قانون الولاية يخول لنا ذلك • وفى ولاية كنتكى ، كانت المدن والمقاطعات تحكم بقوانين ضريبة ثنائية • وكان أقصى حد للضريبة المدرسية على قيمة الممتلكات فى الأقاليم الريفية بالمقاطعة هو سبعة وسبعون سنتا عن كـــل ما قيمته مائة دولار • أما أقصى حد للضريبة المدرسية فى أقاليم المدينة المستقلة، حيث كان تركيز الثروة أكبر ، فكان دولارا ونصف دولار عن كل ماقيمته مائة دولار • وبذلك كان لدينا نوعان من النظم المدرسية ، نظام فقير ، ونظام أشد فقرا • وكانت هذه التفرقة العظيمة ، بين تلاميذ المدارس الريفية وتلاميذ مدارس المدينة بولاية كنتكى ، أمرا يجن له جنونى ، وعقدت العزم على وضع حد لها بمجرد أن أفرغ من العمل العاجل الذى أمامى ، وذلك هو وضع ميزانية جديدة للمدارس •

وساعدنى على اعداد الميزانية جوزيف تيريل ، ومارجريت ريريدان سكرتيرتى ، وتشاد هوسكنز المحاسب الذى يراجع حساباتنا • وقد اتفقنا فى النهاية على أن نبنى ميزانيتنا على أساس المبلغ المتبقى لدينا ، وأن نصرف فى حدود هذه الميزانية ، ما دمنا لا نستطيع أن نقترض مالا ، أو نرفع مقدار الضرائب • ووافق أعضاء مجلس التعليم على هذا الاقتراح ، ولم تمض سوى بضعة أيام حتى كنا قد فرغنا من اعداد الميزانية الجديدة لعام دراسى يستغرق ستة أشهر بدلا من سبعة • ولما كان هذا مخالفا للقوانين المدرسية للولاية ، فقد وافق أعضاء المجلس عليه كارهين ، وكان فى ظنهم أن الادارة التعليمية للولاية لن توافق عليه •

وبدلا من أن أرسل الميزانية الى فرانكفورت بالبريد ، طلبت من المجلس أن يوافق على منحى مصروفات انتقال أسافر بها أنا والمحاسب الى فرانكفورت، فوافقوا على منحى خمسة وعشرين دولارا ، ثم أعارنا سيارة من عنده صاحب جراج كنا ندين له بمبلغ كبير نظير اصلاح السيارات المدرسية فى العام الذى خلا ٠ وقاد المحاسب السيارة حتى وصلنا الى فرانكفورت ، حيث نزلنا فى فندق جمعية الشبان المسيحيين ، لأن أجرة الحجرة أرخص من سائر الفنادق ، وكنا نتناول وجباتنا فى المطاعم حيث الطعام كثير الكمية ردىء النوع ٠ وقدمت الميزانية الجديدة للادارة التعليمية للولاية ، وكان أعضاء هذه الادارة كرماء معنا ، فجادوا بوقتهم لمساعدتنا فى اجراء تغييرات فى بعض البنود التى ليست على جانب كبير من الأهمية ٠ ولبثنا يومين فى فرانكفورت ، وتمت مقابلة شخصية بينى وبين جيمس رتشموند مدير مدارس الولاية ، وشرحت له ما نحن مقدمون عليه ، وأطلعه المحاسب على الحقائق والأرقام ، فوافق على الميزانية التى وضعناها ٠ وعرفنا حينذاك أن المال المخصص لكل فرد ، وهو المال الذى سينفق فى كل باب ، عدا مرتبات المدرسين ، سيكون فى طريقه الينا ، وهكذا ارتفع عن كاهلنا عبء ثقيل ، واجتزنا العاصفة الأولى بسلام ٠ وعدت الى لانزبيرج وقـد استخفنى الفرح ، وصرفت مارجريت ريريدان سكرتيرتى شيكات لمائة مدرس بالمدارس الريفية ، طال عليها الأمد ، اذ كانت تستحق الدفع منذ بدأ هؤلاء المدرسون العمل فى شهر يولية ٠

(٦)

وحين أنبأت أعضاء مجلس تعليم مقاطعة جرينوود بخبر الموافقة على ميزانيتنا صفق أربعة منهم ٠ بيد أن مونر بنتوورث لم يصفق ، بل جلس لا يبدى حراكا ، يحدق فى النظر ، والشرر يتطاير من عينيه ٠ ثم نهض واقفا وصاح يقول : اننى أقدم اقتراحا الى أعضاء هذا المجلس باتهام جيس ستيوارت بالاختلاس ٠

ثم أشار نحوى وهو يقول : انك تسير بنا رأسا الى الجحيم ٠

فصاح مانلى ووربيرتون قائلا وهو يثب واقفا : بل انه يخرجنا من ورطة ، وأنت يامونر بنتوورث ساهمت فى ايقاعنا فى هذه الورطة ٠

وقلت أسأله ، وقد صعقت فلا أكاد أقوى على الكلام : متى اختلست أموال المقاطعة ؟

فصاح قائلا : هذه الدولارات الخمسة والعشرون ، التى صرفت نفقات لرحلتك الى فرانكفورت ٠

فقلت : انها نفقات رجلين تشمل ثمن وجبات الطعام وأجر المبيت مدة يومين وليلتين ، ومصروفات سيارة قطعت مسافة طولها ثلثمائة وستون ميلا ، وصرفنا آخر قطعة نقود تبقت معنا على تنظيف جهاز توزيع البنزين فى السيارة ٠

وعندئذ نهض بنتون دينجر فيلد ، وتكلم لأول مرة منذ بدأ الاجتماع فقال : أيها السادة ، اننى أتقدم باقتراح بعزل مونر بنتوورث من رئاسة مجلس تعليم مقاطعة جرينوود ، ومعى فى جيبى هنا الدليل الكافى على وجوب عزله من المجلس ، اذا أردنا أن نلجأ الى القانون لتحقيق ذلك ٠

ثم قال ، وقد ران على الجميع سكون فلا يكادون يتنفسون : انه استخدم السيارة المدرسية للمقاطعة بمثابة سيارة للرحلات ، فقادها حتى منبع نهر ساندى الكبير ، لكى يشهد مباراة فى البيسبول ، وحصـــل ثمن البنزين واصلاح السيارة من مجلس تعليم مقاطعة جرينوود ٠ ان الدليل معى هنا فى جيبى ، وقد حصلت عليه هذا الصباح ٠

وأخرج راحته الكبيرة من جيب معطفة ، وقد امتلأت بصور من فواتير لم تدفع ، ثم قال : انى أريد منكم أن تلقوا نظرة على هذه ٠

وواصل حديثه قائلا ، وقد أخذ أعضاء المجلس ينظرون فى دهشة الى تلك الفواتير : ان مونر بنتوورث لا يصلح لأن يكون رئيسا لمجلس تعليم مقاطعة جرينوود ٠ انه يتلقى تعليماته قبل أن يحضر كل اجتماع ٠ أهذا صحيح يامونر بنتوورث ؟

وحين ألقى بنتون دينجرفيلد بهذا الاتهام ، توقف دوسن ، وكلاكستون، ووربيرتون عن قراءة الفواتير ٠ وجلس مونربنتوورث بلا حراك ، وهو يحدق فى الحائط ٠ ولم يرد على اتهامات بنتون دينجرفيلد ٠

وقال بنتون يتهمه لقد رأيتك بعينى هذا الصباح ٠ لقد خامرتنى الظنون بشأن ما تفعله ، فأردت أن أتأكد ٠ هل تريد أن تخبر مديرك وأعضاء المجلس أين ذهبت فى وقت مبكر هذا الصباح ؟ هل تريد أن تقول لهم أين تذهب لتتلقى تعليماتك قبل كل اجتماع ؟

وانتظر بنتون حتى يرد مونر على اتهامه · ثم قال : أيها السادة ، انى أعتقد أن مجلس تعليم مقاطعة جرينوود ومدير مدارسها جد قادرين على ادارة هذه الأعمال الخاصة بمدارس المقاطعة · وانى أتقدم باقتراح يقضى بعزل مونر بنتوورث من رياسة مجلس تعليم مقاطعة جرينوود ·

فقال مانلى ووربيرتون : وأنا أؤيد هذا الاقتراح ·

وصوت أربعة من الأعضاء ضد مونر ، واختير توبياس كلاكستون ليكون الرئيس الجديد لمجلس تعليم مقاطعة جرينوود · ولم نرفع أمر مونربنتوورث الى القضاء ، ولكننا سمحنا له بالبقاء كعضو بمجلس تعليم مقاطعة جرينوود ، اذ لم يكن باقيا على انتهاء مدة خدمته سوى عام واحد ، ولو كنا قد رفعنا أمره الى القضاء ، لكان من المحتمل أن يستغرق عزله من منصبه وقتا طويلا · ولعله كان من الخير أن نرفع أمره الى القضاء ، اذ منذ ذلك الوقت لم يتبادل مونر بنتوورث وبنتون دينجر فيلد كلمة واحدة ، طوال الفترة التى قضيتها مديرا لمدارس مقاطعة جرينوود ، ولم يكونا بغير سلاح ، فكثيرا ما كان المرء يرى مقبض مسدس يطل من جيب كل منهما · ولم نكن لنعرف ، حين نحضر اجتماع المجلس ، من منهما سوف يخرج حيـــا ، ومن منهما سوف يسقط صريعا ·

(٧)

وذات صباح ، وجدت فى انتظارى حين وصلت الى مكتبى بمبنى المقاطعة ، جماعتين من أناس حسنى الهندام ، وقد وقفتا عند طرفى الممشى المتقابلين · وقبل أن أبلغ باب مكتبى ، هرع نحوى رجل من كل جماعة ، وعرفنى كل منهما بنفسه · كان أحدهما يدعى فريد هاريسون ، وهو أحد الأمناء من اقليم مدارس سماريا الريفية ، وكان الآخر يدعى رودنى نورتون ويمثل الجماعة الثانية ، وقد ساءه قليلا أن أوافق على أن أقابل فريد هاريسون وجماعته أولا · ودعوت الجماعتين الى الدخول الى مكتبى ، ولم أقصر مقابلتى على زعيمى هذه الجماعة ، وانما قابلت أيضا كل شخص جاء يمثـــل هاتين العشيرتين المتناحرتين · وكان جون هاريسون ، وهو أخ لفريد هاريسون ، من حزب عشيرة رودنى نورتون ، وهو الآن يحارب أخاه فريد ، كما حاربه فى انتخابات أمناء الاقليم ·

وبدأ فريد هاريسون حديثه قائلا أريد أن أشرح لك الموقف كلـــه

يا مستر ستيوارت • لقد خضنا معركة انتخابات حامية الوطيس فى سماريا ، وانتصرت على رودنى نورتون بأغلبية ثلاثة أصوات •

فصاح رودنى يقول ، وقد ثارت ثائرته تعنى أنك سرقت هـــذه الأصوات •• فقلت : صبرا يا مستر نورتون • دع فريد هاريسون يقص قصته ، ثم أستمع بعده اليك • ابدأ قصتك يا مستر هاريسون •

فقال فريد هاريسون يواصل حديثه ان مستر نورتون وأنا نتبع كنيستين مختلفتين ، فهو يتبع كنيسة القداسة ، وأنا أتبع الكنيسة المسيحية، وتقع كنيسته فى ملاصقة مدرسة سماريا • وفى أثناء الليل أحدثوا ضوضاء شديدة ، وكان يتعالى صياحهم • وأنا لا أقول ان الذين فعلوا ذلك هم أعضاء كنيستهم ، غير أننى رأيت سيارات تقف حول مبنى المدرسة ، وفى صباح اليوم التالى ، وجدت زجاجات ويسكى فارغة ، وملقاة على الأرض ، فأخذت ألتقطها ، وكان الكثير منها مكسورا • وفى العام الماضى فقد ابن سيف بنتون احدى عينيه حين سقط فوق قطعة مكسورة من الزجاج • ولذلك نصبت صفا من الأعمدة لكى يحول بين السيارات وبين فناء المدرسة ، وعندئذ جاءنى مستر نورتون يقول اننى معارض لكنيسته ، وطلب منى أن أزيل هذه الأعمدة، فلم أزلها • بيد أن أحدا سواى أزالها من مكانها فى احدى الليالى المظلمة •

ثم صاح فريد هاريسون يواصل حديثه قائلا فوضعت أعمدة على عمق بعيد بحيث لا يستطيعون رفعها ، ووضعت قضبانا من الصلب بحيث تخترق أطراف الأعمدة التى حفرتها فى الأرض ، وهم الآن لا يستطيعون ازالتها • ولكن ، هاك ما فعله رودنى نورتون وأخى جون • لقد أعدا عريضة ضد المدرسة التى تعاقدت معها ، وكانا قبل ذلك قد اتهمانى بأننى ذهبت الى المدرسة ، وقبلت المدرسة على مرأى من التلاميذ •

فصاح رودنى نورتون ممثل الطرف الآخر يقول : انظر الى أسماء الذين وقعوا على هذه العريضة لفصل « أوللى ناكلز » من المدرسة • أنظر الى أسماء الشهود الذين رأوا فريد هاريسون ، الذى سرق منى الأصوات فى انتخابات الأمناء ، وهو يقبل المدرسة التى لم يكن له حق اختيارها ، لأنه زور هذه الانتخابات •

فقال جون هاريسون يردد كلامه : هذا هو الصدق •

فقلت متوسلا ، اذ كنت أخشى أن يشتبك الطرفان فى مكتبى : اسمع

يا مستر نورتون · دعنى أفرغ من مستر هاريسون ، واذا لم توافق على ذلك فسأضطر أن أطلب منك أن تبرح المكتب أنت وجماعتك ، حتى أنتهى من سماع قصته ·

ولم يكن يوجد فى المكتب عداى ، وعدا هاتين الجماعتين ، سوى سكرتيرتى مارجريت ريريدان · ولو أن عراكا نشب بين الطرفين لما استطعنا نحن الاثنان أن نفعل شيئا · وجلست السكرتيرة الى جوار التليفون ، حتى تكون على استعداد لاستدعاء الحاكم اذا اشتبك الفريقان ، فهى قد شهدت قبل ذلك وقوع مثل هذه الحوادث ، مرات عديدة ·

وقال فريد هاريسون مزهوا : ان مس أوللى ناكلز مدرسة ممتازة يامستر ستيوارت ، وهى من خيرة مدرسينا ·

وأشار نحو جماعة رودنى نورتون ، الذين احمرت منهم الوجوه ، وأخذ غضبهم يزداد حدة وهم ينتظرون ويسمعون ، ثم قال : غير أن هؤلاء حاولوا اثارة فضيحة · وقد جئت اليك لأبحث معك ما يمكن عمله بشأن هذه المشكلة · هذه هى قصتى ·

فقلت : حسنا يا مستر نورتون ، هلا جئت الى هنا ؟

فاتجه مستر نورتون نحو مكتبى ، وهو يسير بخطى واسعة ، وقد أمسك باحدى يديه العريضة ، وبالأخرى قائمة طويلة بتوقيعات الشهود ، وهو يقول : أجل يا سيدى ، سأجىء بكل سرور ·

ثم قال وهو يعطينى العريضة وقائمة التوقيعات : لقد أحضرت لك هذه يا مستر ستيوارت ، وأريد منك أن تطلع عليها · اننا نريد أن تتخذ بشأنها اجراء على الفور · اننا نريد أن تفصل هذه التى تدعى أوللى ناكلز من مدرسة سماريا ، فلسنا نستطيع أن نصبر على ما يدور بينها وبين ذلك الذى يدعى « الأمين » ، وعلى مرأى من الأطفال الأبرياء ، من بنين وبنات ·

فقلت وأنا أقلب الصفحات ان قراءة هذه العريضة مشوقة كل التشويق · فقال رودنى نورتون ولكنى أريد اعادة الانتخاب يا مستر ستيوارت ، فقد أتى فريد هاريسون برجال ونساء ليس لهم حق التصويت ، وعندى الأدلة التى تثبت ذلك ·

فسألته قائلا : ألم يثبت عليهم ذلك المشرفون على الانتخاب ؟

فقال رودنى موضحا لقد كان المشرفون على الانتخاب هم أصدقاء فريد هاريسون ، اذ أنهم يتبعون كنيسته ٠

فقلت : اننى لا أستطيع أن أفعل شيئا بشأن انتخاباتكم ، فليس من اختصاصى البت فيها ، وعليكم أن تستشيروا محاميكم فى هذا ٠

وفى كل يوم ، منذ توليت منصبى ، كان يأتينى أمناء مدارس الأقاليم ، يستفتوننى فيما يواجههم من مشكلات ، وكانوا يأخذون جل وقتى ، كما أنهم كانوا يشغلون محاميى لانزبيرج الذين تزداد ثروتهم نماء ٠ وقد قضى أحد الأمناء نصف النهار يصف لى كيف سقطت دورة المياه التى توجد خارج المبنى على المدرسة التى تقوم بالتدريس فى المدرسة ٠ واليوم يحدث هذا الشغب نفسه ٠ لا ٠ اننى لن أقضى نهارى كله أقوم بدور رسول السلام بين هاتين العشيرتين المتناحرتين ٠

وصاح رودنى قائلا ، وهو يهز قبضته لفريد : اذا كان فريد هاريسون يستطيع أن يقسم أننى أنا الذى نزعت الأعمدة من حـــول مبنى المدرسة ، فسأجعله يفعل ذلك فى ساحة القضاء ٠ انه وضع هذه الأعمدة بدافع الضغينة والحقد ، فأنا أعلم أن رعايا كنيسة القداسة فى سماريا لم يوقفوا سياراتهم حول مبنى المدرسة ، ولم يشربوا الويسكى ويخلفوا وراءهم زجاجات فارغة وأخرى مكسورة ٠

ثم صاح رودنى قائلا ، واللعاب الجاف كأنه القطن يتطاير من فمه : ان رعايا كنيستنا لا يديرون شئونهم على هـــذا النحو ٠ اننا لم نأت أمرا مثل هـــذا بعـــد ٠

وواصل حديثه وقد خفت حدة صوته : ولكن دعنى أسألك يا مستر ستيوارت:اذا كان لفريد الحق فى أن يضع أعمدة فى أرض هى ملك للمدرسة ٠ أليس من الضرورى أن يعطيه أعضاء المجلس تصريحا بذلك ؟ هل لدى أمناء مدارس الأقاليم من السلطة ما يفوق سلطة مجلس تعليم مقاطعة جرينوود ؟

فقلت : أخشى أن يكون الأمر كذلك يا مستر نورتون ، فسلطتهم أقوى من سلطة المجلس من حيث اختيار المدرسين ، أما من حيث وضـــع أعمدة فى أرض تملكها المدرسة ، فهذا مالا أعرفه ٠

فصاح يقول سأرفع الأمر الى القضاء ، وسنرى هل كان لفريد هذا الحق ؟

فقال فريد هاريسون اننى على استعداد لرفع الأمر الى القضاء ، وعندى المحامون ٠

فقلت : هذا أمر لا يستطيع مدير المدارس أن يبت فيه ، فهو ليس من سلطتى ٠

فقال رجل من حزب رودنى مورتون يلبس قبعة سوداء كبيرة تشبه الشمسية فى شكلها ، ولم يخلعها قط وهو فى المكتب : ان اجراءات المحاكم بطيئة ٠

ثم قال فى لهجة بطيئة رقيقة ممطوطة ، وهو ينظر الى بعينيه المنحرفتين السوداوين كأنهما حبات الخرز ، ويبرم طرف شاربه الأسود الطويل ، الذى يشبه فى شكله النفير : اننا نطالب باقامة دعوى ٠

فقلت : لقد فعلت كل ما فى وسعى بشأن هذا الموقف ٠ ان عليكم أن تطلبوا اقامة الدعوى من محاميكم ٠

فقال رودنى نورتون ، القائد الحربى لعشيرته ، والذى يشبه العصفور فى شكله : هذا ما سنفعله ٠

فسألته قائلا هل لديك يا مستر نورتون نسخة أخرى من هذه العريضة ؟

فقال : كلا ٠ ان النسخة التى معك هى الوحيدة التى لدينا ٠

فقلت : هل لى أن أحتفظ بها ؟

فقال : اننى ما جئت بها الا لهذا الغرض ٠ اننى أريد منك أن تقرأها ٠

وصحبت سكرتيرتى فريد هاريسون وجماعته أولا ، حتى خرجوا من باب المكتب ، ثم عادت فصحبت ــ فى أدب جم ــ رودنى مورتون ، الذى كان يريد أن يواصل الكلام ، ويحدثنا ، بعد أن خرج من الباب ، عن مدى بشاعة فريد هاريسون وفظاعته ، وكان آخر من غادر المكتب ، هو ذلك الرجل ذو

الشارب الأسود الكبير ، والعينين المنحرفتين السوداوين ، اللتين كأنهما حبات الخرز ، والقبعة السوداء الكبيرة ، التى تشبه الشمسية فى شكلها ٠

وانتهى أمر هذه المسألة فى ساحة القضاء ، ولا أعلم كم من القضايا رفعت ، وكم من المحامين أقيموا من أجل هذا الغرض ، بيد أنى أعلم أن رودنى نورتون وبطانته لم يستطيعوا فصل « أوللى ناكلز » من مدرسة سماريا ٠

أما فيما يتعلق بوضع أعمدة حول فناء المدرسة ، فلم تفصل فيه المحاكم بالسرعة المطلوبة ، ولم يمر أقل من شهر حتى عثر فريد هاريسون على « آلفين باركر » ، ذلك الرجل ذى العينين السوداوين اللتين كأنهما حبات الخرز ، والشارب الأسود الطويل ، والقبعة الكبيرة التى تشبه الشمسية فى شكلها ، ملقى الى جوار هذه الأعمدة عند الفجر ، تحت وابل أمطار الخريف ٠ لقد كان يصيد الحيوان المعروف بالأبسوم ، وكان معه كيس من تلك التى يوضع فيها البن ، وبداخله أبسوم صغير ٠ وكانت زجاجة الويسكى الذى يباع بدون ترخيص نصف فارغة ٠ كان الرجل قد نسف اثنين من الأعمدة بالديناميت ، وعندما شرع ينسف العمود الثالث حدث شىء ما ٠ لقد نسف جزء من هذا العمود ، والى جانبه كان يرقد آلفن باركر ، وقد طارت يده اليمنى أو كادت ، وقطعت ذراعه اليمنى اربا ، وانفصل الجناح الأيمن من شاربه الطويل ، وكأنما قصه أحد بالمقص ، وانفقأت عينه اليمنى ٠ وقد نزفت دماؤه حتى كاد يموت ٠ وهرع به الى أحد المستشفيات ، حيث لا تتوافر له فرصة النجاة بحياته ٠ وحين آثرت عدم تجديد عقدى فى وظيفة مدير مدارس مقاطعة جرينوود بعد ذلك الحادث بعدة أشهر ،كان فريد هاريسون وعشيرته ينتظرون خروج آلفين باركر من المستشفى ، حتى يمكن استدعاؤه أمام المحلفين بمقاطعة جرينوود ، لكى يدلى بأقواله عمن أمده بالويسكى فى الليلة التى خرج فيها لصيد الأبسوم ، وبالديناميت ينسف به الأعمدة ، وعمن يكون وراء هذا الأمر كله ٠ لقد كانت الحرب بين الفريقين لا تزال مستعرة ، ولم تضع أوزارها ولن تضع أوزارها مدى سنوات طويلة ٠

(٨)

كانت الأنباء التى يتناقلها الناس خارج هذه الولاية من أننا لا نحصى عدد الأصوات فى الانتخابات الا بعد أن نكون قد أحصينا عدد من لاقوا حتفهم فيها ، هى أنباء صحيحة ٠ غير أن الكثيرين من الناس كانوا يعتقدون أن هذا القول يقصد به الانتخابات العامة التى تجرى بين الحزبين السياسيين

الكبيرين ، فى المقاطعات والولايات · وهو قول ينطبق على هذه الانتخابات فعلا ، بيد أنه ينطبق عليها بدرجة بسيطة ، اذا هى قورنت بانتخابات هؤلاء الأمناء ، وهى انتخابات المفروض أنه لا علاقة لها بالسياسة · ولقد كانت كذلك ، الى حد معين · وياليت انتخابات الأمناء المحلية هذه كانت قائمة على الأحزاب السياسية ، وانما كانت قائمة على حرب يشنها رعايا كنيسة على رعايا كنيسة أخرى ، حرب عداوة بين العشيرة والعشيرة ، حرب بين فئة تريد تعيين مدرس بعينه ، وفئة تريد تعيين مدرس آخر · ولم يكن يعنى أيا من الفئتين من الأمناء هو الذى ينجح فى الانتخابات ، ومن من المدرسين يعهد اليه بالمدرسة ، فقد كان المرشح الذى يسقط فى الانتخابات ، ومؤيدوه الذين فقدوا أصواتهم ، يجعلون مهمة المدرس الذى يختاره الأمين الفائز فى الانتخابات ، والذى يعينه مجلس تعليم المقاطعة ، مهمة يستحيل عليه أداؤها ، فيتلمسون للمدرس الأخطاء ، ويجمعون التوقيعات على عريضة ، ثم يعملون على فصله من المدرسة ·

وكثيرا ما كان يستخدم السلاح فى هذه الانتخابات ، ومن الرجال من كان يسقط صريعا ، ومنهم من كان يصاب بجروح خطيرة ، ومنهم من كان يطعن بالسكاكين · وكان الناس يقاتلون بالعصى والحجارة · وكثيرا ما كان يتحول فناء المدرسة الذى يجرى فيه أحد هذه الانتخابات الى ساحة حرب أو قتال ، وكان عدد من يسقطون فوق الحشيش فاقدى الوعى يبلغ العشرين رجلا ، فى حين يظل نحو أربعين أو خمسين رجلا يقاتلون فوق أجسادهم المنبطحة ، يطأونها بأقدامهم ، الى أن يصبح من الضرورى استدعاء الحاكم وقوة مسلحة من نوابه · فاذا أسعد الحظ الحاكم ونوابه ، تمكنوا من وقف القتال · وفى بعض الحالات كان الحاكم ونوابه يعرفون أى نوع من الرجال يقاتل فى هذه المعارك ، فيظلون بمنأى عن المكان الذى تجرى فيه الانتخابات، الى أن تنتهى المعركة · لقد كان انتخاب أمناء المدارس المحليين فى كل اقليم من هذه الأقاليم حدثا ضخما فى المجتمع المحلى ، وقلما كان يجرى انتخاب من هذه الانتخابات ، دون أن تراق الدماء ·

ودفعتنى ذكريات هذه التجارب التى مرت بى ، وذكريات أول عهدى بالتدريس فى لونسم فالى ، وخبرتى بهذا العدد الكبير من أمناء المدارس الذين كنت ألتقى بهم كل يوم ، منذ توليت منصب مدير مدارس مقاطعة جرينوود ، دفعنى كل هذا الى أن أفعل شيئا بشأنهم ، ولست أدرى ، فلعلى كنت أول مدير من بين مديرى ولاية كنتكى المائة والعشرين ، الذى حاول القضاء على

نظام أمناء المدارس ، فقد كانت نفسى تثور غضبا حين أفكر فى السلطة التى يملكها أمين مدارس الاقليم على مدير مدارس المقاطعة ، وعلى أعضاء مجلس التعليم الخمسة ، ويقينا على المدرس أيضا ، فكان أمناء مدارس الاقليم المحليون يوجهوننى ويوجهون أعضاء مجلس التعليم الى ما يجب علينا عمله • ان هؤلاء الأمناء الذين كانوا لا يعرفون أن يكتبوا أسماءهم ، ولم يكونوا ليستطيعوا أن يميزوا أسماءهم لو أنهم رأوها مطبوعة على لافتات الطرق ، كانوا يرشدون المدرسين من خريجى الجامعات ، وممن خبروا التدريس سنوات ، الى الطريقة التى يدرسون بها • وكثيرا ما كان هؤلاء الأمناء يزورون المدارس مرة فى الأسبوع ، ويلقون بتعليماتهم الى المدرسين ، فاذا لم يتبع المدرسون هذه التعليمات فى تدريسهم ، واذا لم يعاقبوا هذا التلميذ ويعفوا عن ذاك ، فان هؤلاء الأمناء كانوا حينئذ يجيئون الى ، ويحاولون أن يجعلونى أتخذ اجراء ضد المدرس لصالحهم ، وهذا ما كنت أرفض أن أفعله ، ذلك لأننى كنت أكن شعورا عميقا لأعضاء المهنة التى أنتمى اليها ، فكنت أناضل من أجلهم ومعهم ، بكل ما لدى من طاقة عقلية وجسمانية ، واذا لم تكن هذه التى أحاربها مظالم، فأنا اذن لم أشهد فى حياتى ظلما قط • اننى لم أسمع عن مهنة أخرى غير مهنة التدريس ، يكون للعامل فيها رؤساء يبلغون التسعة عددا •

وقلت لأعضاء مجلس التعليم : أيها السادة ، ان لدى اقتراحا كان له نصيب كبير من تفكيرى فى الأيام الأخيرة • انه الظلم الذى يقوم عليه نظام الأمناء البغيض • ولست أرى ما يدعو الى أن يكون للمدرس تسعة رؤساء • اننى أقترح الغاء نظام أمناء المدارس •

فصاح مونر بنتوورث قائلا وهو يشب واقفا : ويحك ، ماذا بعد ذلك من مقترحات !

وأخذ يبرم باحدى يديه جناح شاربه الأشقر الذى يشبه النفير ، وقد قبض بيده الأخرى على ذراع كرسيه ، ثم قال : ألا تعلم أنك تخالف بذلك أحد قوانين الولاية ؟ ألا تعلم أنك ستوقع نفسك وتوقع أعضاء مجلس التعليم فى المتاعب ؟

فقال توبياس كلاكستون انى أوافق مونر بنتوورث • أعتقد أنه على حق •

وقال ويليام دوسن بصوت خافت ، وهو يهز رأسه ، ثم يقذف بمضغة

العنبر فى المبصقة ، فيصيبها على بعد ثمانى أقدام : انى لم أسمع فى حياتى قولا كهذا ٠

ثم قال بوضوح ، بعد أن بصق وأصبح فمه خاليا انك تلعب بشىء على غاية من الخطورة يا جيس ٠

فقلت : ان أى مدير للمدارس يرى أن عمله يقوم على نظام الأمناء ذاك يجد الأمر على غاية من الخطورة ، فهو خطر على نظام مدارس الولاية بأسرها ٠

ثم قلت موضحا أيها السادة ، اننى أعلم أن لهذه الولاية قانونا يؤيد وجود نظام أمناء مدارس الأقاليم ٠ غير أنه يمكننا ، نحن أعضاء مجلس تعليم مقاطعة جرينوود ، أن نسجل اعتراضنا على هذا النظام ، وسأرسل نسخا من هـــذا التسجيل الى مدير مدارس الولاية ، والى أعضاء المجلس التشريعى بكنتكى ٠

فصاح مونر يقول بصوت أعلى من ذى قبل : لا ، كلا كلا ، أبدا ٠ ان المتاعب حينذاك ستنصب فوق رؤوسنا ٠

وقال مانلى ووربيرتون وأنا أيضا لا أؤيد هذا الاقتراح ٠ اننى أومن بالقديم ، وقد كان هذا النظام صالحا فى زمانى ، وهو نظام صالح لأطفال اليوم ٠ ان نظام الأمناء شىء بديع ، وقد توليت منصب الأمين مدى تسع سنوات ٠

فقلت : ان أربعة من أعضاء هذا المجلس يعارضون اقتراحى ، وأحب أن أعرف رأى مستر دينجر فيلد فى الاقتراح ٠

وكان بنتون دينجر فيلد قد ظل صامتا ٠ وجلس ينظر الى بعينيـــه المتلألئتين الزرقاوين زرقة خفيفة ٠ لقد سبق له أن وافق مرات عديدة على المقترحات التى كنت أتقدم بها ٠

بيد أنه الآن لم يزد على أن قال : انى أعارض الاقتراح ٠

وحينذاك أدركت أن اقتراحى قد قضى عليه ، ولم أحصل حتى على طلب التصويت عليه ٠ لقد كان كل أعضاء المجلس يقفون ضدى ٠ وأردت أن أسجل هذا فى دفاتر محاضر اجتماعات المجلس ، اذ كنت ما أزال أنوى محاربة ذلك النظام ٠ ولم تكن هذه سوى بداية المعركة ٠

(٩)

وفى صباح اليوم الحادى عشر من سبتمبر ، حملت سياراتنا المدرسية التلاميذ الأربعة بالقسم الثـــانوى بمقاطعة جرينوود الى مدرسة ماكسويل الثانوية ، وهم أولئك التلاميذ الذين كانت مدرسة لانزبيرج الثانوية قد أعدت العدة لقبولهم ، ويبلغ عددهم ما يقرب من مائة تلميذ . ولابد أن لارى أندرسن ، الذى أصبح حينذاك مديرا لمدارس مدينة لانزبيرج ، ومدرسيه ، وأعضاء مجلس تعليم مدارس المدينة ، لابد أن هؤلاء جميعا قد شعروا بخيبة الامل حين وجدوا بعض فصول المدرسة خالية . ولابد أن ذلك قد أساء المدرسين ، اذ أن المبلغ الذى كانوا يتوقعون تحصيله منا ، وهو يقرب من ثمانمائة دولار فى الشهر ، أصبحت تحصل عليه مدرسة ماكسويل الثانوية التابعة لنا ، والتى عينا فيها ثلاثة مدرسين جدد ، لتعزيز هيئة التدريس بها ، بعد التحاق هذا العدد الاضافى من التلاميذ .

وبعد ظهر اليوم الحادى عشر من سبتمبر ، جاءنى جون فارنزووث ، رجل السياسة فى لانزبيرج ، الذى كان قد هنأنى بمنصب المدير حين التقى بى فى الشارع ، فوضع يده على كتفى وهو يقول : جيس ، انك ابن هذه البلدة ، فقد تخرجت فى مدرسة لانزبيرج الثانوية ، وكنت ناظرا لمدرسة لانزبيرج الثانوية . وأنت الآن تهدم مدارسنا .

فقلت : اننى لا أهدم مدارسكم ، ولكننى أعمل من أجل مدارسى .

فقال يهمس فى أذنى اصغ الى . ألا نستطيــع أن نسوى مسألة المدارس هذه ؟ ألا تستطيع أن تتخلى عن ... ؟

فقاطعته قائلا قبل أن يفرغ من كلامه : أتخلى عن ماذا ؟ ألا تعلم أننى حلفت اليمين على أن أقوم بواجبى نحو مدارسى ؟ واذا لم أكن مقيدا بقسم ، هل تظن أننى أتخلى عن أى شىء ؟

فقال فى حدة : ان فى استطاعتك أن تكون شيئا مذكورا ، أو أن تحطم نفسك .

فقلت فى برود : لا يعجبنى غضك من شأنى بحيث تظن أنك تستطيع أن ترفع دعوى ضدى . ومن الذى بعث بك الى هنا على أية حال ؟ يحسن بك أن تمضى .

فقال سوف تندم على هذا · ان لدينا هنا الكثيرين من المحامين البارعين ، وهم يدينون بالولاء للانزبيرج ·

ولم يمض يوم حتى كانت أنباء ما حدث لمدرسة لانزبيرج الثانوية قد سرت فى المدينة بأسرها · وعاد التلاميذ الى منازلهم من المدرسة ورووا لأهليهم ما حدث · ومنذ ذلك الوقت ، أخذ أصدقائى من مدينة لانزبيرج يلتقون بى فى الطريق فلا يحيوننى ، وحين يمرون بى يلوون رؤوسهم ، وقليلون منهم كانوا يستهزئون ويستضحكون · وكان هذا مما يحز فى نفسى كأنه السكين، فقد عرفت هؤلاء الناس طوال حياتى ، وكانوا أحبائى وأصدقائى ·

وحين التقيت فى الشارع ذات صباح بجيسون هنتون ، كان أول مافاه به قوله : لا تأت الى بيتى أبدا بعد اليوم ، فلن يرحب بك أحد · اننى وزوجتى لا نريد أن تزعجنا بزيارتك ·

وكان معظم زملائى فى المدرسة الثانوية يرفضون التحدث الى ، وكان أصحاب المحلات يضيقون بى · وأسفت لأن مكتبى كان يقع فى مبنى المحكمة بهذه المدينة ، التى هى مقر الحكم بالمقاطعة · وكانت هذه أول مرة يجافينى فيها جميع أصدقائى بلانزبيرج ويعرضون عنى · وكان قلبى ينفطر حين كان الناس يشيحون بوجوههم ويبصقون اذا التقوا بى ، بدلا من أن يحيونى تحية الصباح المعتادة ، التى ظلوا يحيوننى بها على مر السنين · لقد كان هؤلاء الناس هم أنفسهم الذين كانوا يهتفون لى ويهللون ، حين كنت ألعب كرة القدم باسم مدرسة لانزبيرج الثانوية · وما لبثت أن أخذت أتحاشى السير فى الشارع ، ما استطعت الى ذلك سبيلا · وكنت أقضى الطرف الأول من الليل أعمل فى مكتبى ، وأقضى الساعات الأولى من الصباح نائما فى الفندق ، وكان النور فى مكتبى آخر نور يطفأ ، باعتراف بيل هيز ، جندى الشرطة الذى يقوم بالحراسة ليلا ، اذ أن جـــون مور عمدة لانزبيرج ، وأعضاء مجلس المدينة ، كانوا قد أصدروا قانونا بأن تنام المدينة فى الظـــلام ، كاجراء اقتصادى ·

وفى الأسبوع التالى ، حين رجعت ساعة الظهيرة ، من الفندق الى مكتبى ، استوقفنى الحاكم بيل كريسون فى الشارع ، وسلمنى اعلانا للحضور الى المحكمة · وحين تسلمت هذا الاعلان ، وهو أول اعلان من المحكمة أتسلمه فى حياتى ، توقد وجهى بحمرة ساخنة ، وتسارعت دقات قلبى · وتذكرت ما قاله مونر بنتوورث فى اجتماع المجلس ، حين تقدمت باقتراح يقضى بنقل

جميع تلاميذ الثانوى بالمقاطعة ، الى مدرسة ماكسويل الثانوية · وأدركت الآن أن أمامنا معركة حقيقية ، وأن على أن أتلقى المعونة والنصيحة ·

والذى حدث هو أن أوسكار فنسون ، أحد مواطنى مقاطعة جرينوود ، ومن دافعى الضرائب ، رفع دعوى ضد مجلس تعليم مقاطعة جرينوود ، ومدير مدارس المقاطعة ، عن نفسه وعن غيره من دافعى الضرائب ، ممن يرسلون أبناءهم وبناتهم الى مدرسة لانزبيرج الثانوية · وقد طالبوا فى عريضة الدعوى بأن ينقل أبناؤهم بالسيارات مجانا ، وبأن ندفع مصروفات قدرها ثمانية دولارات فى الشهر عن كل تلميذ من تلاميذ المقاطعة الذين كانوا قد التحقوا بمدرسة لانزبيرج الثانوية · وذكرت العريضة أسماء الآباء الذين أقاموا هذه الدعوى ، وقائمة أسماء أبنائهم وبناتهم من تلاميذ مدرسة لانزبيرج الثانوية · وكنت قد راجعت قائمة أسماء التلاميذ الذين يحق لهم الالتحاق بالمدرسة الثانوية ، قبل أن نبعث بتلاميذنا الى مدرسة ماكسويل الثانوية · وجعلت سكرتيرتى مارجريت ريريدان تقارن بين القائمتين ، فوجدت أن الكثيرين من التلاميذ الذين التحقوا بمدرسة لانزبيرج الثانوية لم ينجحوا فى امتحان القبول للمدارس الثانوية ، وكان القليلون منهم قد بلغوا الصف السادس ، غير أنهم احتلوا الأماكن التى أخليت بمدرسة لانزبيرج الثانوية ، وبذلك أوجدوا عملا للمدرسين الذين عينهم مجلس تعليم مدينة لانزبيرج ، وسيدفعون لهم مرتباتهم أيضا ، اذا جمعوا لهم المصروفات المدرسية من المقاطعة ·

واستدعيت الى مكتبى رجال الأعمال الذين عاونونى عند وضع ميزانية المدارس ، لكى يجتمعوا فى جلسة خاصة مع مجلس تعليم مقاطعة جرينوود ·

وقال مونر بنتوورث يذكرنى لقد قلت لك يافتى انك تقودنا رأسا الى الجحيم · ها نحن أولاء الآن قد وقعنا فى ورطة ·

فقال جوتيريل اننا لا نستطيع أن نتكلم عن الورطة الآن ، وانما علينا أن نعمل ، وأن نسرع فى العمل · اننا لا نستطيع أن ندعهم يأخذون النقود التى ندفعها مرتبات لمدرسينا ، ولو أخذوها لأصبح مدرسوهم يتقاضون ضعف المرتبات المفروض أن يتقاضاها مدرسونا ·

وأطلعت أعضاء المجلس ورجال الأعمال على قائمة أسماء التلاميذ الذين ليس لهم حق الالتحاق بمدرسة لانزبيرج الثانوية ، ومن سجلات مدارس المقاطعة ، أريناهم أين قبل تلاميذ الصف السادس فى مدرسة لانزبيرج الثانوية ·

وقال مانلى ووربيرتون : ليس لديهم أدنى حق فى أن يقتحموا مدارسنا ويأخذوا تلاميذنا ٠

ثم أثيرت مشكلة المحامين ، فكان كل عضو من أعضاء المجلس يقترح اسم من يفضل من المحامين فى لانزبيرج ٠ وتذكرت ما قاله لى جون فارنزوورث من أن محامى لانزبيرج يدينون بالولاء لهذه المدينة ، ولذلك اقترحت على أعضاء المجلس أن نستعين بمحامين من خارج المدينة ، وليكونوا أبرع محامين فى أوكلند ٠ ووافق على رأيى رجال الأعمال الحاضرون فى الاجتماع ، وهم من المقاطعة ٠ ثم وافق أعضاء المجلس على أن يتركوا لى ولتوبياس كلاكستون مهمة الاتفاق مع المحامين ، على أن نعدهم بالدفع حين نحصل على المال ، اذ أننا حين وضعنا ميزانيتنا ، لم ندخل فى حسابنا أتعاب المحامين ٠ وذهبت أنا وتوبياس كلاكستون الى أوكلند بعد ظهر ذلك اليوم ، واتفقنا مع المحامين تانر ، وستفنز ، ودنتون على أن يتولوا المرافعة فى القضية ٠

وكان من رأى اثنين من رجال الأعمال الذين حضروا معنا الاجتماع ، وثلاثة من أعضاء المجلس ، أننا لن نكسب هذه القضية ، فقد وجدوا فى قوانين مدارس كنتكى نقطتين قويتين ضدنا ٠ ولكن قد يكون القانون فى صف خصومنا الى حد ما ، غير أن العدالة ، كل العدالة ، كانت فى صفنا ٠

وفى اليوم الذى اجتمعت فيه بأعضاء مجلس التعليم فى مكتبى ، وحضر معنا الاجتماع رجال الأعمال ، لكى نبحث أمر هذه القضية ، سمع بالقضية جيسون سبليفز ، وهو من أضخم رجال مقاطعة جرينوود جسما ، وأكبر دافعى الضرائب ، فجاء الى مكتبى ٠ ولما كان هذا الرجل يجهل القراءة والكتابة ، فقد طلب من سكرتيرتى مارجريت ريريدان أن تقرأ له الادعاءات الموجهة ضد المقاطعة ، فى القضية التى رفعها علينا أوسكار فنسون ، وجعلها تعيد قراءة أجزاء من هذه الادعاءات المرة بعد المرة حتى « تدخل مخه » ٠ وثارت ثائرتنا على هذا الرجل ، اذ أننا كنا فى حاجة دائمة الى مارجريت ريريدان ، بيد أننا لم نكن لنستطيع أن نمنعها من تلاوة تلك الدعوى على مسامعه ، فقد كان أحد مواطنى مقاطعة جرينوود ، ومن دافعى الضرائب فيها ، ومن حقه أن يحيط علما بما يتصل بالمقاطعة من حقائق ٠ كذلك جعلها تقرأ له قائمة أسماء تلاميذ المقاطعة الذين ليس لهم حق الالتحاق بمدرسة لانزبيرج الثانوية ٠

وقال وهو يبرح المكتب : والله لأفعلن شيئا فى هذا الشأن ٠

وقبل أن يستعد المحامون للقضية ، كان قد فعل شيئا فى هذا الشأن ، وكنت واقفا فى الشارع فى مكان قريب ، حين حدث ذلك ٠

اذ قال جيسون حين التقى بأوسكار فى الشارع : أوسكار ، لماذا أقمت هذه الدعوى علينا ؟ ارفع اسمك من هذه العريضة ، وأسقط الدعوى على جناح السرعة ·

فقال أوسكار : لن أفعل هذا ·

فقال جيسون يذكره ، وهو يهز أصبعه الكبيرة تحت أنف محدثه : اسمع يا أوسكار ، لقد بعتنى أقذر ويسكى مهرب شربته فى حياتى ، وأنت تعرف هذا · واذا لم تنزع اسمك من هذه الدعوى فسأذهب الى هيئة المحلفين العليا ، وألقى عليك تهمة بيع الويسكى بدون ترخيص ، وأثبتها عليك ، وأرسلك الى اصلاحية المجرمين · انى لأكره أن أفعل هذا يا أوسكار ، من أجل زوجتك وأطفالك ، ولكنى والله سأفعله ، ما لم تتنازل عن هذه الدعوى ·

واحمر وجه أوسكار فنسون ، وهرب من جيسون سبليفز جريا ، على قدر ما أسعفته قدماه · وما مر أسبوعان حتى كان اسم أوسكار فنسون قد شطب من العريضة ، وسقطت الدعوى المقامة علينا ·

وهكذا لم تعد أموالنا محجورا عليها ، فدفعنا لمدرسينا مرتباتهم عن الشهر الثانى من السنة ·

وبعد أن سقطت هذه الدعوى ، لم يكد يمضى أسبوع واحد ، حتى أقام علينا دعوى جديدة ، رجل يدعى موريس ثورنتون ، وهو أيضا من مواطنى مقاطعة جرينوود ، ومن دافعى الضرائب بها ، فأعيد طبع العريضة القديمة ، ووضع اسم موريس ثورنتون مكان اسم أوسكار فنسون · وحدد يوم للنظر فى هذه الدعوى الجديدة ، ثم حدث شىء مرة أخرى ، ففى الليلة السابقة لليوم المحدد للنظر فى القضية ، تعرضت مقاطعة جرينوود لأعنف عاصفة كهربية شهدتها فى تاريخها ، فكان البرق يشق أشجار البلوط الجبارة من الجذع الى القمة ، ويشعل النيران فى مخازن المحاصيل ، ويهلك الدواجن والدواب ، وانهمرت الأمطار فى وابل أغرق الطرقات والوديان ، وأحدث ثغرات بالكبارى ، وتحطمت الأسلاك الكهربية وأسلاك التليفونات · وعلى الرغم من أن هذه العاصفة جاءت متأخرة عن موعدها من السنة ، فانها كانت من أشد ما عرف الناس عنفا وتدميرا · وفى هذه الليلة ، كان موريس ثورنتون قد ذهب الى الفراش صحيحا معافى ، يأمل فى الغد ، حين يقف ، زعيما وقائدا ، فى ساحة قضاء قد غصت بالجماهير ، بيد أن الرعد أيقظه فى الليل ، حين بدا بيته وكأنه يتناثر أشلاء من هول العاصفة ، فنهض من فراشه ، وأزاح ستار

النافذة جانبا ، وألقى نظرة واحدة على عالم بدا كأنه يشتعل نارا ، فتوقفت دقات قلبه ، وقضى نحبه ٠

وقال جيسون سبليفز فى اليوم التالى ، حين سقطت هذه الدعوى الثانية : حتى الله فى عليائه يقف معنا ٠

ثم قال لأعضاء مجلس التعليم : ان هذه علامة طيبة يا رجال ٠ اننا سنكسب هذه القضية ٠ اننا لن نكتفى ببذل الجهود لتأجيلها ، وانما سنكسبها ٠

ومرة ثانية رفع الحجر عن أموالنا ، فدفعنا لمدرسينا مرتباتهم عن الشهر الثالث من السنة ، وكان ذلك فى نفس اليوم الذى كنا سنقف فيه فى ساحة القضاء ٠

وأصاب التشاؤم كبار السن من أهالى مقاطعة جرينوود ، حين علموا بالطريقة التى غادر بها موريس ثورنتون هذا العالم ، وأصبح من العسير حمل أى شخص على تولى أمر هذه القضية المرفوعة ضدنا ٠ ولما كان لابد للشخص الذى يقوم برفع دعوى ضدنا أن يكون أحد مواطنى مقاطعة جرينوود ، ومن دافعى الضرائب فيها ، لا من مواطنى اقليم مدارس لانزبيرج المستقل ، فقد كنا نأمل ألا يعثر على الشخص الذى يستطيع أن يتولى مهمة رفع هذه الدعوى ٠ غير أن آمالنا ذهبت أدراج الرياح ، اذ لم تكد تمضى أسابيع ثلاثة ، حتى عثر على هذا الشخص ، وكان رجلا يدعى توم جاكسون ٠ واذا كان توم جاكسون رجلا يؤمن بالخرافات ، ويخاف الموت ، فلابد أنه وقد تولى أمر هذه القضية ، قد اعتقد أنه تولاها لأن أجله قد حان ٠ وقد كان الرجل رئيسا للكنيسة التى يتبعها ، حيث كانت تعقد اجتماعات صاخبة ، ولم يكن قد رسم قسا ، غير أنه كان يقوم بالقاء الموعظة ، حين لا يكون هناك قسيس بالكنيسة ٠ وتولى هذا الرجل أمر رفع الدعوى ضدنا ٠

ولابد أن جيسون سبليفز كان يعمل فى خلال تلك المدة ، اذ أن الكثيرين من تلاميذ المقاطعة الذين لم يكن لهم حق الالتحاق بمدرسة لانزبيرج الثانوية تركوا هذه المدرسة ، وعادوا مرة أخرى الى المدارس الريفية التى كانوا بها حتى ينتهوا من مراحل الدراسة فيها ، وذهب أولئك الذين لهم الحق فى الالتحاق بالمدارس الثانوية الى مدرسة ماكسويل الثانوية ٠ لقد جعل جيسون سبليفز أسماء هؤلاء التلاميذ « تلتصق فى مخه » حين قرأتها عليه سكرتيرتى ،

وأخذت الأمور تجرى بحيث جعلت الكثيرين من الآباء يغيرون رأيهم ، ولعل ذلك كان من أثر موت موريس ثورنتون • بيد أن توم جاكسون لم يصبه سوء ، ولم يستطع جيسون سبليفز أن يحمله على سحب اسمه من العريضة ، وفى التاريخ الذى حدد للمرة الثالثة لنظر القضية ، جاء توم جاكسون الى المحكمة ، وهو فى أتم صحة وعافية •

وجلس توم جاكسون ، وحشد من أولياء الأمور ، الذين جاءت أسماؤهم فى عريضة الدعوى المقامة ضدنا ، والمحامون من لانزبيرج ، فى جانب من قاعة المحكمة ، وجلست أنا وأعضاء مجلس التعليم الخمسة ، والمحامون من أوكلند ، فى الجانب الآخر ، نتبادل النظرات • وضاقت قاعة المحكمة على سعتها بالجماهير ، فقد كانت المحاكمة الضخمة فى لانزبيرج نوعا من الترفيه بالنسبة للأهالى ، يقصدون اليها فى جموع غفيرة • كانت بالنسبة لهم تسلية ومتعة •• وجلسوا فى النوافذ ، ووقفوا فى الممرات ، وقد حسبوا أنها ستكون محاكمة مثل المحاكمات الجنائية المثيرة • بيد أنهم ما لبثوا أن شعروا بخيبة الأمل حين سمعوا المحامين ، بعد بضع مقدمات تمهيدية ، يناقشون القاضى فى نقاط الدعوى ، وغادر الكثيرون منهم قاعة المحكمة قبل أن تنتهى الجلسة • ومضى النهار ولما ينته محامو الطرفين من عرض نقاط النزاع على القاضى •

ثم تلا ذلك سلسلة من المناقشات القانونية المطولة ، ولم يكن يقدر على متابعة ما أعقبها من الاتهامات والردود التى جاءت فى الدعاوى ، الا من له خبرة بالقانون ، وكان الناس بعد كل جلسة ، يسألون بعضهم بعضا عما حدث •

ولما كنا نعتقد أن الناس فى لانزبيرج متحاملون علينا ، فقد طلبنا أن تعقد هذه المحاكمات فى المحاكم المجاورة ، فنظرت القضية فى مدينة لانسفيل، مقر الحكم فى مقاطعة لامبيرت ، وفى مدينة بيزلى مقر الحكم فى مقاطعة كانتريل، وفى مدينة سنتر فيل مقر الحكم فى مقاطعة بنتون • وكنا فى الأيام التى تنظر فيها القضية ، نحشد فى سياراتنا المدرسية الأربع ، أهالى مقاطعة جرينوود ، الذين يحاربون من أجلنا ، حتى لتضيق بهم السيارات على سعتها •

وكان جيسون سبليفز يقول لنا محذرا اجلسوا فى مكان قريب يا أولاد ، حتى تستطيعوا أن تنظروا فى عينى القاضى مباشرة ، وصفقوا بأيديكم ودقوا بأقدامكم حين يحكم القاضى بنقطة فى صالحنا • لابد لنا أن نكسب القضية •

وكان جيسون سبليفز يجلس منتصبا ، منتبها كل الانتباه ، ينظر الى القاضى مباشرة ، وقد أحاط أذنه اليمنى براحته ، حتى يلتقط سمعه كل كلمة يفوه بها القاضى ، فاذا استحسن ما سمع صفق بيديه ، ودق الأرض بقدميه ، واذا لم يستحسنه تأوه بكلام غير مفهوم ، وهو يهز رأسه فى حزن وأسى • وفى كل المحاكم التى نظرت فيها القضية فى هذه المدن المختلفة ، كان أهالى مقاطعة جرينوود يجيئون فى حشد كبير ، لشدة اهتمامهم بمدارسهم ، فقد كان بقاؤها أو القضاء عليها يتوقف على القرارات التى تصدرها هذه المحاكم •

وفى أول الأمر ، لم تكن لدينا وسيلة نوضح عن طريقها لأهالى مقاطعة جرينوود موقفنا من هذه المعارك القانونية ، فذهبت الى لامبرت ريد رئيس تحرير « لانزبيرج ليدر » ، وهى صحيفة تصدر فى المقاطعة ، وتوزع فى جميع أنحائها • ولما كانت مدينة لانزبيرج قد عرضت فى هذه الصحيفة وجهة نظرها ، فقد طلبت من رئيس التحرير نشر وجهة نظرى - أى وجهة نظر المقاطعة - فيما أدى الى هذه الورطة ، بيد أنه رفض أن ينشر لى • وعند ذلك كتبت مقالا يوضح وجهة نظر المقاطعة فى الموضوع ، وذهبت به الى صحيفة « روكسفورد اجزامينر » ، وهى الصحيفة الأخرى الوحيدة التى كانت تصدر فى مقاطعتنا • وفى هذا الوقت كان توزيعها أقل بكثير من توزيع صحيفة « لانزبيرج ليدر » ، ولم يكن يوزع منها خارج محيط روكسفورد سوى أعداد قليلة • ووافق ركس ملفورد رئيس التحرير مسرورا ، على نشر مقالى الطويل ، ونشره فى الصفحة الأولى بعناوين كبيرة • ذلك لأن كل ما كانت تعارضه صحيفة لانزبيرج ليدر ، كانت تؤيده صحيفة روكسفورد اجزامينر • ثم اشتريت بنفسى مئات الأعداد من هذه الصحيفة ، وأرسلت من مكتبى الى جميع أنحاء مقاطعة جرينوود ، وبذلك جعلت أهالى ومدرسى مدارس مقاطعة جرينوود يقرأون الجانب الآخر من القصة ، وكانت المعركة عن طريق الصحف ، معركة فاصلة •

ذلك أن القاضى حكم فى النهاية لصالحنا ، وكان قراره أننا غير مجبرين على أن نرسل التلاميذ الذين يقيمون فى الطرف الشرقى الى مدرسة لانزبيرج الثانوية ، وأنه يجوز لنا اذا شئنا أن تجاوز سياراتنا المدرسية مدرسة لانزبيرج الثانوية ، حاملة التلاميذ ، مسافة ثمانية عشر ميلا ، الى مدرسة ماكسويل الثانوية ، وأننا لا ندين لمجلس تعليم مدينة لانزبيرج بأية مصروفات خاصة بالتلاميذ الذين كانوا قد التحقوا بمدرسة لانزبيرج الثانوية ، كما

أننا لا ندين بمصاريف نقلهم • وكان قراره هذا مبعث سعادة عمت مقاطعة جرينوود بأسرها •

وقال لى جيسون سبليفز وهو يغمز بعينه : لقد أحسن القاضى «وتلكوم» صنعا اذ حكم لصالحنا يا بنى • لقد كان الحق فى جانبنا •

ثم غمز بعينه مرة أخرى وهو يقول والقاضى يعلم كذلك أين هى أصوات الناخبين ، واذا لم يكن قد حكم لصالحنا لأسقطناه فى المرة التالية حين يرشح نفسه للوظيفة ، ولو اجتمعت الانس والجن على انتخابه ، ففى هذه المقاطعة من الأصوات ما يكفى لتقرير مصيره •

وضرب على كتفى بيده الكبيرة وهو يقول : يابنى ، قبل أن تبدأ القتال تأكد أن الحق معك ، ثم قاتل بكل ما لديك من قوة ، ثم قاتل بأكثر مما لديك من قوة •

بيد أنه كانت هناك فرصة أخرى لدى توم جاكسون ، وتابعيه من أهالى المقاطعة ، وأعضاء مجلس تعليم مدينة لانزبيرج ، اذ حولت هذه القضية الى محكمة الاستئناف بكنتكى لاصدار الحكم النهائى فيها ، فجاء مؤيدا لقرار القاضى « وتلكوم » • وأحسب ــ اذا لم تخنى ذاكرتى ــ أن ما رفع علينا من دعاوى فى خلال قيامى بوظيفة مدير مدارس مقاطعة جرينوود بلغ على وجه التقريب ثنتين وثلاثين دعوى ، كسبنا منها احدى وثلاثين دعوى ونصف دعوى • وهكذا انتصرت العدالة على القوانين المدرسية التافهة الواهية التى لا ضرورة لها • بيد أنه كان لزاما علينا أن نقاتل ، من أجل تحقيق هـــذه العدالة •

(١٠)

وكان القانون المدرسى لولاية كنتكى يحتم على مدير مدارس المقاطعة زيارة كل مدرسة ريفية خاضعة لاشرافه مرة واحدة على الأقل خلال الفصل الدراسى • وفى أحد اجتماعات مجلس التعليم قرأت هذا القانون ، ثم ذكرت أعضاء المجلس بأنهم لم يقرروا لى بدل سفر ، اذ بعد أن أدفع أجر السكن والمأكل وتكاليف تنظيف الملابس ، لا يتبقى من مرتبى الشهرى وقدره مائة دولار ما يكفى للنفقات التى تتطلبها زيارة هذه المدارس • وكان أعضاء المجلس قد قرروا لسلفى لارى أندرسن بدل سفر قدره مائة وستون دولارا ، وكان

هذا بلا شك مبلغا ليس بكاف بالنسبة لكثرة الزيارات المطلوبة ، فقد كانت توجد فى مقاطعة جرينوود شبكة شاسعة متشعبة من المدارس الريفية ، تغطى مساحة من الأراضى الجبلية تبلغ مئات الأميال المربعة ، حيث يتعذر عبور الطرق القليلة بعد سقوط أمطار الخريف فى شهر نوفمبر • وصرح لى المجلس بمبلغ خمسين دولارا ، أنفقها على زيارة ثنتين وثمانين مدرسة ريفية ، تبعد كل منها عن الأخرى مسافة تبلغ من ثلاثة الى ثمانية أميال •

ولو أن أعضاء المجلس لم يخصصوا لى هذا المبلغ ، لكان على أن أذهب من مدرسة الى مدرسة ماشيا ، وهذا مما يحتاج الى وقت أطول أقضيه بعيدا عن مكتبى ، حيث كان العمل دائما مكدسا أمامى • وكنت أعلم أننى لن أستطيع أن أنتظر طويلا لكى أزور المدارس الريفية ، اذ كان على أن أذهب والطرقات صالحة للسفر ، وأن أسبق أمطار نوفمبر • وكنا حينذاك فى أكتوبر •

واتصلت بلستر لاركس ، الذى كان يملك سيارة شيفورليه قديمة بدون سقف • وكان لستر رامى كرة (*) كبير الجسم ، أشقر الشعر ، أعسر ، كان يلعب فى أول الأمر لفريق لانزبيرج ، ثم أصبح يلعب لفريق عمال مناجم الفحم بمقاطعة هارلان • وكان يقيم فى بلم جروف على مقربة منى • وقد كنا نذهب معا الى مدرسة بلم جروف الريفية ذات الحجرة الواحدة ، حيث وصل فى تعليمه الى مرحلة الصف الخامس •

وقلت أشرح له الأمر : لستر ، لقد خصص لى مجلس التعليم مبلغ خمسين دولارا لأقوم بزيارة ثنتين وثمانين مدرسة ريفية ، فكم تأخذ منى لكى تنقلنى بسيارتك فى أنحاء المقاطعة ؟

فقال ضاحكا ما دام عندى السيارة التى تصلح للسير فى طرقات المقاطعة ، وما دام أنه ليس لدى عمل الآن أقوم به بعد أن انتهى موسم البيسبول ، فسآخذ منك ثلاثة دولارات فى اليوم ، ونفقات السيارة •

فقلت اتفقنا • عليك أن تحضر الى مكتبى فى الساعة السابعة صباحا •

(١١)

وفى الساعة السابعة من صباح ذلك اليوم ، صعدت ولستر فى السيارة المكشوفة السقف ، ولم نكن نرتدى معطفا أو قبعة • وغادرنا لانزبيرج على

(*) (pitcher) ويرمى الكرة الى اللاعب الذى معه العصا فى لعبة البيسبول •

عجل ميممين وجهينا شطر مدرسة « ماونتن فيو » ، وهى أكثر المدارس الريفية فى المقاطعة بعدا عن مدينة لانزبيرج ، وكنت أسمع المدرسين يشيرون الى هذه المدرسة على أنها أبعد « نقطة حدود فى مقاطعة جرينوود » • وكنا نريد أن نبدأ بزيارة أبعد المدارس الريفية عن مقر المقاطعة ، بينما يكون الطقس مناسبا لنا • وأخذ لستر يقود السيارة بالسرعة التى يسمح بهـــا الطريق ، وغرقت السيارة مرة فى فجوة مليئة بالماء ، فاضطررنا الى خلع أحذيتنا ، وثنى أرجل البنطلونات ، وخضنا فى الماء البارد برودة الثلج ، لكى ندفع السيارة الى الأمام • وقد فعلنا ذلك فى سهولة ويسر ، فقد كنا نحن الاثنين نزن أربعمائة رطل ، وكنا قويين كالثيران • بيد أن لستر بدأ بعد ذلك يكون أشد حرصا حين يخترق بالسيارة فجوات الماء •

وكان صباحا جميلا تستحب فيه قيادة السيارة ، فكان الصقيع الأبيض يكسو التلال المرتفعة ، وكانت الريح النشطة تجعل الدم يتدفق فى وجوهنا • وفوق قمم تلك التلال العالية ، التى تشرف على ذلك الوادى الضيق ، كان الصقيع يتصاعد فى سحب بيضاء جميلة ، بيد أنها بلا شكل ، مخترقة أشعة شمس الخريف فى الصباح •

وبلغنا الاقليم الذى تزرع فيه أجود أنواع التبغ فى مقاطعة جرينوود ، اذ كان كل فلاح فى « لوست هوللو » يزرع هذا النوع من التبغ • وجاوزنا مخازن التبغ الضخمة ، التى كانت قوائمها فى ذلك الحين خالية من ذلك النبات العطرى الزاهى اللون • واجتزنا الجداول الصغيرة الضحلة ، ومنحدرات التلال ، حيث بقيت دون جنى ، نباتات التبغ التى أعجزها عن النمو قحط العام الماضى ، فبدت أقزاما • وكان المحصول من الضآلة بحيث لا يستحق أن يجنى • وحين كانت السيارة تخوض فى الفجوات ذات الماء الضحل الأزرق ، كانت عجلاتها تسير فوق قاعها الأملس ، وهو من صخر الاردواز • ثم بلغنا نهاية الطريق ، الذى لم يكن سوى قاع جدول من الماء • وهنا توقفنا • ولف لستر بالسيارة فى ذلك الوادى الضيق ، حتى أصبحت تواجه الناحية التى جئنا منها • واذ بلغنا بيت فلاح قريب ، سألنا عن الطريق الذى يوصلنا الى مدرسة « ماونتن فيو » •

فقالت ربة البيت ، الذى كان كوخا صغيرا من جذوع الشجر انفذا من هذه الحواجز التى هناك ، ثم اصعدا حتى تصلا الى الطريق القديم • ان زوجى يقول ان المسافة من هنا الى المدرسة يبلغ طولها ستة غلايين من التبغ ،

أو ميلين ، وأن عليكما أن تتبعا أنفكما بدلا من أن تتبعا اليـــد اليمنى أو اليسرى ٠

ثم قالت ضاحكة : الى الأمام مباشرة ٠ الى الأمام مباشرة ٠

وقال لسترونحن نقفز من بين الحواجز : أراهن أنها مدرسة وأى مدرسة! فما من طريق يؤدى اليها يصلح حتى لسير عربات النقل ٠ ترى كيف يحصلون هناك على الفحم الذى يستدفئون به ؟

فقلت وأنا أتبع لستر صاعدا فى الممر الجبلى الذى أبلته أقدام الصاعدين فيه ، فأخذ يزداد انحدارا عـــلى مر الزمن انه طريق شاق للصعود الى المدرسة ٠

وكنت أعلم أن هذا هو الاقليم الريفى الوحيد فى مقاطعة جرينوود الذى كان يأتيه كل عام فى نهاية شهر سبتمبر تاجر أحذية يقيم على بعد ثمانية أميال على وجه التقريب ، ويقود عربة نقل محملة بالأحذية ٠ ولما كان من المتعذر عليه أن يصل الى بيوت الأهالى ، فان الأهالى هم الذين يذهبون اليه ، اذ كان يعلن عن اليوم الذى سيجىء فيه ، وفى المكان الذى أوقفنا فيه سيارتنا، يجىء الأهالى بأطفالهم الى العربة المحملة بالأحذية ، حيث ينتقون ما يناسب أقدامهم السمراء التى لفحتها شمس الصيف ، وهى أحذية ضخمة غليظة ٠ وفى الأوقات العادية كان كل طفل يحصل على زوج واحد من تلك الأحذية ، فى العام الواحد ٠ وكنت أعلم أن هذا هو الاقليم الوحيد فى مقاطعة جرينوود الذى لايزال يتبع هذه الطريقة ٠ وكان اليوم الذى يذهبون فيه لشراء تلك الأحذية ، لكى يلبسوها فى فصل الشتاء ، يوما عظيما لكل فرد منهم ، اذ يلتقى الجميع فى صعيد واحد ، ويقيسون الأحذية التى تناسبهم ، ويجعلون من هذه المناسبة يوم عطلة وعيد ٠

وحين بلغت أنا ولستر فى ارتقائنا التل نصف الطريق ، كان الوقت يقترب من الظهيرة ، غير أن شمس أكتوبر كانت لتوها ترفع الصقيع من الوادى العميق ٠ وتوقفنا ننتظر هبة الريح التالية ، وتطلعنا الى وادى «لوست هوللو » من تحتنا ٠ كانت السحب المتصاعدة من ذلك الوادى الضيق تتصاعد نحو السماء ، فى صحائف رقيقة بيضاء من البخار ، وكأنها ملاءات نظيفة تدفعها ريح زرقاء نشيطة ٠ أما عند ذلك الارتفاع الذى نقف عنده ، فكانت أوراق أشجار الخريف سحبا من ألوان مختلفة ٠ لقد جفت الأوراق من أثر الشمس ، فكانت اذ تهب عليها ريح الصباح تحف حفيفا ٠ وكانت هناك

سحب من أوراق الشجر ذات لون أحمر ، وبنى ، وذهبى قاتم وزاه · لقد كانت هناك سحب من أوراق تتعدد ألوانها وفقا للجهة التى تطل عليها منها · ومن فوقنا كانت لا تزال هناك بقعة من العالم ، لا تزيد علـى أن تكون جزيرة صغيرة ، هى قمة التل ، وليس عليها من بيت أو مبنى ، سوى مبنى المدرسة ·

وقال لستر ان هذا لمنظر يستحق المشاهدة ، ولكن لو أننى كنت تلميذا فى هذه المدرسة ، أتسلق اليها هذا الجبل كل صباح ، لما أكملت تعليمى حتى الصف الخامس ·

وقبل أن نصل الى تلك الجزيرة الصغيرة الواقعة فوق المرتفعات ، كانت قد فتحت شهيتنا للطعام ·

فقال لستر انى جوعان ·

فقلت : ما من مكان هنا نشترى منه سردينا وبسكوتا ·

وقبل أن نصل الى قنة التل بمسافة تقل عن مائة ياردة ، سرنا فى الممر الذى يقع على حافة الربوة ، حول أحد المنحنيات · وهنا كانت تقع المدرسة · وما أن بلغنا الفناء حتى بدأت فسحة الظهر ، وعبرنا الفناء ، الذى كان يغص بتلاميذ حفاة الأقدام ، حمر الوجنات ، خشنى الأصوات · وكان الكثيرون منهم أضخم جسما من تلاميذ المدارس الثانوية · ونظروا الينا نظرة الشك والريبة، حين ألقينا عليهم التحية ، وسرنا متجهين نحو حجرة الدراسة · وهناك وجدنا مسز ايثيل هنثورن ·

فقلت : اننى جيس ستيوارت يا مسز هنثورن ·

فقالت وهى تبتسم مديرنا الجديد · لقد سمعت عنك الكثير ·

وكانت سيدة متقدمة فى السن ، ذات جسم ضخم ، وشعر غزير أشيب قد تكدس فوق رأسها ·

وقلت : هذا لستر لاركس ، الذى ينقلنى بسيارته لأزور المدارس ·

فقالت : انكما أيهـا الشابان لم تتناولا طعام الغداء ، أليس كذلك ؟

ولم يكن لدينا وقت للرد على سؤالها ، اذ قالت :

ستقسمان الطعام معنا • أنتما تعلمان أنكما هنا بعيدان كل البعد عن أى بيت أو حانوت • انتظرا لحظة ، فليس لدى من الطعام ما يكفى ثلاثتنا •

وخرجت من حجرة الدراسة تسير فى بطء ، اذ كان يبدو أنها تجد صعوبة فى المشى • وسمعتها تقول للتلاميذ : ان جيس ستيوارت مدير مدارس المقاطعة ، وصديقه لستر لاركس هنا بدون طعام غداء ، وينبغى أن نتقاسم معهم طعامنا •

وبينما كانت ايثيل هنثورن فى الخارج ، أخذت أتطلع الى حجرة الدراسة هذه ، التى تتكون منها المدرسة • لقد غسلت السبورات قبل أن ينصرف التلاميذ لفسحة الغداء ، وفوق السبورات وبين النوافذ ، زينت الجدران بأوراق الخريف وعناقيد التوت الأحمر ونباتات أخرى ، مرتبة كلها بطريقة فنية ، بحيث يظهر التباين فى ألوانها ، ولم أشهد قط حجرة دراسة فى مدرسة من المدارس الثانوية ، مزينة على هذا النحو الرائع ، فقد كانت أجمل حجرة دراسة شهدتها فى حياتى •

وقال لستر : أليست هذه حجرة رائعة ؟ انى لم أتوقع قط أن أشهد شيئا كهذا ، فى ذلك المكان المرتفع • ومن تكون مسز هنثورن هذه على أية حال ؟

ولم أجد وقتا للرد على سؤاله ، اذ أنها دخلت من الباب ، وفى أثرها عدد كبير من التلاميذ ، وأخذ كل تلميذ منهم يعرض علينا أن نشاطره طعامه • ولم أذق خبزا جافا مصنوعا من القمح ، أحلى من ذلك الذى قدموه الى • وكان القليلون جدا من هؤلاء التلاميذ هم الذين جاءوا بطعام آخر فضلا عن هذا الخبز • لم يكن معهم فطائر أو حلوى ، أو ما لذ وطاب من الطعام ، وكل ما كانوا يقتاتون به هو الطعام الجاف الصلد الذى يقيم الأود • بيد أن هؤلاء التلاميذ كانوا أجمل من شاهدت من تلاميذ المدارس الريفية صورة ، وأقوى من رأيت أجساما • وأكل لستر من ذلك الخبز الجاف أيضا ، وقد قال لى بعد ذلك انه كان يتمنى أن يشرب مع ذلك الخبز نصف جالون من اللبن المخيض البارد •

وبعد أن شاطرنا تلاميذ مدرسة « ماونتن فيو » ومسز هنثورن طعامهم، خرج لستر الى فناء المدرسة ، ليلعب البيسبول مع التلاميذ ، وأخذت أنا أتحدث الى مسز هنثورن •

وسألتها قائلا : كم مضى عليك من الزمن وأنت تقومين بالتدريس هنا ؟
فقالت : أربع سنوات يا مستر ستيوارت ٠

فقلت : أليس هذا مكانا لا يلائمك على الاطلاق ؟

فقالت معترفة : أجل ، انه لكذلك ، بيد أن لكل مشقة شيئا يعوضها ، وقد قمت بالتدريس فى كثير من مدارس هذه المقاطعة ، والتقيت بكثير من التلاميذ الممتازين ٠

ثم قالت فى تحمس غير أنه يوجد هنا أعظم تلاميذ عرفتهم ٠ اننى لا أجد صعوبة فى حفظ النظام ، فتلاميذى يعرفون أننى أحاول أن أعاونهم ، ولذلك فهم يحبوننى ٠

فسألتها قائلا : وكيف تحصلون على الفحم فى ذلك المكان المرتفع ؟

فقالت : اننا لا نستعمل الفحم ، وانما نستعمل الخشب للتدفئة ، فيقطعه تلاميذ المدرسة وآباؤهم ٠ ان هنا الكثير من الخشب ٠

فسألتها قائلا مسز هنثورن ، هل تقيمين فى اقليم مدرسة ماونتن فيو ؟

فقالت : أنا ؟ كلا ٠ اننى غريبة عن هذا الاقليم ، وأقيم فى حجرة فى بيت آل بريتر ، الذى يقع عند سفح الجبل ، حيث أدفع أجر المأكل والاقامة ، أما موطنى فهو « أولدهام » ٠

فقلت : اننى لا أتصور كيف تستطيعين تسلق الجبل الى هنا كل صباح ، ثم تهبطين الجبل فى عودتك بعد الظهر ٠

فقالت كان من الأفضل كثيرا لو أن أمناء أحد الأقاليم الريفية أعطونى مدرسة تقع فى الطريق العام ، غير أن المرء حين يتقدم به العمر ٠٠٠

ثم تنهدت وعادت تقول : غير أن المرء حين يتقدم به العمر ، ليس له أن يختار ، بل عليه أن يأخذ ما يعطى له ٠ وقد فرحت حين أعطيت مدرسة ماونتن فيو ٠ وفى سنة من السنين ، لم يقبل أى من الأمناء فى هذه المقاطعة أن يتعاقد معى ٠ وكان لارى أندرسن مدير المدارس ، وأعضاء مجلس تعليم مقاطعة جرينوود يريدوننى ، غير أن الأمناء كانوا غير راغبين فى تعيينى ، ولذلك

لم أحصل على مدرسة • وحين تعاقدوا معى على التدريس فى مدرسة ماونتن فيو لم أتذمر ، وكنت أعلم أن على أن أتسلق جبلا لكى أذهب اليها ، بيد أننى وجدت طريقة أتمكن بها من الصعود • ان « ويليس بريتر » الذى أسكن عنده، لديه فى المدرسة ولدان كبيرا الجسم قويان • وفى كل صباح ، يأخذ أحدهما بيدى ، ويعاوننى على تسلق الجبل • وفى بعض الأحيان ، يصحبنى جون فيلبس ، وهو تلميذ ضخم الجسم من تلاميذ الصف الثامن ، ويسكن بالقرب من بيت آل بريتر ، فيسير خلفى ، ويدفعنى الى الأمام ، وكثيرا ما يحمل « ميرتل فيلبس » كتبى • ان تلاميذى يحبوننى ، ويعطفون على •

فقلت أسألها : ولكن ماذا تصنعين حين تسقط الثلوج ؟

فأجابت بسرعة قائلة أصعد الجبل بنفس الطريقة التى أصعده بها حين يكون الجو صحوا ، فيساعدنى الأولاد على الصعود • أما الهبوط فهو مشكلة أخرى يا مستر ستيوارت •

ثم انحنت تقترب منى وهمست تقول : وحين تسقط الأمطار مصحوبة بالثلوج ، وتصبح الأرض زلقة ملساء ، فان تلاميذى يضطرون الى أن يدلوننى من الجبل بالحبال ، وأنا أحتفظ بالحبال هنا فى مبنى المدرسة ، لوقت الطوارىء حين يحل الشتاء •

ولم أسأل مسز ايثيل هنثورن عن وزنها ، فقد حدست أنها تزن من ٢٤٠ الى ٢٦٠ رطلا • وكان شعرها الغزير المكدس فوق رأسها فى لون الحشيش الذى يغطيه الصقيع ، وكانت عيناها وهى تتحدث الى ، تتلألآن كما يتلألأ الماء تحت أشعة الشمس •

ثم قالت : لا مناص لى من العمل بالتدريس يا مستر ستيوارت ، فقد قضيت حياتى كلها فى التدريس ، ولم أتمكن أبدا من توفير شىء ينفعنى فى اليوم الأسود ، فقد ظللت أذهب الى كلية مورهيد صيفا بعد صيف ، فأحضر دراسات لبضع ساعات ، الى أن حصلت على الدرجة الجامعية •

ثم ضحكت وهى تقول : اننى لم أحصل عليها الا بعد أن اقتربت من السبعين • ولكنى حصلت عليها على أية حال ، وأنا الآن خريجة جامعة ، وذاك كان مطمحى طوال حياتى ، وقد تحقق فى النهاية • لقد بدأت أشتغل بالتدريس بعد انتهائى من مرحلة الصف الخامس ، ثم بعد ذلك انتهيت من الدراسة الثانوية ، ثم الدراسة الجامعية فى نهاية المطاف •

وضحكت وهى تقول : لقد استغرق حصولى على الشهادة الجامعية مايزيد على خمسين عاما ، ولكن من الخير أن نحصل على الشىء متأخرا ، من ألا نحصل عليه على الاطلاق • والآن حين تترك الجبل ، قف عند غيضة شجر الجوز على يمينك ، ثم انظر الى أسفل تر كوخا عند السفح • هذا الكوخ هو الذى يعيش فيه آل بريتر الذين أسكن معهم • والممر الذى ينثنى الى الخلف والى الأمام ، صاعدا فى الجبل ، هو الذى أتسلقه كل صباح ، وأهبطه كل أصيل •

وواصلت مسز هنشورن حديثها ، فقالت ان هذا العام سيكون عاما قاسيا بالنسبة لتلاميذها ، اذ أن القحط أتلف المحصولين اللذين يعتمد عليهما الأهالى فى الحصول على المال ، ألا وهما التبغ والقصب ، كما أتلف المحصولات الغذائية • واعتذرت لأن تلاميذها يسيرون حفاة الأقدام فى ذلك الوقت المتأخر من الخريف ، وقالت ان العربة لم تحمل لهم الأحذية هذا العام بعد • كذلك قالت انها كثيرا ما ترى بقعا من الدماء فوق الصقيع ، حيث كان يسير التلاميذ أمامها متجهين نحو المدرسة ، وان أغلب الظن أن الكثيرين من التلاميذ سيضطرون الى الانقطاع عن المدرسة بمجرد أن تهطل الثلوج فوق الجبل •

وقبل أن تنتهى الساعة المخصصة لفسحة الظهر ، خرجت الى فناء المدرسة ، أراقب البنات والصبيان وهم يلعبون الكرة ، وقد قسموا أنفسهم الى فريقين ، وكان لستر يحكم المباراة • لقد كانوا يستمتعون باللعب كل الاستمتاع • أما صغار السن من التلاميذ الذين لا يستطيعون اللعب ، فقد انقسموا الى مجموعات ، كل مجموعة تهتف مشجعة أحد الفريقين • ووقفت أراقب لعبة الكرة بضع دقائق ، ثم سرت حول مبنى المدرسة ، وجعلت أتفحصه بنظرى • كان البناء قد طلى مرة ، أما الآن فقد حال لونه بفعل الطقس فأصبح رماديا ، وزال عنه كثير من الألواح التى تثبت فى أحد جوانبه لحمايتها وطرد الماء عنها ، حتى ليستطيع المرء أن ينظر داخلها ويرى المسامير التى ثبتت بها • ان بعض الاسطبلات التى يملكها صغار المزارعين فى مقاطعة جرينوود الريفية ، ممن ليس لديهم سوى حصان واحد ، هى أفضل من هذا المبنى • وعجبت كيف تماسك وصمد فى خلال العواصف المروعة التى اجتاحت قمة الجبل هنا • وأخذت أفكر فى أنه قد يجىء وقت تمزق الريح فيه ذلك البناء فيتطاير أشلاء ، ويلقى هؤلاء التلاميذ ومدرستهم مصارعهم فى الحال •

واذ أنا أتفحص مبنى المدرسة ، وأنظر تحتى فى كل اتجاه ، الى السحب من أوراق الخريف المتعددة الألوان ، دق الجرس لاستئناف الدراسة ، وانتهت

لعبة لكرة . ووقف التلاميذ صفوفا فى الفناء ، ثم ساروا فى طابور حتى دخلوا حجرة الدراسة . وكانت تعلو الابتسامات وجوههم المحمرة ، التى ينبثق العرق منها . لقد كانوا سعداء فى مدرسة ماونتن فيو ، لا يشغل بالهم التفكير فى عاصفة قد تطيح بمبنى مدرستهم الواهى فتحيله أشلاء ، وتقضى عليهم جميعا، فهذا هو المكان الذى يحبون الذهاب اليه ، ولم يكن تسلق الجبل للوصول الى المدرسة أمرا شاقا عليهم ، بل كان نزهة ورياضة . ولم يكن الخبز الجاف يضيرهم ، لا ولا السير حفاة الأقدام فوق الصقيع . وانضممت أنا ولستر لطابور الصبيان ، الذين جعلونا نشاطرهم طعامهم ، ودخلنا معهم حجرة الدراسة . وتمنيت حينذاك لو أن كثيرين من تلاميذ مدرسة لانزبيرج الثانوية كانوا هنا ، لكى يقارنوا بين فرص التعليم المتاحة لهم ، وتلك المتاحة لتلاميذ مدرسة ماونتن فيو .

وما أن اتخذ التلاميذ مقاعدهم ، حتى طلبت منى مسز هنثورن أن أوجه اليهم كلمة .

ووقفت أواجه هؤلاء الشباب اليافعين ، وأخذت أتحدث اليهم نحو خمس وعشرين دقيقة ، فقلت لهم انهم يستطيعون أن يواصلوا تعليمهم دون أن يبذلوا من الكفاح أكثر من ذلك الذى يبذلونه الآن ، اذا توافر لديهم الطموح ، والرغبة فى المحاولة ، وان التعليم ليس سلعة تباع وتشترى ، بل هو شىء يزيد من ادراك المرء لما تدخره الحياة من أشياء عديدة ، كما يزيد من استمتاعه بها ، وان مزيدا من التعليم يجعل خفايا الحياة ومنابع الجمال فيها تتفتح أمامهم كما تتفتح براعم الأوراق والأزهار فى فصل الربيع . وقلت لهم ان مزيدا من التعليم سوف يجعلهم يرون فى المناظر الطبيعة التى تحيط بهم من مظاهر الجمال أكثر مما يرونه الآن .

ثم جلست . وفى خلال الثلاثين دقيقة التى أعقبت ذلك ، أو ما يزيد عليها ، أخذ تلاميذ مسز هنثورن يعرضون علينا برنامجا تعليميا ، فقام فتى ممن كانوا يلعبون الكرة ، وأخذ يتلو ، ووجهه يتصبب عرقا من أثر اللعب ، قطعة شعرية للشاعر كيتس بعنوان « الى الخريف » ، ثم تلا فتى آخر قطعة للشاعر « هويتير » بعنوان « الصبى حافى القدمين » ، وتلت فتاة مقطوعة «أنابيل لى» ، وتلت أخرى قطعة من تأليف لونجفيلو بعنوان « مزمور الحياة » . وقد تلا هؤلاء التلاميذ مالا يقل عن اثنتى عشرة قطعة من الشعر الجيد ، ثم غنوا أغنية « أيها الحالم الجميل » من تأليف وتلحين ستيفن فوستر ، وأعقبوها

بعدد من الأغانى الشعبية المعروفة • وحين فرغوا من هذا ، قرأت مسز هنثورن قصيدة لجيمس هو يتكومب بعنوان « آنى ، اليتيمة الصغيرة » • وجلس لستر لاركس كالمأخوذ ، وهو يشهد هذا البرنامج يقدمه أولئك الذين كان يلعب معهم الكرة • ولم أستمتع ببرنامج مدرسى كما استمتعت بذلك البرنامج الطبيعى التلقائى ، الـــذى قدمه تلاميذ مدرسة ماونتن فيـــو الريفية ، ومدرستهم •

وألقيت أنا ولستر على مسز هنثورن وتلاميذها تحية الوداع ، وكان لابد لنا أن نسرع ، اذ كان علينا أن نزور خمس مدارس ريفية أخرى هى « آبرلوست هوللو » ، و « لووار لوست هوللو » و « هوبويل » و «كين كريك» و « أولد هام » ، قبل أن ينتهى النهار • وكان على أن أدخل الزمن فى حسابى وأنا أنفق الخمسين دولارا التى خصصها مجلس تعليم مقاطعة جرينوود لهذا الغرض •

(١٣)

وقاد لستر لاركس السيارة فوق صخور « روك كريك » ، فى جدول ضحل كان ماؤه يتلألأ تحت أشعة شمس الخريف • وظللنا ننظر الى هذا الشريط من الماء ، حتى كاد يغشى منا البصر ؛ اذ أن لستر قاد بى السيارة فى أماكن لم يطرقها من العربات الا القليل ، فكانت التلال تنحدر نحـــو الجدول ، ولم يكن هناك من طريق سوى منتصف الجدول ، والعربات التى سبقتنا الى عبور هذا الطريق سارت فيه حين كان ماء الجدول جافا فى فصل الصيف • وكانت أمطار الخريف قليلة لم تجعل ماء الجدول يرتفع بحيث يغرق محرك سيارتنا • وبلغنا مدرسة أبرروك كريك الريفية ، وهى سادس وآخر مدرسة نزورها فى خلال اليوم الثانى من الرحلة •

وقال لستر ، وكان يعرف أختى صوفيا معرفة وثيقة لست أدرى كيف تحتمل صوفيا العيش فى هذا المكان المهجور • لابد أنها أحبت الرجل الذى تزوجته بحيث رضيت أن تقيم هنا •

وضحك لستر فى مرح وهـــو يقول ما من شك فى أنه لا يغرينى بالاقامة فى هذا المكان سوى فتاة جميلة •

وتركنا السيارة راقدة فوق قاع الجدول ، والمياه الزرقاء السريعة تنساب من حولنا ، وأخذنا نخطو فوق ما به من صخور كبيرة ، الى أن وصلنا الى

أرض جافة • ثم صعدنا جسرا صغيرا ، فوصلنا الى مبنى المدرسة • وحين دخلنا نهضت المدرسة من مقعدها ، واتجهت بوجهها نحونا • وكانت تتكدس فوق مكتبها الهدايا التى أحضرها لها تلاميذها من تفاح وعنب برى •

وقلت لها مس بنيون ، أنا جيس ستيوارت ، وقـــد أتيت لأزور مدرستك •

فقالت انك مديرنا الجديد • لقد سمعت عنك ، وأعرف أختك مسز كينيلى جيدا ، فقد حللت مكانها فى هذه المدرسة •

فقلت أسألها : هل مضى عليك هنا كل هذا الزمن ؟

فضحكت قائلة : خمس سنوات •

فقلت مداعبا لابد أن الأمناء يحبونك ؟

فقالت انهم لن يدعونى أتركهم لو أردت ذلك • وكذلك تلاميذى •

وتطلعت الى حجرة الدراسة ، وقد امتلأت بتلاميذ حسنى الصورة ، يبلغ عددهم خمسين أو يزيد ، يجلس البنات منهم فى جانب من الحجرة ، ويجلس البنون فى الجانب الآخر •

وتقدم لستر الى الأمام ، وقال يعرفها بنفسه : أنا لستر لاركس ، وأقوم بتوصيل مستر ستيوارت بسيارتى ، فى زيارته لمدارس المقاطعة •

فقالت لقد سمعت عنك ، انك لاعب بيسبول ، أليس كذلك ؟

فأشرق وجهه وهو يقول : حقا •

وكان التلاميذ هم أيضا قد سمعوا عن لستر ، اذ بدأوا يتهامسون • والتفتت مس أوليف بنيون الى وهى تقول انى لم أرك قبل الآن يا مستر ستيوارت ، غير أنك لست بحاجة الى التعريف بك هنا • كان أول ما سمعناه عنك نبأ انتصار مدرسة ونستن الثانوية على مدرسة لانزبيرج الثانوية فى المسابقة المدرسية • يا تلاميذ ، هذا هو جيس ستيوارت مدير مدارس مقاطعة جرينوود • اننا نحب أن يوجه الينا كلمة •

ولم يكن لدى وقت طويل للكلام ، اذ لم يبق على نهاية اليوم المدرسى سوى بضع دقائق ٠

وحين فرغت من حديثى اليهم ، أنهت أوليف بنيون اليوم المدرسى ، وتجمع التلاميذ حولنا ، فقد كانوا يريدون أن يلتقوا بلستر ، وأن يلتقوا بى، ثم انفضوا فى النهاية ، وأخذوا يصعدون فى ممرات منحدرة ، وقد تفرقوا فى اتجاهات عدة ٠ كان القليلون منهم هم الذين يلبسون أحذية ، وكان معظمهم لا يزال حافى القدمين ٠ وبينما لستر وأوليف يتحدثان ، أخذت أتفحص مبنى المدرسة ٠ لقد كان فى حالة أشد سوءا من حالة مبنى مدرسة ماونتن فيو ، كان بالجدران فجوات ، وكان على وشك أن ينهار ، غير أن مس بنيون كانت تحافظ على نظافة حجرة الدراسة كل المحافظة ، وقد زينت الجدران بأوراق الخريف وأزهاره ٠ وكان الفناء الصغير ، الذى يلعب فيه خمسون تلميذا ، نظيفا أيضا كل النظافة ٠ وكان هذا المبنى المدرسى نموذجا لكثير من المدارس الريفية التى زرتها فى مقاطعة جرينوود ٠

وقالت مس بنيون : ان هذا المبنى فى حاجة ماسة الى الطلاء ٠

فقلت ليت لدينا من المال ما يمكننا من طلائه ، فانى أحب أن أرى كل مدرسة ريفية فى هذه المقاطعة وقد أصلحت وطليت جدرانها ٠ انها كلها متداعية البناء ٠

(١٣)

حين اندفعنا بسيارتنا نصعد فى طريق « ليتل كافيرن كريك » ، كان رذاذ الماء الذى أثارته عجلات السيارة ، يتلألأ تحت أشعة شمس أكتوبر ، كأنه الفضة المصقولة ٠ وهبت فى الصباح الباكر لفحة من ريح أكتوبر ، كانت نائمة خلال الليل ، فجعلت عناقيد الأوراق التى يغطيها الصقيع ، ولم تزل تتدلى من أشجار البلوط الأبيض ، تحف حفيفا بطيئا ٠ وكان الهواء الذى يلفح وجهينا باردا يبعث فى النفس الهدوء والسكينة ٠ ونسمة باردة من هذا الهواء تدخل الرئتين الساخنتين ، تجعل المرء يشعر أنه فى تمام اليقظة ، وأنه سعيد لأنه حى فى صباح جميل كهذا ٠

وقلت سر بنا فى طريق الجدول هذا يا لستر ، فمدرسة « ليتل كافيرن » من المدارس التى أتوق الى زيارتها ٠

فقال مداعبا : ما الذى يجذبك اليها ؟ أفيها مدرسة جميلة ؟

فقلت : ان « دون كونوييى » هو المدرس ، وكان تلميذى بمدرسة لونسم فالى ٠ ومنذ ذلك الوقت انتهى من الدراسة الابتدائية ، ثم الثانوية ، وأمضى سنتين فى الجامعة ٠

فقال لستر وقد تركنا طريق الجدول ، وبدأنا نتسلق التل : لابد أن يكون فتى ذكيا ٠

فقلت : انه ليس شديد الذكاء ، بيد أنه طموح ومتلهف الى العلم ٠

واذ يقود لستر السيارة صاعدا فى هذا الطريق الوعر ، الذى لم يكن يسير فيه سوى عربات النقل التى تجرها البغال ، أخذت أفكر فى دون كونوييى ٠ لقد أغريته بالعودة الى المدرسة ، حتى يحصل على بعض الدراسة العملية ، قبل أن يتم زواجه ٠ وكنت أرى فيه فتى يصلح أن يساندنى ، اذ كنت واثقا من أننى سأقاتل التلميذ جاى هوكنز قبل نهاية الفصل الدراسى ، وصديقه أوفاسليبرز الذى سيؤازره فى قتاله ٠ وبعد أن عاد دون كونوييى الى المدرسة ، اشتد اهتمامه بالدراسة حتى أنه نسى مسألة زواجه ٠ وواظب على الذهاب الى المدرسة ، وهو الآن يقوم بالتدريس ٠

وقال لستر حين وصلنا الى مدرسة « ليتل كافيرن » ، وأوقفنا السيارة فى الفناء : هذه مدرسة جميلة ، فالمبنى يكسوه الطلاء ، والفناء نظيف ٠ انه أحسن المدارس التى زرناها شكلا ٠

ودخلت حجرة الدراسة ، متجها بوجهى نحو دون كونوييى ٠ انه ليس دون كونوييى الذى كنت أعرفه ، فقد أصبح رجلا ضخم الجسم ، عريض المنكبين ، جميل الصورة ، وكان يرتدى بذلة جديدة ٠ وما أظن أنى كنت أعرفه لو أننى قابلته فى شارع من شوارع احدى المدن ٠

ورفع رأسه فرآنى واقفا فى الفصل ، حيث كان تلاميذه يحدثون من الضوضاء ما يصدر عن جماعة عاملة ، فكأنهم النحل فى الخلية ، وحينذاك قال : مستر ستيوارت ٠

فقلت : دون كونوييى ، ليس أحب الى نفسى من أن أرى هذا ٠ أتذكر أيامنا فى لونسم فالى ، حين كنا نمسح المزارع ، ونحسب الكميات التى تسعها عربات الفحم ؟

فضحك وهو يقول التعليم بطريقة عملية . ان هذا هو نوع التعليم الذى أعطيه للتلاميذ وأهليهم فى هذا المجتمع المحلى . يا تلاميذ ، هذا هو مديركم ومدرسى الذى حدثتكم عنه .

وقال يسألنى حين عرفته بلستر أهو تلميذ آخر من تلاميذ مستر ستيوارت ؟

فقال لستر : كلا . لقد كنت أذهب معه الى المدرسة فى بلم جروف . اننى جاره ، وأطوف به لزيارة المدارس بسيارتى . اننى فى مثل عمره .

وقلت أسأله : دون ، كيف تمكنت من طلاء هذا المبنى ؟

فقال : أقمنا حفلا ، وجمعنا من المال ما مكننا من شراء الطلاء ، ثم ، أنت تعرف أنى أستطيع أن أقوم بطلاء الجدران . أتذكر ؟

فقلت وأنا أتطلع الى نافورة الماء الجديدة ، الموضوعة فى ركن الفصل ، ليشرب منها التلاميذ : أذكر بغير شك .

فقال دون مستر ستيوارت ، لقد كنا دائما نتطلع الى زيارتك لهذه المدرسة . انك لست بحاجة الى التعريف بك هنا ، فقد عرفت التلاميذ بك أول يوم جئت فيه الى المدرسة . اننا نريد أن تتحدث الينا فى أى موضوع ، اذ يكفينا أن تتحدث فحسب .

فقلت : ما رأيك فى أن يكون موضوع الحديث هو « دون كونوييى » ؟

وأخذت أحدث تلاميذ دون كونوييى الخمسة والخمسين ، عن مدرسهم .

وبعد أن تحدثت الى دون كونوييى حديثا موجزا عن التدريس ، وعن احتياجات مدارس مقاطعة جرينوود ، وعن معارفنا فى لونسم فالى ، ولينا وجهينا أنا ولستر مسرعين ، شطر مدرسة « لاف برانش » الريفية ، حيث كانت تقوم بالتدريس مدرسة تدعى «جونيتا كاولى» . وكانت احدى تلميذاتى بمدرسة لانزبيرج الثانوية ، وكنت أدرس لها اللغة الانجليزية . وهى فتاة طويلة القامة،ذات شعر متموج أسود ضارب الى الحمرة،وكان بها عاهة لم تعقها عن أن تكون مدرسة متطورة ، من مدرسات مقاطعة جرينوود . ذلك أن احدى ذراعيها متقلصة منكمشة ، من أثر شلل الأطفال الذى كانت قد أصيبت به . ولم أكن أتصور أبدا أنها تصبح مدرسة . ولكنى وجدت مدرستها نظيفة ،

وجدران الدراسة مجملة مزخرفة ، والسجلات المدرسية تامة حتى آخر لحظة ٠ ووجدت لافتة معلقة فوق الحائط كتب عليها « النظام هو أول شريعة من شرائع السماء » ٠ انها لذات كفاية فى التدريس ، فقد كان يسود مدرستها شىء أكثر من مجرد النظام ٠

ثم زرت بعد ذلك مدرسة « سنتر فالى » ، حيث كانت تقوم بالتدريس تلميذة أخرى من تلميذاتى بمدرسة لانزبيرج الثانوية ، وتدعى آن بوش ٠ وحين دخل لستر بالسيارة الى فناء المدرسة ، سمعنا ضجة كبيرة وأصواتا مختلطة ٠ وحين دخلنا حجرة الدراسة ، كانت آن تجلس أمام مكتبها وقد انخرطت فى البكاء ، فى حين وقفت حولها مجموعة من صغارالأطفال ، وتكومت مجموعة أخرى من التلاميذ فى ركن من الحجرة ، وكان يبدو من منظر عيونهم أن معظمهم كان يبكى ٠

وقلت وأنا أسير فى الممشى العريض متجها نحو مكتبها ماذا حدث يا مس بوش ؟

فقالت وهى تنتحب مستر ستيوارت ، اننى سأستقيل من هـــذه المدرسة ٠

فقلت : لماذا ؟ ما الذى حدث ؟

فقالت صبية صغيرة كانت تقف بجوار مكتب « آن » : انه توم أندرسن نفسه ، جاء الى المدرسة ثانية اليوم ، وضرب مس آن ٠ وبذلك تكون هذه رابع مرة يأتى فيها الى المدرسة ويضرب مس آن ٠

فسألت قائلا : من يكون توم أندرسن هذا ؟

فقالت : هو ابن سيف اندرسن أمين مدارس الاقليم ، الذى كان معارضا فى تعيينى بهذه المدرسة ٠

وعندئذ طلبت من آن بوش أن تخرج معى الى الفناء ، حيث نستطيع أن نتحدث ، فخرجنا الى شمس الخريف المشرقة ، وتركنا لستر لاركس مـــع التلاميذ ٠ وكانت آن تلميذة نجيبة فى خلال المرحلة الثانوية ، وكنت أقدر أنها ستكون مدرسة ممتازة ٠ وأردت أن أعرف القصة التى وراء ضرب ذلك الفتى لها ٠

فقلت : آن ، ابسطى وجهك وابتسمى · اياك أن تبكى أمام تلاميذك أبدا · يجب أن يكون لديك من الشجاعة أكثر من هذا ·

فقالت : ولكنى يا مستر ستيوارت لا أستطيع أن أؤدب توم أندرسن ·

فسألتها قائلا كم عمره ، وما مدى ضخامة جسمه ؟ وفى أى مرحلة دراسية هو ؟

فقالت : عمره أربعة عشر عاما ، وليس بضخم الجسم بالنسبة لسنه · وهو فى الصف الأول ·

فسألت قائلا : ولماذا لا يؤدبه أبوه ؟

فقالت : ان أباه لا يحبنى ، وأعتقد أنه يحرض توم علـى ذلك الذى يفعله ·

فقلت : ولماذا لا تفصلين توم أندرسن من المدرسة ؟ انك لست مجبرة على احتماله ، وليس ثمة ما يدعوك الى أن تشقى حياتك بسبب تلميذ واحد ·

فقالت : لقد فصلته فعلا ، ولكنه يعود ثانية ، انه لا يريد أن يبقى بعيدا عن المدرسة ، فهو يجلس فى حجرة الدراسة نحو ساعة أو ساعتين ، ويعلق على ما يجرى فى الفصل ، ويفسد ما ألقى من دروس ، فاذا قلت له شيئا شرع يضربنى · لقد ضربنى أربع مرات فى الأسبوعين الأخيرين ·

فسألت قائلا : أين يسكن آل أندرسن ؟

فقالت ، وهى تشير نحو كوخ لا يبعد عن سنتر فالى بأكثر من ثلاثمائة ياردة : هناك ·

فقلت : ارجعى يا آن الى تلاميذك · اننى ذاهب الى آل أندرسن ·

فقالت مستر ستيوارت ، انهم قوم مشاكسون · لو كنت مكانك ما ذهبت اليهم ·

ورجعت آن الى تلاميذها · ووليت أنا وجهى شطر الكوخ الصغير المقام من جذوع الشجر ، والذى يقع عند سفح التل ، فعبرت طريق سنتركريك ، ثم صعدت المنحدر المنخفض ، حتى بلغت الكوخ · وطرقت الباب ، فجاءت امرأة فى أوسط العمر ·

وسألتها قائلا : أهنا يقيم آل أندرسن ؟

فقالت : أجل · أنا مسز أندرسن ·

فقلت أنا جيس ستيوارت مدير مدارس مقاطعة جرينوود ، وأحب أن أرى مستر أندرسن ·

فقالت : انه يعمل عند التل ·

فقلت : مسز أندرسن ، لقد جئت لكى أرى لماذا لا يذهب ابنك توم الى المدرسة ·

فقالت : لم تكن صحته على ما يرام هذا الصباح ، وعاد الى البيت فى نحو الساعة الحادية عشرة ·

فقلت : ومع ذلك كانت صحته على ما يرام حين ضرب مدرسته · اننى أحب أن أعود بتوم معى الى المدرسة ·

فقالت مسز أندرسن : ان هذه التى هناك ليست مدرسة ·

فقلت : ليس هذا لأنه لاتوجد فيها مدرسة ذات كفاية ، فقد كنت مدرسا لآن بوش ، وكانت تلميذة نجيبة ، كما أنها فتاة ممتازة · ان أولياء الأمور يجب أن يتعاونوا معها ، ولابد لواحد من أمناء مدارس الاقليم أن يعاونها · اننى أحب أن أرى توم ·

وحين جاءت مسز أندرسن بتوم الى الباب انتابتنى الدهشة ، فقد وقف أمامى صبى فى الرابعة عشر من عمره ، لا يزيد وزنه عن مائة رطل وعشرة ، مما جعلنى أتساءل عما اذا كنت قد سارعت بامتداح آن بوش ، وغاليت فى ذلك ، فلم أستطع أن أتصور لماذا عجزت عن تأديب هذا الغلام ·

وقلت : توم ، انى أريد منك أن تعود معى الى المدرسة·هيا بنا · سأوليه عنايتى يا مسز أندرسن ، واذا جاء زوجك فابعثى به الى المدرسة أيضا ·

ثم أمسكت بيد توم حتى لا يهرب ، ومشينا فعبرنا الوادى ، وأخذنا نتبادل الحديث منشرحين · بيد أن توم أنبأنى فعلا بأنه لا يحب آن بوش ، وأن والديه لا يحبانها ، وقال انه لا يحب المدرسين ، وأنه لن يدع آن بوش

العجوز تواصل التدريس · وحين دخلنا حجرة الدراسة ، ران السكون على ما يقرب من خمسين تلميذا ، حتى لا يكادون يلتقطون أنفاسهم ·

وقلت والآن ، أين ضربت مدرستك يا توم ؟

فقال ، وهو يرسم علامة باصبع قدمه الكبيرة فوق المكان الذى ضربها فيه : هنا فى هذه البقعة تماما · هنا أريت هذه العجوز نجوم الظهر !

فقلت : مس بوش ، هل لديك مجرفة ؟

فقال توم محذرا ، وهـــو يحاول أن يفلت يده من يدى انك لن تضربنى !

ثم حاول أن يعض يدى ·

وقالت آن : ليس عندى مجرفة ·

ووضعت كرسيا فوق البقعة التى ضربها فيها فى ذلك الصباح ، وجلست عليه ، ثم أرقدت توم فوق حجرى ، وظهره الى أعلى ، وأخذت أضربه · ان جاى هوكنز « فتوة » مدرسة لونسم فالى ، كان لديه من الذوق ما جعله يأتى بعد انتهاء الدراسة ليضربنى · انه لم يضربنى أمام التلاميذ · وأنا لا أومن أبدا بطريقة توقيع العقاب على أحد التلاميذ أمام غيره ، بيد أننى أردت أن يكون هذا درسا يسرى نبؤه فى الاقليم ، ويترك أثره·لقد كان هذا الفتى الذى لا يزن مائة رطل وعشرة أرطال ، يتلوى فوق حجرى كأنه دودة ، وبالنسبة لحجم جسمه ، كان أقوى تلميذ عاقبته فى حياتى · ومد يده فأمسك بطرف رباط عنقى ، وأخذ يشده بكل ما أوتى من قوة · وكنت قد ربطته فى أنشوطة مرتخية ، وحين شده خرج لسانى من فمى نحو بوصة أو تزيد ، وأخذت ألهث محاولا التقاط أنفاسى · ثم قفز أخوه سيف أندرسن الصغير فوق أحـد القمطرات ليأخذ بخناقى ، وكانت له أخت فى المدرسة ، وهذه شرعت تصرخ وتولول ، واختطفت أحد كتب الجغرافية لتقذفنى به ·

وقال لستر ضاحكا : كنت أحب أن أساعدك يا ستيوارت ، ولكن غير مسموح لى أن ألمس أى تلميذ من التلاميذ ·

وأمسكت آن بوش بأخيه سيف الصغير ، وتشبثت به · ونهضت من الكرسى ، وأمسكت توم بيد ، وأخذت أجذب رباط عنقى بيد ، ويجذبه توم

بكلتا يديه حتى قطعناه ، فانفك قيدى ، غير أننا قبل أن نقطعه كدت أقع على الأرض ، وكان هذا أقصى ما استطاع تلميذ أن ينال منى • وأخذت أستنشق بضعة أنفاس طويلة ، وتوم يركل قصبة ساقى بقدميه ، ويدق معدتى بقبضتيه • وحين فرغت من ضربه ، كانت قد لانت قناته ، فأبدى استعداده أن يجلس ، وأن يحسن السلوك • ثم ألقيت بسيف الصغير فوق حجرى ، وظهره الى أعلى ، وأخذت أقرعه بيدى اليسرى •

ولابد أن مسز أندرسن قد أبلغت زوجها بالأمر ، اذ وصل الى المدرسة فى الوقت الذى فرغت فيه لتوى من ضرب ولديه •

فسأل قائلا : ما الذى يجرى هنا ؟

فقلت : الآن دعونى أقل لكم جميعا شيئا • ان هذا الكلام موجه اليك أنت أيضا يا مستر أندرسن • اذا حدث أن ضرب أى تلميذ هذه المدرسة ، فان هذا التلميذ سيرسل الى مدرسة لا يستطيع فيها أن يضرب المدرسين • ان مس بوش لن تستقيل ، وستظل تدرس فى هذه المدرسة حتى النهاية ، ونحن ـ مجلس تعليم مقاطعة جرينوود وأنا ـ سنتكفل بذلك • ان أول صبى يقدم على ضرب مس بوش سوف يذهب الى اصلاحية كنتكى •

فاستحال وجه سيف أندرسن الأب قرمزى اللون •

ثم قلت : مس بوش ، انقلى توم أندرسن الى الفرقة الثانية ، فاذا تقدم فى دراسته بدرجة لا بأس بها ، فانقليه الى الفرقة الثالثة • هل لديك شىء آخر تقوله يا مستر أندرسن ؟

فقال : ليس من حقك أن تأتى الى بيتى وتأخذ ابنى •

فقلت : وليس من حقه أن يعود الى المدرسة ويضرب مدرسته بعد أن فصلته • انه لن يفصل من المدرسة بعد ذلك ، اذ لو حاول بعد ذلك أن يضرب مس بوش فسوف نقدمك أنت وابنك الى المحاكمة •

وخرج سيف أندرسن ، فرفع بندقية الصيد ذات الماسورتين التى كان قد تركها مستندة الى الجدار خارج الباب ، ووضعها فوق كتفه ، وانطلق فى طريقه دون كلام •

وكانت آخر مدرسة قمنا بزيارتها فى ذلك اليوم هى مدرسة ونستن الريفية ، التى كانت تدرس فيها بتسى ساتون • لقا كانت بتسى أحـــد تلاميذى الأربعة عشر بمدرسة ونستن الثانوية ، ثم درست لها مرة ثانية فى مدرسة لانزبيرج الثانوية • وكانت فتاة ممتلئة ، ذات شعر أحمر ، سريعة الغضب اذا أثيرت بوجه حق • وقد جاءتنى مرة فى مدرسة لانزبيرج الثانوية ، تشكو لى أخى لأنه شد شعرها وقالت : « سأظل أصفع وجهه حتى يحمر ، اذا لم تجعله يحسن الأدب » • وقد أصبحت الآن خير مدرسة فى مقاطعة جرينوود ، فمدرسة ونستن الريفية التى تعمل بها ، مدرسة نموذجية • وحين تحدثت الى تلاميذها رويت لهم تجاربى فى ذلك المجتمع المحلى ، حين كنت أدرس للمرة الأولى فى مدرسة ثانوية ، وكيف أن مدرستهم وبقية التلاميذ الثلاثة عشر كانوا يرغموننى على الدرس والاستذكار ، حتى أسبقهم فى المامى بالمواد التى أدرسها • وضحك تلاميذ بتسى ، فقلت لهم ان عليهم أن ينتقموا لى منها فيجعلوها تدرس وتستذكر لكى تسبقهم فى الدروس ، كما فعلت هى بى حين كانت طالبة •

وحين شرعت أنا ولستر فى العودة الى لانزبيرج ، متخذين طريقا مألوفا، طلبت منه أن يوقف السيارة عند بيت صغير منخفض السقف ، يقع تحت بعض الأشجار ، بالقرب من نهر التايبر •

فضحك لستر وهو يقول ما الذى يحدو بك الى الوقوف هنـــــا ياستيوارت ؟ ان هذا البيت القديم المتداعى ليس الا تبنا •

ثم قال ـ وهو يشير الى التبن الذى يبرز من النوافذ على جانبى البيت : بل ان له أذنين ، وعينين مظلمتين لا تريان •

وضحك مرة أخرى وهو يشير الى النوافذ وقد تكسرت ألواح زجاجها •

لقد كنت عاطفيا الى الحد الذى جعلنى أقف أمام ذلك البيت القديم ، وأتطلع الى فناء المدرسة الصغير ، وأفكر فى الأربعة عشر تلميذا الذين كنت أدرس لهم هنا • وجال بخاطرى ، أنه بعد بضع سنين ، سوف تختفى هذه المبانى المدرسية التى زرتها ، وراودنى الأمل فى أن تقوم مقام هذه الأبنية التى تشبه الاسطبلات ، أبنية مدرسية موحدة ، مزودة بأفنية رحبة ، وملاعب رياضية فسيحة ، ومكتبات كبيرة • ان هذا الكوخ المتداعى ، الذى يبرز التبن من نوافذه الجانبية ، فيبدو كأن له أذنين تصيخان السمع الى الريح ،

ونوافذه المظلمة التى تبدو كعينين لا تنظران الى شيء على الاطلاق ، ان هذا الكوخ المتداعى،سيكون رمز الشمس الغاربة لمدارس الأمس،وان دون كونوييى، وبتسى ساتون ، وجونيتا كاولى وآن بوش هم رمز الشمس المشرقة لمدارس الغد الموحدة • كان هذا هو ما جال بخاطرى ، وكان هذا هو الحلم الذى يراودنى •

(١٤)

ولم يعد يراود عقلى أى شك الآن فى المهنة التى اخترتها لنفسى • وركبت السيارة المكشوفة الى جانب لستر لاركس ، عارى الرأس ، بلا معطف ، ورياح الصباح الباردة تدفع الدم فى وجهينا ، والصقيع البرىء يغطى الأرض ، ويجعل الأشجار تبدو كأنها أشباح فارعة بيضاء • وسارت بنا العربة ، تخترق أشعة شمس أكتوبر ونوفمبر الذهبية ، والأمطار الثلجية التى تدفعها الريح فيسمع لها حفيف ، وحبيبات البرد الذى يصحب المطر ، وهى تتساقط كأنها القذائف فتلسع وجهينا ، والملايين من ندف الجليد ، الذى ينهمر ملطفا مهدئا ، وكثيرا ما كنا نضل طريقنا وسط سحب العاصفة فوق الروابى ، بيد أننا قمنا بزيارة المدارس جميعها •

وبينما كنا ننتقل من مدرسة الى مدرسة ، تمنيت لو جاء أعضاء الادارة التعليمية بولاية كنتكى فى سيارتهم فتبعونا الى هذه المدارس • وحين كنا نمشى فى الممرات الجبلية الضيقة ، لكى نصل الى هذه المدارس ذات الحجرة الواحدة ، حيث لا تستطيع العربة أن تسير فيها ، تمنيت لو أن أعضاء هذه الادارة كانوا يمشون فى هذه الممرات معنا •• لقد زرت الادارة التعليمية فى فرانكفورت،ودخلت مكاتب الأعضاء ، حيث تتوافر وسائل الراحة والتدفئة والاضاءة الجيدة ، وأدركت أنهم بعيدون كل البعد عن تلك المدارس ، التى تقع فى جبهة القتال • وفى كل المكاتبات أو المطبوعات التى كانوا يرسلونها الى ، باعتبارى مديرا فى نظامهم المدرسى المترامى الأطراف ، لم تكن هناك جملة واحدة تتدفق منها القوة والحياة • لقد كانت كتاباتهم جافة خالية من الجرأة والشجاعة ، ولو أن واحدا منهم زار هذه المدارس لألف كتابا حيا قويا جريئا ، بدلا من تلك الكتب الجافة جفاف التراب •

أين بصيرتهم والهامهم ؟ وماذا يكون مستقبل الدراسة فى مدارسنا ؟ ما هى المواد التى ندرسها لكى نعمل على تقدم شعبنا ؟ كيف ندرس هذه

المواد ؟ كيف نرفع مؤهلات مدرسينا ؟ كيف نعد البناء لغد أفضل ، وأكثر سعادة ورخاء ؟ كيف نحفظ مواردنا الطبيعية ؟ لقد كان هناك آلاف الأشياء التى يتعين عملها •

كان هناك عشرات الآلاف من الأشياء التى كنت أريد أن أقولها بشأن المدارس والتدريس • ولم أكن لأستطيع أن أبدأ بقول كل ما أريد قوله ، ولم أكن لأستطيع أن أبدأ بعمل كل ما كنت أريد عمله ، فقد كانت الحاجة أكبر من هذا كله ، ولا يمكن أن يكون المرء بعيدا عن هـــذه المدارس ، ويقدر احتياجاتها على البعد ، بل لابد أن يوجد مع المدرسين والتلاميذ ، وأن يراهم ، وأن يكون جزءا حيا من الكل • ذلك أن المرء حين يكون جزءا من الحقيقة فى قرارها ، يستطيع أن يتصور الطريق الى احداث اصلاح شامل ، فالفكرة يجب أن تسبق العمل • وما يجب أن نتصوره هو : أولا اصلاح الطرق المؤدية الى أبنية المدارس ، الى أن نتمكن من ايجاد مدارس موحدة ، ثم مدارس موحدة ، ثم مدرسون مؤهلون ، قادرون على تعليم التلاميذ كيف يعيشون مع بعضهم فى وئام • علموا التلاميذ قواعد الصحة الأولية ، وعاونوهم على ايجاد مهنة لهم فى الحياة ، ووجهوهم فى دراستهم نحو هذه المهنة ، ولا تدعوا موهبة أى تلميذ ولد على هذه الأرض ، يكون على قدر لا بأس به من الذكاء ، تضيع بالنسبة للبشرية جميعا • علموا التلاميذ أن يصونوا الموارد الطبيعية للبلاد ، وأن يعيدوا بناءها اذا استطاعوا ، تلك الموارد التى دمرتها الأنانية ، وشهوة الحصول على الدولار القذر • علموهم أن يتطلعوا الى حكومة صالحة أمينة ، هى من الشعب ، وبالشعب ، وللشعب • علموهم ، الآلاف منهم ، ممن يمتازون بعقل راجح ، وخلق قويم ، أن يصبحوا فى مستقبل حياتهم مدرسين ، وادفعوا لهم مرتبات تعينهم على الحياة ، لا مرتبات تودى بهم الى الموت ، كتلك التى يتقاضونها الآن • علموا أولئك الذين اتخذوا لأنفسهم مهنا أخرى غير التدريس أن يعاونوا النظام المدرسى القائم فى مجتمعهم المحلى • وفوق ذلك كله ، علموهم هذا انه مهما كانت لديك من موهبة فى عملك ، سواء كنت مدرسا ، أو حاكما ، أو عاملا تقوم باصلاح الأحذية ، فاتقن عملك ، وكن أمينا فى أدائه ، واعدل بين الناس جميعا • وعلموا ذلك الذى ليس لديه موهبة قط ، أنه يستطيع على الأقل أن يكون مواطنا صالحا ، وأن يكون معينا للمجتمع البشرى ، بدلا من أن يكون عائقا له •

وقال لستر لاركس ، وهو يقود بنا السيارة صاعدة آخر جبل ، لكى نزور آخر مدرسة : أتعلم يا ستيوارت ما أريد عمله ؟ اننى أريد أن أعود

ثانية الى المدرسة ، فأنتهى من المرحلة الابتدائية ، ثم أذهب الى المدرسة الثانوية ، ثم أصبح مدرسا ومدربا رياضيا · فان كل هذا الذى رأيته يدفعنى الى أن أعمل شيئا بالاضافة الى لعب الكرة ·

وواصل حديثه متحمسا فقال : اننى حينذاك أنشىء فريقا للبيسبول فى مدرسة ريفية فى هذه المقاطعة ، يلعب فى يولية وأغسطس وسبتمبر · ثم أعلم هؤلاء الفتيان والفتيات كرة السلة ، ولو اضطررت الى وضع السلتين فوق الأشجار النامية فى الفناء ، فى الأيام التى تشرق فيها الشمس ، ووضعهاداخل حجرة الدراسة فى أيام الشتاء · وسأشترى كرة سلة لكل مدرسة · ويمكنك أن تتصور عـــدد لاعبى البيسبول وكرة السلة الذين نغذى بهم المدارس الثانوية ·

بيد أن لستر لم يعش حتى يرى أمله يتحقق ، اذ أن هذا الشاب المتين البنيان أصابته عدوى مرض الدرن الرئوى وهو فى مناجم الفحم فى الصيف التالى ، وذهب قبل الأوان ، الى قبر فى بلم جروف · ولو أنه كان حيا اليوم ، لقص عليك كيف أنه كان أول رجل على الاطلاق يقود سيارة فى أنحاء الأقاليم الريفية بمقاطعة جرينوود · وحين أوصلنى بالسيارة الى مدرسة « لوكآوت ردج » الريفية ، خرجت المدرسة والتلاميذ من حجرة الدراسة،اذ لم يستطيعوا أن يصدقوا أنه فى امكان شخص أن يقود سيارة فى الطريق المؤدى الى مدرستهم · وحين اتخذنا أهبتنا للرحيل ، كان الطريق الذى جئنا منه من الوعورة والخطورة بحيث اخترنا طريقا آخر فى العودة ، فقد رأينا فى الوادى، على بعد سحيق ، طريقا صغيرا ملتويا بين تلال وادى « بلاك أوك » المرتفعة ، وتساءلنا ما اذا كنا نستطيع الهبوط من الجبـــل الى ذلك الطريق ، فاذا استطعنا فاننا نوفر مسافات قدرها أميال وأميال عدة ·

وأخذ رجلان يقطعان بفأسيهما الشجيرات التى لم نستطع أن ندور حولها بالسيارة أو نجتازها ، وكانا يزيحان الصخور الضخمة من طريقنا ، ويفتحان الأسوار المحيطة بحقول المرعى ، وينزعان من الحدائق ألواح الخشب المستخدمة بمثابة دريئة حولها · لقد كان الأهالى يتعاونون معنا ، بحيث سمحوا لنا بأن نخترق بسيارتنا ساحات البيوت ، وحظائر الخنازير ومخازن الغلال ، وعاونونا على أن نصل بهذه السيارة الى طريق الوادى ، وهو طريق لم تقطعه سيارة من قبل أو من بعد · وكانت هذه المدرسة آخر مدرسة زرناها فى مقاطعة جرينوود ·

وبعد أن وصلنا الى طريق الوادى ، أخذ لستر يلاقى صعوبة فى قيادة السيارة ، اذ كانت تتأرجح على جانبى الطريق • وفى النهاية بلغنا لانزبيرج ، وأخذنا السيارة الى جاراج ، فاتضح أن قضبان الفرامل قد التوت ، وأن أحد اليايات مكسور ، وأن عجلة القيادة تعطلت عن عملها ، وأن المشعاع (الردياتور) يرشح • وباع لستر سيارته هـــذه بمبلغ خمسة وعشرين دولارا ، اذ لم يكن بها جزء سليم سوى محركها • وكان قد تسلم منى سبعين دولارا أجرا له ونفقات للسيارة • وقد كان مجلس التعليم كريما بحيث قرر منحى عشرين دولارا أخرى ، بعد أن أنفقت الخمسين دولارا التى كان قــد خصصها لى ، وذلك لكى أكمل زيارتى المتعة لاثنتين وثمانين مدرسة ريفية بمقاطعة جرينوود •

(١٥)

وفى الثالث من ديسمبر ، عقد مجلس تعليم مقاطعة جرينوود اجتماعه الدورى ، وكان أربعة من الأعضاء يبدون منشرحى المزاج ، فكانوا يتضاحكون ويتبادلون النكات ، الا بنتون دينجرفيلد ، ومونر بنتوورث•وكانت سكرتيرتى مارجريت ريريدان قد أحضرت من بيتها أصصا بها أزهار الجرونيا ، ووضعتها فوق مكتبى • وهذا المرح من جانب أعضاء المجلس ، وتلك الأزهار التى تشيع الاشراق فى جو الحجرة ، وهى الحجرة التى كنت وأعضاء المجلس نصارع فيها الكثير من المشكلات المدرسية ، كل ذلك جعلنى أعتقد أن شيئا ما على وشك أن يحدث •

وما ان افتتح توبياس كلاكستون الجلسة ، حتى بدأ ثلاثة من الأعضاء ينهضون من مقاعدهم فى وقت واحد • وكان بنتون دينجرفيلد أول من وقف منهم •

وقال ــ وعيناه الزرقاوان تتلألآن فى اشراق : حضرات أعضاء مجلس تعليم مقاطعة جرينوود ، ان لدى اقتراحا هاما أريد أن أتقدم به • انى أقترح رفع مرتب مدير مدارس المقاطعة الى مائة وخمسين دولارا فى الشهر •

فقاطعه مونر بنتوورث فى غضب قائلا : هذا مبلغ كثير عليه • انه لا يستحقه •

فقال بنتون دينجر فيلد ، غير ملق بالا لمقاطعة مونر بنتوورث له : ان

هذا الرجل ليس له ساعات عمل محددة ، فهو يعمل وجه النهار وطرفا من الليل ، وقد أخرجنا من أزمة مالية ، ووضع ميزانية متينة نحن نعمل الآن وفقا لها ، ولم نعد نفرط فى الانفاق ٠

ثم واصل بنتون دينجرفيلد حديثه قائلا فى حماسة أيها السادة ، اذا كان هناك رجل يستحق لقمة العيش التى يأكلها ، بما قام به من أعمال ، فانه ذلك الرجل ٠ انني أقترح زيادة مرتبه ٠

فقال مانلى ووربيرتون : وأنا أؤيد الاقتراح ٠

فقال مونر : وأنا أعارضه ٠ ليس فى طاقتنا أن ندفع له هذا المبلغ ٠

وصوت فى جانب اقتراح زيادة مرتبى توبياس كلاكستون ، ووليليام دوسن ، ومانلى ووربيرتون ، وبنتون دينجر فيلد ٠

فقال مونر موافقا وأنا أتضامن مع أعضاء المجلس ، اذ لا أريد أن يثبت فى محضر الجلسة أننى صوت ضد هذه الزيادة فى مرتبه ٠ بيد أننى لازلت أعتقد أنه ليس به من الميزات نصف ما يراها فيه واحد من زملائى من أعضاء المجلس ٠ لقد سبب لنا متاعب تفوق كل متاعب كان يمكن أن يسببها أى رجل آخر يتولى هذا المنصب ، وانى لأذكر كل تلك القضايا التى رفعت بسببه ضدنا ، وان التفكير فى هذه القضايا الشائكة ليقض مضجعى ، ويطرد النوم عن أجفانى ٠

وحينذاك ، تسلمت فى ذلك اليوم الشيك الثالث ، منذ أن توليت منصب مدير مدارس مقاطعة جرينوود ، وكنت قد تسلمت شيكين كلا منهما بمبلغ مائة دولار ، أما هذا الشيك الثالث فكان بمبلغ مائة وخمسة وعشرين دولارا ، وبذلك كان مجموع ما تقاضيته منذ توليت منصبى هو ثلاثمائة وخمسة وعشرون دولارا ٠ وكان هذا الشيك هو آخر شيك قدر لى أن أتسلمه ، فلم أكن أدرى فى ذلك اليوم الذى صرفت فيه الشيك ، أنه سوف تمر خمس سنوات ، قبل أن أحصل على بقية مرتبى عن الخدمات التى قدمتها لنظام مدارس مقاطعة جرينوود، ولم أكن أدرى أن مدرسى المدارس الريفية بمقاطعة جرينوود، حين تسلموا شيكات مرتباتهم عن الشهر الثالث من شهور السنة الدراسية الستة ، انما كانوا يتقاضون آخر مرتبات دفعت لهم ٠ أما مدرسو مدارس ماكسويل الثانوية فقد تقاضوا نصف مرتباتهم ، وكان هذا هو كل ما حصلوا عليه ٠

اذ أننى نظرت ذات صباح ، من نافذة مكتبى ، فرأيت جموعا غفيرة غاضبة ، تدور فى اضطراب حول بنك لانزبيرج الأهلى ، وكان بعض الناس ينتحبون ، وقليلون آخرون كانوا يصيحون ويصبون اللعنات على موظف البنك الذى يقف وراء الأبواب المغلقة • وأغمى على احدى النساء فسقطت فوق الأرض الصلبة ، وكان الكثيرون من الناس فى حالة هستيرية • لقد أفلس بنك لانزبيرج الأهلى ، وأغلق أبوابه على جميع الديون والودائع والنقد والضمانات ، بيد أن هناك شيئا واحدا هو أننا كنا قد سددنا للبنك الدين الذى كان علينا وقدره ستة وعشرون ألف دولار • لقد كنا نحسب أن مركز هذا البنك ثابت وطيد كالصخور الشاطئية الشامخة الواقعة جنوب لانزبيرج• والآن أصبحنا نواجه أكبر مشكلة واجهتنا على الاطلاق ، فقد أصبحنا بدون رأس مال ، ولم يكن لدينا فى المكتب سوى أربعين دولارا كنا قد سحبناها من البنك لننفق منها على ما يحتاجه المكتب من نفقات • وقد قلت لسكرتيرتى مارجريت ريريدان أن تأخذ هذا المبلغ لتنفق منه ، اذ أنها كانت أرملة ، ولها ابن طالب فى جامعة كنتكى ، وابنة طالبة فى مدرسة لانزبيرج الثانوية •

ورغم كل ما كان يمكن عمله ، فقد قدرت أن نظام مدارس المقاطعة سوف ينهار جميعه ، وأن مدرسى مدرسة ماكسويل الثانوية ، ومدرسى المدارس الريفية ذات الحجرة الواحدة ، سوف يرفضون العمل دون أن يتقاضوا مرتباتهم ، اذ أننا لم نكن ندرى متى يعود البنك المفلس قادرا مرة أخرى على أداء الديون • وقد عجز كثيرون من أولياء أمور تلاميذ مدرسة ماكسويل الثانوية ، عن دفع أجور سائقى السيارات المدرسية ، لكى ينقلوا أبناءهم الى المدرسة •

وشرعت حينئذ ، أزور المدارس الريفية من جديد ، دون أن يصرف لى بدل سفر هذه المرة ، فكنت أصل الى هذه المدارس بأية طريقة تتيسر لى • كنت أوقف أصحاب السيارات لكى يركبونى معهم جزءا من الطريق ، وكنت أقطع بعض الطريق مشيا على الأقدام ، أو فوق ظهر جواد • وان ما رأيته قد أذهلنى ، اذ عرفت من أى معدن خلق زملائى فى مهنة التدريس • لقد كانوا يقاتلون وحدهم ، ولم أشهد حتى ذلك الوقت أبناء أية مهنة أخرى ، يعملون بدون أجر ، ودون أن يعرفوا ما اذا كانوا سيحصلون على أجورهم على الاطلاق• وتذكرت يوم أن كنت أعاون فى رصف شوارع مدينة لانزبيرج ، وأفلس المقاول « بيل باتون » ، وعجز عن دفع أجور العمال ، وتذكرت كيف أن العمال توقفوا فجأة عن العمل ، فتوقفت آلات الرصف ومعداته بأنواعها ،

وأصبحت مشلولة الحركة • اننـــا فى ذلك الوقت لم نكن لنعمـل بدون أجر •

بيد أن أعضاء المهنة الذين يتقاضون أدنى أجور يتقاضاها المواطنون ممن ينتمون الى سائر المهن الأخرى ، لم يشكوا أو يتذمروا ، ولم يكثروا من السؤال عن مرتباتهم ، وواصلوا العمل ، باذلين جهدا يفوق ـ كما خيل لى ـ كل جهد بذلوه فى أى وقت مضى ، ولم يحاولوا أن يشلوا حركة أى شىء ، لكى يحصلوا على أجورهم من المقاطعة ، كما فعل عمال الطرق • وكنت قد رأيت من واجبى أن أزور هذه المدارس الريفية ، لأرفع من الروح المعنوية عند المدرسين ، غير أني وجدت الروح المعنوية عالية ، وعشنا ، نحن أعضاء مهنة التدريس بمقاطعة جرينوود ، عيش الكفاف ، نقتات بالنذر اليسير ، ونرتدى من الملابس خير ما فى طاقتنا شراؤه ، ونواصل العمل دون أمل فى أن نتقاضى على كدنا وجهدنا أجرا ، وحفظنا نظامنا المدرسى العريض ، من التداعى والانهيار • وفى كثير من الأحيان ، لم يكن لدى تلاميذ هذه المدارس الريفية من طعام سوى البطاطس المخبوز والخبز الجاف ، وكانوا يكافحون عناصر الطبيعة لكى يصلوا الى هذه المدارس الصغيرة ذات الحجرة الواحدة ، التى تشبه مخزن الغلال ، لا يستر أجسامهم من الثياب الا القليل ، وينتعلون فى كثير من الأحيان أحذية يتبادلونها بالتناوب •

وحين كان لا يتوافر لنا الفحم فى المدرسة الريفية ، كان تلاميذ الاقليم ، ومدرسوهم وآباؤهم يقتطعون الأخشاب لكى تستخدم فى التدفئة بدلا من الفحم • واذا اتسعت الفجوة التى فى جدار حجرة الدراسة ، فلم تعد تحجز الحرارة المنبعثة من الموقد ، قام أحدهم باصلاحها • وكان البعض يتطوع بتنظيف الجدران • كان الناس فى كل مكان يتطوعون بمد يد المعونة الينا • وثمة حدث آخر عظيم وقع لنا ، ذلك أن رجال الأعمال بالمقاطعة ، الذين كنت قد دعوتهم الى مكتبى ، وعاونونا على خوض معركة بقائنا ، هؤلاء الرجال الذين كانوا على علم بالحالة المالية لنظام مدارسنا بالمقاطعة ، أعطوا قروضا طويلة الأجل الى المدرسين والخدم وسائقى السيارات المدرسية ، ولكل من يعملون فى نظامنا المدرسى •

وقال أحد رجال الأعمال هؤلاء : انكم اذا انهرتم انهرنا معكم •

وظل هؤلاء الرجال يعطوننا قروضا حتى نضب معينهم • ولو وجدت على الأرض جماعة تعمل متساندة متكاتفة ، لكننا نحن هذه الجماعة • لقد صارعنا

المشكلة الكبرى التى تواجهنا ، ونحن ، المدرسون ، ومدير مدارس المقاطعة ، وعمال المدارس ، لم نخذل الشباب الذين كانوا يعولون علينا ، ولم نخذل المقاطعه والولاية والشعب ، الذين كانوا يعولون على هؤلاء الشباب • وأخذت أقوم بزيارة المدارس ، وأخطب فى المدرسين والتلاميذ قائلا : انه سيكتب لنا البقاء ، واننا لا يمكن أن نفشل ، وأنه ما دام المدرسون يعملون بدون أجر فيحسنون العمل ، بل يؤدونه خيرا مما لو كانوا يتقاضون أجرا ، ومادام التلاميذ يجيئون الى المدرسة لا يستر أجسامهم من الثياب الا القليل ، وليس لديهم ما يقتاتون به سوى البطاطس المخبوز ، والخبز الجاف ، فلن يقف شىء ما فى طريقنا •

ولكنى كنت أعيب على مدرسينا شيئا واحدا ، فقد سمعت القليل منهم يقولون : ما أنا الا مدرس كبقية المدرسين • فكان هذا القول يضرم فى جسدى نارا ، ونهيت المدرسين عن أن يفوهوا بمثل هذا القول أبدا ، وطلبت اليهم أن يسيروا رافعى الرأس ، فى عزة وشمم ، وأن يحمدوا الله على أنهم قد اختاروا مهنة التدريس أم المهن جميعا ، وأنهم من بين سائر المواطنين ، هم الذين يعملون فى جبهة القتال • لقد كنت أومن بذلك فى أعماق قلبى وعقلى ، أومن بأن مهنة التدريس هى أعظم المهن جميعا • لقد كانت المدرسات منهم يسمعن طبعا كما كنت أسمع ويسمع كل شخص آخر ، التعليقات التى تقال عن المدرسات « العوانس » ، ففى القصص ، والكتب ، وأفلام السينما ، تظهر المدرسات العوانس فى صورة تبعث على السخرية •

واعتقدت حينذاك ، ولا زلت عند اعتقادى هــــذا ، أنه لو استطاع المخرجون أن يصنعوا فيلما قويا يبرز ما يقوم به المدرسون من جهود ، لكان فيلما يبلغ من النجاح غايته ، وأنه لو انبثق من بين صفوف المدرسين كاتب موهوب ، فوضع مؤلفا يمجد به مهنته ، لكتب لهذا الرجل الخلود • ذلك لأنه ليست هناك مهنة من المهن ، تؤثر بطريق مباشر أو غير مباشر ، فى مصير هذا العدد الضخم من أبناء كل شعب ، كما تؤثر مهنة التدريس •

(١٦)

وفى خلال المدة التى قضتها مارجريت ريريدان تعمل سكرتيرة لى ، لم أشهد عليها مظاهر الخوف سوى مرة واحدة • لقد اعتادت رؤية النــاس يتشاجرون ويتنازعون فى مكتبى ، بحيث أصبحت تعتبر فض هذه المنازعات

جزءا من عملها اليومى ، فكثيرا ما كان يفد الى مكتبى رجلان بينهما نزاع يريدان أن أفصل فيه ، وكان الغضب يبلغ بهما حدا يجعلهما يتماسكان ويتضاربان ، ثم يغادران المكتب وهما ، فى أكثر الأحيـان ، يتضاحكان ويتحادثان ، فقد أصلحت مارجريت بينهما ، اذ كانت تمتاز بما يمتاز به الأيرلنديون من أبناء جنسها ، بالذكاء ، والنكتة والدبلوماسية ٠ بيد أنه حدث ذات صباح أن سمعنا دقا عاليا على باب المكتب ، وكأنما يقرع شخص الباب بدقماق ضخم من الخشب ٠ وكان هذا أمرا غير عادى ، فقد كان كل قادم الينا يفتح الباب ويدخل ، اذ لم نكن نستقبل الناس بمواعيد ، وكنا دائما على استعداد لمقابلة الجمهور ٠ وهذا مما جعل مارجريت تندفع نحو الباب ٠

وقالت بصوت متهدج صباح الخير يا مستر بلدسو ٠ هلا تفضلت بالدخول ؟

ثم أضافت قبل أن يجد وقتا للرد عليها : هل من خدمة نستطيع أن نقدمها لك يا مستر بلدسو ؟

فأجاب قائلا كلا ٠ انك لا تستطيعين مساعدتى فى شىء ٠ أريد أن أقابل رئيسك ٠

ورفعت رأسى من مكانى خلف المكتب ، فرأيت بلدسو واقفا بالباب ، وكاد يبلغ فى طوله وعرضه،الباب طولا وعرضا٠وقد رأيته مرة فى محل لونسن لبيع المصنوعات المعدنية فى لانزبيرج ، يباهى بقوته ، فحسر كميه ، وأظهر لبعض المعجبين من الشباب عضلاته البارزة ، ثم وقف على الميزان فانحرف مؤشره حتى وقف عند ٢٩٦ رطلا ٠ والآن ، حين وقف ينظر الى ، كانت عيناه السوداوان تلمعان كأنهما جمرات تتوهج فى الظلام ٠

وسألته قائلا : هل من خدمة أؤديها اليك يا مستر بلدسو ؟

فصرخ يقول غاضبا : أجل ٠ لماذا لم يدفع لى أجر نقلى الفحم فى العام الماضى ؟

ثم سمعت خلفه فى المشى المعتم ، رجالا يتحدثون فى أصوات منخفضة ٠ وسمعت لعنات وضحكات ٠ ولعل سر الخوف الذى أصاب مارجريت ريريدان سكرتيرتى ، أنها رأت هؤلاء الرجال حين فتحت الباب ٠

فقلت : ليس لدينا مال يا مستر بلدسو • ولو كان لدينا المال لدفعنا كل هذه الفواتير القديمة • أنا أعلم أنها ديون علينا ، وسوف ندفعها بمجرد أن يكون فى استطاعتنا ذلك •

فقال وهو يكشر عن أنيابه فبدا صفان من أسنان ناقصة : لا تلق على مسامعى هذه الأغنية القديمة ، فقد سمعتها من قبل •

فسألته قائلا : حسن ، هل سمعت أن بنك لانزبيرج قد أفلس وأغلق أبوابه على كل ما كان لدينا من رأس مال ؟

فقال : هذا ليس من شأنى • لقد جئت لآخذ السبعة عشر دولارا التى تدين بها لى • ومعى هنا أيضا الكثيرون من العمال ، وهم يريدون نقودهم ، وأنا أريد نقودى •

ثم أقسم بالله وهو يقول : يحسن بك أيضا أن تدفع لى نقودى •

فقلت : لا نستطيع أن ندفع لك • ان كل مدرس فى هذه المقاطعة يعمل بلا أجر • ان مس ريريدان سكرتيرتى وأنا وكل من عدانا يعملون بلا أجر •

فصاح قائلا : لا أصدق هذا • لو كنت تعمل بلا أجر ما كنت ترتدى هذه البذلة البديعة ، وهذه الياقة الجميلة ، ورباط العنق الرائع •

وانبعث فى الممشى من خلفه هدير ضحكات غليظة •

وقال : لقد جئت لأطالب بنقودى ، وسوف آخذها • اننى أعطيك مهلة خمس دقائق •

فقلت : قلت لك انه لا مال لدينا •

فقال متوعدا : اذا لم تدفع لى نقودى ، فسأنتزعها من جلدك اللعين •

وحين فاه بهذه الكلمات شعرت فجأة بحرارة شديدة ، فعبرت الحجرة متجها نحوه ، ولم يكن قد تزحزح عن موقفه من الباب •

وقلت وأنا أقترب منه قربا يسمح له بضربى ، وأنظر فى عينيه مباشرة : اسمع • سأقول لك ما سوف أفعله • استمعى يا مس ريريدان الى هـــذه

الصفقة • اذا ضربتنى فغلبتنى ، سأذهب فأقترض نقودا وأدفعها لك بنفسى ، واذا ضربتك فغلبتك ، تكون هذه المقاطعة قد دفعت لك الدين الذى لك عليها أجرة نقلك الفحم •

وصعق الرجل • فقليلون هم الذين خاطبوا هذا الرجل الذى حكم عليه يوما بالسجن فى اصلاحية ولاية كنتكى باللهجة التى كنت أخاطبه بها الآن • وكنت أعنى ما أقول ، فلم أعد أخاف منه ، وكنت أعرف الطريقة التى أقاتله بها ، فلن أعمد أبدا الى لكمه ، وانما كنت أنوى أن أرمى بجسمى الذى يزن ٢٢٢ رطلا فوق ساقيه الطويلتين ، فأزيحهما من تحت جسمه بانقضاضة مفاجئة تجعل وجهه ينبطح فوق الأرضية المصقولة • ولم أكن لألقى بالا الى قميصى الأبيض ، وبذلتى الجميلة ، فلن أدع هذا الرجل يخدعنى بمظاهر شجاعته الكاذبة • وحين واجهت تهديده بتهديد مثله ، انقطعت ضحكات القوم من خلفه ، فساد سكون مفاجىء ، ثم أخذ القوم يتهامسون •

فقال وهو يتفحصنى بنظره هل تعنى هذا ؟

فقلت وأنا أتفحصه بنظرى : اننى أعنى كل كلمة مما قلت • ولكنا يجب أن نعقد اتفاقا قبل أن نتقاتل ، هو أن نحرر عقدا يقضى بأنه فى حالة ما اذا كسبت أنت المعركة أقترض أنا النقود وأدفع لك سبعة عشر دولارا ، واذا كنت أنا الفائز تكون مقاطعة جرينوود قد دفعت لك هذا الدين • وسنوقع نحن الاثنين على هذا الاتفاق بحضور شهود ، ولتكن مس ريريدان وواحد من رجالك هما الشاهدين •

وتفحصنى الرجل بنظره مرة أخرى ، ونظر الى من أخمص قدمى الى قمة رأسى ، ثم استدار ، وانطلق فى سبيله •

وقال واحد من رجاله يسأله : ماذا حدث يا رجل ؟ اياك أن تكون خائفا منـــه !

فقال لرجاله : هيا بنا • اتبعونى •

فقلت وأنا أرقب هؤلاء الرجال يهبطون درجات السلم اذا أراد رجل أن ينتزع الدين الذى تدين له به مقاطعة جرينوود من جلدى ، فسأدفعه له بهذه الطريقة • وينطبق هذا القول أيضا على أصحاب بنك لانزبيرج الأهلى •

وكانت هذه آخر مرة يأتى فيها رجل الى مكتبى لكى يهددنى بشأن دين لم تستطع مقاطعة جرينوود الوفاء به •

(١٧)

وفى هذه الليلة من ليالى الشتاء ، التى يهبط الظلام فيها مبكرا ، تحدثت الى صديقتى نومى دين بالتليفون من مكتبى ، وسألتها اذا كنت أستطيع أن أمر عليها فى بيتها وأنا فى طريقى الى بيتى ، وقلت لها اننى سأجيئها بمفاجأة لم أرها لأحد قط ، فقالت انه يسرها رؤيتى ٠

واستخفنى الفرح ، اذ كان من الأهمية بمكان أن أقابلها فى تلك الليلة٠ ثم أخذت الأصول التى جمعتها مع بعضها ، وهى أشعار كنت قد كتبتها وأنا أحرث الأرض ، حين كنت أقوم بالزراعة فى بلدتى فى الصيف الماضى ٠ وكنت قد كتبتها فوق أوراق الشجر ، وعلى الأكياس التى يجمع فيها التبغ ، وعلى قصاصات من أوراق قديمة ، كنت ألتقطها من الأرض هنا وهناك ٠ وحين توليت وظيفة مدير مدارس مقاطعة جرينوود ، أخذت أكتب هذه الأشعار على الآلة الكاتبة فى مكتبى أثناء الليل ، اذ كانت مارجريت ريريدان سكرتيرتى تكتب عليها أثناء النهار ٠ وكان لدينا فى المكتب ذخيرة كبيرة من ورق جيد النوع ، كنا نستخدمه فى كتابة محاضر اجتماعات مجلس التعليم ، بيد أننى وجدت بابا آخر لاستخدام هذا الورق ، فأخذت أكتب عليه الشعر بالآلة الكاتبة ، وكانت تبدو أشعارى وهى مكتوبة على هذا الورق جميلة مرتبة ، أو هكذا يخيل الى ٠

ووضعت هذه الأصول تحت ابطى ، وأطفأت أنوار المكتب ، ثم أغلقت الباب ٠ وأخذت أسير فى الشارع المظلم مسافة تقرب من نصف ميل ، حتى اذا بلغت ذلك البيت ، الذى أعرفه كل المعرفة ، والذى ذهبت اليه مرات كثيرة قبل ذلك ، ذرعت الشرفة ، ثم قرعت الجرس ٠ وفتحت « نومى دين » الباب وقالت تحيينى : أدخل يا جيس ٠

ووقفت برهة أتطلع اليها ثم قلت : هـــذه هى المفاجأة التى لابد أن أريكها ٠

فقالت تسألنى وهى تأخذ الأصول منى : ما هذا يا جيس ؟ أهى مقالات أخرى فى التربية ؟

وقبل أن أجيب على سؤالها كانت قد قلبت الصفحة الأولى ٠

فهتفت قائلة : أشعار ؟ أهى من تأليفك ؟ كلها ؟

فقلت : أجل ٠ وأريد منك أن تقرئيها ، وأن أعرف رأيك فيها ٠

ثم جلسنا فوق الأريكة ، وأخذت تقلب الصفحات وتقرأ ٠ وجلست أرقب التعبير الذى يكسو وجهها الجميل ، وهى تقرأ القصيدة تلو القصيدة ٠

وفى كثير من الأحيان كانت تضحك وهى تواصل القراءة ، وفى بعض الأحيان تبتسم ، وفى أكثر من مرة ، كانت تمسح الدموع من عينيهـــا الزرقاوين ٠

وتركت القصائد ونظرت الى وهى تقول : جيس ، لقد كنت أعتقد دائما أن لديك موهبة ما ، بيد أننى لم أكن أعرف أن لديك هذه الموهبة ٠ اننى أعتقد أن هذه القصائد ممتازة ٠ انها تقرأ كأنها قصة ٠ لعلى أكون مخطئة ، أو لعلى لا أحسن الحكم على الشعر ، لكننى قرأت أشعارا فى المجلات الكبيرة ليست أجود من هذه ٠

فقلت : اذن فهى تعجبك حقا ٠

فقالت : لا شك فى ذلك ٠ ان هذه الأشعار تهزنى ٠ ولن يدهشنى أن تصدر فى كتاب ، ويعجبنى هذا العنوان أيضا : « الرجل ذو المحراث » ٠

فقلت : يسعدنى أنك تعجبين بالأشعار والعنوان ، ولا شىء يسعدنى أكثر من ذلك ٠

فقالت ضاحكة : ولا حتى فطيرة التفاح وقهوة ساخنة ؟

فقلت : أنت تعرفين أكثر ما يسعدنى ٠

فقالت : عليك أن تساعدنى فى عمل القهوة ٠ هيا بنا ٠

وذهبنا الى المطبخ حيث كنا نضحك ونتحدث ونحن نصنع القهوة ٠ لقد صنعنا القهوة وأكلنا الفطير والكعك فى هذا المطبخ عدة مرات قبل ذلك ٠ ولم نتحدث عن المدارس ، أو عن المعركة التى تخوضها مقاطعة جرينوود ضد مدينة لانزبيرج ، ولم نذكر فى حديثنا أيا من أعدائى ، الذين هم أصدقاؤها ٠ لقد نسينا كل هذا ونحن جالسان الى مائدة المطبخ ، نأكل الفطير ونشرب القهوة ٠

وما ان قضمت أول قضمة من الفطيرة حتى قلت : هذه أحسن فطيرةذقتها فى حياتى • انها أحسن فطيرة صنعتها •

فقالت وهى تبتسم لى ، حيث تجلس قبالتى : يسرنى أنها أعجبتك •

فقلت بعد أن ابتلعت أول رشفة من القهوة : وهذه القهوة بديعة أيضا •

ثم جلسنا صامتين ، وكل منا ينظر الى الآخر • لقد كانت « نومى دين » فى تلك الليلة أجمل من أجود أنشودة سطرت فى اللغة الانجليزية • لقد كنت أحاول منذ زمن بعيد ، أن أكتب واحدة أو أكثر من هذه الأناشيد • لقد مرت السنون سراعا منذ قابلت « نومى دين » ، كما تهب الريح الرطبة على حقول الربيع الخاوية • لقد صادقت فتيات كثيرات ، ولكننى كنت دائما أعود اليهـــا •

وقلت : أليس شيئا جميلا أن يكون لنا معا بيت صغير به مطبخ كهذا ، حيث نجلس فى المساء فنأكل فطيرة التفاح ونشرب قهوة ساخنة ؟ ان العيش معك بين هذه الجدران فيه سكينة وجمال •

فقالت وهى تبتسم ابتسامة حلوة : هذا حلم جميل ، ولكن كيف يمكن أن يصبح حقيقة ؟

فسألت قائلا : ولماذا لا يمكن أن يصبح حقيقة ؟

فأجابت قائلة : قد يصبح كذلك فى يوم من الأيام •

فقلت لنفسى : قد يصبح فى يوم من الأيام ، ولكن متى ؟

وأخذت الأفكار تومض فى رأسى • لقد كانت « نومى دين » تعلم أننى أتقاضى مائة وخمسة وعشرين دولارا فى الشهر ، ولكننى لم أكن أحصل على مرتبى • وكانت تعلم أنه لا يلوح لى أى أمل فى أن أحصل عليه • لقد كنت أعمل بلا أجر ، ولم يكن لدى من النقود ما أدفعه للحلاق ، فكنت أحلق لنفسى، وكان ابن عمى جلين هلتون يقص لى شعر رأسى بلا مقابل • وكنت أنظف حذائى وأكوى ملابسى بنفسى • وثمة شىء آخر كانت تعلمه « نومى دين » أيضا • كانت تعلم أنها فى أكثر من مناسبة كانت تضع فى يدى النقود لكى أدفعها ثمنا لتذاكر السينما حين نخرج معا ، وكانت تدفع ثمن القهوة والشطائر التى نتناولها بعد انتهاء العرض •

غير أن « نومى دين » كانت تعرف أيضا قيمة النقود • لقد كانت هى أيضا تعرف معنى أن يكون للمرء مطامح ، وأن تكون لديه الرغبة لعمل شيء بنائي خليق بالكدح والكفاح ، فاقترضت مالا لتدفع مصروفات السنة الأولى بالكلية ، وهذا شيء لم تفعله واحدة ، بله الكثيرات من الفتيات ممن نشأن فى لانزبيرج •

وبعد أن درست عاما واحدا فى كلية المعلمين بمورهيد التابعة للولاية ، حيث حازت على تقديرات ممتازة ، حصلت على شهادة التدريس ، وبدأت أول عام لها فى هذه المهنة ، بالتدريس بمدرسة لوار لامبيرت الريفية ، التى لم تكن تبعد كثيرا عن ماونتن فيو • وكثيرا ما كانت تعود الى بيتها فىلانزبيرج راكبة جوادا مسافة تبلغ ثمانية عشر ميلا ، فى طقس الشتاء البارد • وردت المال الذى اقترضته ، ثم اقترضت ثانية ، وعادت الى كلية المعلمين بمورهيد لتقضى العام الثانى من الدراسة فيها • وعادت تقوم بالتدريس مرة أخرى بمدارس مقاطعة جرينوود الريفية ، وهكذا ظلت تعمل بالتدريس لكى تدفع مصروفات الكلية الى أن تخرجت •

ثم خلت وظيفة مدرس فى مدارس المرحلة بمقاطعة جرينوود ، فقدمت طلبا للعمل بها ، وحصلت على الوظيفة بمرتب يزيد عن ذلك الذى كانت تتقاضاه من قبل ، لأنها أصبحت ذات خبرة بالتدريس ، وحاصلة على شهادة من الكلية • وكان هذا المرتب هو ثمانين دولارا فى الشهر ، كانت تصرف منها على ملابسها ، وأسهمت فى نفقات انشاء حمام فى بيت أهلها ، اذ كانت تساعدهم ماليا • ومما جعلها تعرف قيمة النقود ، الخبرة العملية التى اكتسبتها من تعليم نفسها على نفقتها ، والعمل بالتدريس لكي تكسب عيشها ، ولذلك كانت تدرك أنه يكاد يكون من المستحيل أن يعيش شخصان على مرتب مدرس واحد ، وأن كلا منا ، بغض النظر عما يربط قلبينا من عاطفة ، لابد أن يعمل ، وأن يتقاضى أجرا ، قبل أن يتحقق لنا الاكتفاء الذاتى • وكان هذا هو السبب فى أننا كنا نأمل وندعو الله ، كما يأمل ويدعو الله زملاؤنا فى مهنة التدريس، أن تزاد مرتباتنا فى يوم من الأيام •

وقالت « نومى دين » لكى تقطع السكون الذى كان حينئذ يلفنا : أنت تعلم يا جيس أننا علمنا أنفسنا لكى نلتحق بمهنة التدريس ، والمفروض أننا أناس أذكياء ، فعلينا أن ننظر الى هذا الموقف بشيء من الذكاء ، وأن نواجه الحقائق •

ولم أرد عليها لأننى لم أكن أحب هذه الحقائق ، وكانت هى تعلم ذلك •

فقالت وهى تبتسم لى : هيا ننظف المائدة •

ثم رفعت بضعة الأطباق من المائدة فوضعتها فى الحوض ، وأخذت تغسلها وأنا أجففها ثم أضعها فى مكانها ، وكنت أعرف أين أضع كل طبق منها ، فقد غسلنا الأطباق وجففناها ووضعناها فى أماكنها عدة مرات قبل ذلك •

وبعد أن فرغنا من الأطباق قالت : أنت تدير الأسطوانات فى الحاكى ، فى حين أقرأ أنا الشعر ، أتحب ذلك ؟

قلت : غاية الحب •

فعدنا الى حجرة الاستقبال ، حيث أخذت أدير أسطوانات من موسيقى شوبيرت فى بطء ورقة ، فى حين أخذت هى تقرأ ، بصوت عال ، الأشعار التى جئت بها اليها • وأخذت أعيد ، المرة بعد المرة ، مقطوعة « السرنادة » لشوبيرت ، و « صوت الربيع » لشتراوس ، و « افتتاحية حلم ليلة صيف » لمندلسن • وكثيرا ما كانت تترقرق عينا « نومى » بالدموع وهى تقرأ بعض الأشعار ، فقد كانت ترى فيها روح الشتاء ، وترى فيها الحزن الذى ينبعث من « سرنادة » شوبيرت ، اذ أننى كنت أستمع الى تسجيلات هذه الموسيقى طوال الفترة التى كتبت فيها هذه الأشعار • وحين قرأت الأشعار التى تتناول الربيع ، تبدلت مشاعرها من الحزن الى المرح والبهجة ، وهى المشاعر التى تثيرها موسيقى « صوت الربيع » ، اذ كنت أيضا قد كتبت بعض الأشعار وأنا أستمع الى هذه الموسيقى المرة بعد المرة •

كان صوتها رقيقا جميلا ، ألبس الأشعار معنى جديدا مختلفا ، لم تكن تحمله حين كنت أكتبها • وأخذت أصغى لها وهى تقرؤها ، وأنا أملأ الحاكى ، وأبدل الاسطوانات ، حتى منتصف الليل ، وهو الوقت الذى يتعين فيه أن أنصرف ، وحينذاك كنت أترك حلم الحب ، والسكينة ، والجمال ، خلف تلك الجدران ، التى هى ملجأ وملاذ ، ثم أواجه ريح الشتاء مسافة خمسة أميال ، أخترق فيها الظلمات الباردة ، فوق سلسلة التلال الوعرة المرتفعة ، التى تقع بين لانزبيرج وبيت أبى •

(١٨)

ولم أستطع أن أواصل الاقامة فى فندق لانزبيرج ، بعد أن عجزت عن دفع أجرة الحجرة والطعام عن الشهر الأخير ، كما أننى عجزت عن دفع فواتير غسل الملابس وتنظيفها • وكان يملك فندق لانزبيرج ويديره أناس من مدينة لانزبيرج ، الذين لم يكونوا ليعطفوا على رجل حارب نظام مدارسهم • ولذلك كان الأمر متعبا لى كل التعب ، اذ أن لانزبيرج ــ وهى مركز الحكم لمقاطعة جرينوود ــ كانت تقع فى الجزء الشمالى الأوسط من المقاطعة ، وكانت كل طرق المقاطعة الرئيسية تؤدى اليها •

وكنت أعلم أننى حين أعود الى الاقامة فى بيت أبى ، سيكون المشى مسافة خمسة أميال من مكان عملى الى البيت ذهابا وايابا فى طقس الشتاء ، أمرا بالغ الصعوبة • بيد أن ذلك لم يكن ليحول بينى وبين قيامى بوظيفة مدير مدارس مقاطعة جرينوود ، تلك الوظيفة التى لم أعد أتقاضى عليها أجرا • لقد كنت مصمما على مواصلة عملى ، ولم يكن ليمنعنى من ذلك سوى الموت أو المرض • لقد كنت أقاتل حتى النهاية المريرة •

وكنت أذهب غاديا رائحا الى عملى ، أسير فى شوارع لانزبيرج فى كبرياء مرفوع الرأس ، وان كان يعصف بى بعض الخوف ، اذ كان أهلها فى ذلك الوقت يحتقروننى كما لم يحتقروا أحدا من قبل • ولذلك كانت السعادة تغمرنى حين كنت أسلك الممر الذى يلتوى ملتفا حول التلال المرتفعة ، سائرا وسط الوحل والثلوج والأمطار ، لكى أعود الى بيت أهلى ، وهـــو كوخ من جذوع الأشجار بناه جدى « ناثان هلتون » ، وعاونته فى البناء • كان يبلغ من العمر خمسة وسبعين عاما ، وكنت أنا صبيا فى الرابعة عشرة من عمرى ، حين بنينا هذا البيت ، فقد وضعنا بأيدينا كل قطعة خشب وكل حجر فيه ، فى الوقت الذى كان أبى يعمل فى السكة الحديد ، لكى يدفع ثمن الأرض • وفى هذا الكوخ ، الذى لم يكن بغير شك أفضل بيت فى المجتمع المحلى ، كما لم يكن أسوأ بيت فيه ، كنت أعرف أننى سأجد دائما فراشا آوى اليه • وكنت أعرف أننى سأجد طعاما ، اذ كنا قد ادخرنا فى أعوام الرخاء ، ما يمكننا من العيش فى الأعوام العجاف • ان أحدا الآن لا يستطيع أن يرغمنى على التخلى عن عملى لأننى لا أجد ثمن الطعام والمأوى ، كما كان الحال فى فندق لانزبيرج • لقد كانت ساقاى قويتين ، والريح مواتية ، والمشى عشرة أميال فى اليوم لم يكن أمرا شاقا بالنسبة لى •

وكثيرا ما كنت أدخل مكتبى وقد تجمد الثلج فى شعرى ، اذ كنت أسير عارى الرأس ، لا أبالى بالأمطار أو الثلوج • وحين أصل الى مكتبى فى الصباح ، يكون معى مجموعة من أشعار مكتوبة بخط لا يكاد يقرأ ، اذ أكون قد كتبتها تحت مطر الشتاء المنهمر ، وذلك لكى أستطيع تسجيل الأصوات التى يحدثها ماء المطر وهو يضرب أوراق البلوط ، تسجيلا دقيقا • واذا رأيت فى الطريق شيئا يثير فى ذهنى ما يدفعنى لكتابة الشعر ، جلست فوق جذع شجرة مقطوع، أو فوق صخرة ، ودونت الأفكار التى تراودنى ، تماما كما كنت أفعل حين كنت أعمل بالمزرعة ، فى ذلك الصيف الذى انتخبت فيه مديرا لمدارس مقاطعة جرينوود • وكان هذا الوقت هو الوحيد الذى يمكننى فيه أن أكتب ، فلم أكن لأستطيع أن أسجل هذه المشاعر وأنا فى مكتبى ، حيث العمل يستغرقنى • بيد أنه حين يمضى النهار ، ويبسط الظلام رداءه على المدينة ، كنت أظل فى مكتبى ، وأكتب هذه الأشعار على الآلة الكاتبة التى تملكها المقاطعة ، وأستخدم الأوراق التى كنا نستعملها فى تسجيل محاضر اجتماعات مجلس التعليم •

وقبل انقضاء أحد عشر شهرا على بدء كتابة أول قصيدة بيوم واحد ، كتبت آخر قصيدة فى هذه الأشعار ، وكانت الثالثة بعد السبعمائة • وكانت كتابة هذه الأشعار بالنسبة لى ترفيها ومتعة بالغة • فحين كنت أكتبها وأنا أعمل فى المزرعة ، كانت شيئا يختلف عن الزراعة ، وحين كنت أكتبها وأنا أتولى وظيفة مدير مدارس مقاطعة جرينوود ، كانت شيئا يختلف عن المشكلات المدرسية • لقد كانت كتابة هذه الأشعار تمنحنى راحة ذهنية •

وبعد أن انتهى العام الدراسى بنجاح ، وسجلت درجات الألوف من تلاميذ المدارس الريفية ، ثم وضعت فى ملفات بمكتبى ، تقدمت ببرنامج لاصلاح المدارس يتكون من أربع نقاط ، أنفقت عليه كل ما لدى ، ووجهت كل ما لدى من طاقة خلاقة الى هذه المعركة ، من أجل اصلاح نظام المدارس العامة ، وكان هذا على وجه التقريب هو آخر عمل قمت به بينما كنت مديرا لمدارس مقاطعة جرينوود • فبدأت أولا بعلاج النظام المدرسى الثنائى فى كنتكى • فلم أكن أرى معنى لوجود نظام مدرسى للمدينة ، ونظام مدرسى ريفى،لكل منهما ضرائب مختلفة ، وقوانين مدرسية مختلفة ، فى حين يخضع النظامان لادارة تعليمية واحدة فى الولاية •

ولم أكن أرى معنى لأن يتلقى الطفل المولود فى المدينة ، تعليما أفضل من ذلك الذى يتلقاه الطفل الذى يولد بين الوديان أو فوق الجبال • وبدا لى أن

النظام الديمقراطى للمدارس العامة ، كان فى حاجـــة الى بعض الاصلاحات الديمقراطية ٠

ولو أتيح لرجل أن يلمس الحاجة الى هذا الاصلاح ، لكنت أنا هذا الرجل ، اذ كنت ألمسها بحكم وظيفتى ٠ لقد كانت الأقاليم المدرسية المستقلة الأربعة فى مقاطعة جرينوود تدفع لمدرسيها مرتبات محترمة ، وهى مرتبات باهظة ، اذا قورنت بتلك التى يتقاضاها مدرسو مدارسنا الريفية ٠ وكان يصرف لمديرى مدارس هذه الأقاليم المستقلة نفقات المكتب والمصروفات الشخصية ومرتبات تبلغ على وجه التقريب ثلاثة أضعاف ما كان يصرف لى ٠ ومع ذلك كان النظام المدرسى الذى أتولى ادارته نظاما شاسعا ، اذ كان يغطى مساحة تبلغ مئات الأميال المربعة ، فى حين أن النظم المدرسية التى كانوا يتولون ادارتها صغيرة متجمعة فى مساحة محدودة ، فلم يكونوا بحاجـــة الى أن يخوضوا بسياراتهم فى الوحل لكى يزوروا مدرسة من مدارسهم ، ولم يكونوا بحاجة الى السير فى ممر ضيق يفسد نبات الراجيد فيه لون ساقى البنطلون ، ولم يكونوا ليحملوا هم شىء قط ٠ وأحد هذه الأقاليم المستقلة فى مقاطعة جرينوود، الذى كان يقع فى منطقة تتركز فيها ثروة شركة السكة الحديد ، كان لايدرى ماذا يفعل بكل تلك الضريبة العامة التى كان يتحصل عليها ، وكان فى مقدوره أن ينفق على فرق كرة القدم وكرة السلة ما نصرفه نحن على أربع عشرة مدرسة ريفية ، يتلقى العلم فيها ما لا يقل عن خمسمائة تلميذ ، وكان فى استطاعته أن يستثمر الفائض من أمواله ، بل ان هذا هو ما حدث فعلا ، فى الوقت الذى كان المدرسون بالمدارس الريفية للمقاطعة لا يقبضون مرتباتهم ٠ لقد كان المدرسون الذين يعملون فى هذا النظام المستقل يتقاضون مرتبات تزيد على ضعف ما يتقاضاه مدرسونا ٠ وفضلا عن ذلك ، كانوا يتقاضون مرتباتهم بمجرد أن يحل موعد صرفها ٠ وكان السبب فى كل هذا ، التوزيع غير العادل فى الضرائب ٠ وكنا نحن الذين نساعد على تدعيم شركة السكة الحديد ، التى تدفع لهم هذه الضريبة المحلية الضخمة ٠ وكانت شركة السكة الحديد هذه تنقل البضائع من مزارع مقاطعة جرينوود ، والأخشاب من منحدراتها ، والفحم من مناجمها ، كماكانت تنقل الركاب ٠ ولعل أهالى مقاطعة جرينوود كانوا يفيدون هذه الشركة أكثر مما يفعل أولئك الذين يعيشون فى هذه المدن ٠ وكان محامو هذه الشركة يعملون على تركيز أكبر جزء من ممتلكاتهم فى المقاطعة ، لأنه كان لدينا قانون يخول لنا أن نتقاضى منهم نصف قيمة الضريبة فقط ٠

ولو لم يكن لدينا هـــذا النظام المدرسى الثنائى ما حاربتنا مدرسة لانزبيرج ، وما حاربناها ، ولكنا أرسلنا تلاميذ الثانوى المقيمين فى الطرف الشرقى الى مدرسة لانزبيرج · لقد كنت أعرف أن هذا النظام ، ما دام قائما ، سيكون مصدرا للمتاعب ، ذلك لأن ولاية كنتكى هى فى معظمها ريفية ، وفى هذه الحالة تكون الأوضاع مقلوبة ، فالذيل هـو الذى يهز الكلب ، لا الكلب هو الذى يهز ذيله ·

واقترحت ، بدلا من هذا النظام المدرسى الثنائى ، نظاما آخر هو « وحدة المقاطعة » ، وهو تبسيط للنظام المدرسى ، ويقضى بوضع الأقاليم المدرسية المستقلة ، والأقاليم المدرسية الريفية تحت ادارة نظام المقاطعة ، وجعل مدير مدارس المقاطعة رئيسا للنظام كله ، وجعل الضريبة المدرسية متساوية فى جميع الأقاليم ، وتقدير مرتبات المدرسين على أساس المؤهلات والخبرة · ويصبح لدينا ، وفقا لهذا النظام ، مائة وعشرون وحدة فى كنتكى ، تخضع لمدير مدارس الولاية ، ومجلس الولاية التعليمى · ومن شأن هذا الاقتراح تبسيط النظام كله ، اذ ندفع ما علينا من الضرائب المدرسية المحلية للولاية ، ونجعل الولاية ترد أموال هذه الضرائب ، كما تفعل بالأموال المخصصة لكل فرد ، بحيث توزع توزيعا عادلا على جميع مقاطعات الولاية ، وتأخذ قدرا معلوما من المال عن كل تلميذ مقيد بالمدارس · وبهذه الطريقة ، تساعد المقاطعات الغنية فى الولاية ، مثل مقاطعة جرينوود ، المقاطعات الفقيرة التى تكون عاجزة عن الصرف على مدارسها · وقد قضيت أياما وليالى ، أعد المقال الذى يتضمن هذه المقترحات ، وبعد أن فرغت منه ، لم أجد أحدا يوافق على نشره ·

ثم كتبت مقالا عن حقوق المدرسين الذين أمضوا مدة طويلة فى التدريس · ولم أكن أعلم شيئا عن نظم ترقيات المدرسين التى كان معمولا بها فى كثير من الولايات فى ذلك الوقت · بيد أننى كنت أرى مدرسين ممتازين بالمدارس الريفية فى مقاطعة جرينوود ، يسوقهم أمناء المدارس الجهلاء من مدرسة ريفية الى مدرسة ريفية أخرى ، بل يطردونهم من النظام المدرسى كله ، دون سبب معقول ، كما كنت ألاحظ فى نظام المدارس بمقاطعتنا أن المدرسين الذين يقومون بأعظم الجهود هم أولئك الذين سمح لهم بالبقاء فى مدرسة واحدة بضع سنوات · قد تكون هناك أسباب وجيهة لطرد المدرس من المدرسة · لكن ، أن يقوم أناس ليس لديهم أدنى فكرة عن فن التدريس ، وهؤلاء هم أمناء المدارس ، الذين لم يدرسوا أو يعدوا كما درس المدرسون وأعدوا ، أن يقوم هؤلاء بنقل المدرسين من مدرسة الى مدرسة ، دون سبب يبرر ذلك النقل

كان أمرا لا أفهمه أو أستسيغه • ورفضت كل الجهات التى بعثت اليها بهذا المقال أن تنشره •

ولو أتيح لأعضاء الادارة التعليمية بالولاية ، وأعضاء المجلس التشريعى ومجلس الشيوخ بها ، أن يذهبوا معى حين قمت بزيارة المدارس الريفية بمقاطعة جرينوود ، ولو أنهم وقفوا قليلا عند جبهة القتال ، بدلا من أن يقفوا بعيدا عن مسرح الأحداث الحقيقية ، لو أتيح لهم هذا ، فما أظن الا أننا كنا حصلنا على معاشات لكبار السن من المدرسين فى وقت أقرب ، ولكانت هذه المعاشات تصرف لمدة أطول مما هى عليه الآن • اننى لم أكن واحدا من الأوائل الذين ناضلوا من أجل تقرير معاشات لكبار السن من المدرسين ، فقد ناضل آخرون قبلى ، بيد أن أحدا من هؤلاء لم يناضل بمثل تلك القوة والعنف اللذين كنت أناضل بهما •

وقال لى أحد المدرسين فى مدارسى،وقد قام بالتدريس فى خمس وخمسين مدرسة ريفية ، انه كان يبتهل الى الله كل يوم أن يحفظ عليه صحته ، حتى يستطيع أن يواصل التدريس ، وانه اذا حانت منيته أن يميته فجأة ، بالسكتة القلبية • وقال انه لم يستطع أبدا أن يدخر شيئا ، وان التدريس هو مورد رزقه الوحيد ، وهو يخشى أن يرسل به الى ملجأ المعوزين فى المقاطعة • فكتبت مقالا خاصا عن هذا الرجل ، حتى يكون حجة تؤيد وجوب تقرير معاشات لمدرسينا • ولم يقبل أحد نشر أى من هذه المقالات •

بيد أن أعنف اتهام كتبته كان ذلك الذى وجهته الى نظام أمناء المدارس ، فقد كتبت كثيرا من المقالات عن هؤلاء الأمناء ، قلت فيها ان الولاية يجب أن تصدر قانونا بالغاء هذا النظام ، اذ ما دام المدرسون فى مدارس الأقاليم الريفية بولاية كنتكى يخضعون لادارة هؤلاء الدكتاتوريين الكسالى التافهين المختالين بأنفسهم ، فلن يكون لدينا نظام مدرسى على الاطلاق • وأرسلت المقالات الى الصحف والى مجلة تعليمية محلية ، فردت الى بالسرعة التى أرسلتها بها •

ولو أننى أرسلت هذه المقالات الى مجلات توزع فى جميع أنحاء البلاد ، بدلا من ارسالها الى مجلات صغيرة محلية ، لكان من المحتمل أن يكون لنضالى ضد هذه المساوىء نتائج أخرى •

ولم أنجح فى نشر واحدة من هذه المقالات ، وهاك ما حدث ، فقد جمعت كل هذه المقالات ، قبل أن أغادر مكتب مدير مدارس المقاطعة بأسبوعين ،

وكذلك مسودات موضوع بعنوان « مهد الحيات » وعددها أربعمائة وخمسون صفحة ، وتتضمن اتهاما ساخرا لبعض رجال التعليم الذين وقفوا ضد اجراء اصلاح فى المدارس لمنافعهم الشخصية ، ووضعت كل هذه المسودات والمقالات فى الكيس الذى يوضع فيه البن حتى امتلأ لحافته ، وحملتها الى الصخرة الكبيرة ، فى المرعى الذى نملكه ، ثم أحرقتها جميعا • وهكذا ذهبت جهودى طعما للنيران •

(١٩)

وفى صباح اليوم الذى يعقد فيه مجلس التعليم اجتماعه المعتاد ، وهو اجتماع قد يكون الأخير بالنسبة لى ، استدعيت بنتون دينجرفيلد الى حجرة فى الجزء من المبنى المخصص لمحكمة مقاطعة جرينوود،وتحدثت اليه مدى ساعة من الزمان ، فقد كنت أعلم أنه اذا كان هناك رجل عرف معنى الخطر ، فانه ذلك الرجل ، وكنت أعلم أنه يستطيع أن يحس بالخطر أكثر من أى رجل عرفته ، واذا كان ثمة من رجل يستطيع أن يبذل لى النصيحة،فقد كان بنتون دينجرفيلد ذلك الرجل •

فقلت أسأله فى غير مواربة : هل تعتقد يا مستر دينجرفيلد أننى أكون معرضا للخطر لو أنى حاولت أن أطلب مواصلة العمل فى وظيفة مدير مدارس مقاطعة جرينوود فترة أخرى ؟ هل تظن حقا أننى معرض للقتل ؟

فأجاب قائلا : جيس ، لقد سألتنى أن أقول لك ما أعتقد ، وسأكون صريحا معك • اننى أعتقد أن الخطر يحدق بك من جميع أنحاء هذه المقاطعة ، فيما عدا الطرف الغربى حول مدرسة ماكسويل الثانوية ، فهناك يحبونك ويحترمونك •

ثم قال موضحا : أما فى الطرف الشرقى من هذه المقاطعة ، فاننى أعتقد أنه كم من رجل لا يفهم أو يقدر ما فعلته من أجل هذه المقاطعة ، يرى فيك عدوا ، ويعتبر قتلك شرفا له • وليس برجل واحد هو الذى يريد قتلك ، بل هم كثيرون •

فسألته قائلا : ولكن لماذا يكون هذا شعورهم نحوى ؟ ان الطرف الشرقى من مقاطعة جرينوود هو ما أنتمى اليه ، وأهله هم أناس أعرفهم ، أو أعرف معظمهم طوال عمرى •

فقال بنتون مجيبا على سؤالى : لقد فعلت خيرا كثيرا فى وقت قصير ، وأنت رجل مستقيم وصريح ، ولا يستطيع رجال السياسة أن يسوسوك أو يوجهوك ٠

فسألته قائلا : هل يعيد أعضاء المجلس تعيينى اذا طلبت مواصلة العمل فى وظيفتى ؟

فقال : سيصوت فى جانبك أربعة أعضاء ، وسيصوت مونر بنتوورث ضدك طبعا ٠

فقلت أسأله : هل يمكن أن يعاد انتخابك لعضوية المجلس لفترة أخرى اذا أيدتنى ؟

فقال : اذا أردت الصدق ، اننا سنهزم جميعا حين تجرى الانتخابات من جديد اذا نحن أيدناك ، ولقد تباحثنا فى ذلك ، ولكنه أمر لا يهمنا ، فقد اتفقنا فيما بيننا على أن نناصرك حتى آخر لحظة ، فقد ناصرت هذه المقاطعة ، والرجال الشرفاء فى هذه الدنيا قليلون ، وأنت واحد منهم ٠

فقلت : أشكرك ٠

وكنت قد عقدت العزم على ما انتويت أن أفعله ، وهو ألا أترك مهنة التدريس ٠ لا ، فلست أنا الذى يفعل ذلك ٠

(٢٠)

وافتتح توبياس كلاكستون الاجتماع العـــادى ، وبينما كان الأعضاء يتخذون مجالسهم ، أخذت أفكر فيما قاله لى بنتون دينجرفيلد منذ لحظات ٠ لقد كنت أعلم أن منحة الحياة هى أعظم شىء على الأرض ، ولم أكن أريد أن أفقدها الآن ، فقد كان لدى أشياء كثيرة أريد أن أحققها ، وكان العمر ممتدا أمامى ٠

وقال مانلى بيرتون وهو ينهض من مقعده : أعضاء مجلس مدارس مقاطعة جرينوود ، اننى أتقدم باقتراح اعادة تعيين جيس ستيوارت ، مدير مدارس مقاطعة جرينوود ، لفصل دراسى آخر ٠

فصاح مونر بنتوورث قائلا : اننى أعارض هذا الاقتراح ... يا الهى ، كـــلا !

وأخذ يدق الأرض بقدمه ، وهو يقف خلف كرسيه ويقول : لا أستطيع أن أمضى معه دورة أخرى . ان دورة أخرى معه سوف تطيح بعقلى .

ونهضت من مقعدى قبل أن ينهض توبياس كلاكستون ليؤيد اقتراح مانلى بيرتون وقلت أعضاء مجلس مدارسى ، الذين عملت معهم كل هـــذا الزمن الطويل ، اننى أميل فى هذه المرةالى الموافقة على ما يقول مونر بنتوورث، وأظن أن هذه هى أول مرة .

وضحك الجميع الا مونر ، فلم يستطع أن يدرك أننا نتفق فى الرأى لأول مرة .

وقلت : اننى لا أريد أن يعاد تعيينى مديرا لمدارس مقاطعة جرينوود .

فكف أعضاء المجلس عن الضحك ، وأخذوا ينظرون الى بعضهم فى دهشة .

ثم قلت : ولكن ، بما أننى أتولى منصب مدير مدارس مقاطعة جرينوود، وبما أن وظيفة ناظر مدرسة ماكسويل الثانوية شاغرة للعام الدراسى المقبل ، فاننى أزكى نفسى لتولى هذه الوظيفة .

فصاح مونر قائلا : هل سمعتم بشىء كهذا ؟ انك لا تستطيع أن تفعل ذلك . انك لا تستطيع أن تزكى نفسك .

فسألته قائلا : لم لا ؟ لقد زكيت نفسى كما ترى .

فقال مانلى ووربيرتون : اننى أتقدم باقتراح تعيين جيسستيوارت ناظرا لمدرسة ماكسويل الثانوية للعام المقبل .

وقال بنتون دينجر فيلد : وأنا أؤيد الاقتراح .

وعندئذ أخذ مونر بنتوورث يضحك كما لم أره يضحك من قبل .

فقال ويليام دوسن : ما الذى يضحكك كل هذا الضحك يا مونر ؟

فقال مونر : اننى سأؤيد الاقتراح ، وبذلك أبعده هذه المرة عن المكتب كل هذا البعد ، ولعلنا فى المرة القادمة نؤيد اقتراحا باخراجه من مقاطعة جرينوود بأسرها ٠

فقلت : ليس ثمة ما يدعوك الى تأييدى يا مونر ٠ ان تركى هذا المكتب ليس معناه أنك تعود مرة أخرى الى العمل مع حفنة صغيرة من رجال السياسة المرتشين ، لتخون نظام مدارس المقاطعة ٠

فقال بنتون دينجرفيلد : وأنا أقول انه لن يفعل هذا ، فسوف أبقى فى هذا المجلس ما دام هو عضوا فيه ، اذا تمكنت من اعادة انتخابى ، لكى أحول بينه وبين أن يفعل ذلك ٠

وصوت الأعضاء على الاقتراح ، فحصلت على أصوات الأعضاء الخمسة جميعا ، وبذلك عينت ناظرا لمدرسة ما كسويل الثانوية للعـــام الدراسى المقبل ٠

الجزء الخامس

كم من مدرسة تخليت عنها

وكان تعييني ناظرا لمدرسة ماكسويل الثانوية شيئا شبيها بالحلم ؛ فقد أصبحت أتقاضى أكبر مرتب تقاضيته منذ اشتغالي بمهنة التدريس ، اذ حصلت في العام الأول على ألف ومائتي دولار ، على أن أحصل على زيادة قدرها مائة دولار في السنة ، في الثلاث السنوات التالية ٠ ولم أكن لأصدق ، بعد ما مر بي من تجارب ، أنني أصبحت ناظرا لمدرسة ثانوية يوجد في كل حجرة من حجراتها تليفون،وبها ملعب رياضي فسيح كنا نستخدمه في الألعاب الرياضية ، كما كنا نستخدمه أيضا بمثابة قاعة للمحاضرات ٠ وكان في أحد جانبيه حجرات بها حمامات للفتيات،وفي الجانب الآخر حجرات أخرى للفتيان، وكان هذا شيئا عظيما لدى هؤلاء القادمين من القطاعات الريفية الواقعة في الطرف الغربي ، اذ لم تكن تزيد نسبة عدد البيوت المزودة بحمامات عن اثنين في المائة ٠

وكانت جدران مبنى مدرسة ماكسويل الثانوية هذه من الكثافة بحيث انه لم يكن يسمع فيها أدنى صوت ، ما لم يكن باب أحد الفصول مفتوحا ٠ واذا سار المرء في الممرات أثناء الحصص ، فانه لا يحس أن هناك دراسة ، أو أنه يوجد في هذا المبنى ثلاثمائة وخمسون تلميذا ، واثنا عشر مدرسا ٠ انه لن يحس أن الدراسة تسير بالمدرسة الا عندما تدق الأجراس بعد نهاية كل حصة ، ويذهب التلاميذ من فصل الى فصل ، أو يذهبون الى المكتبة ،قاعة الدرس ٠ وعلى الرغم من وجود سكة حديدية مزدوجة لا تبعد عن المدرسة بأكثر من مائة ياردة ، تخترق وادي النهر الكبير ، ويمر عليها عدد من قطارات الفحم لعله يفوق عدد أية قطارات أخرى تذرع البلاد ، فاننا لم نسمع مطلقا نواح صفارات قاطراتها الضخمة ، وهي تمرق في أعماق الوادي ، بعرباتها المائة والستين المحملة بالفحم ، أو العائدة بها فارغة ٠

وكانت هذه القلعة ذات الجمال المعماري البديع ، مبنية فوق تل تنحدر منه الأرض انحدارا رفيقا في جميع الجهات ، ويواجه المبنى ناحية الشمال ، في الفناء الأمامي ، مناظر طبيعية خلابة ، وتنمو أنواع كثيرة من الأشجار دائمة الاخضرار ٠ وكانت توجد بين هذا الفناءوالطريق العام مساحات شاسعة

من المروج ، أهداها الى المقاطعة الدكتور ماكسويل ، الذى سميت المدرسة باسمه · وكان المزارعون فى وادى « النهر الكبير » يسوون هذه المروج دون أن يتقاضوا على ذلك أجرا · وفيما وراء الطريق العام ، كانت توجد سكة حديدية ، وفيما وراء هذه تقع المزارع ، ويقع النهر الكبير فيما وراءها ، وتقع مصانع الصلب فى أوهايو فيما وراء ذلك النهر ·

والى الشرق من مدرسة ماكسويل الثانوية ، كانت تقع تلال كنتكى المنخفضة · والى الغرب منها كان نهر التايبر يلتف أسفل التلال كالشريط الأبيض ، لكى يلتقى بالنهر الكبير · وكانت تقع بين ملعب كرة القدم بمدرستنا وبين نهر التايبر غابة بها أشجار صفصاف حديثة النمو ، وأشجار البرقوق البرى ، وأشجار التامول المائية ، وأشجار الاسفندان الفضية ، وأشجار البوقيصا ، فى حين كان يقع ، فيما وراء نهر التايبر ، سور من أوتاد ، يرتفع مشرعا نحو السماء · ولم أشهد مبنى مدرسة ثانوية فى شرق كنتكى بأجمعه ، أو فى جنوب أوهايو أروع أو أجمل من مبنى مدرسة ماكسويل الثانوية ، ولم أشهد مدرسة ثانوية فى أى مكان ، بها هذه المساحات الشاسعة من الملاعب ، ويحيط بها كل هذا الجمال · وهذه المساحات الشاسعة من الأفدنة ، هبة من الدكتور ماكسويل ، وهو مواطن من أوهايو ، كما أنه وهب المدرسة أيضا مكتبة عظيمة · وبعد أن رأى لاعبى كرة القدم بمدرستنا يلعبون دون غطاء الرأس الواقى ، اشترى للفرق الرياضية ما تحتاج اليه من معدات ·

والآن قد أتيحت لى الفرصة ، لأول مرة ، لكى أختار مدرسى مدرستى بنفسى ، وقد طلب منى ذلك تشارلز مانسن ، الذى خلفنى فى منصب مدير مدارس المقاطعة ، قبل أن أسأله عما اذا كان يخول لى هذا الامتياز · وكان تشارلز مانسن رجلا أنيقا ، فى أوسط العمر ، وقد خبر التدريس عشرين عاما ، فاشتغل بالمدارس الريفية ، والمدارس القروية ، ومدارس المدينة المستقلة ، كما تولى مرة نظارة مدرسة ماكسويل الثانوية · وبعد أن انتخب مديرا لمدارس مقاطعة جرينوود ، حددت معه موعدا لنناقش فيه الخطط الخاصة بمدرسة ماكسويل الثانوية ، وكانت مدة المقابلة ساعة واحدة ، ولكنها امتدت فاستغرقت النهار كله ، وناقشنا المسائل الخاصة بالمدارس العامة ، من حيث احتياجاتها ومستقبلها ، ولم أقابل فى حياتى رجلا مثله تتفق روحه مع روحى ، وآراؤه مع آرائى ، هذا الاتفاق العجيب · وكان رأيه فى نظام أمناء المدارس ، ومعاشات المدرسين ، وحقوق الأقدمية بالنسبة لهم ، والنظام الثنائى الجائر الذى تسير عليه المدارس فى ولايتنا ، يتفق مع رأيى فى هذا كله ·

وقد بدأت مشكلتى الحقيقية حين حاولت ايجاد المدرسين اللازمين لمدرستى، ذلك لأن خمسة وعشرين فى المائة فقط من المدرسين الذين كانوا يدرسون بمدرسة ماكسويل الثانوية حين كنت مديرا لمدارس مقاطعة جريبنوود · هم الذين طلبوا تجديد عقودهم · كانت مرتباتهم تقل عن مائة دولار فى الشهر ، ولم يتسلموا سوى نصف هذا المبلغ ، كما أن العام الدراسى أنقص شهرا ، فاشتغل أحد هؤلاء المدرسين ، وهو شاب ذكى لامع ، فى مدارس مدينة نيويورك ، ووجد مدرس آخر مكانا له فى ولاية ماساتشوستس بمرتب أفضل ، فى حين التحق ثالث بوظيفة مدرس فى المدارس العامة بولاية أوهايو، أما النصف الباقى من هيئة التدريس ، وهم ستة مدرسين قضوا سنى حياتهم الأولى يعدون أنفسهم لمهنة التدريس ، فان هؤلاء هجروا التدريس على الاطلاق، وذهبوا يبحثون عن مهنة أخرى · لقد كانوا مدرسين ممتازين ، وحاولت أن أقنعهم بأن يعودوا الى التدريس من أجلى ، ولكنهم أبوا أن يعودوا الى مهنة يتقاضون منها مرتبا يقل عن ثمانمائة دولار فى ثمانية أشهر · وبدأت الدراسة بالمدرسة الثانوية ، ولا يزال ينقصنى مدرس علوم ، ومدرس لغة انجليزية · وكان لابد لأحد هذين المدرسين أيضا أن يكون ملما بلعبتى كرة القدم وكرة السلة ، حتى يقوم بوظيفة مدرب ، علاوة على التدريس ·

وحدث فى أحد أيام الأسبوع الأول من الدراسة ، أن وقفت سيارة فى ساعة الظهيرة ، ونزل منها فتى وفتاة حسنا الهندام ، فسارا فى المشى ، ثم سألا أحد التلاميذ عن ناظر المدرسة ·

فقلت وأنا أتساءل فى نفسى عما يبغيان : أنا ناظر المدرسة ·

فقال الشاب يقدم نفسه : اسمى تشارلز ميرز ، وهذه مسز ميرز زوجتى · لقد سمعنا أن لديك مكانين شاغرين ، فذهبنا لمقابلة مستر مانسن مدير مدارس مقاطعة جرينوود ، فبعث بنا اليك ، وقال ان التوصية بتعييننا يجب أن تأتى منك أنت ·

فقلت أسأله : ما هى مادة تخصصك ؟

فقال انى متخصص فى مادتين هما العلوم والرياضيات ، غير أننى أفضل تدريس العلوم ·

فقلت أسأله : هل تستطيع تدريب الفرق الرياضية ؟

فقال : عندى خبرة خمس سنوات فى تدريب فريقى كرة القدم وكرة السلة ٠

فقلت أسأل زوجته : وماذا عنك ؟

فقالت : عندى تخصص فى اللغة الانجليزية ، والموسيقى ، واللغات ٠

فقلت وأنا أتساءل عما لو كانت هذه حقيقة : حسن ، أدخلا المكتب معى ٠

ودخلنا المكتب ، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث بقية فترة الظهيرة ، وعرفت السبب فى تقدم هذين الاثنين للتدريس بالمدرسة ٠ لقد عادت مسز ميرز ، بسبب مرض والدها وكبر سنه ، الى موطنها بمقاطعة قريبة ، تاركة وظيفة ممتازة فى مهنة التدريس ، فى ولاية الينوى ٠ وقد تخرجت ثاليا ميرز فى معهد الموسيقى (الكونسرفاتوار) بمدينة سنسناتى ، وحصلت على الليسانس والماجستير من جامعة كنتكى ، وتتجدث لغتين بطلاقة ٠ أما زوجها تشارلز ميرز فقد قام بجزء كبير من الدراسة للحصول على الماجستير ٠ وكان أبغض شىء الى نفسى هو أن أسألهما ما اذا كانا يقبلان المرتبات التى ندفعها لمدرسينا، فقلت ان ثاليا ستكون الوحيدة من بين أعضاء هيئة التدريس عندى ، التى تتقاضى مائة وثلاثة دولارات فى الشهر ، وان تشارلز زوجها سيتقاضى ستة وتسعين دولارا فى الشهر ، مقابل تدريس العلوم ، وتدريب فريقى كرة القدم وكرة السلة ٠

فقال تشارلز موافقا : أجل ٠ اننا نقبل الوظيفتين ، وسوف يمكننا أن نحيا حياة لا بأس بها بمرتبينا ٠

فقاطعت ثاليا الحديث قائلة : أتعلم يا مستر ستيوارت أن الانسان اذا بدأ فى مهنة التدريس ، فمن العسير عليه أن يتركها ٠ اننى حين أرى مبنى مدرسة ثانوية ، أشعر بالحنين الى العودة للتدريس مرة أخرى ٠

وفى أصيل ذلك اليوم ، أصبح تشارلز وثاليا ميرز عضوين فى هيئة التدريس بمدرستى ، وبعد ذلك بوقت قصير ، تم تعيينهما رسميا فى اجتماع خاص عقده مجلس تعليم مدارس مقاطعة جرينوود ، وبذلك اكتملت هيئة التدريس بمدرستى ، وكنت فخورا بأن يكون أعضاؤها من خريجى الكليات ٠ وهكذا بقيت مدرستنا مستوفية للشروط التى يتحتم توافرها فى المدرسة الثانوية ، اذ لو اضطررنا الى تعيين مدرس غير حاصل على درجة جامعية ، فان مدرستنا تسقط من قائمة المدارس الثانوية المعتمدة فى الولاية ٠

(٢)

وأعطانى مدير مدارس المقاطعة تصريحا بتنفيذ أية فكرة تتراءى لى ، يكون لها أثر فى المستقبل ، على تعليم الأهالى بالمقاطعة ، ففتحت أبواب مدرسة ماكسويل الثانوية لمدرسى المدارس الريفية بمقاطعة جرينوود ، الذين لم يتموا دراستهم الثانوية ، أو الذين لم يذهبوا الى المدرسة الثانوية على الاطلاق ، وذلك حتى يتموا دراستهم بمدرستنا ، بل اننى فتحت أبواب المدرسة لكل شخص لديه مؤهلات الالتحاق بالمدارس الثانوية ، دون النظرالى سنه ٠ كذلك سمح مستر مانسن لكبار السن بالدراسة فى المدارس الريفية ، اذا شاءوا ، أن يتلقوا تعليما ابتدائيا ، وكان هذا مما أتاح لكبار السن الذين حرموا من التعليم فى شبابهم ، العودة الى المدرسة ، فيدرسون حتى الصف الثامن ، ثم يتلقون الدراسة الثانوية ٠

وقد أبدى اثنان من أعضاء هيئة التدريس بمدرستى شكهما فى نجاح محاولة اعادة الأشخاص المتقدمين فى السن الى المدرسة ، ووضعهم فى فصل واحد مع تلاميذ الثانوى ، كما أن هذه الفكرة تعرضت لنقد كثيرين من أولياء الأمور ، الذين يتلقى أبناؤهم وبناتهم التعليم فى مدرسة ماكسويل الثانوية ٠ بيد أننى كنت أومن بأنها فكرة صائبة ، وأنها سوف تفيد عددا كبيرا من الناس ، وكنت أعلم أنه لن يضيرنا أن نقوم بالمحاولة ، فقد كانت ولاية كنتكى من ناحية انتشار التعليم ، بالنسبة لجميع ولايات الاتحاد ، الثانية من أسفل ، ولا يزال هذا مكانها حتى اليوم ، فلم يكن يلينا فى الترتيب سوى ولاية واحدة هى ولاية أركنساس ٠ وكان هناك قول شائع بين مدرسى ولاية كنتكى فى ذلك الوقت ، ولا يزال شائعا حتى اليوم ، وهو « الحمد لله على وجود أركنساس » ٠

وكنت أومن فى نفسى ، أنه اذا نجحت فكرتنا ، فمن المحتمل أن يحذو حذونا كثير من مقاطعات كنتكى ، فتعمل على الحد من انتشار الأمية فى الولاية . وكنت أريد أن أجعل من مدرسة ماكسويل الثانوية ، لا مدرسة نموذجية ، وانما مدرسة تؤدى خدمة عظيمة للمجتمع المحلى ٠ كنت أريد أن أجعل من هذه المدرسة الشعلة التى تنير الطريق للقضاء على انتشار الأمية بين كبار السن ، ولتثقيف الشباب وتعليمهم ٠

(٣)

وكانت أعمار تلاميذنا بمدرسة ماكسويل الثانوية تتراوح بين الحادية عشرة والتاسعة والستين ، فقد جاء كثيرون من مدرسى المدارس الريفية لكى

يتلقوا العلم فى مدرسة ماكسويل الثانوية ، وكان كثيرون منهم مدرسين لتلاميذ المدرسة الحاليين ، وكان شىء يبعث على الاثارة والتشويق ، أن يلاحظ المرء المنافسة على تلقى العلم ، بين التلاميذ ومدرسيهم السابقين ٠

وذات صباح ، قبل أن تبدأ الدراسة ، دخل مكتبى « كوج بينز » ، وقد أمسك فى يده كتاب الجبر للصف الأول ٠ وشعرت بالرثاء لذلك الرجل الطويل النحيل ، المدرس بالمدارس الريفية ، الذى ظل يدرس باحدى المدارس ذات الحجرة الواحدة ، مدى واحد وأربعين عاما ، لأن عشيرته تقيم فى هذا الاقليم ، وهى التى انتخبت أمناء المدارس ، وهؤلاء عينوه مدرسا لكى يدرس لأبنائهم وعشيرتهم.وكان معظم تلاميذه يرتبطون ببعضهم البعض بصلة القرابة. وحين دخل « كوج » مكتبى ، أدركت أنه يريد التخلى عن دراسة الجبر المقرر على الصف الأول ٠

وقال معتذرا بطريقته البطيئة الممطوطة فى الكلام : انى لأكره أن أضيع وقتك يامستر ستيوارت ، غير أننى يجب أن أتحدث اليك بشأن علم الجبر هـــذا ٠

فقلت : لا عليك من حرج يا مستر بينز ٠ ان هذه وظيفتى ٠ لقد لاقيت أنا أيضا صعوبة فى دراسة الجبر ، فلا تذهب نفسك عليه حسرات ٠ لقد بعثت الى بعضا من خيرة التلاميذ الذين درست لهم فى المدارس الثانوية ٠

فحاول أن يقاطعنى قائلا : ولكن يا مستر ستيوارت ٠٠

فقلت أتابع الحديث : اننا سعداء أنك تلميذ هنا ، وسنحاول أن نتساهل معك فى هذه المادة على قدر المستطاع ٠

فقال كوج بينز : ولكن هذه المشكلة ليست كما تظن ٠ ان مسز ليرد تقول انها لا تستطيع أن تدرس لى ٠

فقلت أنصحه : اذن فابق هذا العام فى الفرقة نفسها ، واستوعب هذه المادة على قدر استطاعتك ، ثم أعد دراستها مرة ثانية فى العام المقبل ٠

فقال : ولكننى أستطيع أن أحل كل مسألة فى هذا الكتاب ٠ لقد كنت أستطيع حل كل مسألة فى هذا الكتاب قبل أن تولد ٠

فقلت أكرر كلامه : تستطيع أن تحل كل مسألة فى هذا الكتاب ؟

فقال : ومسائل كتاب الصف الثانى أيضا ، وكل تمرين فى الهندسة !

فسألته قائلا : أين ومتى تعلمت الجبر والهندسة ؟

فقال : لم أتعلمهما فى مدرسة قط ·

وجلست وقد أخذت أنظر الى هذا الرجل · كم خدعت فيه ! لقد رأيته عدة مرات فى لانزبيرج ، حين كنت طالبا بالمدرسة الثانوية ، ودخلت معه أول امتحان للمعلمين ، اذ أننى أذكر وجهه النحيل الذى كأنه قطع بحد الموسى، ولحيته التى تركها نصف محلوقة ، وعجبت حينذاك كيف يمكن لرجل مثله أن ينجح فى امتحان المعلمين ·

وقال يقطع حبل السكون أتعلم يا مستر ستيوارت ، لقد كان بى دائما ظمأ الى المعرفة كما يظمأ الرجل الى الماء · وقد نشأت بين أحضان الجبال، حيث لم تكن هناك مدارس فى زمانى ، وكانت أقرب مدرسة تقع على بعد ثمانية أميال ، فكان ما حصلته من التعليم فى المدرسة ضئيلا كل الضآلة ، بيد أننى كثيرا ما كنت أجلس فوق المحراث ، وأدع الأعشاب الضارة تأتى على محصول القمح ، وأنا أقرأ الكتب وأحل المسائل الجبرية · ولم أكن واثقا من صحة الطرق التى أتبعها فى حل مسائل الجبر ، الى أن درست الجبر المقرر على الصفين الأول والثانى مع مسز ليرد ·

ثم قال فى صوت رقيق ، ولهجة متواضعة : وقالت لى مسز ليرد إننى أعرف فى علم الجبر قدر ما تعرف هى ، وهذا هو السبب فى أنها بعثت بى اليك ·

وتحدثت الى مسز ليرد بشأن كوج بينز فقالت : إنه أحسن طالب فى الجبر درست له فى حياتى · ان هذا الرجل يستطيع أن يحل مسائل الجبر الذى يدرس فى الجامعات ، ولا فائدة تجدى من ابقائه فى فصلى ، اذ أن فى ذلك مضيعة لوقته ووقتى · انه يستطيع أن يدرس لفصولى ·

فقلت : يحسن بى أن أتصل بمدير مدارس المقاطعة ، واسأله عما يمكن عمله مع تلميذ مثل كوج ·

واتصلت بمستر مانسن المدير ، فأحالنى الى قانون مدارس كنتكى الذى يتطلب من الطالب أن يحضر عددا معلوما من الدروس فى خلال مدة الدراسة

المقررة ، قبل أن يكون قد أتم وحدة الدراسة الثانوية • فكتبت الى مجلس تعليم الولاية بشأن كوج بينز ، فجاءنى منه خطاب يحيلنى الى فقرة معلومة ، فى صفحة معلومة ، من قوانين مدارس كنتكى ، وكان هذا نفس القانون الذى أشار اليه مدير مدارس المقاطعة •

وكل ما استطعنا أن نعمله مع كوج بينز هو أن جعلناه يقرأ كل كتاب فى المكتبة ، وأعطيناه أكبر عدد من العلوم يسمح له بدراستها فى العام الواحد ، وحينما كنا نحتاج الى مدرس بديل يدرس الهندسة والجبر والحساب، كنا نعهد الى كوج بينز بهذا العمل ، ولكنا لم نستخدمه بمثابة مدرس بديل فى تدريس اللغة الانجليزية أو أى علم من العلوم الاجتماعية ، اذ كان لدينا مدرسون آخرون من مدرسى المدارس الريفية يمكن أن نستخدمهم فى تدريس هذه المواد •

وكانت مارثا بنيون ، التى عادت الى استكمال دراستها الثانوية بالصف الثانى ، وهى فى سن التاسعة والستين ، قد قضت سنين عديدة تدرس فى المدارس الريفية بالمقاطعة • وكان خمسة من أحفادها (منهم ثلاثة يحصلون دائما على الدرجات النهائية) تلاميذ بمدرسة ماكسويل الثانوية ، وكانوا ينادونها « بالجدة بنيون » ، وسرعان ما أخذ كثيرون من سائر التلاميذ بالمدرسة ينادونها بذلك الاسم فى محبة واعزاز • وكل درجة حصلت عليها فى مدرسة ماكسويل الثانوية كانت الدرجة النهائية ، ولعلها كانت تعرف من قواعد اللغة مالا يعرفه أى مدرس بالمدرسة ، بما فى ذلك الناظر ، ومدير مدارس المقاطعة • وكانت تقوم بدراسة خمس مواد ، ولكنا كنا نستخدمها فى أحيان كثيرة بمثابة مدرس بديل لتدريس اللغة الانجليزية • ولم يكن لدينا مدرسة تستطيع ضبط النظام فى قاعة الاستذكار كما تفعل « الجـــدة بنيون » • وتخرجت فى مدرسة ماكسويل الثانوية بمرتبة الشرف ، ثم عادت الى التدريس بالمدارس الريفية •

وثمة مدرس آخر هو فيرنون مادين ، الذى عاد الى مدرسة ماكسويل الثانوية لكى يدرس ثلاث سنوات ، وكان يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاما • كان هذا الرجل قد أتم سنة واحدة من الدراسة بالمدرسة الثانوية ، ثم عكف على ممارسة رياضة الملاكمة ، ثم احترف لعب البيسبول وكرة القدم ، ثم انتهى به المطاف الى الاشتغال بقطع الجلود فى مصنع أحذية فى دارتموث بولاية أوهايو ، وحدث أنه لسبب ما فقد هذا العمل • وحين جاء ليلتحق

بالمدرسة الثانوية لم أسأله أبدا عن السبب الذى من أجله فقد عمله • وكنت قد سمعت أنه يعاقر الخمر ، فتحدثت معه حديثا طويلا ، وكان صريحا معى كل الصراحة ، حين روى لى الأحداث التى مرت به فى حياته ، فكنت كأننى أقرأ قصة من قصص المغامرات • وكان يريد الآن أن يطرح الماضى وراء ظهره ، ويصبح انسانا جديدا ، وهذا هو السبب الذى دعاه الى العودة الى الدراسة بالمدرسة • وصدقت قصته ، وسمحت له بالعودة الى المدرسة ، رغم أن ذلك كان موضع النقد من الكثيرين من الناس ، الذين كانوا يعرفون ماضى حياته •

وكان هذا الرجل رياضيا ممتازا ، وكان يساعد المدرب ميرز فى تدريب فرق كرة القدم ، وكرة السلة ، والبيسبول ، كما أنه تولى أيضا عهدة الأدوات والمعدات الرياضية ، وكان يهتم بالفرق الرياضية اهتماما بالغا ، كما لو كان هو المدرب • كذلك كان هذا الرجل يدرس خمسة علوم بالمدرسة• وحين انتهى من دراسته لم يتخرج بمرتبة الشرف ، بيد أنه كان واحدا من أنفع المواطنين لمقاطعتهم ، وولايتهم ، وللشعب ، ممن خرجتهم مدرسةماكسويل الثانوية • ولم تقم مدرستنا بمساعدته أكثر مما قام هو بمساعدتها • لقد كان هذا الرجل يعرف الخطأ من الصواب لأنه رياضى ، وكان اذا نصح أحد رياضيينا بشأن مخالفته أصلا من أصول التدريب ، استمع الرياضى اليه •

وثمة تلميذ آخر هو تشارلز وتسن ، الذى كان يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاما ، وكان يعمل فى وظيفة مهندس طرق ، فلما فقد وظيفته التحق بالمدرسة الثانوية • وكان أصلع الرأس ، وكان التلاميذ يسمونه « بابا وتسن » • وكان هو أيضا يساعد المدرب ميرز فى تدريب الفرق الرياضية ، وكان الغرباء يحسبونه أحد أعضاء هيئة التدريس ، كما كان الحال بالنسبة لكثيرين من تلاميذنا • وحين كنا نصحب فريق كرة القدم أو فريق كرة السلة الى بلد آخر ، كان الناس يبدون تعليقات كثيرة بشأن ضخامة هيئة التدريس بالمدرسة ، وكان الناس يحسبون كثيرين من مدرسى المدرسة أنهم طلبة كبار السن ، فى حين أن مارثا بنيون ، بشعرها الأبيض ، وكل ما يحيط بهامن جلال، وكوج بينز ، وفيرنون مادين ، وتشارلز وتسن ، كان كل هؤلاء ، وعشرات غيرهم ، يحسبهم الناس أعضاء فى هيئة التدريس •

وقد كان قبولنا طلبة كبار السن بالمدرسة ، مما ساعد صغار السن من الطلاب • لقد كانوا يرون هؤلاء الناس الذين تقدم بهم العمر ، يعودون الى الدراسة ، لكى ينتهزوا الفرصة التى ضاعت منهم فى شبابهم ، وكانوا

يراقبونهم وهم يبذلون جهدهم لكى يتعلموا كل ما يستطيعون أن يتعلموه ما دام الوقت يسمح لهم • ولم يحدث مرة واحدة ، أن أحدا من هؤلاء التلاميذ الكبار ، الذين جاءوا إلى مدرسة ماكسويل الثانوية بناء على دعوة منا ، سبب لنا مشكلة تتعلق بالنظام ، وبدلا من أن يسببوا لنا المتاعب ، كانوا عونا كبيرا لنا ، وكان وجودهم فى فصولنا مصدر متعة وسرور •

(٤)

وكنت أعطى واجبات يومية لتلاميذ الصف الأول ، الذين كنت أدرس لهم الجبر • وقد رأيت أنهم سيقومون بأداء هذه الواجبات اذا طلبت منهم أن يحلوا كل المسائل كتابة على الورق • وكنت أصحح هذه الأوراق ، وأعطيهم درجات ، وأسجل الدرجات عندى ، ولكنى لم أكن أرد اليهم الأوراق ، بل كنت أقرأ عليهم الدرجات التى حصلوا عليها • غير أنه فى ذلك اليوم ، بعد أن دق الجرس ، وانصرف التلاميذ لكى يحضروا حصصا أخرى ، بقيت فى الفصل فتاة صغيرة تدعى يوستاشيا برات •

وقالت يوستاشيا : مستر ستيوارت ، اننى لم أحصل على تسعين درجة عن ورقتى •

فقلت وأنا أنظر مرة ثانية فى دفتر تسجيل الدرجات لأتثبت منها : بل حصلت على تسعين يا يوستاشيا •

فقالت فى أدب : اننى لا أشك فى قولك ، ولكنى حصلت على مائة •

فقلت لها : ولكنى صححت هذه الأوراق •

فقالت : لقد صححت ورقتى خطأ • أين هى ورقتى ؟

فقلت لها : هناك ، فى سلة المهملات •

فقالت تسألنى : هل لى أن آخذها ؟

فقلت : لا • لقد وضعتها فى السلة ، وسأجىء بها لأقنعك •

وحين جئت بالورقة من سلة المهملات ، وجدت أن يوستاشيا على حق • لقد حصلت على مائة درجة • كانت كل المسائل صحيحة •

وقالت – وهى تنظر مباشرة الى ، بعينين هادئتين زرقاوين انى لا أخطىء فى حل المسائل يا مستر ستيوارت ·

فقلت : هذا شىء بديع · تعالى الى مكتبى فى الفترة المخصصة لقاعة الاستذكار ، فاننى أستطيع الانتفاع بك · اننى أريد سكرتيرات من التلاميذ لا يخطئن فى حل المسائل ·

فقالت : سوف آتى ·

ووقفت أرقب هذه الفتاة ، ذات الجسم المستقيم كأنه السهم ، يملأ نفسها كل ما فى الحياة من تصميم وثقة بالنفس ، بيد أنه كان يبدو عليها نقص فى التغذية · وقفت أرقب هذه الفتاة ، وهى تهرع خارجة من الفصل ، لكى تحضر الحصة التالية فى فصل آخر·وظلت يوستاشيا من بين سكرتيراتى من التلاميذ، الأربع السنوات التالية ، وكانت واحدة من أكفأ التلاميذ السكرتيرين الذين استخدمتهم فى مكتبى ، فكانت هى التى تقوم بعمل نسخ التقديرات التى حصل عليها خريجو مدرسة ماكسويل الثانوية ، الذين التحقوا بالكليات ، كذلك كانت تقوم بعمل هذه النسخ للتلاميذ المحولين من المدرسة ، ولم أرها تقع فى خطأ قط ·

وحين كانت تحدثنى يوستاشيا برات بشأن تصحيحى ورقة الجبر الخاصة بها ، تساءلت عما تكون عليه نشأتها ، والبيئة التى تعيش فيها ، فسألتها مرة أين تقيم ، فقالت فى هذا البيت الصغير ، على الضفة الغربية لنهر التايبر. انك تستطيع أن تراه من فناء المدرسة ·

فقلت أسألها : هل أحد والديك مدرس ؟

فقالت : ان أبى ميت ، وأمى ليست مدرسة ·

ولم تشأ يوستاشيا أن تتحدث عن أهلها ، وأثار ذلك فضولى ، فأردت أن أعرف المزيد عنها وعن أختيها ، اللتين كانتا أيضا تلميذتين بمدرسة ماكسويل الثانوية · وكان ثلاثتهن يحصلن على الدرجات النهائية ، وكن تقريبا فى حجم واحد · وكان كل ما لاحظته عن هؤلاء الفنيات الصغيرات قد أثار رغبتى فى زيارتهن · ورغم أننى لم أدع لزيارة بيتهن ، فقد تعمدت أن أمر به فى أصيل يوم أحد مشمس ، حين كنت أسير محاذيا نهر التايبر ·

وأخذت أسير سيرا بطيئا فى الطريق الذى يكسوه الغبار ، والذى يتجه ملتويا بين نهر التايبر والسور الصخرى ، ورأيت أسفل منى ، فى مياه الخريف الباردة البلورية الزرقاء ، أوراق شجر الجميز ، والتامول، والحور والصفصاف،

والبلوط ، والبرقوق البرى ، وكأن هذه الأوراق أسطول جبار من سفن زاخرة بالألوان ، تتحرك فى قلق ، متجهة نحو مكان بعيد • لقد شهدت مناظر مثل هذه حين كنت مدرسا بمدرسة ونستن الثانوية ، التى كانت تبعد عن النهر بنحو عشرين ميلا • وكان ذلك فى ونستن ، وأنا أسير بجوار هذا النهر ، حين لاح لخاطرى أن مستقبل البلاد من حيث الفكر والعمل والتقدم انما يقع جميعه على كاهل المدرسين • وما زلت أعتقد أننى على صواب فيما أرى • وحين أخذت أسير متجها نحو الكوخ الصغير الذى يقع عند سفح السور الصخرى ، كنت أسائل نفسى عن البيئة التى تعيش فيها أخوات ثلاث ، هن من خيرة تلاميذ المدرسة • وقادنى الممر الملتوى الذى غطته أوراق الأشجار ، الى البيت الصغير ، حيث رأيت أكبر مجموعة من الملابس المغسولة شاهدتها عيناى ، وقد نشرت فوق الحبال ، وكان الكثير من الثياب المنشورة مما لم أشهد يوستاشيا أو أختها « ميى » أو « لوسندا » تلبسه •

وقدمتنى يوستاشيا الى أمها ، سمانثيا برات ، التى كانت تغسل الملابس • كانت امرأة صغيرة الجسم ، زرقاء العينين ، وكانت أصغر من أى من بناتها جسما ، وأكثر نحافة ، ثم التقيت بابنها « دانى » وهو فتى بلغ سن المدرسة الثانوية ، ولكنه لا يحب المدرسة ، ويرفض الذهاب اليها ، والتقيت بابنة أخرى لها ، تكبر « يوستاشيا » سنا،وهى متخرجة فى مدرسة ماكسويل الثانوية ، وتعمل فى محل لبيع الأشياء الرخيصة فى دارتموث بولاية أوهايو•

وقد علمت فيما بعد ، أن والد يوستاشيا ، ويدعى ثيوبوليس برات ، قد توفى منذ عدة سنوات ، وأن أمها كانت تعول نفسها بالعمل فى بيوت الأسر ، فتطهو الطعام ، وتكنس وتمسح الأرضية بأجر قدره دولاران فى الأسبوع • وكانت هذه المرأة الضئيلة الجسم ، تعمل فى البيوت أثناء النهار ، وتأخذ معها الى بيتها الملابس لتغسلها فى آخر النهار ، أو فى المساء ، أو فى الليل • وكانت بناتها الصغيرات يساعدنها ، وقد جاء وقت كان كل ما يقتات به أفراد الأسرة هو الخبز ، بيد أن سمانثيا برات قد أعطت لمدرسة ماكسويل الثانوية ثلاثا من أعظم التلاميذ خلقا وعقلا • واذن فهذه هى البيئة التى تعيش فيها الفتاة التى وقفت تواجهنى فى الفصل الذى أدرس فيه الجبر ، وتقول لى انها لا تحصل الا على درجة مائة •

وقد ورثت يوستاشيا عن أبيها حب النضال ، فوضعت كل ذلك الذى ورثته فى العمل المدرسى ، ووجهت كل طاقتها ومقدرتها الى التعلم ، والى العمل على أن تكون مواطنة صالحة ، وكان ترتيبها الثانية فى نهاية الدراسة فى فصلها ، وقد سبقها التلميذ الحائز على مرتبه الشرف الأولى بجزء صغير من

واحد فى المائة • وفى الوقت الذى تخرجت فيه يوستاشيا ، وجد لها عمها عملا فى أحد مصانع الأحذية بدارتموث ، غير أننى كان لى رأى آخر فى مستقبل يوستاشيا • وأخذ عمها يهددنى ويتوعدنى ، بعد أن تشاجرنا بشأن ما يجب على يوستاشيا أن تعمله ، فقال هو انها يجب أن تشتغل فى مصنع الأحذية ، لتدفع أجرة المنزل الذى تسكن فيه هى وأسرتها ، وهو منزله الذى يمتلكه ، وقد تراكمت عليهم الأجرة ، وقلت أنا : ان الفتاة غير مسئولة عن أجرة المنزل ، وانها من النوع الذى يجب أن يستكمل دراسته فى الكلية •

فقال : ولكنها لن تجد المال الذى يمكنها من الذهاب الى الكلية •

وتلك كانت آخر كلمات قالها •

وعندئذ كتبت قصة قصيرة بعنوان « يوستاشيا » وبعثت بها الى مجلة « هاوس هولد » فوافقت على نشرها •

وهذه القصة يقرؤها الآن ألوف من طلبة المدارس الثانوية ، اذ أنها منشورة فى كثير من الكتب • ووقعت باسمى على ظهر الشيك الذى تسلمته ثمنا للقصة ، وأعطيته ليوستاشيا لكى تلتحق بكلية بيريا ، وتدفع نفقات السنة الأولى •

فقالت تسألنى : مستر ستيوارت ، متى أرد لك هذه النقود ؟

فقلت : ادفعيها لأختك « ميى » حين تدخل كلية بيريا ، ثم اجعلى « ميى » تدفعها الى « لندا » حين تدخل كلية بيريا • ان ثلاثتكن سوف تصبحن من خريجات الجامعة •

وقـــد تخرجت الثلاث فى الكلية بامتياز ، واليوم تقوم اثنتان منهن بالتدريس فى أوهايو ، والثالثة تقوم بالتدريس فى فرجينيا •

(٥)

وقبل أن أذهب الى مدرسة ماكسويل الثانوية ، لأتولى نظارتها ، كان تشارلز مانسن قد أخبرنى أن هناك مشكلة عويصة واحدة سوف تواجهنى ، وهى المعركة القائمة بين مدرسة ماكسويل الثانوية والمجتمع المحلى ، وقال انه اذا كسبت المدرسة المعركة ، فسوف يوجد فى يوم ما مجتمع محلى عظيم

فى الطرف الغربى من مقاطعة جرينوود ، أما اذا خسرت المدرسة المعركة ، فسيكون أمام المجتمع المحلى وقت طويل ، قبل أن ينفض عنه الجهالة ، والايمان بالخرافات ٠

وفى أول الأمر ، كانت الدلائل تدل على أن المجتمع المحلى هو الذى قد يكسب المعركة ٠ فحين كنا نقيم مباريات فى كرة القدم ٠ كان يفد لمشاهدتها رجال يعملون فى مصانع الصلب ومصانع الأحذية بدارتموث ، ويتقاضون أجورا هى ضعف ما يتقاضاه المدرسون ، ومع ذلك كانوا يرفضون أن يدفعوا رسم الدخول البسيط الذى حددناه ، فكانوا يدخلون الملعب عنوة ، وحين كان الشبان يرون من هم أكبر منهم سنا يفعلون ذلك ، كانوا يحذون حذوهم ٠ وكان عدد هؤلاء من الكثرة بحيث يتعذر علينا أن نوقفهم عند حدهم ، دون الاستعانة بحاكم المقاطعة ونوابه ٠

وحين بدأ موسم كرة السلة ، لم نستطع ، مع أننا كنافى الداخل ، أن نمنع هؤلاء الناس من اقتحام الأبواب والنوافذ ، فكانت جموعهم تتغلب على التلاميذ الذين كانوا يقفون للحراسة ٠ وأخطرت « بيل وندسور » حاكم المقاطعة ، فخف الى مساعدتنا ثلاث ليال سويا ، ثم بعد ذلك قال ان النوم يضيع عليه ، وانه لا يستطيع حراسة مبنى المدرسة فى كل مرة نقيم فيها مباراة فى كرة السلة ٠

ولاحت للمدرب ميرز فكرة يوقف بها اقتحام الناس للمدرسة ، فجاء بسلاسل ضخمة ، وثبتها بمشابك فى الجدران من الداخل ، ثم وضع مشبكا فى الباب ، ثم ثبت السلاسل فى المشبك بقفل ٠ وقبل أن تبدأ أية مباراة نقيمها ، أو أى برنامج مدرسى نقدمه ، كنا نطوف بالنوافذ كلها لنتأكد من أنها مغلقة ٠ غير أن النوافذ كانت تحطم ، والأبواب تدق بالأيدى ، وتركل بالأقدام ، حتى تتحطم ألواحها ٠ وكنت أرى تلاميذى يقاتلون لكى يحفظوا مبنى مدرستهم من أن يتلف ٠ لقد كانوا يفتخرون به ، اذ قبل أن تبنى هذه المدرسة ، كانوا يتلقون العلم فى مبنى لا يفضل الا قليلا أحد مخازن الغلال العادية فى كنتكى ٠

ومع ذلك فقد ظل هؤلاء الدخلاء مصدر ازعاج لنا حتى شهر ابريل من أول عام لى بالمدرسة ٠ وفى هذه الأمسية من شهر ابريل ، كنا نقدم اوبريت تحت اشراف مسز ثاليا ميرز ، وكان يشترك فيها نحو مائة طالب وطالبة ، وكنا قد قمنا لها بدعاية ضخمة فى الصحف المحلية ٠

وجاء الناس من دارتموث ، ولانزبيرج ، ومن قطاعات أخرى ، وامتلأت جميع مقاعد القاعة . وجئنا من الفصول بكل كرسى يمكن العثور عليه . وكنت قد طلبت من حاكم المقاطعة أن يحضر ، ولكنه قال لى انه لا يستطيع .

وقبل دقائق من رفع الستار ، رأيت رجلين جالسين خلفى ، ويلبسان قبعتين ذواتى حافتين عريضتين،مما يلبسه رعاة البقر . فذهبت اليهما وطلبت منها أن يخلعا قبعتيهما،حتى يستطيع من يجلسون خلفهما أن يشهدوا التمثيل، فتمتما بكلام ، ثم خلعا قبعتيهما ، بيد أننى قبل أن أبلغ مقعدى مرة أخرى ، قامت النسوة اللاتى كن يجلسن أمامهما ، وجلسن فى المقاعد الخلفية ، ذلك لأن الرجلين كانا يضعان طرف أحذيتهما فى الفراغ الذى يوجد بين مكان الجلوس فى الكراسى وبين ظهورها . وكنت أعرف أن الرجلين جاءا لاحداث شغب ، فطلبت منهما أن يتكرما بمغادرة المكان قبل أن تبدأ الأوبريت .

فقالا انهما سوف يغادران المكان اذا هما استردا نقودهما ، فجاءت مسز ليرد ، وهى التى كانت تتولى بيع التذاكر ، وقالت ان هذين الرجلين دخلا عنوة ، دون أن يدفعا شيئا . فطلبت اليها أن تدفع لهما ثمن تذكرتين ، ونهضا من مقعديهما ، وهما يلعنان المدرسة ، والمدرسين ، والتلاميذ ، وكل فرد من المتفرجين . وحين بلغا الباب ، استدار أحدهما وفاه بكلمات بذيئة ، كتلك التى كثيرا ما كنت أمحوها من فوق جدران دورة المياه الخارجية ، بمدرسة لونسم فالى .

وران الصمت على الجمهور . وتركت معطفى فوق مقعدى وخرجت من القاعة . لقد عقدت العزم على أنه ما دام لا يوجد قانون يحمينا ، فقد آن الأوان لكى نبدأ فى حماية أنفسنا بأنفسنا . وتبعنى الى الخارج شاب لا يزيد وزنه عن ١٣٥ رطلا . وكان الرجلان واقفين هناك ، فى ضوء القمر .

فقال أكبر الرجلين حجما ، وقد شرع يضع يده فى جيبه : لماذا خرجت الى هنا يا متعلم يا ابن الكلبة . سوف أريك . . .

بيد أن يده لم تصل الى جيبه ، ولم يتم كلامه ، فقد وجهت الى ذقنه ضربة قاضية ، أتبعتها بكل ثقلى ، وهو ٢٢٢ رطلا . ولو كنا فى حلقة الملاكمة، لألقت به هذه الضربة خارج الحبال ، لا تحتها أو من بينها . ثم رفعته فألقيت به من فوق سور نبات الاسبيريا ، الذى ينمو خلف مبنى المدرسة ، فسقط عند الجدار كالكومة . واندفع الألم من يدى الى كتفى .

ثم بدأ الرجل الآخر يهاجمنى ، فاندفع اليه الرجل الضئيل الجسم الذى تبعنى الى الخارج ، فشل حركته • وحين استدرت ، رأيت ميرز المدرب خارجا من مبنى المدرسة ، ومعه « روبرت وجلزوورث » الوكيل الزراعى للمقاطعة ، فقررا استدعاء الحاكم على الفور •

وحين وصل الحاكم ، كان الرجل الذى لكمته قد بدأ يعود الى وعيه ، وكان الرجل الثانى قد تلقى ضربات من يد صديقى ، ذى الجسم الضئيل • وفى خلال هذا كله ، كانت الأوبريت تسير فى هدوء ، فلم يعلم المتفرجون بما كان يدور خارج مبنى المدرسة ، الا حين قرأوا نبأه فى الصحف فى اليوم التالى •

واستدعانى مانسن مدير مدارس المقاطعة ، لكى أذهب الى لانزبيرج ، وقال وهو يضع أمامى ثلاث قصاصات من الصحف : مستر ستيوارت ، هذه دعاية سيئة لمدرسة ماكسويل الثانوية ، ولنظام مدارس مقاطعة جرينوود ، ولى ، ولك • ان رجال التعليم لا ينبغى أن يشتركوا فى عراك أو قتال •

فقلت : الا اذا أرغموا على ذلك • وأنا قد أرغمت على القتال • اننا لا نستطيع أن نحصل على الحماية من القانون ، وقد أخطرتك بهذا أكثر من مرة •

ورويت له ما قاله ذلك الرجل حين غادر قاعة الاحتفال ، وكيف أن كل رجل ، وكل امرأة ، وكل طفل ، قد سمع قوله ذاك •

فقال : ان « باسكوم ريفيت » هذا الذى ضربته ينتمى الى أسرة مقاتلة ، وهم قوم خطرون ، وقد يسبب لك متاعب كثيرة غير هذه •

فقلت أعلم أن هذا سيحدث اذا هو عاد ثانية الى مدرسة ماكسويل الثانوية ، وحاول أن يكرر ما فعله وقاله فى تلك الليلة •

فقال مستر مانسن : اننى الآن أريد أن تعرف أننى مؤازرك ومناصرك ، غير أننى لا أومن بأن يقحم أعضاء مهنة التدريس أنفسهم فى عراك أو قتال • لقد كسرت فك الرجل ، وأسقطت له ضرسين بما فيهما اللثة ، وكدت تسقط ضرسين آخرين • لقد سمعت القصة من وجهة نظره ، ويسرنى أنه لن يعتبر صبيا صغير السن ، فهو يصغرك بسنة واحدة ، ولا ينقص عنك فى الوزن الا بعشرين رطلا ، وسيكون هذا فى صالحك حين يعرض الأمر على القضاء •

ثم واصل حديثه بلهجة أكثر رقة فقال : سأفعل كل ما فى وسعى لكى تتأجل محاكمتك من فصل قضائى الى فصل قضائى آخر ٠ ولكن لا تدخل فى عراك مثل هذا مرة ثانية ٠

ولم أحاكم بتهمة التعدى والضرب ، ومضى عام قبل أن يهدأ غضب « باسكوم ريفيت » ويصبح صديقى ٠ ولم نكن نعلم أنا ومستر مانسن ، أن هذه الليلة من شهر ابريل ، كانت نقطة التحول فى معركتنا ضد أوغاد المجتمع المحلى ٠ ومنذ ذلك الوقت لم يعد هناك من يزعجنا ، وكانت هذه أنباء عظيمة فى « فارلنتون » ، وسرت الى الأهـــالى الذين يقيمون فى الوديان والمنخفضات ، وفوق التلال والروابى ٠

وأصبحت شمعتنا تضىء فى المجتمع المحلى بنور أكثر توهجا ، لأننا قاتلنا من أجل المحافظة على احترام النفس ، وفى سبيل ايماننا بالقضية التى ندافع عنها ، ألا وهى قضية الحق ٠

(٦)

وفى السنة الثانية من الفترة التى قضيتها ناظرا لمدرسة ماكسويل الثانوية ، حدث أمر يتعلق بنظام غير عادل حاربته بكل قواى ، حين كنت مديرا لمدارس مقاطعة جرينوود ، ألا وهو نظام أمناء المدارس ٠ وكل ما كتبته حينذاك ضد هذا النظام قد أصبح رمادا باردا ٠ ولعل بعضا من الخطابات التى كتبتها ، والكلمات التى قلتها ، قد عاشت ، وتركت بعض الأثر ، غير أن السبب الرئيسى لما حدث كان ضريبة الموت التصاعدية ، التى تجبى فى كل مرة يقوم فيها انتخاب أمناء المدارس ٠ والذى حدث أننى قرأت هذه الكلمات التى يتعذر تصديقها : « تشريع بتخويل الغاء الأقاليم الفرعية ، وبذلك يلغى نظام الأمناء » ٠ وأخذت أقرأ هذه الكلمات بامعان ٠ « تشريع بتخويل » ، هذا هو بيت القصيد ، اذ معنى ذلك أن هذا التشريع يلقى بمسئولية الغاء الأقاليم الفرعية ونظام أمناء المدارس مباشرة على مديرى مدارس المقاطعات ، وأعضاء مجالس التعليم بها ٠ ان مشرعى الولاية لم يحملوا أنفسهم هذه المسئولية ، واليك ما حدث ٠

بعد أن صدر هذا التشريع ، دعا تشارلز مانسن مدير مدارس مقاطعة جرينوود مجلس التعليم الى عقد جلسة خاصة ، وفيها أصدر الأعضاء قرارا

بالغاء نظام الأمناء • ومن بين المائة والعشرين المقاطعة التى تضمها ولاية كنتكى، كانت مقاطعة جرينوود أول من أقدم على هذا العمل • ولو كان تشارلز مانسن يعمل مع مجلس التعليم الذى كنت أعمل معه حين كنت مديرا لمدارس مقاطعة جرينوود ، ما تم هذا الأمر ، اذ كان الأعضاء يصوتون « ضده » •

بيد أنه من حسن حظ مستر مانسن أن مجلسه كان يضم ثلاثة شبان متخرجين من المدرسة الثانوية ، وقد درست لهؤلاء الشبان فى مدرسة لانزبيرج الثانوية ، وحتى فى تلك الأيام ، كنا نناقش المشكلات المدرسية القائمة فى ولايتنا ، وبخاصة مشكلة نظام الأمناء • وجاءت الى تشارلز مانسن وأعضاء مجلسه تهديدات بالأخذ بالثأر ، بيد أنه كان من اللباقة وحسن السياسة ، بحيث انه أطلق على الأمناء اسم « المستشارين المحليين » وأبقى عليهم فى كل اقليم • الا انهم أصبحوا بلا صولة أو جاه ، ولم يعد لهم حول ولا قوة ، وبذلك انتهى ، بالنسبة لنا ، نظام مدرسى خليق بالعصور المظلمة •

وفى كثير من قطاعات الولاية ، حين كان مديرو مدارس المقاطعات ، وأعضاء مجالسهم يحاولون القضاء على نظام الأمناء،كانت تعترضهم المشكلات ، فقد أصدرت مقاطعة دارتر ، وهى تتصل بمقاطعة جرينوود ، قرارا بالغاء نظام الأمناء ، غير أن هذا القرار أشعل نيران حرب بلغ الصراع فيها من العنف حدا جعلها تعود الى هذا النظام مرة أخرى • وقد عمدت مقاطعات أخرى الى الغائه تدريجيا ، ولكن ليست كلها ، اذ حتى اليوم ، لا تزال سبع عشرة مقاطعة من مقاطعاتنا المائة والعشرين ، تتمسك بهذا النظام •

ثم صدرت بعد ذلك تشريعات أخرى أكثر أهمية ، فصدر قانون تعويضات المدرسين ، ثم قانون معاشات المدرسين ، ويقضى بدفع حد أقصى قدره مائة دولار فى الشهر ، وحد أدنى قدره ٣٣ر٨ دولارات فى الشهر للمدرسين الذين أقعدهم كبر السن عن العمل • وقد صدر هذا القانون لصالح المدرسين فى ولايتنا بعد مدة طويلة من صدور قانون المعاشات لرجال السكة الحديد ، وكان أبى واحدا منهم ، فقد اعتزل العمل لعجز جسمانى ، وحتى هو ، رغم أنه لا يعرف القراءة أو الكتابة ، لم يكن يفهم لماذا لم يمنح المدرسون العاجزون عن العمل بسبب كبر سنهم معاشات منذ مدة طويلة مضت •

وقد ظللت سنوات عديدة ألقى اللوم على أعضاء الادارة التعليمية للولاية، لأن ترتيب ولايتنا ، بين جميع ولايات الجمهورية الثمانى والأربعين ، من حيث انتشار التعليم ، كان الثانى من أسفل•غير أننى بعد قراءة الحقائق وتمحيصها،

وجدت أن أعضاء الادارة التعليمية لولايتنا كانوا مرغمين على اطاعة القوانين التى وضعها مشرعو الولاية · والشىء المذهل الذى عرفته هو أن مدير التعليم العام ، وهو الذى يتولى أعلى وظيفة فى ولايتنا ، كان يتقاضى أربعة آلاف دولار فى السنة فحسب ، فى حين أن مدير أحد نظم مدارس المدينة المستقلة الصغيرة بمقاطعة جرينوود ، كان يتقاضى أربعة آلاف ومائتى دولار · وقد جعلنى هذا الظلم أشعر شعورا جارفا نحو رجال الادارة التعليمية بولايتى ، الذين يقيدهم القانون بأغلاله ، ويخوضون معركة شاقة مضنية · وحتى فى كنتكى ، يوجد لدينا قانون لايسمح لأى موظف بالولاية أن يتقاضى مرتبا يزيد عن خمسة آلاف دولار فى السنة ، وينطبق هذا القانون على مدير جامعة كنتكى ·

(٧)

وجاء الى مكتبى ميرز المدرب ، وفيرنون مادن ، وتشارلز وتسن ، لكى نتناقش فيما يمكن عمله بشأن تودل باول · وكان تودل أحسن ظهير فى لعبة كرة القدم عرفته مدرسة ماكسويل الثانوية ، وكان وزنه مائة وستة وخمسين رطلا · وكان هذا الغلام الصغير ، ذو الساقين المقوستين ، والكتفين العريضتين ، والشعر الأسود الخشن الأشعث ، يستطيع ضرب الكرة ، وتمريرها ، والجرى بها وايقاف خصمه ، ومسكه ، ونزع الكرة منه · بيد أنه كان يعيب تودل باول عيب خطير ، ففى كل مرة يخطف فيها الكرة من خصمه ، كان يعضه كما يعض الكلب ·

وقال المدرب وهو يرفع ساق بنطلونه : انظر ما فعله بساقى ونحن فى الملعب منذ فترة قصيرة · لقد نفذت عضته من كل ذلك الحشو ·

لقد كانت هناك بقعة كبيرة حمراء على ساق ميرز المدرب ، فوق ركبته مباشرة ، وكان فى هذه البقعة الحمراء علامة تركتها مجموعة كاملة من الأسنان ·

وقال المدرب موضحا : لقد قسمنا الفريق لكى نقوم ببعض المحاورات · وحين بدأت بضرب الكرة ، كتفنى « تكتيفة » رباط الحذاء ، ثم غرس أسنانه فى ساقى ، فصرخت وخليت الكرة ، وبعد ذلك اعتذر ·

ثم قال المدرب : ولكن ، أنت تعلم يا مستر ستيوارت ، أن الاعتذار لا قيمة له فى لعبة كرة القدم · وحين يطلق لاعب صرخة ـ وكثيرون من اللاعبين

يفعلون ـ نعرف أن هذا الغلام قد كتفه ، ويحاسبنا الحكم باعتبار أن هـــذا اللعب لعب خشن ٠

وقال فيرنون مادن لقد عضتنى فى حياتى ثلاثة كلاب ، ولكن أحدا منها لم يعض بمثل ذلك العنف الذى عضنى به تودل باول فى أصيل ذلك اليوم ، حين كنت أحاور بالكرة ضد المدرب ٠

وقال تشارلز وتسن وهو يكشر عن أسنانه ، ويرفع ساق بنطلونه : انظر هنا ٠ لقد عضنى فى الأسبوع الماضى ٠٠ انظر ، ان علامة أسنانه مازالت هناك ٠

وقال المدرب ميرز ان مقدار العقوبات التى توقـــع علينا يا مستر ستيوارت يفوق ما يوقع على أى فريق آخر ٠ ان تودل يعض عضا عنيفا حتى أنه فى بعض الأحيان يجعل خصمه يتخلى عن الكرة ، وقد حدث هذا عدة مرات ، وهذا بطبيعة الحال يؤثر على سمعة المدرسة ، وعلى سمعتى ٠ وهذا هو السبب فى أننا لم نفز فى أية مباراة حتى الآن ٠ غير أننى اذا فقدت هذا اللاعب ، فلن تكون لدينا فرصة للفوز هذا العام ٠ انه غلام بارع ، ولاعب كرة قدم ممتاز ٠ لو لم تكن به هذه العادة الذميمة ٠

فقلت : هل حدثته بشأنها ؟

فأجاب المدرب قائلا لقد كنت ألقى عليه محاضرة كل يوم فى أثناء التدريب ٠ وهو يقول انه لا يستطيع أن يتمالك نفسه ، وما أظن أنه يستطيع أنا لا أعتقد أن تودل باول يريد أن يعض أحدا ٠

فقال فيرنون مادن : لقد اقترحت على المدرب ميرز أن نأتى بوسائد من المطاط فنركبها فوق أسنانه ، غير أنه يعتقد أنها لن تجدى ٠

فقال تشارلى وتسن : يبدو أننا نستطيع أن نفعل شيئا ٠
وقال المدرب ميرز : لقد كنت أظل متيقظا فى الليل ، أحاول أن أفكر

ماذا أصنع معه ٠ المسألة أننا لابد أن نلاعب مدرسة لانزبيرج الثانوية يوم الجمعة المقبل ٠ ولما كنا لم نفز فى أية مباراة هذا الموسم ، فاننى أريد أن نفوز فى هذه المباراة أو نتعادل اذا استطعنا ٠ ان مدرسة لانزبيرج لم تخسر أية

مباراة ، ونحن لم نكسب أية مباراة • وأنا محتاج الى تودل فى هذه المباراة •

فقلت أسأله : أتظن أننى أؤثر فيه اذا أنا تحدثت اليه ؟

فقال : كلا ، ألبتة ، فليس فى الكلام فائدة •

فقلت : اذن فلابد لنا من أن نغطى فاه بشىء •

فصاح فيرنون مادن قائلا : لقد واتتنى الفكرة • ما رأيكم فى استخدام القناع الذى يلبسه لاعب البيسبول ؟

فقال المدرب ميرز يسأله : ولكن كيف نثبته فلا يخلعه ؟

فقال تشارلى وتسن باستعمال الشريط اللاصق ، فنلصق القناع حول غطاء رأسه •

فقال المدرب ميرز يسأله ولكن ، كيف نفسر للناس ارتداء ظهير فى فريق كرة القدم ، القناع الخاص بلاعب البيسبول ، وقد لصق فى غطاء رأسه بشريط ؟

فقلت مقترحا : هل يمكن أن نضع فوق أنفه ضمادة أو اثنتين ، وكأن بها جرحا ؟

فقال تشارلى وتسن : ممكن •

فقال المدرب ميرز وهو يبتسم : يبدو أن هذه الطريقة قد تنفع •

وقال فيرنون مادن مخاطبا المدرب : اننى أستطيع أن أثبت له القناع • أنا أعرف ما تريد تماما • سأذهب حالا فأثبته له •

فقال المدرب ميرز ، الذى كان لا يزال متشائما لو أن هذه الطريقة تجدى !

وبينما كان فيرنون فى حجرة الألعاب الرياضية ، عاكفا على تثبيت غطاء الرأس فى القناع الذى يلبسه لاعب البيسبول ، نزلت الى الملعب الرياضى لكى أشهد الفريق وهو يقوم بالتدريب • ووجدت « تودل » قد أخرج من اللعب ، وكان يجلس وحيدا على « الدكة » •

فصاح المدرب ميرز يقول : ارجع ثانية ٠ اننا سوف نشركك فى اللعب، ولن نخرجك من الفريق ٠

وحين التحم الفريقان ، رأيت اللاعب « سد كاليهان » يبدأ بالكرة من النهاية ، ورأيت « تودل » يفلت من لاعبين كانا سيعوقانه ويشلان حركته ، ويهجم على « سد » ٠ واعتقد « سد » أن المجال خال أمامه ، غير أن « تودل » وثب فوقه من الخلف وثبة طويلة فى الهواء ، ثم أمسك به من تحت الركبتين ، ورأيته يقبض على ساقه ، ويتشبث بها كأنه كلب عقور ، فصرخ « سد » عند ذاك ٠

فقال المدرب : أترى ؟ هذا ما كنت أحدثك عنه ٠ وهو اذا عض ، فيالها من عضة !

وقال « تودل » وهو يعاون « سد » على النهوض ، ويضع ذراعه حول كتفه : انى آسف يا « سد » ٠ صدقنى انى لم أتمالك نفسى ٠

ولم يقل « سد » شيئا ، وعاد وهو يعرج ، حيث كان أعضاء فريقه قد تجمعوا ليقرروا الخطوة التالية فى اللعب ٠

ولم يعد « تودل باول » الى اللعب ، بل جلس فوق « الدكة » الى أن ألبسه ڤيرنون مادن والمدرب ميرز هذه التركيبة من القناع وغطاء الرأس ، ثم ثبتاها من الخلف ٠ ثم أرجع المدرب « تودل » الى اللعب ٠ ونجحت الطريقة ، وحين كان تودل يمسك بخصمه ، ويتكدس اللاعبون أمامه ، لم نر واحدا منهم ينط فجأة ، ونسمعه يطلق صرخة مدوية ٠ لقد كان تودل ينكثهم بقناعه ، كما يفعل الحصان الذى يلبس كمامة ، حين يحاول أن يأكل من نبات القمح الأخضر ٠

فقال المدرب ميرز : يا ولد ، كم أنا فخور ٠

فقال « سد كاليهان » : ويارفاق ، كم أنا مسرور ٠

ثم أخذ اللاعبون يغنون قائلين : وجد المدرب وسيلة ٠٠ سيعود تودل للعب ٠٠

(٨)

وفى أصيل يوم الجمعة ، قبل أن نتوجه الى لانزبيرج مباشرة ، لكى

نعب أهم مباريات الموسم ، ضد المدرسة المنافسة القديمة لمدرسة ماكسويل الثانوية ، جاء « تودل باول » الى مكتبى ٠

فقلت : أتريد شيئا يا تودل ؟

فقال وعيناه السوداوان تتوهجان كما تتوهج فى الظلام الجمرات التى تذروها الرياح : أجل يا مستر ستيوارت ٠ أريد أن أقول لك ، قبل أن أرتدى لباس اللعب ، اننى لا أحمل لك أية ضغينة ٠ غير أن ابن عمك « فنتون هوسكنز » يلعب ظهيرا فى فريق قطط لانزبيرج المتوحشة ، وهو الذى أصاب كل رميات التماس لفريق لانزبيرج هذا العام ٠ ولكنى لن أدعه يقذف بالكرة وراء خط مرماى اليوم ٠ ان كل ما أريده هو أن تعرف ، قبل أن أمسك به ، أننى لا أحمل لك أية ضغينة ٠

فقلت : لن يضيرنى اذا أنت منعته من ذلك ، بل سأكون مسرورا ٠ ولكن لا تخلع قناعك وتعضه ٠

وأخذ موكبنا ، الذى يتكون من السيارات المدرسية والعربات ، والذى يبلغ طوله نحو ميـــل ، يتبع السيارة التى تحمل فريق مدرسة ماكسويل الثانوية ٠ وكان مع الفريق المدرب ميرز ، وتشارلى وتسن ، وفيرنون مادن ٠ وكان مع فيرنون مادن قصاصات من ثلاث صحف ، وفى احداها يتنبأ المحرر الرياضى بفوز مدرسة لانزبيرج الثانوية علينا بثلاثين نقطة ، وفى الثانية يتنبأ المحرر بفوز مدرسة لانزبيرج الثانوية علينا بعشرين نقطة ، فى حين أن الثالث يجاملنا بقوله ان مدرسة لانزبيرج لن تتفوق علينا الا برميتى تماس ٠ وبين بضعة وثلاثين لاعبا هم فريق كرة القدم بمدرستنا ، جلس تودل باول ، أملنا فى التغلب على مدرسة لانزبيرج ، وهو يرتدى « كمامته » ، وقد وضع فوق عظمة أنفه شريط لاصق ، كما لو كانت هذه العظمة مكسورة ٠

ولم يكن يوجد استاد بالملعب الرياضى لمدرسة لانزبيرج الثانوية ، ولم تكن به مقاعد ، فكان على المتفرجين أن يشاهدوا اللعب واقفين ٠ وغص جانبا الملعب بالناس ، ولم يبق موضع لقدم ٠ وقد وفد المعجبون بفريق لانزبيرج فى جموع حاشدة ، وأغلقت المحال التجارية ، وجاء الناس ليشهدوا لانزبيرج تهزم منافستها العتيدة ، مدرسة ماكسويل الثانوية وكان ما جئنا به من متفرجين يبلغ نحو ربع هذه الحشود ٠

وحين دخـــل الفريقان أرض الملعب ، بدا من حجم أجسام اللاعبين أن

المحررين الرياضيين قد يصدقون فى تنبؤاتهم ، فقد كان أعضاء فريق قطط لانزبيرج المتوحشة يفوقون فى أوزانهم أعضاء فريق كلاب مدرسة ماكسويل الثانوية بمتوسط خمسة عشر رطلا للرجل الواحد • وكان المعجبون ينتظرون فى صبر نافذ صوت الصفارة ، لكى يشهدوا هذين الفريقين المتنافسين وهما يلتحمان • وكان الهواء باردا منعشا ، واليوم يوما مشمسا ، والجو ملائما للعب كرة القدم • وكان الحماس يجتاح نفوس المعجبين بكل فريق ، فكانوا يصرخون صراخا جعل الكثيرين من كبار السن يضعون أصابعهم فى آذانهم •

وكان فنتون هوسكنز سريع العدو ، وكان تودل باول أسرع منه قليلا • وعند خط الخمسة والعشرين ياردة تقريبا ، قفز تودل فى الهواء قفزة عنيفة ، فانخلع الشريط الذى يثبت قناعه ، وطار القناع وغطاء الرأس فى الهواء • وقفز المدرب ميرز واقفا • ذلك لأن تودل باول كان يلاحق فنتون هوسكنز ، وكان فنتون لا يزال يتقدم ، ولكنه لم يتقدم سوى خطوة أو خطوتين • وكان فم تودل فوق ظهر فنتون • وفجأة ، لف تودل ساقيه حول فنتون كأنه مصارع ، فأوقعه على الأرض • وسقط فنتون فوق تودل ، وأخذا يتدحرجان كأنهما جزعين من جزوع الشجر ، ثم أطلق الحكم صفارته •

وحين هرع الحكم لكى يخلص هذين اللاعبين من بعضهما ، كان فنتون لا يزال ممسكا بالكرة فى استماتة ، وقد صرعته الضربات ، وكذلك كان تودل، وقد انخلعت سنتان من أسنانه ، والتصقتا بوسائد الأكتاف التى يلبسها فنتون ، كذلك سقطت سنة من أسنانه العليا ، وسقط معها جزء من اللثة ، وتزعزعت سنتان أخريان من أسنانه العليا • وحمل الحكم الكرة فاقترب بها خمس عشرة خطوة ، حتى استقرت على خط الخمس ياردات فى الجزء من الملعب الذى يلعب فيه فريقنا • وكان الدليل ضدنا يوجد فى وسائد الأكتاف التى يلبسها فنتون •

وتنهد المدرب ميرز وهو يقول : سنخسر المباراة الآن . لقد كان يخالجنى احساس طوال الوقت ، بأن تودل سيخلع الكمامة •

فقال فيرنون مادن : ولكن يا لها من مباراة لعبها !

وهجم لاعبو فريق ماكسويل ، وكان كل لاعب يصيح ، فى حين اندفع لاعبو فريق لانزبيرج ليستغلوا الوقت ، فحاولوا فى مبدأ الأمر أن يهجموا صفا ، فتقدموا ياردة واحدة ، ثم حاولوا طريقة أخرى فتقدموا ياردتين •

وأصبحت الكرة فوق خط الياردتين فى الجزء من الملعب الذى يلعب فيه فريقنا. وكان الوقت يمر بسرعة ، ولم يبق سوى ثوان • وحاول قلب دفاعهم أن يمرر الكرة • وحين كانت الكرة فى الهواء ، وضع الحكم شفتيه على الصفارة • فوثب « سد كاليهان » وثبة عالية فى الهواء ، وضرب الكرة ، فنفخ الحكم فى صفارته • وانتهت المباراة ، وكانت نصرا لنا • وبكى لاعبو فريق لانزبيرج فى الملعب ، وغادر أنصارهم الملعب وهم يبكون • وقد حقق تودل كلامه ، اذ أن فنتون هوسكنز ، أعظم ظهير فى فريق لانزبيرج ، لم يعبر خط المرمى الذى كان يدافع عنه •

(٩)

وفى شهر ديسمبر ، هبت على التلال المرتفعة فى جنوبى كنتكى ، عاصفة ثلجية مروعة ، وتكونت فى الوديان الضيقة نهيرات ثلجية عميقة ، جعلت من المتعذر على سياراتنا المدرسية أن تجىء بتلاميذ المقاطعة الى مدرسة ماكسويل الثانوية ، فعطلنا الدراسة مدة يومين ، حتى تتمكن كاسحات الثلج من تنظيف الطرق •

وبينما كنت فى انتظار كاسحات الثلج ، حاولت أن أكتب قصة قصيرة. وبعد أن قبل الناشرون أول ديوان شعر لى وعنوانه « الرجل ذو المحراث » لم أعد أقنع بالاعتقاد أننى لا أستطيع أن أكتب القصة القصيرة • وفى مدى يومين كتبت ثلاث قصص قصيرة •

ودهشت حين قبلت مجلة « ستورى ماجازين » نشر قصة « باتل كيتون يموت » ، وقبلت مجلة « ييل رفيو » نشر قصة « هد أو هوللو » ، وقبلت مجلة « أميريكان ميركورى » نشر قصة « سعة ثلاثمائة فدان » •

وانتظرت حتى دفعت لى كل مجلة أجر القصة ، حتى أصرف الشيكات فى وقت واحد • وفى مساء اليوم الذى صرفتها فيه ، كنت أجلس مع مستر ومسز كنجستون فى غرفة الجلوس • وفجأة ، جلست على الأرض ، فوق السجاد الذى نسج باليد ، وأخذت أضع النقود فى ثلاثة أكوام • وتوقف فوريست كنجستون عن تدخين سيجاره ، وهو يرقب هذا التصرف الغريب من ناظر مدرسة ثانوية • ورأيت ليديا كنجستون ، التى كانت تكتم ضحكها ، تنظر الى زوجها ثم تغمز بعينها •

وقلت وأنا أشير الى كومة النقود التى بها عشرتان وخمسة : هذه ياجدى

« باتل كيتون يموت » ، ثم أشرت الى الكومة التى بها خمس عشرات وقلت : وهذه « هد أوهوللو » • ثم قلت وأنا أشير الى أكبر كومة منها ، وهى التى بها ستة عشرينات وخمسة : وهذه « سعة ثلاثمائة فدان » •

وقالت ليدياكنجستون تسألنى : ماذا بك ؟

ثم بدأت تضحك • وترك فوريست كنجستون النار تخمد فىسيجاره ، وجلس ينظر الى أكوام النقود الموضوعة على الأرض ، وكانت تبدو على وجهه الحيرة •

وأخيرا سألنى قائلا : ماذا تفعل ياستيوارت ؟ ما شأن هذا كله ؟

فقلت : كل كومة من النقود هى أجر قصة قصيرة كتبتها فى اليومين اللذين حاصرتنا فيهما الثلوج •

فقال يسألنى : ماذا أنت فاعل بهذه النقود ؟

فقلت : أحملها فى جيبى •

وكانت ليديا وفوريست كنجستون قد أقرضانى نقودا عدة مرات قبل ذلك ، اذ أننى حين ذهبت الى مدرسةماكسويل الثانوية كنت غارقا فى الديون، وهذه النقود التى تقاضيتها ثمنا للقصص القصيرة ، كانت أول فائض من النقود أحصل عليه فى حياتى ، وأستطيع أن أقول انها نقودى ، وذلك منذ الأيام التى كنت أعمل فيها فى مصانع الصلب •

وقال فوريست يحذرنى : لا تحمل هذه النقود فى جيبك وتروح وتغدو بها • ضعها فى البنك •

فقلت : لا أعرف كيف أضع النقود فى البنك • اننى لم أضع دولارا أملكه فى البنك فى حياتى •

فنظر الى نظرة غريبة وهو يقول : سأريك كيف تفعل •

ثم كفت ليديا وفوريست كنجستون عن الضحك • ان ما قلته وما فعلته لم يعد يضحكهما • وأخذا يشرحان لى الفرق بين حساب الايداع والحساب الجارى • وفى يوم السبت التالى أودعت أول نقود لى فى البنك • وانتابنى أعجب شعور أحسست به فى حياتى • لقد كان البنك دائما بالنسبة لى المكان الذى أقترض منه النقود • وكانت نظرتى الى البنوك هى أنها المكان الذى

يقرض الناس مالا • وان وجود مال مدخر ، مال يعنى قليلا من الأمان ، قد جعلنى أشعر شعورا لم أستطع له ايضاحا •

وكان كل مدرس أعرفه تقريبا يوجه أعظم جهوده للتدريس ، غير أنه كان لكل منهم عمل آخر يستعين به على مرتبه الضئيل ، وذلك مثل الفلاحة ، وزراعة التبغ ، والنجارة ، وتربية الدواجن ، والقيام بأعمال كتابية فى المحلات فى أيام السبت ، أو بيع الكتب أو السلع من باب الى باب • وقد وجدت أخيرا العمل الذى أستطيع أن أزاوله الى جانب التدريس ، لكى أحصل منه على قليل من المال الاضافى ، وذلك هو الكتابة • ولقد كان عملا مجزيا ، فمائتا دولار بالنسبة لى كانت مبلغا باهظا من المال • وقلت فى نفسى اننى ما دمت قد استطعت أن أبيع أول قصص كتبتها فى حياتى ، فاننى أستطيع أن أبيع المزيد منها • وفكرت فى بعض الأشياء التى كنت قد كتبتها قبل ذلك ، وخيل الى أنها لا تقل جودة عن هذه القصص التى بعتها • فهناك موضوع بعنوان « بيضة العش » كنت قد كتبته وأنا طالب بالمدرسة الثانوية ، ثم أخذته معى الى جامعة لنكولن ممورياك ، وكلية بيبودى ، وجامعة فاندربلت ، واستعملته فى دروس اللغة الانجليزية المختلفة ، هذا الموضوع بعته بعد هذا الى « الأتلانتيك مانثلى » • كذلك بعت الى مجلات أخرى ستة عشر موضوعا من الموضوعات التى كتبتها وأنا طالب بالمدرسة الثانوية والكلية •

وهكذا وجدت الحل لمشاكلى المالية ، ووجدت عملا اضافيا يعطينى متعة بالغة • وعرفت الآن أننى أستطيع البقاء فى المهنة التى أعددت لها ، وأننى أستطيع البقاء فى المهنة التى أحبها • وعلاوة على بيع القصص ، سأحصل على نسبة ثابتة من أرباح بيع ديوان أشعارى الذى عنوانه « الرجل ذو المحراث » •

(١٠)

وفى الربيع الذى أعقب نشر ديوانى « الرجل ذو المحراث » ، جاءنى خطاب من هـ • ل • دونوفان عميد كلية ايسترن ستيت للمعلمين ، يطلب الى فيه المجيىء لكى أحاضر طلبة الكلية • وقال انه يأسف أن كل ما يستطيع أن يدفعه لى من أتعاب هو خمسة وعشرون دولارا • وحين تسلمت هذا الخطاب ، طلبت مدير مدارس المقاطعة بالتليفون ، وقرأت عليه الخطاب •

فقال ينصحنى اقبل دون تردد • لا تضيع فرصة مثل هذه • اننى

لفخور بأن يكون فى مدارسى مدرس يطلب اليه أن يتحدث فى اجتماع طلبة الكلية ٠

واستأجرت « رانك ميدوز » لكى يوصلنى بعربته ، وكانت المسافة الى كلية ايسترن ستيت تبلغ على وجه التقريب مائة وعشرين ميلا ٠ وأعطيته كل المبلغ الذى سأحصل عليه من المحاضرة ، لكى يذهب بى الى الكلية ، ويعود بى ثانية ٠ وبدأنا رحلتنا قبل أن يطلع النهار بوقت طويل ، وبلغنا ايسترن فى الصباح المبكر ٠ وقابلت هـ ٠ ل ٠ دونوفان عميد الكلية ، وهو رجل لطيف للغاية ، وقلت له انه لم يسبق لى أن تحدثت أمام طلبة أية كلية ، واننى لست واثقا من أننى أستطيع أن أفعل ذلك ٠

فقال ينصحنى : خذ الأمر ببساطة ، وسأصعد الى المنصة معك ٠ استرح فى حجرتك حتى الساعة العاشرة تقريبا ، ثم تعال الى مكان الاجتماع فى كنيسة الكلية فى نحو الساعة العاشرة والربع ٠ وسنبدأ دون تأخير فى الساعة العاشرة والنصف ٠

ثم قال : لقد ألفت كتابا رائعا ، وأنا أريد منك أن تصعد الى المنصة ، وتحدث الطلبة عن هذا الكتاب ، وكيف ألفته ، وقل لهم كيف تمكنت من نشره ، وحدثهم قليلا عن البيئة التى نشأت فيها ٠

ولو لم أتوقف عند لوحة الاعلانات ، قبل أن أدخل كنيسة الكلية ، لكنت أسعد حالا ، وأثبت جنانا ٠ فقد وقفت أمام اعلان صغير معلق فوق اللوحة ، وقد كتب عليه « جيس ستيوارت ، فتى فلاح ومدرس ، من مقاطعة جرينوود ، سيقرأ بعضـــا من أشعاره الريفية » ٠ ووقف الى جانبى لاعب كرة أجش الصوت ، وقرأ الاعلان كما قرأته ٠ ثم التفت الى وقال : ياللجحيم ! اذا كانت ايسترن لا تستطيع أن تقدم لنا برنامجا فى المحاضرات خيرا من هذا فلن أذهب ٠ هل تذهب أنت ؟

فقلت ، يا للجحيم ، أجل ، سوف أذهب ، انى مضطر الى الذهاب ، وأريد أن أعرف ما هى الحكاية ٠

وحسبنى هذا الطالب طالبا مثله ، ودخلنا الكنيسة معا ٠

وقال،وقد أخذ المكان يمتلىء بالحاضرين : يحسن أن نخطف لنا مقعدا٠٠٠

وفى هذه اللحظة اتجه دونوفان العميد نحوى ، وسألنى قائلا : هل أنت على استعداد ؟

فقلت أجيبه ، والفتى الذى رأيته عند لوحة الاعلانات ينظر الى نظرة غريبة : على أتم الاستعداد ٠

وصعدت الى المسرح خلف العميد ، حيث واجهت بحرا من وجوه تبلغ نحو ألف وسبعمائة عدا ٠

وهمس دونوفان العميد يقول لى ، أثناء المقدمات التمهيدية للاجتماع : خذ الأمر ببساطة ٠ سأجعل كلمتى التمهيدية قصيرة ، حتى نعطيك ثلاثين دقيقة كاملة ٠

ولم تستغرق كلمة العميد التى قدمنى بها سوى ثلاث دقائق ، فقال ان هذه أول مرة أقف فيها أمام طلبة الكلية ، وانني من مواليد هذه الولاية ، واننى مزارع ومدرس ، ثم قال انه طلب منى أن أحدثهم بشىء عن نشأتى ، وكيف ألفت كتاب « الرجل ذو المحراث » ٠ وهو كتاب يعتقد من حجمه أنه عمل يستغرق العمر كله ٠ وكنت بعد أن تحدثت الى العميد قد كتبت نقاط الكلمة التى سألقيها على ظهر أحد الظروف ٠ وكنت على استعداد للحديث بمجرد أن يفرغ من كلمة التقديم ٠

وأول ما حدثتهم عنه هو الاستقبال الذى لقيته عند لوحة الاعلانات ٠ فضج المكان بالتصفيق ٠ ومنذ تلك اللحظة حتى نهاية المحاضرة ، كان كل شىء أقوله ، رغم أنه حديث جاد بالنسبة لى ، يثير ضحكهم ٠ وفى هذا البحر من الوجوه أمامى ، لم أر وجها واحدا جادا ٠ وأخذت أحدثهم عن تعليمى ، والدرجات التى كنت أحصل عليها،وعن ذهابى الى المدرسة الثانوية ، والكلية، وعن مهنة التدريس ٠ وتحدثت اليهم عن التعليم الذى تلقاه والداى ، وكيف كنا نعيش ، نستأجر المزرعة بعد المزرعة،حتى استطعنا فى النهاية أن نشترى خمسين فدانا ٠ لقد كنت أقول لهم الصدق ، بيد أنهم كانوا يضحكون ٠ لعل أحدا ممن يحاضرونهم لم يتحدث اليهم بمثل تلك الصراحة التى كنت أحدثهم بها ٠ وقلت لهم اننى كتبت معظم الأشعار التى جاءت فى ديوان « الرجل ذو المحراث » على أوراق الشجر ، حينما كنت أقوم بالفلاحة فى مزرعة أبى ، وحينما كنت مديرا لمدارس مقاطعة جرينوود ٠ وحين قلت لهم ان كتابته استغرقت أحد عشر شهرا الا يوما واحذا ، واننى كتبته للتسلية والترفيه

عن نفسى حين كنت أقوم بالفلاحة ، وحين كنت أتولى وظيفة مدير مدارس مقاطعة جرينوود ، أخذوا يضحكون كما لم أسمع أناسا يضحكون من قبل ، فكانوا ينثنون فى مقاعدهم ، ويمسحون عيونهم بمناديلهم ، ويضحكون من الحديث الجاد الصادق ، الذى كنت أحاول أن أوجهه اليهم • وكثيرا ما كنت أضطر الى الوقوف على المنصة وانتظار عدة ثوان ، حتى يهدأ الضحك ، قبل أن أستطيع مواصلة الحديث • وحين دق الجرس ايذانا بانتهاء الاجتماع ، تعالت الصيحات تقول : المزيد • المزيد •

وحين نظرت ناحية الدكتون دونوفان أشار الى وهو يقول : استمر •

وكان يضحك ••

وتأجلت المحاضرات ، وتتابع دق الأجراس ، حتى لقد استغرق حديثى سبعا وثمانين دقيقة • وكان الضحك فى النهاية ، أشد مما كان عليه فى البداية ، وبدا التصفيق كأنه لن ينتهى أبدا • ولم يكن هناك وجه جاد بين وجوه أعضاء هيئة تدريس الكلية ، وكان الدكتور دونوفان العميد يضحك من أعماق قلبه مثل طلبته سواء بسواء • وفى نهاية هذا البرنامج،أخذ الطلاب والمدرسون يتقدمون نحوى • وكان جسمى ساخنا يتصبب العرق منه • وظللت أستقبل الطلاب والمدرسين حتى مكننى الدكتون دونوفان من مبارحة المسرح • ولم يكد شخص واحد يبرح الكنيسة ، الى أن خرج بى الدكتور دونوفان من باب جانبى • ووجدت أن أحد الأشخاص قد نزع الاعلان عن حديثى من لوحة الاعلانات ، لكى يحتفظ به تذكارا •

(١١)

لقد كنا نلقى مسئولية العمل المدرسى على عاتق تلاميذنا بمدرسة ماكسويل الثانوية ، ونجعلهم يتحملون مسئولية اعداد برامج الترفيه التى تقدم فى فترات الاجتماع بكنيسة المدرسة • وكنا نجعل التلاميذ يقومون بالقسط الأكبر من العمل ، فكان عملنا يقتصر على توجيههم وتعليمهم ، ثم ندعهم يقومون بالباقى •

فمثلا كنا نجعل التلاميذ أنفسهم يخرجون المسرحيات ذات الفصل الواحد ، فكانوا هم الذين يختارون من يقومون بتمثيل الأدوار ، ومن يقومون بمهمة الاخراج • فاذا لم يكن لديهم مسرحية ذات فصل واحد ، كنا نجعلهم

يحولون احدى القصص القصيرة الى مسرحية · وكانوا هم الذين يعــــدون البرامج الموسيقية ، فكان طلبة الصف الرابع يتبارون ضد طلبة الصف الثالث وطلبة الصف الثانى يتبارون ضد طلبة الصف الأول ·

وكنا نجعل التلاميذ الذين هم فى حاجة إلى ثمة وجبة الغذاء ، يعاونون فى ادارة الكافتيريا بالمدرسة · وكان واحد أو اثنان من التلاميذ يقومان بشراء المواد الغذائية اللازمة لها ، وكان أحد تلاميذ القسم التجارى هو الذى يقوم بمسك الدفاتر المالية ، وآخر يتولى استخدام آلة النقدية · كذلك كان تلاميذ قسم الاقتصاد الداخلى يعاونون مدرس هذه المادة فى اعداد الطعام ·

وكنا نجعل تلاميذ القسم الزراعى ينزعون الأشجار البرية من الغابات ، ثم يأتون بها الى حديقة المدرسة ويزرعونها فيها · وهم الذين رتبوا هــذه الأشجار القائمة هناك اليوم ، بمعاونة مدرسهم · وكانوا هم الذين يتولون تسوية الكساء الأخضر فى المساحات الشاسعة التى تشتمل عليها المدرسة ، وقد أنشأوا حديقة ، كما زرعوا الخضروات وغيرها فى مساحات من الأرض · وكان تلاميذ قسم الاقتصاد الداخلى يقومون بعملية حفظ الخضروات فى العلب، وكنا بعد ذلك نقدم هذه الأطعمة المحفوظة فى الكافتيريا · وكانت هذه كلها دروسا لتلاميذنا مبنية على الخبرة العملية · وكنا نعهد اليهم بأعمال كثيرة ، وفى كل مادة من المواد التى ندرسها ، كنا نعطى تلاميذنا كل ما يمكن أن نعطيه لهم من مسئولية التطبيق العملى ، وبدلا من أن نظل على الدوام نذكر تلاميذنا بأنهم لابد أن يقوموا بمزيد من العمل ، كانوا هم على الدوام يستمدون منا التوجيه والارشاد ·

ولم تكن ألعاب القوى من عدو ووثب ورمى معروفة لدى التلاميذ حين توليت نظارة مدرسة ماكسويل الثانوية ، فنظمت أنا والمدرب ميرز أول فريق لألعاب القوى ، فكنت أتولى التدريب على العدو ، وكان هو يتولى التدريب عـــلى رمى القرص ، ورمى الرمح ، ورمى الجلة ، والقفز بالزانة ، والوثب الطويل ، والوثب العالى · وفى العام الأول كنت أعدو مع تلاميذى ، فعدوت معهم مسافة نصف الميل ، ثم الميل ، ثم سباق اختراق الضاحية · وحين كان ينتصر على واحد من تلاميذى كنت أحس بالفرح · وفى خلال العام الأول من توليتى نظارة مدرسة ماكسويل الثانوية ، أقمت لهم مسابقات كثيرة ، غير أنه بمرور الزمن ، أخذت أتقهقر فى ميدان السباق ، وأصبحوا هم فى أوج مجدهم · وفى آخر مرة عدوت فيها مسافة النصف ميل مع أربعة من أعضاء

فريقى ، سبقنى اثنان منهم ، ولو أن المسافة كانت تزيد عن ذلك بمقدار عشرين قدما لسبقنى الاثنان الآخران ، فقد كانت أجسامهم نحيلة ، وأقدامهم سريعة ٠

وكنا نتسابق ضد بعضنا بعضا ، وكان من نتيجة ذلك أننا لم نخسر أى سباق اشتركنا فيه فى جنوب أوهايو ، أو شمال كنتكى ، سواء فى ذلك سباق الربع ميل أو النصف ميل ، أو سباق اختراق الضاحية ٠ ولم يحدث فى خلال الأربع سنوات التى قضيتها ناظرا لمدرسة ماكسويل الثانوية أن ضاع منا المركز الأول أو الثانى أو الثالث فى سباق الميل ونصف الميل٠وقد حدث بعد ذلك أن الفائز بالمركز الثالث فى سباق الميل انتقل الى كولمبس بولاية أوهايو، حيث انتقل والداه،فكان يفوز بالمراكز الأولى فى كل سباق يشترك فيه ٠ وقد سجل أحسن عدائينا فى سباق نصف الميل الرقم القياسى للولاية ، وهو دقيقتان وثلاث ثوان ٠ وكان توقيتنا فى سباق الميل عادة دون الزمن المحدد لسباق طلبه الكليات ٠ والسبب فى أن فريقنا فى العدو والوثب كان فريقا ممتازا ، هو أن اللاعبين كانوا يتذوقون هذه الرياضة ، ويستمتعون بها ٠ كانوا يستمتعون بروح المنافسة الودية ، ويؤمنون باللعب الجيد النظيف ، فكانوا يضعون هذا فوق كل اعتبار آخر ، يضعونه فوق الفوز ببطولة كرة القدم ، اذ لم نفز بها أبدا ، ويضعونه فوق الفوز ببطولة الاقليم فى كرة السلة ، وهذه لم نفز بها أبدا ٠

لقد كنا نؤمن باللعب ، ونؤمن بالكثير منه ، وكنا نناضل نضالا عنيفا لكى نفوز ٠ بيد أننا كنا نضع الروح الرياضية فوق كسب المباراة ٠ ان تشارلز ميرز ، الذى كان يشترك فى اللعب مع لاعبيه طوال الفترة التى قضاها مدربا بمدرسة ماكسويل الثانوية ، كان يؤكد فيهم مبدأ التمسك بالروح الرياضية ، وجعلها فوق كسب المباراة ٠ لقد غرس هذا المدرب فى نفوس لاعبيه الخلق القويم ، وحب اللعب الجيد النظيف ٠

(١٢)

وجاء المدرب ميرز الى مكتبى وقد احمر وجهه احمرار شديدا ٠

وقال : مستر ستيوارت ، انه « ليتل براير » مرة أخرى ٠

فقلت أسأله : ماذا فعل هذه المرة ؟

فقال : أريد أن تصعد الى حجرة العلوم لترى بنفسك ٠

وصعدت وراء المدرب ميرز ٠

وقال : أنت تعلم يا مستر ستيوارت أننى مسئول عن كراسات العلوم هذه ٠

وحين دخلنا حجرة العلوم ، كان السكون يخيم على جميع التلاميذ ٠ وكان « ليتل برابر » ، أصغر تلاميذ الفصل جسما ، يجلس فوق كرسى عال بدون ظهر ، وساقاه الرفيعتان كأنهما ساقا طائر ، تتدليان من الكرسى ٠ ولم يرفع رأسه حين دخلنا الحجرة ، بل ظل يحرك قدميه فى قلق ، وهو ينظر الى الأرض ٠

وقال المدرس وهو يناولنى خمس صفحات كان « ليتل برابر » قد مزقها من كراسته : أنظر الى هذه يا مستر ستيوارت ٠ انه تبديد فى ممتلكات المدرسة ٠

كانت هناك على كل صفحة قصيدة شعر ٠ وفى بعض أجزائها كتب ليتل برابر ثمانى أو عشر كلمات ، قبل أن ينتقى منها الكلمة المناسبة ٠ ثم ضبطه المدرب ميرز قبل أن يراجع القصيدة الأخيرة ٠

وبعد أن فرغت من قراءة القصيدة الأولى قلت للمدرب : ان هذا ليس نظما ٠ انه شعر ٠

وبعد أن فرغت من قراءة القصيدة الثانية قلت : حين يواتى أحد التلاميذ وحى الشعر على هذا النحو ، فيجب أن تتاح له الفرصة ليجد ورقا يكتب عليه ، فاذا لم يجد لديه ورقا فدعه يكتبه فى كراسته ٠

وحين فرغت من قراءة القصـــائد الخمس ، قلت للمدرب ميرز : اذا استطاع أى تلميذ أن يكتب شيئا كهذا فدعه يمزق كراسته صفحة صفحة ، وسأدفع أنا ثمنها ٠

وهاك ما حدث ٠ لقد وجهت « ليتل برابر » الى الجهة التى يبعث اليها بقصائده ٠ وقبلت احدى المجلات الشهيرة نشرها ٠ ولكن القصة لا تنتهى عند هذا الحد ٠ فعندما دخلنا المسابقة المدرسية للاقليم فى أوكلند ، أدخل المدرب

ميرز « ليتل برايز » فى مسابقة العلوم العامة ، فلم يفز بمسابقة الاقليم فحسب ، وانما فاز على الولاية بأسرها ٠ واحمر وجه المدرب ميرز ، بيد أنه لم يحمر كما احمر وجهى فى يوم جاء بعد ذلك ٠

ذلك أننا ، فى احدى أمسيات ابريل ، كنا نجرى فى سباق العدو ، وخيل الى أن هذا الصبى الضئيل الجسم ، ذا الساقين الرفيعتين كأنهما ساقا طائر ، يعوقنا فى العدو ، فاقترحت ابعاده عن طريق السباق فى أثناء عدونا ٠ ولحقنا به وهو يدور حول طريق السباق دورته الثانية ، حين كنا نحن نقوم بالدورة الثالثة ٠ ولم أكن أدرى أن ذلك الغلام الضئيل الجسم ، الذى يزن ثمانية وتسعين رطلا ، كان يجرى مسافة قدرها ثمانية أميال من بيته الى المدرسة ذهابا وايابا ، فى المساء والصباح ، ويقوم بعمل توقيت لنفسه بساعة يلبسها فوق معصمه ٠

ولم يشترك « ليتل برايز » فى السباق الا حين بلغ السنة النهائية من الدراسة ، وكان علينا أن نفوز بالمراكز الأولى والثانية والثالثة فى سباق الميل ، لكى نفوز فى السباق ضد فريق أوهايو ٠ وأصيب أحد عدائى الميل من فريقنا بتصلب فى عضلات الساق فلم يستطع العدو ، وعقدنا الأمل على أن يفوز « ليتل برايز » بالمركز الثالث ، بيد أنه فاز بالمركز الأول ، اذ قطع الميل فى أسرع وقت استطاع أن يقطعه أى من عدائينا ، وهو أربع دقائق وتسع وعشرون ثانية ، وحصلنا على المراكز الأولى والثانية والثالثة فى سباق الميل ، وحصلنا فى الشوط الأخير ضد فريق أوهايو عـــلى ما يقرب من التعادل ٠

(١٣)

وفى السنة الرابعة من قيامى بوظيفة ناظر مدرسة ماكسويل الثانوية ، لم يكد يمر أسبوع دون أن يصلنى خطاب يطلب الى فيه أن أذهب لألقى كلمة فى طلبة الكليات والمدارس الثانوية ، فى اجتماعاتهم بالكنيسة ، وفى المدرسين بمدارس المرحلة الابتدائية ، والمدارس الثانوية ، والكليات ، وأمام منظمات مدرسية مختلفة ٠ ولم أكن لأستطيع أن ألبى كل هذه الطلبات ، ولو فعلت هذا لاضطررت الى الاستقالة من وظيفة ناظر مدرسة ماكسويل الثانوية ٠ لقد أعطانى نشر ديوانى « الرجل ذو المحراث » أول فرصة أتيحت لى للتحدث الى طلبة احدى الكليات ، وهى كلية ايسترن ستيت للمعلمين ، فى رتشموند بولاية كنتكى ، ونقل أحدهم نبأ هذا الحديث ، وما لبث أن شاع وذاع ٠

وهاك الطريقة التى كنت أرتب بها هذه الأحاديث ؛ أولا : كان لابد لى من الحصول على ترخيص من مدير مدارس المقاطعة ، قبل أن أستطيع مبارحة مدرسة ماكسويل الثانوية . وكنت فى خلال ذلك الوقت قد ألقيت بأحاديث فى اجتماعات كل المدارس الثانوية المجاورة على وجه التقريب ، فى مقابل أن يتحدث زملائى من نظار المدارس ومديرو مدارس المقاطعات ، الى تلاميذى بمدرسة ماكسويل الثانوية . وقد نجحت هذه الفكرة نجاحا رائعا ، اذ أنها عملت على تحسين الروابط بين مدارسنا ، ولذلك كانت اذا نشأت أو حين تنشأ مشكلة بين المدارس الثانوية ، كنا نلتقى لكى نسوى خلافاتنا . وقد وافق مستر مانسن مدير مدارس المقاطعة على هذه الفكرة ، وتبناها . بيد أننى الآن أصبحت أتلقى دعوات للذهاب الى أبعد من المدرسة الثانوية المحلية ، ومن مختلف المنظمات التى توجد فى وادى النهر الكبير .

فاقترح مستر مانسن أن أقوم بالقاء حديث واحد كل أسبوع ، فقد كان يريد منى أن أبحث عن أفكار جديدة للمدارس ، وأعود بهذه الأفكار الى كنتكى . وكانت لدى فكرة آخرى لم أحدث مستر مانسن بشأنها ، اذ كنت أخشى ألا تنجح . وكانت معظم الدعوات للحديث تأتينى من الكليات والجامعات ، بل ان ما تلقيته من الدعوات كان من الكثرة بحيث أننى قررت القيام بأول رحلة فى الشرق ، فى خلال الأسبوع الذى يحضر فيه المدرسون اجتماع رابطة كنتكى التعليمية ، والذى يعقد فى مدينة لويزفيل . وأعددت حديثا واحدا ألقيه فى اليوم الواحد ، مبتدئا باحدى الكليات فى أوهايو ، ومنها الى ثلاث كليات للمعلمين فى بنسلفانيا ثم أنتهى بحديث ألقيه فى جامعة برنستن .

وفى خلال كل أسبوع ، كنت أذهب الى مكان ما لألقى بحديث ، فذهبت شرقا حتى نيويورك ، وجنوبا حتى جورجيا ، وغربا حتى الينوى ، وشمالا حتى مشجن . وعندما كنت ألقى بحديث فى كلية أو جامعة ، كان عمداء هذه المعاهد ، الذين يفوقوننى علما ، يسألوننى فى كثير من الأحيان عن التلاميذ الذين كنت أدرس لهم فى المدارس ، وعما اذا كنت أستطيع أن أزكى أحدا منهم واذا لم يسألونى هم ، كنت أنا أفتح الموضوع وأتحدث عن تلاميذى ، وكنت أجد أنهم يهتمون فى كل مكان بتعليم البنين والبنات من أبناء الجبال . غير أن اهتمامهم لم يكن مثل اهتمامى ، لأنهم لم يروا ما كنت أرى ، فقد كنت أنا أعرف قيمة التعليم ، لأن البلاد التى نشأت فيها لم يكن التعليم فيها يلقى اهتماما .

وكان السبب هو أن التلاميذ كانوا ينتمون الى أسر فقيرة ، ولم أشهد بين أهالى مقاطعة جرينوود أسرة ثرية واحدة • وحين كنت أنا وعميد كل كلية من الكليات التى كنت أحاضر فيها ننتهى من القاء حديثنا ، كنت فى كثير من الأحيان أصل معه الى اتفاق يقضى بأن أبعث بواحد أو أكثر من تلاميذى ، لكى يشقوا طريقهم فى كليته أو جامعته • لقد كان كل ما أطلبه هو اتاحة الفرصة لأى فتى طموح ، ولأى فتاة طموحة من أهالى الجبال فى كنتكى •

وبذلك ساعدت على ادخال ثلاثة وسبعين فتى وفتاة الكليات والجامعات• وكان ما لدى هؤلاء الفتيان والفتيات من المـــال ضئيل ، ولم يكن آباؤهم يملكون شيئا • وكان من رأيى أنه اذا كان هناك فتى أو فتاة لديه من الطموح ما يجعله يحاول أن يشق طريقه بنفسه الى الكلية أو الجامعة ، فلابد من أن نتيح له هذه الفرصة • وكان يحدث فى كثير من الأحيان أن يمنح واحد من تلاميذى مجانية التعليم بالجامعات ، بناء على تزكيتى له • ولم أكن لأستجدى شيئا ، أو أطلب احسانا لتلاميذى ، وانما كنت أسرد تاريخ حياة الطالب ، والحقائق التى تتصل به ، فكان هذا يؤتى أكله •

وكانت نسبة الأمية عالية فى ولايتى ، فالجزء من الولاية الذى أعيش فيه ، وهو البلاد الجبلية الواقعة فى شرق كنتكى ، ظل من الناحية العقلية ساكنا بلا حراك ، فى الوقت الذى كان تقدم الشعب يجتاح ما حوله من بقاع ، كأنه الاعصار الجارف • ولو كان هناك رجل على وجه الأرض يبغى القضاء على الأمية من المناطق الجبلية ، فقد كنت أنا هذا الرجل • وكنت أرى أنه اذا تخرج أحد التلاميذ ممن أعمل على ادخالهم الجامعة ، ثم رجع لكى يعمل بالجبال ، فان الأثر الذى سوف يحدثه سيكون كذلك الأثر الذى يحدثه سقوط ثمرة البلوط فى بركة عميقة من الميـــاه الجبلية ، اذ تنتشر الموجات الصغيرة من ثمرة البلوط ، فى طول البركة وعرضها •

وحين نشر الموضوع الذى كتبته وأنا طالب بجامعة فاندربلت،على شكل كتاب بعنوان « فيما وراء التلال المظلمة » ، كان ثالث كتاب ينشر لى ، وجاءنى خطاب من مكان بعيد هو مدينة بوسطن بولاية ماساتشوستس ، وقد جاء فيه « اعتمادا على ما جاء فى باب الكتب بصحيفة نيويورك تايمز ، اشتريت كتابك « فيما وراء التلال المظلمة » • وما دمت لم أستطع أن أمد يد المساعدة الى مؤلف هذا الكتاب حين كان طالبا بالكلية ، فاننى أطلب منه أن يزكى لى أحد التلاميذ ، لكى أبعث به الى الكلية ، وأتكفل بجميع نفقاته » •

وقد فرحت فرحا بالغا بذلك الخطاب ، حتى اننى أعدت قراءته عدة مرات ، لكى أتأكد من أن الأمر ليس حلما • ولم أستطع أن أصل الى قرار بشأن التلميذ الذى أبعث به • لقد كان هناك ثلاثة من تلاميذى كنت واثقا من أنهم سوف يذهبون الى الكلية ، وقد درست لاثنين منهم فى مدرسة لانزبيرج ، ودرست لواحد منهم فى مدرسة ماكسويل الثانوية • وكان كل واحد من هؤلاء قد فقد أحد والديه ، ولذلك كان كل منهم يضطلع بمسئوليات البيت ، ولم يكن لديهم فرصة لدخول الجامعة ما لم يتلقوا مساعدة من أحد • فكتبت سردا مطولا لتاريخ كل فتى منهم ، وبعثت بالخطابات الثلاثة الى مرسل الخطاب ، وذكرت له أننى لم أستطع أن أحدد أيا منهم أزكيه ، وأن عليه هو أن يختار منهم من يشاء •

فرد على بخطاب يقول فيه انه سوف يبعث بثلاثتهم الى الكلية على نفقته • وعجبت من يكون هذا الرجل • وأخذت أدرس عرضه هذا ، ورأيت أنه ليس من الصواب أن يتلقى هؤلاء الفتيان تعليمهم كله مجانا ، وخطرت لى فكرة أخرى ، فكتبت اليه ، واقترحت عليه أن يدفع ثلاثة أرباع نفقات تعليم كل منهم ، وبهذا ينقص ربعا من كل منهم ، فيتوفر ثلاثة أرباع يمكن أن تدفع نفقات تعليم تلميذ رابع • وأعجبته الفكرة ، فكتب الى يقول ان له صديقا لن يفصح عن اسمه ، يريد أن يبعث بواحد من التلاميذ الى الكلية ، ويدفع نفقات تعليمه كلها • وهكذا أصبح عدد من سينفق على تعليمهم الجامعى من التلاميذ خمسة •

وكان التلميذان اللذان زكيتهما من بين تلاميذ مدرسة لانزبيرج هما روبرت وويليام هامبتون ، وكانا ابنى جون هامبتون ، الذى عمل مدرسا بالمدارس الريفية مدة تزيد على نصف قرن ، ولما مات ترك ديونا كثيرة تمكن ابناه من سدادها • وكان جون هامبتون هو الذى مكننى من الحصول على وظيفة مدرس بمدرسة لونسم فالى الريفية ، وكان هو الذى قال انه فى بدء عهده بالتدريس كان يحاول أن يقلب التلال عاليها سافلها ، لكى يرى ما تحتها • أما التلميذ الثالث الذى زكيته فهو « ليتل برايز » ذلك الشاب النابه ، الذى كان يكتب الشعر فى كراسة العلوم ، وكان أسرع عدائى مسافة الميل بمدرسة ماكسويل الثانوية • أما الاثنان الباقيان فكانا فتاتين هما ميى برات وهيلين آرتنر ، وقد التحق الشبان الثلاثة بالقوات المسلحة ، وتخرجت الفتاتان من الكلية واشتغلتا بالتدريس • لقد كان هؤلاء الخمسة ثمار البلوط التى تسقط فى بركة من الماء ، فتنتشر الموجات الصغيرة منها فى طول البركة وعرضها •

(١٤)

ولو أنى سجلت جميع مشاهداتى فى المدارس التى زرتها فى سائر الولايات ، لألفت فى ذلك كتابا • وقد اقتبست أفكارا كثيرة من المدارس التى تقع فى الشمال ، ورأيت بعينى رأسى الجهود التى يبذلها زملائى فى مهنة التدريس ، فى سائر الولايات •

وقد زرت المدارس الثانوية ، وكل ركن فيها ، من حجرة البواب الى مكتب مدير مدارس المقاطعة ، باحثا عن الحسنات ، ومنقبا عن الأخطاء • لقد كنت أريد أن أعرف كل شىء عن المدارس فى كل ولاية من الولايات ، وكنت أريد أن أجمع المعلومات أمامى كأنها كومة الخشب ، فألقى بعيدا بالطالح من أعوادها ، وأبقى على الصالح منها • وهاك بعضا من هذه المشاهدات •

يتقاضى المدرسون فى الولايات الشمالية والولايات الشرقية مرتبات باهظة اذا قورنت بتلك التى يتقاضاها المدرسون فى الولايات الجنوبية ، ومع ذلك فهذه المرتبات التى لا يصدقها العقل ليست باهظة على الاطلاق ، اذا هى قورنت بالأجور التى يتقاضاها المهرة من العمال الذين يشتغلون فى المصانع فى الولايات الشمالية ، بل انها لم تكن فى كثير من الأحيان تبلغ الأجور التى يتقاضاها غير المهرة من العمال • وفى احدى المدارس الثانوية التى زرتها بالولايات الشمالية كان الفراش يتقاضى فى مقابل المسح والكنس تعويضا أكبر من ذلك الذى يتقاضاه المدرسون الذين قضوا سنوات من أعمارهم يعدون أنفسهم لمهنتهم ، والذين يتوقف على براعتهم فى التدريس مستقبل الجمهورية • وكان هذا الاكتشاف عودا من الخشب طالحا ألقيت به على الفور من كومة الأعواد الصالحة التى جمعتها فى مشاهداتى •

وفى احدى الولايات ــ وهى من أكثر ولايات الاتحاد تقدما ، ويقوم فيها التوازن بين الزراعة والصناعة ــ وجدت أن العام الدراسى فى المدارس الريفية بالمقاطعات سبعة أشهر ، فى حين أنه فى مدارس المدن التى توجد داخل هذه المقاطعات تسعة أشهر • وكذلك كان الحال فى كنتكى • لقد كان النظام السائد هو النظام المدرسى الثنائى ، فكانت مدارس المدينة تحصل على الضرائب الكبيرة من الثروة المتركزة فيها ، وتدفع لمدرسيها مرتبات أفضل من تلك التى يتقاضاها مدرسو المدارس الريفية ، وتعطى تلاميذ المدن امتيازات أكثر من تلك التى تعطيها لتلاميذ الريف • كان هذا يحدث فى أوهايو ، وهى احدى ولايات الاتحاد القريبة الى نفسى • وأنا أحب ولاية أوهايو لأن النـــاس

فيها يتحركون · انهم يفعلون شيئا ، ولا ينتظرون ، وهم يؤمنون بالتقدم والارتقاء · وفى ذلك الوقت كان من المسائل موضع الجدل ، مسألة ما اذا كانت مدارس أوهايو أم مدارس كاليفورنيا تأتى فى المرتبة الأولى بالنسبة لمدارس البلاد بأسرها · وقد زرت ولاية وست فرجينيا ، حيث كان نظام الوحدات لا يزال فى المهد ، وكان هذا النظام يدفع لجميع المدرسين على حد سواء ، الحد الأدنى للأجور فى الولاية ، وكان يعطى تلاميذ المدارس الريفية فرصا تكاد تتكافأ مع تلك التى يعطيها لتلاميذ مدارس المدن ·

وفى كل الولايات الشمالية التى زرتها ، وفى ولاية وست فرجينيا ، كنت أجد مدرسين قادمين من الولايات الجنوبية · ولم أزر مدرسة فى أى بقعة فى الشمال الا وجدت فيها مدرسا أو أكثر من مدرسى الولايات الجنوبية ، وكثيرا ما كنت أجد رؤساء النظم المدرسية فى الولايات هم من أهالى الولايات الجنوبية · وسألت نفسى : لماذا يتجه مدرسو الولايات الجنوبية نحو الولايات الشمالية على هـــذا النحو ؟ وكان الجواب سهلا غاية السهولة · لقد كان مدرسو الولايات الشمالية يهجرون مهنتهم ، لكى يتولوا مراكز أفضل فى ميدان الصناعة ، سواء أكانت هذه المراكز تحتاج الى مهارة ، أم لا تحتاج اليها، كما كانوا يقتحمون ميدان العمل الحر · وكان معظم أهل الشمال على الأقل أناسا عمليين ، فاذا وجدوا أن التدريس لا يقيم أودهم حاولوا البحث عن عمل يحصلون منه على أجر أفضل · وحين هجر مدرسو الولايات الشمالية هؤلاء مهنة التدريس بالألوف ، هاجر مدرسو الولايات الجنوبية الى الشمال لكى يأخذوا مكانهم ، اذ أنهم ظلوا يتقاضون مرتبات ضئيلة طوال حياتهم · وما ان يقوموا بالتدريس هناك بضع سنوات ، وما ان يجدوا أن هناك وظائف كثيرة تدفع أجورا أفضل من تلك التى تدفعها لهم هذه المدارس ، حتى يهجروا هم الآخرون مهنة التدريس ، سعيا وراء أجور أفضل ·

ومن بين الولايات الجنوبية ، وولايات الحدود ، كانت الولاية التى يوجد بها أكبر عدد من المدرسين يعملون خارج حدودها هى ولاية كنتكى ، موطنى ومسقط رأسى · ففى مقاطعة واحدة فى ولاية وست فرجينيا ، كانت تبلغ نسبة المدرسين الوافدين من ولاية كنتكى سبعين فى المائة · وفى طول ولاية أوهايو وعرضها ، فى كل نظام مدرسى صغر أم كبر ، كنت أجد مدرسين موطنهم الأصلى ولاية كنتكى · وفى ولاية الينوى ، وانديانا ، ومشجن ، وبنسلفينيا ، وجدت عددا مذهلا من المدرسين القادمين من كنتكى ، ووجدتهم أيضا فى ولايات تنسى ، ونيوجيرزى ، ونيويورك ، وكانوا يحصلون على مرتبات

تبلغ ضعف أو ثلاثة أضعاف تلك التى كانوا يحصلون عليها فى كنتكى · وقد ذهب أحد المدرسين ممن كانوا يعملون بمدارسى بمرتب قدره ستة وتسعون دولارا فى الشهر ، الى ولاية وست فرجينيا ، حيث أصبح يتقاضى مرتبا قدره ثلاثمائة وسبعة وثمانون دولارا فى الشهر ·

والشخص الذى موطنه كنتكى ، والذى مهنته التدريس ، يعرف السبب فى وجود هذا العدد الكبير من المدرسين فى كنتكى · السبب أنه فى هذه الولاية ، حيث يتقاضى المدرسون أقل مرتبات تدفعها أية ولاية تقريبا لمدرسيها، توجد لدينا أربع كليات ضخمة ممتازة لتخريج المعلمين ، وهى كليات معانة من الولاية ، ونحن نشجع الشباب على أن يتخذوا التدريس مهنة لهم ، فنصهرهم فى هذه المصانع العظيمة الأربعة ، ثم نسكهم ، ثم نبعث بهم الى الولايات الواقعة على حدود ولايتنا ، ما دمنا لا ندفع لهم أجورا لائقة · اننا لا ندفع لهم ما يكفى لأن يجعلنا نطمع فى استبقائهم · وكثيرا ما يقال ان أعظم صادرات كنتكى ، ليست أنواع الويسكى الفاخرة ، ولا خيول السباق ، وانما هى مدرسوها ·

وفى السنة الرابعة من توليتى نظارة مدرسة ماكسويل الثانوية ، تنقلت فى أنحاء البلاد كما لم أتنقل فى حياتى · وكنت أدفع أجور السفر من المكافآت التى كنت أحصل عليها مقابل ما ألقيه من أحاديث · وكنت أركب القطارات فتعبر بى أراضى الغرب الأوسط المستوية حين يكون القمح أخضر ، وحين يكون ذهبى اللون فى الخريف · وركبت قطارات تسير بمحاذاة الأنهار ، وتخترق وديان بنسلفانيا العميقة ، حين أصبحت أوراق الأشجار فوق الجبال متعددة الألوان · ورأيت التفاح وهو ينضج فى البساتين الشاسعة بولاية نيويورك ، وسافرت بالسيارة الى جنوب جورجيا فى شهر مايو ، فى الوقت الذى يستحب فيه اغلاق نوافذ السيارة ، حتى تحجز الريح الساخنة التى تهب من حقول القطن ، وشعرت بلذعة الشتاء فى شبه الجزيرة الشمالية بولاية مشجن ، حين كان عمق الثلوج ثنتين وعشرين بوصة ، ودرجة الحرارة ثلاثين تحت الصفر ·

(١٥)

وفى ابريل ، تلقيت خطابا من هنرى آلن مو بمؤسسة « جوجنهايم مموريال » ·· وكنت قد تقدمت بطلب الحصول على منحة جوجنهايم ، بناء

على اقتراح الدكتور ألفرد كراب ، حين كنت أقضى السنة الثالثة والأخيرة بكلية بيبودى ٠

وبعد أن أرسل طلبى الى مؤسسة جوجنهايم مموريال ، تلقيت ذلك الخطاب من آلن مو ، يسألنى فيه أن أبعث اليه بأية كتب أكون قد ألفتها ، فأرسلت اليه الكتابين الوحيدين اللذين ألفتهما ٠ وقد حدث هذا منذ بضعة شهور خلت ٠ وأخذت الآن أتساءل عن القرار النهائى للجنة ٠ لقد تقدمت بطلب الحصول على منحة جوجنهايم لكى أستطيع أن أذهب الى أوربا ٠ وكان كل ما على أن أفعله هو أن أفض الخطاب الصغير الرفيع ، لكى أعلم أن طلبى قد قبل ٠

وحين أبلغت هذا النبأ الى مدير مدارس المقاطعة ، منحت ، بناء على توصية منه الى مجلس تعليم مقاطعة جرينوود ، اجازة مدتها سنة ، للسفر والدراسة فى الخارج ٠

الجزء السادس

لأنني كنت أريدك أنت

(١)

حين عدت الى بلادى بعد أن أقمت فى أوربا أربعة عشر شهرا ، وجدت أن تغيرات مذهلة حدثت ، فقد فصل تشارلز مانسن مدير مدارس مقاطعة جرينوود ٠ والذى حدث هو أن ثلاثة من أعضاء مجلسه الخمسة رشحوا أنفسهم للانتخاب مرة أخـــرى ٠ وكان توماس ديكسون ، الذى يطمع فى منصب تشارلز مانسن ، قد رشح هـــو كذلك ثلاثة رجال لينافسوا أعضاء مجلس تشارلز مانسن الذين كانوا يسعون الى اعادة ترشيحهم ٠ وحين أحصيت الأصوات ، انتخب مجلس مستر مانسن بأغلبية كبيرة ٠ غير أنه حدث فى طلبات اعادة الانتخاب ، التى تقدم بها أعضاء مجلس مستر مانسن الثلاثة ، أن وقع كل واحد منهم فى خطأ بسيط ، وهو أنه لم يكتب مكان مولده ٠ وكان اثنان منهم من مواليد مقاطعة جرينوود ، وكان الثالث من مواليد مقاطعة بايك بولاية كنتكى ٠

وبناء على هذه المسائل الفنية التى ليست بذات أهمية ، قدمت عريضة الى محكمة مقاطعة جرينوود بمنـــع أعضاء مجلس مستر مانسن من العمل بمجلس تعليم مقاطعة جرينوود ٠ وجاء فى العريضة طلب فصل هؤلاء الأعضاء الذين أعيد انتخابهم ، واحلال من هزموهم فى الانتخابات محلهم ٠ وكان هؤلاء الذين هزموا فى الانتخابات من أنصار توماس ديكسون ٠

وبدأت هذه المعركة القانونية فى محاكم مقاطعة جرينوود ، بعد انتخابات نوفمبر بوقت قصير ٠ وأصدر « ويتلكوم » قاضى محكمة القضاء العام حكما لصالح أعضاء مجلس مستر مانسن ، وعند ذلك حولت القضية الى محكمة استئناف كنتكى ، التى أصدرت فى الربيع التالى حكما مناقضا للحكم الأول ٠ وهكذا أعطى المرشحون من أنصار توماس ديكسون ، وهم الذين حصلوا على أقلية الأصوات فى الانتخاب ، الحق القانونى فى أن يعملوا أعضاء بمجلس تعليم مقاطعة جرينوود ٠ ولما كان ثلاثة أعضاء يعتبرون أغلبية ، فقد عزل تشارلز مانسن من منصبه كمدير مدارس مقاطعة جرينوود ، وحـل محله توماس ديكسون ٠

ولم يعترف بالاجازة التى قضيتها بعيدا عن مدرسة ماكسويل الثانوية ، فعين « ستيردى راوند ترى » ناظرا لها مكانى ٠ ولم يجدد عقد أحد من أعضاء هيئة التدريس الذين عملوا معى سوى « ثاليا ميرز » ، وهى مدرسة موهوبة يجد أى ناظر صعوبة فى أن يجد من يحل محلها ٠ وعين تشارلز ميرز مدربا

فى مدرسة لانزبيرج الثانوية ، وهى المدرسة التى هزم فريقها عدة مرات فى الخمس السنوات الماضية • ووجد واحد من المدرسين وظيفة فى احدى الكليات بجورجيا ، ووجد آخر وظيفة فى أحد نظم مدارس انديانا ، واشتغل اثنان فى أحد نظم مدارس أوهايو ، وأرسل اثنان الى المدارس الريفية بمقاطعة جرينوود ، وترك الباقون مهنة التدريس • وهكذا كانت نهاية واحدة من أكفأ ما شهدت من هيئات التدريس ، فتفرق مدرسوها أيدى سبا • أما مستر مانسن ، الذى خلفنى فى وظيفة مدير مدارس مقاطعة جرينوود ، والذى عملت معه فى هدوء ونجاح مدى أربع سنوات ، فقد اعتزل الخدمة وأقام فى مزرعته • وأما لارى أندرسن الذى خلفته فى وظيفة مدير مدارس مقاطعة جرينوود ، فلم تعد له صلة بالمدارس ، اذ ترك مهنة التدريس واشتغل متعهدا •

وحين تولى توماس ديكسون منصب مدير مدارس مقاطعة جرينوود ، حدثت هزات مفاجئة • لقد كان المدرسون يخشون التعبير عن آرائهم ، ولم تكن لدى الكثيرين من هؤلاء المدرسين الذين يدرســـون بالمدارس الريفية مؤهلات للتدريس فى مدارس ولاية أوهايو ، وحتى لو استطاعوا الحصول على ما يؤهلهم ، فان الوقت قد فات ، بحيث لن يستطيعوا الحصول على وظائف فيها • ذلك لأن مدارس أوهايو كانت قد تعاقدت مع من تحتاجه من مدرسين للعام الدراسى المقبل • وكان يعز على الكثيرين منهم أن يتركوا التلال ، مسقط رأسهم ، لكى يبحثوا عن عمل فى ولاية أخرى ، وكانت مشاعرهم وعواطفهم ترتبط بجيرانهم ، وتلالهم ، ووديانهم الصغيرة الضيقة ، وأنهارهم وأكواخهم وحقولهم • كانوا يحبـــون بلدتهم ، وكانوا مستعدين أن يغلقوا أفواههم فلا يتكلمون ، وأن يظلوا محتفظين بوظائفهم الصغيرة ، ومرتباتهم الضئيلة ، ومع ذلك فان مدرسى مدرسة ماكسويل الثانوية هؤلاء ، كانوا أهلا للتدريس فى أى بلد من البلاد •

وكنت أعرف شعور مدرسى المدارس الريفية هؤلاء ، نحـــو توماس ديكسون • انهم لم تعجبهم الطرق التى استخدمها لكى ينتخب مديرا لمدارس مقاطعة جرينوود • وكان واحد وسبعون مدرسا من المدرسين المائة الذين كانوا يدرسون حينذاك فى مدارس المقاطعة ، من تلاميذى • وكان كثيرون من تلاميذى يدرسون فى مدارس أوهايو ، وانديانا،وتنيسى ، ووستفرجينيا، ومشجن ، كما أن ثمانية من تلاميذى الأربعة عشر الذين درست لهم بمدرسة ونستن الثانوية ، قـــد أصبحوا مدرسين ، وكذلك أصبح تلاميذى بمدرسة لونسم فالى ، ومدرسة لانزبيرج الثانوية ، ومدرســـة ماكسويل الثانوية •

وأصبح أخى جيمس ستيوارت مدرسا بمدرسة ماونتن فيو الريفية • لقد أنشأت ادارة مشروعات العمل طريقا يؤدى الى هذه المدرسة ، التى تقع فوق قمة الجبل ، ويمكن أن يقود المرء الآن سيارة فى هذا الطريق • وأصبح « بدج ووترز » مدرسا باحدى المدارس الريفية • ان هؤلاء المدرسين الشباب ، قد حصلوا على أعلى مؤهلات دراسية حصلت عليها أية جماعة من المدرسين فى تاريخ مقاطعة جرينوود ، سواء قبلهم أو بعدهم ، فقد قضوا عامين بالكليات ، وأكمل دراسته وتخرج فيها كثيرون ، كما أن كثيرين من تلاميذى حصلوا على مؤهلات تعادل أو تفوق مؤهلات مدير مدارسهم ، توماس ديكسون ، فقد تدربوا فى الكليات كما تدرب ، وأمضوا فى التدريس سنوات عديدة كما أمضى •

(٢)

هل ما رأيته فى أوربا يمكن أن يحدث هنا ؟ لماذا لم أعد الى وظيفتى ناظرا لمدرسة ماكسويل الثانوية ؟ لماذا اعتزل تشارلز مانسن المهنة واعتكف فى مزرعته ، وهو الرجل المربى القدير ؟ ان ذلك لم يحدث لأن الناس لا يثقون فى تشارلز مانسن ، فقد صوتوا بأغلبية ساحقة لأنصاره من أعضاء مجلس التعليم • لماذا لا يستطيع الكثيرون من المدرسين الممتازين العودة الى وظائفهم ؟ لماذا يشردون شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ؟

لقد كانت المعركة فى نظرى معركة من أجل العدالة،ورد العدوان بمثله • واعتزمت أن أضرب بسرعة ، وأن أضرب بقوة وبعنف • ولكن ما هى أفضل وسيلة للوصول الى الشعب ؟ وتذكرت الطريقة التى وصلت بها الى الشعب حين كنت مديرا لمدارس مقاطعة جرينوود • ان خير وسيلة هى كتابة الحقيقة فى الصحف • ولكن ، ما أدراك ما الصحف ؟ ان لامبيرت ريد رئيس تحرير صحيفة « لانزبيرج ليدر » يذكر معركة الصحف القديمة ، حين كان يناضل فى جانب لانزبيرج ، وكنت أنا أناضل فى جانب مقاطعة جرينوود • لقد كانت هذه المعركة لا تزال توجعه رغم مرور السنين ، وسوف يرفض بطبيعة الحال نشر أى شىء أكتبه ، فكل ما كنت أؤيده ، كان هو يعارضه • كذلك لم يكن لدى مجال للنشر فى صحيفة « ركسفورد اجزامينر » التى يرأس تحريرها ركس ملفورد • ومع ذلك فقد كان ركس ملفورد يعطف علينا ، وكان قد هاجم فى مقالاته الافتتاحية ، الموقف فى مدارس مقاطعة جرينوود ، غير أننى كنت أحتاج الى فراغ كبير للنشر ، لن يكون فى استطاعته أن يعطنى اياه •

ثم خطرت لى فكرة انشاء صحيفة خاصة بى ، أسميها « جرينوود كاونتى سيتزن » ، فاتفقت مع ركس ملفورد على طبع هذه الصحيفة فى مطبعته • وأعددت العدة للهجوم « لا يمكن أن يحدث هذا هنا • لا يمكن أن يحدث هذا فى مقاطعة جرينوود • » وقالت نومى دين صديقتى « لا تفعل يا جيس • ان القوى التى ضدك أشد منك بأسا بحيث لن تقوى على حربها » • ثم أضافت قائلة فى لهجة جادة « وفضلا عن ذلك ، فانك قد تقتل » • ونصحتنى أمى بألا أنشىء هذه الصحيفة ، وقالت تسألنى « هل الأمر يستحق كل هذا العناء يا جيس ؟ » فقلت لها « لو أنك رأيت ما رأيته لعرفت أن الأمر يستحق كل جهد أبذله • انك لا تعرفين ما هية الحرية الى أن تفقديها » • وقال أخى جيمس «لقد سمعت الناس يتكلمون يا جيس • انك ستكون فى خطر بالغ • ان الموقف هنا أخطر مما تتصور » •

وعلى الرغم من هذه التحذيرات المتكررة ، من جانب أهلى وأصدقائى ، فقد أنشأت الصحيفة • وحملت حملة لا تعرف الخوف على الاطلاق ، اذ كنت أريد منهم أن يثأروا ، وقد فعلوا • ونشبت المعركة ، ويا لها من معركة ! فقـــد انقسمت مقاطعة جرينوود ، وحتى مدينة لانزبيرج ، الى معسكرين متناحرين ، فكانت الخادمات اللاتى يعملن فى البيوت فى مدينة لانزبيرج يهززن قبضتهن الى بعضهن من وراء أسوار أفنية البيوت • وامتدت المعركة من مدينة وشنجتن حتى مدينة فرانكفورت عاصمة ولاية كنتكى ، وبلغت مدرسة ماونتن فيو ، أبعد المدارس الريفية فى مقاطعة جرينوود •

ولم أكتب كلمة نابية واحدة فى صحيفتى ، ولم أكتب فيها أى شىء يمكن أن يقف حائلا دون حصولى على ترخيص باصدارها ، بيد أننى لم أستطع أن أحصل على ترخيص • لماذا ؟ اننى لن أعرف السبب أبدا • لقد كانت هذه احدى الوسائل الناجعة لحجب الحقيقة عن الناس • وأخذت أوزع الصحيفة باليد ، وأبيعها فى الشوارع • وكان كثيرون من الناس ، ممن كانوا يرون رأيى ، ويؤمنون بأننى على حق، يخافون أن يراهم أحد وهم يشترون صحيفتى، اذ كانوا يخشون أن يفقدوا وظائفهم •

وحدث فى بعض الحالات أن أحد المحلات كان ينشر اعلانات فى صحيفتى فقاطعه الناس بطريقة مؤدبة ، ولم تعد حركة البيع فيه كما كانت من قبل • وبعد أن حدث هذا لم أسع أبدا بعد ذلك للحصول على اعلانات من صاحب الحانوت الطيب • وأخذت الصحيفة تغرقنى فى الديون ، بيد أننى واصلت

النضال من أجل ما أعتقد أنه حق ، ومن أجل ما أومن به · وكان مدرسو المدارس الريفية قد لزموا الصمت فى بداية الأمر ، ثم خرجوا من مخابئهم ، وأخذوا يكتبون المقالات الافتتاحية ، ويجيئون بها الى ، فأنشرها دون ذكر أسمائهم ، حتى لا يتعرضوا للانتقام · وحشدت صحيفة « لانزبيرج ليدر » كل قواها ، لكى تتوازن مع قوة صحيفتى « جرينوود كاونتى سيتزن » ، وهى صحيفة بدون ترخيص · وقفز توزيع صحيفتى من مائتين الى ثمانمائة · بيد أن عمر صحيفتى كان قصيرا ، فلم تصدر الا من يولية حتى نوفمبر على وجه التقريب ·

وفى غضون ذلك ، عبرت خط النزاع القائم بين مانسون وديكسون ، وهاجرت من كنتكى · لقد أصبحت محاولاتى لمساعدة قومى على أن ينالوا قسطا من التعليم نجوما مظلمة فى زوايا النسيان ، فسلكت الطريق الذى كان يسلكه ستون ألفا من أهالى كنتكى كل عام · وكان من بين هؤلاء الألوف الذين يغادرون كنتكى ، مئات من المدرسين · لقد وجدت وظيفة بمدرسة دارتموث الثانوية بمدينة دارتموث ، فى ولاية أوهايو ، اذ تحدثت ليدياليونارد – أول مدرسة درست لى فى المدرسة الثانوية – الى أخيها جرانت هيل بشأنى ، وكان أخوها ناظرا لمدرسة دارتموث الثانوية · ورغم أن هيئة التدريس بمدرسته كانت قد اكتملت منذ مدة طويلة ، فانه كان يريد أن ينشىء فصولا خاصة بمدرسته ، ورأى أننى أصلح لأن يعهد الى بهذه الفصول ·

(٣)

وكان العمل الذى عهد الى به فى مدرسة دارتموث الثانوية هو تدريس اللغة الانجليزية العلاجية (فصول التقوية)·ولم يكن مسموحا لى أن أستخدمأى كتاب مدرسى مطبوع ، سواء فى النحو أو أدب اللغة،ولذلك كان على أنأعد مادة التدريس بنفسى ، وأن أدرس خمس حصص فى اليوم · وعجبت من كثرة عدد التلاميذ الراسبين فى اللغة الانجليزية ، فقد ظل التلاميذ يفدون على فصلى حتى ضاق بهم المكان ، ولم يعد هناك مقعد خال · وكانت دارتموث الثانوية مدرسة كبيرة ، وبلغ عدد التلاميذ المقيدين فيها ١٩٣٧ تلميذا · غير أنه مع هذا العدد الضخم من التلاميذ ، لم يكن يصح أن يحتاج الى حصص فى اللغة الانجليزية العلاجية ، هذا العدد الكبير منهم ·

وأول شىء فعلناه فى مادة اللغة الانجليزية العلاجية ، هو أن عقدنا اجتماعا يدلى كل تلميذ فيه « بشهادته » ، وأخذت أسأل كل تلميذ عن السبب

الذى من أجله أرسل به الى فصلى • وصدقونى أن هذه الطريقة قد نجحت • وقد فعلنا ذلك من وراء الأبواب المغلقة ، فكان حين يجىء دور كل تلميذ فى الكلام ، يقفز واقفا على قدميه ، ويتدفق فى الكلام ، فقد كان فى صدره شىء حبيس ، ظلت الرغبة فى التعبير عنه تراوده فترة طويلة من الزمن • وكان أن جعلتهم يبوحون بما فى صدورهم فى حصتى ، اذ رأيت أن ذلك يفيدهم ، وقد أفادهم فعلا أن يبوحوا بمكنونات صدورهم ، كما أفادنى أن أحيط علما بها • فما الذى جعل هؤلاء التلاميذ فى حاجة الى دروس علاجية فى اللغـــة الانجليزية ؟

ان شكسبير ، رغم أنه ينام هادئا منـــذ بضع مئات من السنين ، فى الكنيسة التى توجد بمدينة ستراتفورد أون ايفن ، كان هو الذى أخرج معظم هؤلاء التلاميذ من حصص اللغة الانجليزية النظامية،ودفع بهم الى الحصص العلاجية • وفى هذه الاجتماعات ، التى كان كل تلميذ فيها يدلى « بشهادته » ، قال عدد ضئيل جدا من التلاميذ ان كراهية مدرس اللغة الانجليزية هى التى ساقتهم الى الحصص العلاجية هذه ، واعترف عدد قليل آخر بأنهم لا يستطيعون فهم اللغة الانجليزية • وكانت هناك اعترافات مختلفة متعددة ، وضحك كثير • ولكن لماذا نضع القدرة العقلية للتلميذ المتوسط بالمدرسة الثانوية ، فى موضع المنافسة مع عبقرى اللغة الانجليزية ؟ ولماذا نجعل شبح هذا العبقرى العظيم يطارد تلاميذ مدرسة ثانوية تقع فى مدينة مصانع الصلب ، وهم الذين يحاولون أن يتعلموا كيف يتحدثون ويكتبون لغتهم الأصلية ؟

ان هؤلاء الشباب لم يكونوا أول من يلقون عناء فى دراسة مسرحيات شكسبير ، ولن يكونوا آخرهم ، فقد كان تلاميذى بمدرسة لانزبيرج الثانوية يلقون العناء نفسه منذ سنوات عديدة خلت • وكادت المدرسة الثانوية تحطم شكسبير بالنسبة لى ، حين كنت طالبا فيها ، اذ لم أكن مستعدا له ، ولم أستطع أن أقدر هذا الكاتب حق قدره الا حين وصلت الى مرحلة الدراسة فى الكلية • وكنت صادقا مع هؤلاء التلاميذ الذين يتلقون دروسا علاجية ، حين حدثتهم عن الصعوبات التى لاقيتها فى دراسة مسرحيات شكسبير ، مما جعلهم يشعرون بالارتياح ، وبدأت أدرس لهم وفقا لقاعدة أساسها : أنهم يجب أن يتمكنوا من اللغة ، بغض النظر عما يقعون فيه من أخطاء ، فى الكتابة أو المحادثة ، وأنه لا يجب أن تتمكن اللغة منهم ، وألا يخافوا شيئا ، وأن يستمتعوا بدراسة هذه اللغة •

وهاك الطريقة التى نظمت بها مادة الدرس فى الحصص :

فى أيام الاثنين ، كنت أطلب من تلاميذى أن يتكلموا عن الأحداث الجارية ، وذلك حتى يستطيعوا أن يقفوا على أقدامهم ويتحدثوا اللغة دون خوف • وفى أول الأمر كان هناك خوف ، بل الكثير منه ، ولم أكد أستطيع أن أحمل واحدا منهم على الوقوف ليتكلم • ثم تكلم واحد من التلاميذ عن أحد الأحداث الجارية ، وهو ظروف العمل القائمة ، ولما كانت مدينة دارتموث تعانى متاعب فى هذا الشأن ، فقد كان لكل تلميذ رأى فيه • وطلبت من كل تلميذ يريد أن يعبر عن رأيه أن يقف • ولأول مرة يخرج التلاميذ عن الوقت الذى حددته لكل واحد منهم ، وهو ثلاث دقائق • ومنذ ذلك الحين وكل تلميذ يطلب مزيدا من الوقت ، وكان كل منهم يتلهف على الوقوف لكى يسرد أحد الأحداث الجارية • ثم شرعنا بعد مضى شىء من الوقت ، فى تصحيح لغة التلميذ الذى يدلى بالحديث • وكان أحدهم جميل الصوت ، يتحدث بفصاحة وبلاغة فقلت له : « اننى أعتقد أن لك صوتا رائعا يصلح للاذاعة » • فذهب يجرب حظه فى محطة الاذاعة المحلية ، فألحق بعمل فيها ، وظل مدة طويلة يعمل بلا أجر • وقد أصبح تلميذى ذاك ، الذى كان يتلقى دروسا للتقوية فى اللغة الانجليزية، واحدا من أحسن المعلقين على الأنباء فى البلاد ، وتقدم فى عمله بخطى حثيثة •

وفى أيام الثلاثاء ، كنت أعطيهم دروسا فى الحفظ عن ظهر قلب ، فكنت أجعلهم ينتقون الأشعار التى يفضلونها ، لكى يحفظوها • وقد امتدحت لهم بعض القصائد القصيرة فى الشعر القديم (الكلاسيكى) ، بيد أننى لم أتطلب منهم أن يحفظوا أيا من هذه القصائد • وكانت الأشعار التى يحفظونها متعددة متنوعة •

وذات مرة ، أخذت هؤلاء التلاميذ الذين أعطيهم دروسا للتقوية فى اللغة الانجليزية ، الى فصل من فصول اللغة الانجليزية النظامية ، لكى يعرضوا أمام تلاميذه مهارتهم ، فألقى أحد التلاميذ سبعمائة بيت من الشعر حفظها من الذاكرة ، وعند ذاك قال أحد التلاميذ المتفرجين : « لا يستطيع تلميذ واحد منا أن يفعل ذلك » • وكان أى عدد من تلاميذى يستطيع أن يتلو من الذاكرة ثلاثمائة بيت من الشعر أو تزيد • وكثيرا ما كنت أطلب منهم أن يتلوا الأشعار التى تلوها فى الأسبوع السابق ، وبهذه الطريقة كانوا يتذكرون الأشعار التى حفظوها من قبل ، وكان يمكنهم أن يتلوها فى أية لحظة • وكنت أرى أن هذه طريقة مفيدة فى التدريب العقلى • وكان التلاميذ يحفظون كثيرا من الشعر الجميل الجيد ، ولم تكن قصيدة واحدة منه من أشعار شكسبير •

وفى أيام الأربعاء ، كنت أعطيهم أعمالا تحريرية ، فكنت أعطيهم مطلق الحرية فى الكتابة عن أى موضوع يختارونه ، وأجعلهم يختارون أى نوع من الكتابة الأدبية يعبرون به عن أنفسهم · وقد قال هؤلاء التلاميذ فى أول الأمر انهم لا يستطيعون كتابة موضوعات انشائية ، غير أنهم بدأوا فى الكتابة حين قلت لهم أن يكتبوا فى أى موضوع يختارونه · وكتب الكثيرون أشعارا ، وحاول كثيرون أن يكتبوا أغانى ، وحاولوا كتابة قصص قصيرة ، بل ان واحدا منهم بلغ به طموحه أن حاول كتابة رواية طويلة · وجعلتهم يشقون طريقهم بالكتابة ، بيد أننى فى أول الأمر لم أنقص من درجاتهم حين كنت أجد أنهم لم يكتبوا شيئا فى اليوم المخصص لكتابة الموضوعات الانشائية · وهاك ماكان يحدث ·

كتبَ أحد تلاميذى موضوعا انشائيا عن « دار الأوبرا القديمة » ، تناول فيه تاريخ هذه الدار القديمة ، التى أصبحت الآن مسرحا فى دارتموث · وذكر التلميذ فى موضوعه المسرحيات التى مثلت فى تلك الدار ، والناس الذين شاهدوها · ثم كتب تلميذ آخر موضوعا عن احدى الشخصيات التى حضرت الى دار الأوبرا القديمة ، وما لبث أن أخذ كل تلميذ يكتب عن الشخصيات التى كانت تذهب الى هذه الدار · وكتب أحد التلاميذ ، ويدعى بيل هوكنهيمر ، موضوعا عن نشال كان اذا وطىء أحد الناس أصابع قدميه فى دار الأوبرا القديمة ، ولم يكن لديه من الأدب ما يحمله على الاعتذار اليه ، كان النشال دائما يريح هذا الشخص من محفظته · بل ان التلاميذ ذهبوا الى أبعد من ذلك، بأن كتبوا المسرحية التى كانت تقدم فى دار الأوبرا القديمة ، والأغنية التى كانت تسبق المسرحية · انهم هم الذين جمعوا هذه المعلومات ، لا أنا ·

وكتب أحد التلاميذ موضوعا عن شخصية من هذه الشخصيات التى كانت تذهب الى دار الأوبرا القديمة ، وهى امرأة تقطن بقعة من مدينة دارتموث تبلغ من البشاعة حدا يجعلها تحتسى قدحا من الجعة قبل ذهابها الى الأوبرا ، حتى تنسى هذه البيئة التى تعيش فيها · ولم يكن الكثيرون من رواد الأوبرا ، الذين يرتدون فاخر الثياب ، يعيرونها التفاتا · بيد أنه كان هناك فأر تنبه الى وجودها · وكان هذا الفأر قد مل أكل قماش القطيفة الردىء من مقاعد الأوبرا المتآكلة ، وكان فى حالة اعياء شديد ، فزحف الى حجر هذه السيدة ، واستغرق فى النوم · ولما لم يكن لهذه السيدة الكثير من الأصدقاء فى هذا العالم ، فقد عطفت على الفأر عطفا بالغا · ولم أسمع موضوعا كتبه تلميذ

بالثانوى يبعث على الضحك مثل هذا الموضوع · وبعد أن فرغ التلميذ من قراءته ، كان الكثيرون منا يمسحون الدموع من أعينهم ·

وعندئذ سمعنا طرقا عاليا على الباب ·· ففتحت الباب ، وكان الطارق مستر آرنولد مدير مدارس مدينة دارتموث ·

فقال وصوته يرتعد مستر ستيوارت ، ان فصلك يحدث ضوضاء شديدة بحيث انكم تزعجوننى فى مكتبى ، الذى يقع فى منتصف الدهليز فى هذا المبنى الطويل ·

ثم قال مؤكدا ، وهو يشير الى باصبع ترتعد : اننا لم نشهد أبدا شيئا كهذا فى مدرسة دارتموث الثانوية ، فاما أن تحفظ النظام فى فصلك ، واما أن نتخذ اجراءات تأديبية صارمة فى الحال · ما هو السبب فى كل هذا ؟

لقد كان مستر آرنولد معلما ممتازا ، وكان أستاذا فى اللغتين اللاتينية واليونانية ، وكان قد تخطى سن المعاش ، ولكنه كان يرفض أن يتقاعد ، وظل مرتبطا بمدارس مدينة دارتموث مدى نصف قرن من الزمان ·

فقلت : مستر آرنولد ، لقد كان أحد تلاميذى يقرأ موضوعا انشائيا مضحكا ، وهذا هو السبب فى أن الجميع كانوا يضحكون ·

فقال يسألنى كيف يمكن لأى شىء أن يكون مضحكا الى هذا الحد ؟ أين هو هذا الموضوع ؟ دعنى أقرأه ·

وكان على أن أفكر بسرعة · انه لا ينبغى أن يرى الموضوع الذى كان التلميذ يقرؤه · لا ينبغى أن يقرأ موضوعا عن امرأة كانت تهرب من بشاعة البيئة التى تعيش فيها بأن تحتسى قدحا من الجعة قبل أن تذهب الى دار الأوبرا القديمة ، ثم تذهب اليها ، وتجعل فأرا ينام فى حجرها · لن يحدث أبدا ما تحمد عقباه اذا جعلته يقرأ هذا الموضوع · وأعطيت مستر آرنولد موضوعا آخر ، فى حين كان التلاميذ يحاولون أن يكتموا ضحكهم · وقرأ الموضوع ثم قال : « ليس فيه شىء يضحكنى على الاطلاق » ! فضج تلاميذى بضحك لم يستطيعوا له كتمانا · ولم يفهم مستر آرنولد مزاجهم فى الضحك، فخرج وأغلق الباب خلفه · ، ان الجدران السميكة الأربعة ، والباب المغلق ، لم تستطع أن تحجز ضحكاتنا ·

وفى أصيل اليوم نفسه ، دق الباب ثانية ، ففتحته وأنا أحسب أن الطارق هو مستر آرنولد ، وقد عاد مرة أخرى • ووجدت بالباب رجلا ضئيل الجسم ، ذا لحية بيضاء ، ويمسك بيده عصا •

وقال يسألنى : أنت مستر ستيوارت ؟

قلت : أجل ، اننى هو •

فقال اسمى الورى سنودى ، وحفيدتى جريسى سنودى تلميذة فى فصلك •

ثم قال ـ وقد أخذ صوته يرتفع وهى تقول لى ان تلاميذك يكتبون أشياء كثيرة عن مسرحى تثير الضحك • والآن ، هل هذاصحيح أو غير صحيح؟ يكتبون عن فيران ونساء ونشالين وأشياء من كل صنف •

ثم صرخ قائلا قبل أن أستطيع الرد عليه اسمع أيها الشاب • اننى سأقاضيك ، وسأقاضى مجلس تعليم مدينة دارتموث • لقد كنت تلميذا مع بن آرنولد فى مدرسة واحدة ، وسأذهب اليه أولا لأحدثه فى هذا الشأن •

فقلت : ولكن مستر آرنولد دخل الفصل هنا هذا الصباح ، ومنع كتابة هذه الموضوعات ، فلا جدوى من ذهابك لمقابلته الآن • لقد وبخنا توبيخا عنيفا، وينوى أن يتخذ اجراء تأديبيا صارما •

فقال وهو يبتسم هذا يكفى ليرضينى • ان « بن آرنولد » اذا اتخذ هذا النوع من الاجراء التأديبى ، فالويل لكم جميعا • ليس هناك ما يدعونى لمقابلته •

وفى أيام الخميس والجمعة ، كنت أعطى تلاميذى دروسا فى النحو • ولم نكن نستعمل كتابا ، وانما كنا ننتقى جمـلا من المقالات الافتتاحية فى صحيفة « دارتموث تايمز » • وفى أول الأمر كنا نختار الجمل القصيرة ، وبمرور الزمن أخذنا ننتقى جملا أطول • وكنا نتحدث عن الجملة كما لو كانت بيتا ، وكأن أجزاءها من فعل واسم وحرف الخ هى مواد البناء التى نستخدمها فى بناء ذلك البيت ، وكنا نهدم البيت ، ثم نعيد بناءه مرة أخرى ، باستخدام جميع الأجزاء • وقد قابل تلاميذى دروس النحو بفتور حين كنت أذكر اسم المصطلحات،غير أننا بعد أن بدأنا العمل بهذه الطريقة ، أخذوا يتحمسون لها •

(٤)

وكانت مدرســـة دارتموث من أحسن المدارس الثانوية فى الولايات المتحدة ؛ اذ أن الكثيرين من رجال التربية كانوا يعتبرون ولاية أوهايو « قمة » الولايات فى الناحية التعليمية • ومن بين جميع مدارس أوهايو ، من مدارس عامة ، ودينية ، وخاصة ، ظل تلاميذ مدرسة دارتموث الثانوية يحصلون على أعلى مراتب الشرف فى الدراسة مدى ثلاث سنوات متتالية • ولا يمكن لمدرسة ثانوية واحدة فى ولاية أوهايو ، حيث يوجد كثير من المدن الكبيرة ، التى بها عدة مدارس ثانوية عظيمة ، أن تحصل على أعلى مراتب الشرف ثلاث مرات متتالية ، الا اذا كان مدرسو هذه المدرسة ممتازين • فما الذى جعل مدرسة دارتموث الثانوية تتفوق على مدارس الولاية فى الناحية العلمية ، وفى الرياضة والموسيقى ؟

لقد جاءت هذه المدرسة بمدرس الموسيقى من ألمانيا ، وكان مدرس فن نقش الخشب مولودا فى النرويج ، وكان أحد المدرسين من انجلترا ، ثم كان بها مدرسون من ولايات تنيسى ، وكنتكى ، وانديانا ، والينوى ، وأوهايو ، وبنسلفينيا ، ونيويورك ، وفرجينا ، فلم تكن هيئة التدريس تجمع مدرسين من ولايات مختلفة فحسب ، وانما كانت تضم مدرسين من دول مختلفة • ولم أشهد فى حياتى ، من قبل أو من بعد ، هيئة تدريس ممتازة ، تعمل متعاونة تحت سقف واحد ، كهيئة التدريس بمدرسة دارتموث الثانوية • ان هذا هو ما يجب أن يكون • بيد أن الأمر لم يكن كله بالغا حد الكمال ، اذ حتى فى مدرسة كبيرة مثل هذه ، بما فيها من هيئة تدريس مؤهلة تأهيلا عاليا ، كانت توجد عيوب ، وأخطاء صغيرة ، وعوائق تقف فى الطريق •

ولم أكن أحسب قبل هذا أنه يمكن أن تكون هناك مدرسة كبيرة كبرا أكثر مما ينبغى • ولم أتبين قبل ذلك أنه مع ما تقدمه المدارس الثانوية الكبيرة الى تلاميذها من امكانيات لا تحصى ، مما لا يستطيع الحصول عليه تلاميذ المدارس الثـــانوية الصغيرة ، فان المدارس الثـــانوية الصغيرة تمتاز على المدارس الكبيرة من وجـــوه عدة ، فمثلا كان عـــدد التلاميذ المشتركين فى فريق كـرة القـــدم الأول بمدرسة دارتموث الثـــانوية ستة وستين تلميذا ، وفريق الكرة عادة يتكون من أحـــد عشر لاعبا ، فـكان لا يتـــاح اللعب لكثيرين من هؤلاء التلاميذ سوى بضع دقائق فى خلال الموسم • وكان لابد من مدرب ممتاز ، لكى يدرب مثل هذا الفريق ، فقد كان متوسط وزن

لاعبى الهجوم يزيد على مائتى رطل للرجل الواحد ، وقد خسر هذا الفريق مباراة واحدة فى موسمين · ولكن كم من أعضاء فى هذا الفريق كانوا يريدون أن يظهروا مهارتهم بالاشتراك فى اللعب ، ولم تتح لهم الفرصة · ولو كان هؤلاء اللاعبون فى مدارس صغيرة ، لأصبحوا نجوما من نجوم كرة القدم · ففى المدرسة الكبيرة لا يستطيع أن يشق طريقه نحو القمة سوى عدد قليل ، فى حين أن المئات لن يعرفوا أضواء المجد التى تتسلط على من يقومون بأعمال فذة منهم ، تلك الأعمال التى كثيرا ما تؤدى الى نمو الشباب ونضجه ·

وكانت هذه أول مرة أقوم فيها بالتدريس فى مدرسة لم أكن أعرف فيها جميع التلاميذ ، بل الواقع أننى لم أكن أعرف جميع المدرسين · ان المدرسة تكون وحدة أشد قوة ـ ولا يهم أن تكون مدرسة صغيرة ـ حيث يعرف كل تلميذ جميع مدرسيها ، ويعرف كل مدرس جميع تلاميذها · لقد أدركت هذه الحقيقة بعد أن بدأت التدريس بمدرسة دارتموث ، فمعرفة المرء بكل فرد فى المدرسة ، يتيح تسلية أكثر ، ويحقق سعادة أعظم ومتعة أكبر ، والمدرسة التى يستطيع فيها كل فرد أن يتحد مع بقية الأفراد فى وحدة من الزمالة الصالحة ، تكون روابط الاتحاد فيها أشد قوة · ولم تخطر على بالى قبل ذلك قط عبارة « خط التجميع » التى تستخدم فى المصانع ، ولم أربط بينها وبين المدارس فى أية ناحية من النواحى ، الا حين قمت بالتدريس فى مدرسة دارتموث ، ففى هذه المدرسة الكبيرة ، كان المدرسون والتلاميذ يدخلون مبنى المدرسة فى الصباح ، فلا يخرجون منه الا بعد انتهاء الدراسة ، فلم تكن هناك فسحة فى ساعة الظهيرة ، وكنا نذهب الى الكافتيريا على ثلاث دفعات ، وكان لابد لنا من أن نجعل الصف يتحرك باستمرار ، فقد كان الزمن المحدد لتناول طعام الغداء هو ثلاثون دقيقة ، ولم يكن الحال كذلك فى المدارس الصغيرة ، حيث كانت تخصص ساعة وقت الظهيرة ، وحيث كان يوجد فناء كبير بالمدرسة ، وكان من شأن هذا أن يقطع حبل النهار ، اذ كان يتاح لنا أن نمشى فى الفضاء المحيط بالمدرسة ، ونستنشق الهواء العليل ، ونستمتع باللعب ·

ان التلاميذ فى المدرسة الكبيرة لا يتلقون من مدرسيهم هذا التعاطف والحب والود الذى يمكنهم أن يتلقوه فى المدرسة الصغيرة · وكان كثيرون من التلاميذ لا يتلقون هذه المشاعر من والديهم ، وهى مشاعر يحتاجون اليها فى عملية نموهم · وفى مدرسة كبيرة مثل مدرسة دارتموث ، لم يكن التلاميذ يسمعون كلمة طيبة يقولها لهم مدرس يشعر نحوهم بالود والعطف ، ولم

يكن لديهم من الوقت ما يتيح لهم التحدث الى مدرسهم · وقد قال جرانت هيل ناظر المدرسة مرة لأحد التلاميذ : أوجز الكلام يا فتى ، فليس عندى الكثير من الوقت · اننى اذا أنفقت مع كل تلميذ دقيقة واحدة ، يكون المجموع ألفا وتسعمائة وسبعا وثلاثين دقيقة ، أى اثنتين وثلاثين ساعة ، وسبع عشرة دقيقة ، وهو ما يزيد على طول يوم كامل ، فتصور انسانا يتحدث مدة تزيد عن يوم بأكمله !

ان هذه السرعة المروعة ، وهذا التنسيق ، وتلك الآلية ، التى تشبه ما يجرى فى المصانع ، كانت أمرا يحيرنى · لقد كان هناك شىء ما ينقص المدرس والتلميذ على السواء · انهما لا يجدان ما يعرف كلا منهما الى الآخر كما ينبغى · انهما يفتقدان الحياة الطيبة ، والسعادة التى لن تعود ·

لقد أصبح كل منا ، المدرس والتلميذ ، جزءا صغيرا مجهولا من خط التجميع التعليمى الهائل ، وكان تلاميذنا أشبه بأشجار غضة تنمو متزاحمة فى غابة شاسعة ، وكانوا ينمون متشابهين أعظم التشابه ، فى حين أنه فى الغابة التى لا يوجد بها كل هذا العدد الكبير من الأشجار ، يكون النمو مختلفا، فيتميز نمو الأشجار بالاصالة والابتكارية ،اذ أنها ليست على شكيلة واحدة ، وهذا ما ينبغى أن يتاح للشباب · انهم يجب أن يعطوا الفرصة وهم صغار ، لكى ينموا نموا يتميز بالفردية والاصالة ·

(٥)

والى فصلى ، كان يأتى الشباب الضائع الذى منى بالفشل ،فقد كان لدى فى فصلى ما يقرب من ثلث الستة والستين لاعبا الذين يكونون فريق كرة القدم الأول ، وكان لدى كثيرون من لاعبى الفريق الثانى والثالث · وكان لدى تلاميذ هاجر آباؤهم من الجنوب ، وكان هؤلاء التلاميذ يمتازون بعقول ذكية ، بيد أنهم لم يتلقوا تعليما فى طفولتهم ، بالمقارنة الى ما تلقاه هؤلاء الذين كان من حظهم ، لأسباب تعليمية ، أنهم ولدوا فى أوهايو · وكان لدى التلاميذ الذين لايهتمون بمادة اللغة الانجليزية،والتلاميذ الذين يجدون اللغة الانجليزية مادة عويصة مفزعة · لقد كان لدى كل أنواع التلاميذ ، بل لقد جيىء بتلاميذ الى فصلى لأسباب تتعلق بتأديبهم · ومع هذه الجماعة كنت أعمل ، وأضحك ، وأتكلم · وكنت أحاول أن يكون تأثيرى عليهم تأثيرا يدفع بهم الى الثبات والاستقرار ، وحاولت أن أجعلهم يتحملون المسئولية ، وكان أن تقبلوا المسئولية ، بل لقد أحبوها ، فما كان لرجل مثلى أن يسير فى تدريسه على

نهج تعليمى قد رسم وفقا لقواعد أكاديمية باردة جامدة ، ويكال للتلاميذ بالمكاييل والموازين ٠

وكان فصلنا يقع فى الطابق الأول ، فى الركن الجنوبى الغربى من المبنى المدرسى الشاسع ٠ وأصبحت هذه الحجرة الصغيرة مكانا يشع منه الدفء ، والتعاطف ، والسعادة ، وكانت نفوسنا هادئة ، خالية من التوتر ، كأنها الريح الكسول تهب على حقل من القطن ، فى حين كانت تهب من حولنا ريح سريعة كأنها الاعصار الدوار ٠ وفى حصصى ، كان أمامنا دائما عمل مكدس لم نؤده أبدا ، ذلك لأننى كنت أنفق الوقت فى التحدث الى هؤلاء الشباب عن فن الحياة ، وعن آمال كل واحد منهم ، وكنت أعمل وفقا للنظرية التى أومن بها دائما ، وهى أن حياة كل فرد شىء هام ، وأن كل حياة هى « مملكة الله فى داخلك » ٠٠ ان الحياة البشرية هى أغلى وأثمن وأنفس ما يملك المرء فى الدنيا ، وعلينا أن نساعدها ، ولا نؤذيها ، بل علينا يقينا ألا نحطمها عقليا أو أدبيا على الاطلاق ٠

وكان النظام فى مدرسة دارتموث الثانوية آليا ، وكيف لا يكون كذلك ؟ لقد كان بالمدرسة حجرة للحبس ، كثيرا ما كان يحجز التلاميذ فيها ساعة من الزمان ، بعد أن قضوا اليوم الدراسى الطويل فى حجرات الدراسة ٠ وكان طول المدة التى يقضيها التلميذ محجوزا بعد انتهاء الدراسة ، يتوقف على نوع الذنب الذى ارتكبه ٠ وكان كل شىء يتوقف على ما يبلغه مدرسو الفصل الى الناظر ٠ ولم يحدث أن دخل واحد من تلاميذى هذه الحجرة أبدا ، ولم يكن ذلك لأنه لم يكن لدى مشكلات تتعلق بالنظام ، اذ كانت تواجهنى هذه المشكلات ، بيد أننى كنت أحاول أن أحلها بنفسى ٠

ولما كنت شديد الود والتعاطف مع تلاميذى ، فقد بدأوا ينادوننى باسمى الأول ، وكانت هذه أول مرة فى تاريخ عملى بالتدريس ، يحدث فيها ذلك الأمر ٠ ولم أكن لأستطيع أن أتحدث الى كل تلميذ على حدة ، فأقول له ألا يفعل هذا ، ولم أكن أريد أن أعلن تنبيها على الملأ من تلاميذى كل حصة ؛ اذ أنهم سوف يرموننى بالغرور والصلف ، ويحسبون أنى أنأى بنفسى عنهم ٠

وثمة مشكلة أخرى كانت تحيرنى فى البداية ٠ لقد كان بعض تلاميذى لا يأخذون كفايتهم من النوم ، فكانوا يحاولون النوم فى حصصى ٠ وحدث مرة أو مرتين أن نام تلميذان نوما عميقا الى درجة جعلتهما يغطان ، ويتعالى

شخيرهما • ولم أشأ أن أبعث بهما الى غرفة الحبس ، واذن ، لسوف أفكر فى الطريقة التى أحول بها بينهما وبين النوم فى حصتى •

وكان يترك دائما فوق كل قمطر ، كل صباح ، نسخة من صحيفة « دارتموث تايمز » • وفى خلال النهار ، كانت هذه الصحف فى متناول أيدى تلاميذى • والكثيرون من التلاميذ كانوا ولا يزالون يشتغلون بتوزيع الصحف فى دارتموث ، ولذلك كانوا خبراء محنكين فى لف الصحيفة ، لكى يقذفوا بها من فوق دراجاتهم ، ويلقوا بها فى شرفات البيوت الأمامية • وأتحت الفرصة لهؤلاء الخبراء ، لكى يقذفوا بالصحف ، اذا ما نام فى الفصل أحد التلاميذ ، فكانوا يلفون الصحف ، ويهبون واقفين ، ثم أعطيهم الاشارة جميعا ، لكى يقذفوا بها النائم فى وقت واحد •

وصرخ « بيل هوارد » ذات مرة ، حين لطمته خمس وأربعون صحيفة فى وقت واحد ، وهو يقول : آه • ساعدنى يا الهى !

ووثب بيل واقفا على قدميه ، وأخذ يفرك عينيه لكى يطرد عنهما النوم ، وانطلق ضجيج الضحك يملأ انحاء الحجرة ، وقال بيل وهو ينظر الينا نظرة غريبة « حلمت أننى أعوم من خلال السحب ، فوق سحابة زغبية ، وأننى عمت بين سرب من الأوز البرى • لقد حسبت أن الأوز كان يلطمنى على وجهى» فتعالى ضحك التلاميذ عن أى وقت مضى • وجاء مستر آرنولد المدير الى الباب مرة أخرى • ومنذ ذلك الوقت كان تلاميذ فصلى هم الذين يتولون أمر النيام ، وكانوا يتلهفون للعثور عليهم ، وكانوا يجدون متعة بالغة فى ايقاظ الواحد منهم •

ما هى الأهداف التعليمية التى حققها تلاميذ فصل اللغة الانجليزية العلاجية ؟ لقد حققنا شيئا لم يحققه سوى تلاميذ قسم الموسيقى • لقد حققنا شيئا لم تحققه فصول اللغة الانجليزية النظامية ، وهى فصول يدرس لها أعظم مدرسى اللغة الانجليزية بولاية أوهايو • لقد قمنا بعمل برنامج اذاعى خاص بنا • كان أحد التلاميذ يقوم بدور المذيع ، وكنا نقرأ على المستمعين الموضوعات الانشائية والشعر ، وكلها من تأليف التلاميذ • وكنا نقدم برنامجا ممتعا الى حد جعل لنا معجبين يبعثون الينا برسائلهم •

وواصلنا تقديم البرنامج الى تلاميذ فصول اللغة الانجليزية النظامية ، وكان يتضمن قراءات من الشعر من تأليف مدرسى اللغة الانجليزية ، وقراءات

من أشعار ألفها تلاميذى ، وقراءات للموضوعات الانشائية • وكانت هذه الموضوعات متعة بالغة ، وكنا نقرأها بما فيها من أخطاء نحوية ، تماما كما كتبها التلاميذ • كذلك نظمنا مسابقات بيننا وبين تلاميذ هذه الفصول ، تقوم على اختبارات التحصيل ، وقد فاز هؤلاء التلاميذ علينا • بيد أن تلاميذى كانوا يثقون فى قدرتهم على أداء أى عمل تقريبا ، وكانوا فعلا قادرين على ذلك • وفى خلال السنة التى قضيتها فى مدرسة دارتموث الثانوية لم أسقط سوى تلميذ واحد • وفى العام التالى ، حصل أحد تلاميذ فصول اللغة الانجليزية العلاجية على جائزة فاوندرز التى يصبو اليها الجميع،وكان متوسط درجاته فى خمس مواد هو سبعة وتسعون •

(٦)

وذات يوم وأنا فى دارتموث ، دهشت اذ رأيت أمى وأخى جيمس ، وقد جاءا ليحذرانى من العودة الى مقاطعة جرينوود • ذلك أننى كنت لا أزال أصدر صحيفتى ، وكانت مقالاتى الافتتاحية تترك آثارها بين مواطنى مقاطعة جرينوود •

وقالت أمى تحذرنى : ابق هنا يا جيس • انك تعلم أننا نحب أن تزورنا كثيرا ، ولكن لا تعد ، ففى عودتك خطر •

وقال جيمس : ابق هنا يا جيس • انك أسعد حالا فى أوهايو ، فلن يزعجك أحد هنا •

غير أنه فى يوم السبت ذاك ، كنت على موعد فى لانزبيرج مع نومى دين ، وكنا قد اعتزمنا الذهاب الى حديقة السطح فى أحد الفنادق بأوكلند • ولم أكن لأستطيع أن أخلف الموعد ، ولم أكن من الجبن بحيث أقول لها بالتليفون « اننى أخاف الذهاب » • ومع ذلك ، فقد تكون أمى مخطئة ، وقد يكون جيمس مخطئا • وسواء كان هناك خطر أو لم يكن هناك خطر ، فقد اعتزمت أن أذهب لأراها • ومنذا الذى يستطيع أن يمنعنى من العودة الى بلدتى لكى أراها ؟

وحين توقفت سيارة الركاب أمام محل « لانجدون » فى لانزبيرج ، نزلت منها ، ودخلت الحانوت • وكان به عدد قليل من الزبائن ، الذين يترددون عليه يوم السبت ، وهم أناس أعرفهم من المدينة والمقاطعة • وبعد أن دخلت الحانوت

بوقت قصير ، دخل ورائى اينوك آرفن • ولم يخطر ببالى أى شىء بشأنه ، فقد كنا دائما نود بعضنا • وطلبت كوبا من خليط اللبن المثلج والأيس كريم ، وحين مددت يدى لأخرج محفظتى ، انهال شىء فوق رأسى جعلني أقضم مساك الغليون نصفين • ثم تلقيت ضربتين أخريين ، قبل أن أستطيع أن أستدير • لقد كان اينوك آرفن يقف خلفى • وفى حالة من اضطراب الذهن ، أمسكت بذلك الرجل كالخطاف • وكان الدم يسيل فوق وجهى ، ويدخل فى عينى • وبذراع واحدة لففتها حول جسمه ، حصرت ذراعيه فى مكانهما ، اذ تراءى لى أنه قد يمد يده ليخرج مسدسا • واندفعت يدى الاخرى نحو حلقه ، حيث أخذت أقطع نفسه شيئا فشيئا • وجاء رجلان فجذبانى بعيدا عنه •

وكان اينوك آرفن قد أخطأ فى حكمه على قوتى ، اذ استطعت أن أتحمل الضربات التى كالها لى • لماذا ضربنى هذا الرجل ؟ اننى لم أشتبك معه قبل ذلك فى عراك قط ، وحتى ذلك الوقت لم أتعرض له فى أى من مقـــالاتى الافتتاحية ، فما الذى وراء ذلك؟ومن الذى يقف وراءه ؟ لماذا لم يضربنى واحد ممن هجوتهم فى مقالاتى الافتتاحية هجاء مقذعا ؟ ولماذا لا تكون وسيلتنا الى القتال كتابة الحقائق على الصفحة المطبوعة ؟ هل أخذت مقالاتى الافتتاحية تغلب مقالاتهم وتفوز عليها ؟ هل آلمتهم الحقيقة ؟

واستدعى الحاكم ، وقبض علينا • غير أن الحاكم ألقى نظرة على السيل المنهمر من الدماء ، التى كانت تتدفق حيث أسير فى الشارع ، ثم غير رأيه ، اذ رأى أنه يجب الاسراع بى الى المستشفى • ومنذ ذلك الوقت حتى ساعة متأخرة ، لا أذكر من القصة الا القليل ، فيما عدا أن أحد أصدقاء اينوك آرفن أسرع به خارج مدينة لانزبيرج ، خوفا من الأخذ بالثأر • وقد علمت فيما بعد ، أن الحاكم عبر بى الكوبرى الى مستشفى مادن فى تونيرون بولاية أوهايو، فى عجلة شديدة ، حتى أنه نسى أن يدفع رسم العبور على الكوبرى • وفى المستشفى أذكر فى غير وضوح ، أننى حين خلعت حذائى ، صببت الدم من الكعبين •

ولم يجد الدكتور مادن كسرا فى عظام الجمجمة ، فأعاد الجلد الى مكانه ، ثم أغلق الجروح الثلاثة البشعة ، التى كانت تبدو منها الجمجمة • وكانت نومى دين أول من جاء الى المستشفى ،حين علمت بما حدث •وحين جاءت الى المستشفى لم أستطع أن أتذكر اسمها الأول ، وكان هذا شيئا محرجا • ثم أخذت تعود الى ذاكرتى بعد أيام ، وأسابيع ، وشهور ، الى أن عوفيت • وكنت فى أول الأمر أستطيع أن أرى شجرة ، أو مخزن غلال ، أو بيتا ، فلا أعرف لها اسما •

وفقدت احدى أذنى السمع بسبب ضربة من الضربات التى كالها لى اينوك آرفن، ولم يعد لها السمع بعد ذلك أبدا ٠

وفى النهاية وجهت هيئة المحلفين العليا بمقاطعة جرينوود الاتهام الى اينوك آرفن ٠ وكان من الممكن أن توجه اليه تهمة « ضرب وجرح آخر بقصد القتل » ، وهى جناية عقوبتها شديدة ٠ غير أن هيئة المحلفين العليا بمقاطعة جرينوود وجهت اليه تهمة « التعدى والضرب » ، وهى جنحة لا تتعدى عقوبتها دفع غرامة صغيرة ، والحبس بضعة أيام فى السجن ٠

وحدد يوم للمحاكمة ، وكان يوما باردا من أيام الشتاء ٠ وأوصلنى بسيارته من دارتموث الى لانزبيرج أحد تلاميذى بالفصول العلاجية للغـــة الانجليزية ، ويدعى جين ريموند ٠ وحين بلغنا دار القضاء ، وجدت ما يزيد على مائة رجل يطوفون بالدار فى صمت ٠ وما أن نزلت من السيارة حتى وجدت الى جانبى وولتر بيرتون ، وهو الرجل الضئيل الجسم ، الذى خرج ورائى من قاعة الاحتفالات بمدرسة ماكسويل الثانوية ، لكى يقف الى جانبى فى تلك الليلة التى قاتلت فيها باسكوم ريفيت ٠

وقال فى لهجة جادة : لن يضربك أحد هنا ٠ سأعمل على حمايتك ، وهذا واجبى ٠

ولم أكن قـد استدعيت وولتر بيرتون للحضور ، ولم أكن أعلم أنه سيجىء الى المحكمة ٠ وكان مسلحا بمسدسين محشوين ، وكان هناك رجال ملتحون متجهمو الوجوه ، يتجولون فى أنحاء المكان صامتين ٠ ولم أكن أعرف نصف هؤلاء الرجال ٠ وكان واحد منهم يزيد وزنه على مائتين وخمسين رطلا ، ويبلغ عرض كتفيه عرض باب مخزن الذرة ، وكانت ساقاه ، وكأنهما ممخضة اللبن ، تملآن نعليه ، وكان يمشى رائحا غاديا ، وقد برز مسدس من احدى نعليه ، وكانت معالم مقبضى مسدسين ، تبدو أعلى الفخذين ، من تحت معطفه الضيق ٠

وقلت لوولتر هامسا : لا أحب منظر هذا الرجل ٠ من هو ؟

فقال وولتر : لا عليك منه ٠ انه صديقك ٠

لقد جاء هذا الرجل ، ويدعى مسترساندلس ، من الجبال ، لكى يحضر المحاكمة ٠ ولم أكن قد قابلته قبل ذلك أبدا ، ولكنه جاء ليقف الى جانبى ٠ لقد

جاء لتأييد الطرفين رجال ذوو وجوه ملتحية متجهمة جريئة ، رجال سبق لهم أن ارتكبوا جرائم القتل ، ولسوف يرتكبونها مرة أخرى . بيد أنه جاء ليقف الى جانبى شبان كثيرون أعرفهم ، وهؤلاء أيضا جاءوا من الجبال . لقد كانوا يوما تلاميذى بالمدرسة الثانوية،وصاروا الآن شبابا يافعين ، وأصبح الكثيرون منهم مدرسين بالمدارس الريفية . وكان هؤلاء الشبان يحملون ــ ولعل ذلك لأول مرة فى حياتهم ــ أسلحة قاتلة قد خبأوها فلا ترى . ولم تكن هناك امرأة واحدة فى هذا الحشد من الناس . وجاء عدد من الرجال الرسميين ، وهم نائب المقاطعة ، ونائب الاقليم ، والقاضى ، ومحامو المدعى عليه ، فاخترقوا هذا الحشد من الرجال ، الذين كانوا يطوفون بالمكان . وما هى الا بضع دقائق حتى أعلن تأجيل المحاكمة .

وحدد التاريخ التالى للمحاكمة فى خلال الفصل القضائى الذى يحل فى الربيع . وتم فى النهاية اختيار المحلفين ، وغصت المحكمة بالجماهير . وترافع عن اينوك آرفن محامون ثلاثة،منهم واحد هاجمته فى احدى مقالاتى الافتتاحية. وعلى الرغم من أنه كان يبدو من ظاهر الأمور أن الكثير من المرح يسود المحكمة، فانه لو أطلق سهم نارى فيها ، فلست أدرى كم من الرجال كان يلقى حتفه . وكان « ليلز لوفيل » نائب الاقليم ، هو الذى وجه الاتهام فى هذه المحاكمة الى اينوك آرفن دون خوف أو وجل ، وقد علق على ذلك فيما بعد بقوله انه كان يسمع قرقعة المسدسات حين كان يدلى باتهامه . ولم أكن أعرف شيئا عن مدى تسلح الفريق المناصر لخصمى،وأحسب أنه لم يكن لديهم من التفاؤل ما يجعلهم يحضرون هذه المحاكمة دون سلاح . ولكننى كنت أعلم بأمر الرجال الملتحين المتجهمى الوجـــوه ، الذين جاءوا من الجبال لنصرتى ، وكنت أعـــلم بأمر النيف والثلاثين شابا ، هم شباب هامبتون ، وأخى ، وسائر الشباب الذين درست لهم بالمدارس . ولو أطلق السهم النارى ، فاننى أعرف أى الجانبين كان سينتصر فى المعركة الدموية التى كانت ستعقب اطلاقه .

وشهد الدكتور مادن أمام المحكمة ، فقال ان هذه الضربات التى كالها لى اينوك آرفن فأحدثت تهتكا فى فروة الرأس ، لا يتحملها سوى رجل قوى متين البنيان . وحين فرغ من شهادته ، ران السكون على قاعة المحكمة . ولما انتهت المحاكمة ، انسحب المحلفون الى حجرتهم . ولم يستغرق وصولهم الى قرار وقتا طويلا ، وأعلنوا أن اينوك آرفن مذنب ، فحكم عليه بغرامة قدرها مائتا دولار ، ولم يحكم عليه بالسجن .

(٧)

وقد أتى علـــى مدرسى ولاية كنتكى حين من الدهر ، كانوا يقبلون ما يستطيعون الحصول عليه ، فهم اذا اشتغلوا بالتدريس فى المدارس الريفية بكنتكى ، كان عليهم أن يقبلوا مرتبا قدره خمسة وستون دولارا فى الشهر ، لمدة سبعة أشهر فى العام • وفى مقاطعة جرينوود ، كان الكثيرون من المدرسين يخشون أن يضيع منهم هذا ، اذ كان جزءا من معاشهم ورزقهم • أما الآن ، فثمة شىء كان على وشك أن يحدث ، ثمة شىء عظيم فى طريقه اليهم • انهم لن يعودوا مجبرين على التدريس فى المدارس الريفية بمقاطعة جرينوود ، ويستطيعون أن يلقوا فى البحر بذلك الذى كان يكمل مرتباتهم الضئيلة •

فقد كانت هناك طلبات للعمل بالمصانع فى ولايات أوهايو ، ومشجن ، وميريلند ، وبنسلفينيا • وقامت صناعات جديدة ناشئة • وأصبحت أوربا شعلة من اللهب ، اذ اندلعت نيران الحرب،وبدأت الصناعات فى أمريكا تنتعش، وزحف مدرسو المدارس الريفية الى المصانع ، فذهبوا الى ويللورن ، وديتون ، وآكرون ، ويانجستاون ، وبتسبيرج ، وبلتيمور • كانت هجرة عظيمة الى الشمال • ورحل الكثيرون من المدرسين الى الشمال ، لكى يقوموا هنـــاك بالتدريس ، فقد فتحت الوظائف أبوابها للمدرسين فى الشمال بشكل لم يحدث من قبل ، ولم يعد التمسك بالمؤهلات بمثل الجمود الذى كان عليه • كذلك كان المدرسون من أهل الشمال يتجهون نحو المصانع • وتزوج أخى جيمس الفتاة التى تدعى « بتسى ساتون » ، وهى التى كان يشد شعرها حين كانا طالبين بمدرسة لانزبيرج الثانوية ، وقد رحل الاثنان الى مشجن ليقوما بالتدريس فى مدارسها • ورحل الى الشمال كل من دون كونوبيى ، وجاى هوكنز ، وأوليف بنيون ، ولوسندا سبراوز ، وآن بوش ، وبدج ووترز ، وذهب الى وست فرجينيا كل من ثاليا وتشارلز ميرز • لقد كان أهالى كنتكى يرحلون فى كل اتجاه ، وهاجر المدرسون حتى كادت المدارس تصبح خالية من أفضل مدرسيها •

والمدرسون الذين عملت معهم ، فى أول عهدى بالتدريس ، رحلوا جميعا، وقد أقمت فى موطنى مدة أطول مما أقام أى واحد منهم ، لأننى كنت أتولى مناصب أفضل مما كانوا يتولون ، وأتقاضى مرتبا أكبر مما كانوا يتقاضون • والشبان الذين درست لهم ، بما فيهم الواحد وسبعون مدرســـا بالمدارس الريفية بمقاطعة جرينوود ، انتقلوا الى وظائف للتدريس فى الشمال ، يتقاضون

منها مرتبات أكبر ، أو ذهبوا للعمل فى المصانع • وهكذا شهدت جيلا من مدرسين يافعى السن ممتازين أقوياء ، ممن عاونت على خلقهم وتنشئتهم، يختفى كما تختفى أوراق الخريف الناضجة ، حين تهب عليها ريح نوفمبر العاتية •

وبعد ذلك التاريخ ، جاء مكان هؤلاء المدرسين ، مدرسون من ذوى المؤهلات الضعيفة ، منحت لهم شهادات الطوارىء • وكانت المرتبات من الضآلة بحيث لم تكن تكفى لاستبقاء هؤلاء المدرسين الحاصلين على شهادات الطوارىء • وحدث فى عام واحد أن أربع مدارس ريفية فى مقاطعة جرينوود لم تستطع أن تفتح أبوابها للدراسة،وأن ست عشرة مدرسة ريفية أخرى أغلقت أبوابها بعد بدء الدراسة بوقت قصير ، لأن المدرسين رحلوا ، ولم تستطع المدارس أن تحل محلهم المدرسين الحاصلين على شهادات الطوارىء • وأصبح النشء فى كنتكى لا يتلقى تعليما على الاطلاق وكتب عليه أن ينمو كما تنمو النباتات التى لم يزرعها أحد •

يا رجال السياسة ، أيها المنافقون ، الأخسرون ، الجهلاء ، الذين تعيشون فى منتصف هذا القرن العشرين ، وتسمحون بأن تبقى المدارس مغلقة الأبواب لقلة الأموال المخصصة لها فى الميزانية ، أيها المبقون على الجهالة المستمرة ، والجريمة المستقبلة ، اننى أنا على الأقل ، أسجل لومى عليكم ، وتوبيخى لكم • افرضوا ضرائب علينا ، افرضوا ضرائب علينا حتى الموت ، لكى ندفع أجور مدرسينا ، واجعلوهم يؤثروا فى العقول الخالدة ، لكى يضيئوها فترى طريق الخلود ، فاما أن نعلم شعبنا ، واما أن نموت ونفنى •

(٨)

ولم أكن قد أنبأت صديقتى نومى دين بما فعلت • ولكننى سوف أنبئها به مساء يوم الأحد هذا ، فبينما كان المدرسون يتخلون عن وظائفهم فى مقاطعة جرينوود ، من أجل أجور أفضل يحصلون عليها بالعمل فى المصانع والمعامل فى الشمال والشرق ، رجعت أنا الى الأرض التى كانوا يهجرونها • عدت الى بيت أبى فى « و • هوللو » • لقد كان المرتب الذى أحصل عليه من مدرسة دارتموث الثانوية ، أكبر مرتب تقاضيته منذ اشتغالى بالتدريس ، فكنت أحصل على مائتى دولار فى الشهر • بيد أن مرتبات المدارس لم تعد تعنينى الآن ، فقد كانت لدى أفكار أخرى •

وارتديت « بذلة » صيفية قاتمة اللون ، اذ كان من الأفضل ارتداء ملابس

قاتمة اللون فى تلك الليلة من ليالى يونية ، حين يكون القمر مضيئا فى السماء. ذلك لأننى قد عدت الى موطنى وأرض أعدائى . وكنت أضع مسدسا فى جيب معطفى ، وآخر فوق الفخذ داخل جرابه ، ولم نكن أنا أو أبى أو أخى نخرج أبدا الى مكان ، دون أن نحمل سلاحا ، ولم نكن نعرف أين أو متى يهاجم واحد منا . لقد كانت معركتى هى معركتهما ، ولسوف يقفان الى جانبى حتى النهاية .

وكانت هناك أربعة طرق تؤدى من بيت أبى الى مدينة لانزبيرج ، فكنت دائما أسلك طريقا فى الذهاب ، وطريقا آخر فى العودة . وكان الهواء فى تلك الأمسية عليلا طلقا طيبا ، وكانت الأرض تفيض بغضاضة الربيع ، ويملأ أرجاءها غناء الحشرات وتغريد الطيور. لقد كانت ليلة من الموسيقى، فى أرض هى الشعر . ولعل ذلك كله لأننى كنت أحس بالحب أكثر مما أحسست به فى حياتى من قبل ، ان هذا هو الوقت لكى أعيش . لقد كان شيئا رائعا أن أحب الفتاة التى كنت أحمل كتبها ونحن نسير فى الشارع ذاهبين الى المدرسة ، حين كانت فى الصيف السابع ، وكنت أنا فى الصف التاسع . وكنت أعلم أننى سوف أتزوجها اذا استطعت ، اذ لم يكن فى جيبى مال ، غير أن قلبى كان عامرا بالحب ، كما أننى أصبحت رجلا من ذوى الأملاك . ولم أعد أقوى على الانتظار حتى أحمل النبأ الى « نومى دين » .

وفى هذه الليلة ، لم ألق فى طريقى انسانا ، حتى حين سرت فى درب خلفى يؤدى الى السكة الحديد . وعبرت شريط السكة الحديد ، وما لبثت أن بلغت الشارع الرئيسى ، حيث هرعت الى بيت صديقتى ، فعبرت الشرفة ، ثم قرعت جرس الباب .

وقالت نومى دين : لقد وصلت سالما ؟

فقلت وأنا أخرج المسدس من جيبى ، وأفتح الجراب فأخرج منه المسدس الآخر وأعطيه لها : لم أقابل انسانا فى طريقى الى هنا .

فقالت : يا له من حظ حسن .

.

وأخذت المسدسين لكى تضعهما فى مكان أمين ، لكيلا يعثرأخوها الصغير على واحد منهما . وقد حدث مرة أن عثر عليهما ، فأخذ يجرى فى أنحاء البيت بين أفراد الأسرة ، وهو يصرخ ويشد الزناد . ومن حظ أهل البيت أن الأمان

كان مغلقا • وقد أثارت هذه الحادثة بعض الاضطراب بين أفراد هذه الأسرة الوقورة ، التى تحيا حياة هادئة •

وقلت : لقد حدثت أمور عدة فى الأيام القليلة الماضية يانومى دين ، ولدى الكثير مما أود أن أقوله لك •

فقالت : ما هو يا جيس ؟ تعال اجلس وحدثنى •

فقلت وأنا أجلس الى جوارها فوق الأريكة : لقد عدت الى بلدتى لكى أقيم فيها •

فقالت تسألنى:ولكنك سوف تعود للتدريس بمدرسة دارتموث الثانوية فى شهر سبتمبر القادم ، أليس كذلك ؟ انك ستقيم فى بلدتك فى خلال الصيف فقط ؟

فقلت أجيبها لن أعود الى دارتموث فى شهر سبتمبر القادم • لقد انتهى عملى فى تدريس الفصول العلاجية فى اللغة الانجليزية ، ولم تعد هناك فصول علاجية بمدرسة دارتموث ، ولا توجد وظائف أخرى هناك ، وان وجدت فلست أعلم عنها شيئا • اننى لم أطلب اعادة تعيينى •

فقالت : ولكن ما الذى ستفعله الآن يا جيس ؟

قلت : سوف أشتغل بتربية الأغنام •

وصعقت حين قلت لها هذا •

فقلت لقد اشتريت ثلاثمائة فدان من الأراضى الوعرة ، واشتريت مائتى نعجة من أجمل ما وقعت عليها عيناك •

فقالت تسألنى : كيف استطعت أن تفعل ذلك ؟ لقد كنت أحسب أنك مديون •

فقلت : لقد سددت لتوى ما كان على من ديون • غير أننى اقترضت ثلاثة آلاف وثمانمائة دولار أخرى •

فقالت : انك يا جيس لم ترب أغناما قبل ذلك أبدا • لست أدرى ان

كنت مدركا ما أنت فاعل • انك تستطيع التدريس ، وتلقيت تعليمك لكى تلتحق بهذه المهنة • ولكن ، اذا أنت فشلت فى تربية الأغنام ، فماذا يحدث عندئذ ؟ انك ستعود الى التدريس ، وسيكون أمامك دين كبير يتعين عليك سداده • ولسوف يستغرق سداده أربع سنوات على الأقل •

ثم قالت تواصل الكلام : هذا اذا حصلت على مرتب كبير كذلك الذى كنت تحصل عليه من مدرسة دارتموث الثانوية • اننا لا نحصل من مهنة التدريس على قدر كبير من المال ، ولكنه مال مضمون •

فقلت أسألها : لماذا لم نتزوج قبل الآن يا نومى دين ؟ ليس السبب فى ذلك أننى لم أطلب منك الزواج ، ولا أننا لا نحب بعضنا • كم مضى من الزمن منذ عرف كل منا الآخر ؟

ولم تجب نومى دين ، ونظرت الى ، ولكنها لم تتكلم •

فقلت : منذ ست سنوات مضت ، طلبت منك أن تتزوجينى • كان ذلك حين كنت مديرا لمدارس مقاطعة جرينوود • وأنت تعرفين السبب فى أنك لم تتزوجينى • لقد لبثت أربع سنوات ناظرا لمدرسة ثانوية هى الثانية بين مدارس هذه المقاطعة من حيث كبرها • وقضيت عاما فى أوربا بمقتضى منحة جوجنهايم ، مع تكفلها بجميع نفقاتى • وفى هذا العام الحالى قمت بتدريس فصول اللغة الانجليزية العلاجية فى مدرسة من أحسن المدارس الثانوية بولاية أوهايو • بيد أننا لم نستطع أن نوفر شيئا يمكننا من الزواج • أفلم يأن الأوان لكى أجرب عملا آخر ؟

فقالت مفكرة : لعلك محق فى هذا • غير أنك تخاطر مخاطرة كبيرة ، حين تترك المهنة التى تجيدها •

فقلت أذكرها : لقد قلت مرة اننا أناس أذكياء ، وان علينا أن نواجه الحقائق • كان ذلك فى الليلة التى جئت فيها بالأشعار الى هنا لكى تقرئيها ، منذ ست سنوات خلت • ان لدى الآن بعض الحقائق التى علينا أن نواجهها •

وجلست نومى دين صامتة ترقبنى وأنا أخرج مظروفا من جيب معطفى الداخلى •

فقلت لقد كان مجموع ما حصلت عليه ، فى التسع السنوات التى

قضيتها فى مهنة التدريس هو عشر آلاف وثمانمائة واثنان وثلاثون دولارا على وجه التقريب ، ومعنى ذلك أننى كنت أتقاضى مرتبا سنويا قدره ألف ومائتان وثلاثة دولارات ، وخمسة وخمسون سنتاً • وعلى أساس العمل اثنى عشر شهرا فى السنة ، يكون متوسط ما كنت أحصل عليه هو مائة دولار وثلاثون سنتا فى الشهر •

ثم واصلت الحديث ، وقد حولت بصرى من الورقة الى نومى دين : ومع ذلك فاننى حاصل على درجة البكالوريوس ، وقضيت ما يقرب من عامين فى دراسات الماجستير • لقد قضيت ما يقرب من ست سنوات من عمرى أعد نفسى لمهنتى ، وكنت ناظرا لمدرستين ثانويتين كبيرتين ، ومديرا لنظام مدرسى كبير من نظم مدارس المقاطعات بكنتكى ، وقمت بالتدريس بمرتب كبير فى مدرسة من أعظم مدارس أوهايو وأحسنها سمعة • ومع ذلك لم يكن فى استطاعتنا الزواج لأننا لا نستطيع نحن الاثنان أن نعيش بمرتبى وحده • أليست هذه هى الحقيقة ؟

فقالت معترفة : انها الحقيقة •

فقلت أسألها اذن ، فما مدى ذكائنا ؟ ان التدريس ليس عملا يقوم على البر والاحسان ، وانما هو مهنة • ان التدريس أعظم مهنة تحت الشمس ، ولا أعرف مهنة أخرى ذات شأن وخطر بالنسبة للشعوب على ظهر هذه الأرض، مثل مهنة التدريس • لقد أحببتها ، ولا زلت أحبها ، بيد أننى سوف أتخلى عنها لأنها تخلت عنى • اننى سوف أقوم بتربية الأغنام والفلاحة ، وأكتب رواية طويلة •

ثم أضفت فى صوت أرق نبرة : اننى أريد أن أتزوجك • أنت فتاة من المدينة ، غير أننى أريد منك أن تجيئى فى أسرع وقت ممكن ، لكى ترى مزرعتى وغنمى •

(٩)

وجاءت نومى دين تقود سيارة أبيها ، واستطاعت بعد لأى أن تجد مكانا توقف فيه سيارتها فى هذا الوادى الضيق • ونزلت من السيارة ومعها سلة الرحلات •

وقالت تحيينى بابتسامة صباح الخير يا جيس • أى طريق نتخذ من هنا ؟

فقلت وأنا آخذ سلة الرحلات منها : هذا الطريق ٠

وسرنا جنبا الى جنب ، فى الممر الملتوى ، صاعدين فى الشعبة الشمالية من الوادى ٠

ذلك لأن الأراضى الوعرة التى اشتريتها كانت تمتــــد من منتصف و ٠ هوللو ، عبر خط تقسيم المياه ، حتى منابع مجارى الماء فى ذلك الوادى ٠

وأخــذنا نصعد فى الممر الواقع بين الجبــــال الشامخة ، حيث كانت الفراشات المتعددة الألوان التى أزعجناها من مكانها فوق الرمال المتشبعة بالمياه الدافئة ، تكون سحبا زاهية تهيم فى ريح الصباح ٠ وعند ذاك قالت نومى دين : ان هذه أراض بور موحشة ٠

وبعد عشر دقائق ، بلغنا سورا جديدا يحيط بحظيرة الأغنام ، وهو سور بنيته أنا وأبى وعمى فى عرض الوادى ، من الحافة الى الحافة ٠

وقلت : هناك تقع أرضى ٠

فقالت نومى دين تسألنى ، وهى تقف وراء السور ، تطل على الأرض : ولكن كيف لى أن أصل اليها لأراها ؟

فوضعت سلة الرحلات على الأرض ، ورفعت نومى دين برفق من فوق السور ، ثم أخذت السلة فناولتها اياها ، ثم تسلقت السور ٠

وهنا أخذت تتطلع الى جدول المياه الباردة الصافية ، التى كانت تتساقط قطرات فوق الوادى الصغير ، حيث كانت تنمو على جوانبه المنحدرة أشجار الحور الطويلة ذات اللحـــاء الرمادى اللون ، وأشجار الدردار ، والزان ، والبلوط ، والاسفندان ٠ وفى التربة الناعمة الطفلية ، من تحت هذه الأشجار ، كانت تنمو عدة أزهار برية ٠

وقالت متعجبة ، اذ رأت كتل الأزهار البرية النامية فى كل مكان : ما أبدع هذا يا جيس ٠

فقلت لها محذرا : غير أنه ليس لدينا وقت طويل نقضيه فى هذا الوادى، اذا كنا نريد أن نرى هـــذه المزرعة كلها ٠ ان أمامنا كثيرا من المشى عـــلى الأقدام ٠

وحين احتكت ريح يونية البطيئة بظلة أوراق الشجر من فوقنا ، تسربت من خلالها بقع من أشعة الشمس فى حجم أوراق الشجر والأقلام الرصاص ، لكى تعكس فضة متنقلة فوق المياه المتساقطة من الجبال • ووقفت نومى دين لحظة ، وهى تنظر الى هذا كله • ثم أخذنا نسير سيرا بطيئا ، صاعدين فى ممر الأغنام ، متجهين نحو منحدر التلال العالية ، الذى تكسوه المراعى • وكنت أمسك باحدى يدى سلة الرحلات ، وباليد الأخرى أمسك يدها • وحين خرجنا من الوادى الذى تكسوه الغابات ، الى حافة المرعى ، رأت نومى دين شيئا سوف يمر وقت طويل قبل أن تستطيع أن تنساه •

فقد رأت فوق منحدر المرعى المرتفع ، قطيع النعاج ، والحملان الصغيرة وسطها تغذ فى المسير • كانت الحملان تلعب كأنها أطفال صغار ، وتصيح منادية على أمهاتها • ومن فوق القطيع ، حيث كانت الربوة العالية ترتفع نحو السماء ، كانت هناك سحابة شاسعة من الضباب ، جميلة بيضاء ، كأنهاصوف الغنم الذى غسل فأحسن غسله ، وقد صعدت من الوادى العميق الذى كنا فيه منذ لحظات • وحجبت هذه السحابة من الضباب جزءا من القطيع • وأخذنا نرقب هذه السحابة وهى تتلألأ فى شمس الصباح ، اذ أخذت تهبط فى بطء ، ثم سبحت فى الفضاء •

وقالت نومى دين : آه لو استطعت أن تتحمل نفقات كل هذا • انه لبديع حقا •

فقلت : انك لم ترى كل شىء •

فقالت : كما أنك لست أيضا بحاجة هنا الى حمل مسدسات لتحمى نفسك ؟

فقلت : لأحمى غنمى فحسب ، اذا هاجمتها الكلاب المتوحشة ، أو اذا حاول أحد الثعالب أن يختطف حملا ويجرى به ، وهذا هو السبب الوحيد الذى من أجله أحمل مسدساتى هنا •

وأخذنا نرتقى ، فى بطء ، التل المنحدر العالى ، وكلما مرت بضع لحظات ، كنا نتوقف ، وننظر الى الخلف ، نحو الوادى ذى الشجر من تحتنا ، حيث جدول الماء البارد المنحدر من الجبل ، وحيث تذهب الأغنام لتشرب ، وقد اختفى تحت الأشجار الفارعة • وكانت هناك سحب صغيرة من الضباب ، لا تزال تصعد من الوادى من تحتنا ، متجهة نحو الشمس •

وقالت نومى دين ، وقد أخذتها الحيرة وهى ترقب الحملان التى تبحث عن أمهاتها : كيف تستطيع الحملان العثور على أمهاتها ؟

فقلت : لا تخشى شيئا فى هذا · لو أن فى هذا القطيع ألف نعجة ، وألف حمل ، لتعرف كل حمل على أمه ·

وبلغنا القطيع ، ووقفنا وسطه · ورفعت نومى دين حملا ضالا فاحتضنته بين ذراعيها ، بينما تجمع حولنا عدد كبير من النعاج ·

وحين بلغنا خط تقسيم المياه ، وقفنا لحظة نطل على الجزء من المزرعة الذى يقع فى منابع مجارى الماء ، وهناك كانت تنبسط المزرعة ، فيما وراءنا ، على طول الربوة التى ترتفع نحو السماء ، وتمتد الى أسفل ، فى الوادى العميق ، حيث كان الضباب لا يزال يتصاعد نحو الشمس ·

وقالت نومى دين تسألنى : هل يوجد فى هذا المكان أية بيوت قديمة ؟

فقلت : بيت واحد فقط ·

قالت أحب أن أراه ·

فقلت وأنا أرفعها من فوق سور آخر : اننا ذاهبون اليه الآن · اننا الآن فى منابع مجارى الماء فى و · هوللو ·

وأخذنا ننحدر فى الممر ، ونحن نسير سيرا بطيئا ، ويدى ممسكة بيدها ، فى حين كانت الطيور البرية تمرق من شجرة الى شجرة من فوقنا ، وهى تغنى أغاريد الربيع · وقد كانت أعشاشها مخبأة فى الأشجار المورقة ، وكانت تحمل الديدان والحشرات الى صغارها · وتسرب ضوء الشمس من بين ظلة الأوراق من فوقنا مرة أخرى ، وكانت المياه وكأنها شريط أبيض ، يلتف حول الأشجار الفارعة فى سكون وسلام · وما لبثنا أن بلغنا الوادى الأكثر اتساعا ، حيث كانت المروج وحقول القمح الأخضر ·

وقالت نومى دين متعجبة ، وقد وقفت تواجه ريح يونية ، التى كانت تهب على الوادى من حقول القمح والمراعى : ان هذا أجمل من كل واد رأيته · أين البيت من هنا ؟

فقلت موضحا وأنا أشير الى مكانه : وراء هذه النقطة الصغيرة هناك ·

وبعد أن سرنا مسافة قصيرة ، منحدرين فى الوادى ، وقفت نومى دين أمام البيت القديم ، حيث كنا قد وضعنا التبن والقمح والأبقار طوال الشتاء . كان بيتا قد استأجره أبى ، وعشنا فيه حين كنت طفلا صغيرا .

وقلت : ان عمر هذا البيت يزيد على مائة عام .

فردت نومى دين تقول : ولكنه جميل . أنظر الى كتل الخشب العريضة هذه . دعنا ندخل لنراه .

وحين دخلنا البيت ، حيث كان التبن لا يزال مكوما فى ركن من حجرة الجلوس ، توقفت نومى دين فجأة ، لتبدى اعجابها بالدعامات الضخمة التى تمتد فوق رؤوسنا مباشرة ، والمدفأة الحجرية ، والسلم الصغير .

وقالت : ان هذا البيت يمكن أن يعاد تنظيمه .

وقلت وأنا أشير الى الحظيرة التى قضت أربع بقرات فيها الشتاء : ولكن انظرى هذه الناحية .

فقالت يمكن ازالة كل هذا . انظر الى هذه البئر هناك ، وبها الشادوف . انظر الى هذه الممرات التى رصفت بالبلاط القديم ، والى نبات الخبيزى الذى لا يزال يحيط بالبيت . ماذا تنوى أن تفعل به ؟

فقلت : أنزعه جميعا .

فأجابت بسرعة : لا لا .

ثم قالت وهى تبسط طعام الغداء فوق منضدة قديمة ، فى فناء البيت الخلفى : هذا هو المكان الذى نعيش فيه فى المزرعة .

فقلت وأنا أقضم قطعة من فخذ اللحم المقدد الذى صنعته فى بيتها : لا توجد هنا أية وسائل حديثة ، وعلى الواحد منا أن يذهب على ظهر الجواد أو ماشيا الى مدينة لانزبيرج أربعة أشهر من كل عام .

فقالت ضاحكة ، وهى تصب القهوة من الترموس فى فنجانين أحمرين : هذا لا يهم . لقد عاش جيلان من أهلك قبلك فى هذا الوادى . لقد نشأت هنا يا جيس . ان هذا واديك .

فقلت : أتحبين أن تعيشى هنا ؟

فقالت فى ثبات : أجل •

(١٠)

وفى مساء اليوم الثانى عشر من أكتوبر ، ذهبت أنا ونومى دين الى أوكلند لكى نشهد أحد أفلام السينما • وكنت قد بعت وقتها قصيدة من الشعر بعنوان « القدر السرمدى »الى مجلة « أميريكان ميركورى » بمبلغ خمسة وثلاثين دولارا • وكان لدى شىء آخر أقوله لنومى دين •

وقلت قبل أن نصل الى أوكلند مباشرة : فلننس السينما الليلة •

فقالت : لماذا غيرت رأيك يا جيس ؟

فقلت : انظرى الى أوراق الخريف فوق الطريق • لقد مضى عام آخر • انك فى الواحدة والثلاثين ، وأنا فى الثانية والثلاثين • فلنتزوج الليلة •

فقالت تذكرنى : لقد قلنا اننا سنتزوج فى الربيع المقبل •

فقلت : اننا نتواعد ونلتقى منذ سبعة عشر عاما ، فدعينا لا ننتظر حتى الربيع • اننى لم أعد أقوم بالتدريس ، فأنا الآن تاجر أغنام ، وأوشك على الانتهاء من أول رواية طويلة أكتبها •

فقالت نومى دين ، لكننى أنا أقوم بالتدريس يا جيس ، وقد وقعت عقدا مع مجلس تعليم مدينة لانزبيرج لأقوم بالتدريس هذا العام • اننى لن أفسخ هذا العقد •

فقلت : لا تفسخيه • لكن دعينا نتزوج الليلة •

فقالت : اذا تزوجنا فلابد لنا أن نكتم الخبر •

فقلت : فليكن الأمر كذلك •

وبعد أن حصلنا على تصريح الزواج ، كانت الساعة تعدو الثانية عشرة بعد منتصف الليل ، وكان اليوم الجديد هـــو يوم الجمعة ، الثالث عشر من أكتوبر • ولما كنا قد انتظرنا كل هذه السنين لكى نتزوج ، فقد تشاءمنا من

هـذا التاريخ ، فعدنا بالسيارة الى لانزبيرج مرة أخرى ، ومعنـــا تصريح الزواج ٠

وفى مساء اليوم التالى ، كنت على موعد آخر مع نومى دين. وقبل منتصف الليل ، كنا قد أعددنا كل الترتيبات اللازمة لزواجنا ٠ وتم عقد زواجنا سرا بعد منتصف الليل ببضع دقائق ، فى صباح اليوم الرابع عشر من أكتوبر ، وكان الشهود أربعة من أقرب أصدقائنا ٠ ثم عدنا بالسيارة الى لانزبيرج مرة أخرى ، حيث ذهبت هى الى بيتها ، وذهبت أنا الى بيتى ٠ وعكفت على العمل لكى أفرغ من الرواية الطويلة التى كنت أكتبها ، فى حين واصلت هى التدريس عامها العاشر والأخير ، فى مدارس مدينة لانزبيرج ٠ وبعد ذلك ، أصبح حلمها باعادة تنظيم البيت المبنى بجذوع الشجر ، حقيقة واقعة ٠

مؤسسة طباعة الألوان المتحدة
٨ شارع المرحومى - مصر القديمة
القاهرة